تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

المجلد السابع

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م

دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

وَإِنْ تَجِدْ عَيْبَاً فَسُدَّ ٱلْخَلَلاَ   وَجَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيْهِ وَعَلاَ
وَلِبَنِيْ سَبْعٍ وَخَمْسِيْنَ سَنَهْ   مَعْذِرَةٌ مَقْبُوْلَةٌ مُسْتَحْسَنَهْ

آخرُ

جَزَىٰ ٱللَّهُ خَيْرَاً مَنْ تَأَمَّلَ صَنْعَتِيْ   وَقَابَلَ مَا فِيْهَا مِنَ ٱلسَّهْوِ بِٱلْعَفْوِ
وَأَصْلَحَ مَا أَخْطَأْتُ فِيْهِ بِفَضْلِهِ   وَفِطْنَتِهِ أَسْتَغْفِرُ ٱللَّهَ مِنْ سَهْوِيْ

آخرُ

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ مَا يُرْجَىٰ   وَكُلُّ خَيْرٍ بِهِ يَكُوْنُ
فَٱصْبِرْ وَإِنْ طَالَتِ ٱللَّيَالِيْ   فَرُبَّمَا أَمْكَنَ ٱلْحَزُوْنُ[1]
وَرُبَّمَا نِيْلَ بِٱصْطِبَارِ   مَا قِيْلَ هَيْهَاتَ لاَ تَكُوْنَ

---

(١) الحزون ـ بفتح الحاء المهملة وضم الزاي ـ: الشاة السيئة الخلق اهـ. قاموس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على إفضاله، والصلاة والسلام على نبيه وآله، سيدنا محمد من القرآنُ مِنْ خُلُقِهِ وحالِه.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُوا۟
خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ
وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا
مُّهِينًا (١٥١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ
فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا
(١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ
طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦)
وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ
إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة.. ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح إلا في حقِّ مَنْ زاد ضرره وعظم خطره، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر. ثم تحدث عن اليهود، وعدد بعض جرائمهم الشنيعة، كطلبهم رؤية الله جهرةً، وعبادتهم للعجل، وادعائهم صلب المسيح، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة، إلى غير ما هناك من قبائح وجرائم شنيعة.

وعبارة المراغي هنا قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين كثيراً من عيوب المنافقين ومفاسدهم لإقامة الحجة عليهم وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم - كما قال: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بين هنا حكم الجهر بالسوء من القول، وإبداء الخير وإخفائه؛ حتى لا يستدل المؤمنون بذكر عيوب المنافقين والكافرين في القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول أو مشروعيته إذا كان حقاً على الإطلاق، فيفشوا ذلك، وفي هذا من الضرر ما سنذكره. وفي «الجمل»: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن ما تقدم فيه ذكر قبائح المنافقين وإيذائهم للمؤمنين، فالمؤمنون مظلومون، فيجوز لهم ذكر سوئهم جهراً، وأيضاً تناسب قوله شاكراً، أي: سواء كان سراً أو جهراً، وهذا ضده. انتهى.

وقال أبو حيان(١): مناسبة هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالى لمَّا ذكر من أحوال المنافقين وذمهم وإظهار فضائحهم ما ذكر وبين ظلمهم واهتضامهم جانب المؤمنين.. سوغ هنا للمؤمنين أن يذكروهم بما فيهم من الأوصاف الذميمة، وقال عليه السلام: «اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره الناس» انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين ما عليه المنافقون من سوء الخليقة ومذموم الطريقة.. أخذ في الكلام على اليهود والنصارى وجعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفراً بالله.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] بين في سابق الآيات حال الذين يكفرون بالله ورسله ويفرقون بين الله ورسله فيقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض وهم أهل الكتاب.. بين في هذه الآيات بعض حوادث لليهود تدل على شديد تعنتهم وجهلهم بحقيقة الدين.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ...﴾ الآية، سبب نزولها: أن رجلاً استضاف قوماً فلم يحسنوا ضيافته، فلما خرج.. تكلم فيهم جهراً بسوء. وقيل: إن سبب نزولها أن رجلاً نال من أبي بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ حاضر، فسكت عنه مراراً، ثم رد عليه، فقام النبي ﷺ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، شتمني فلم تقل شيئاً، حتى إذا رددت عليه قمت؟! فقال له: «إن ملكاً كان يجيب عنك، فلما رددت عليه.. ذهب الملك وجاء الشيطان، فقمت» فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناسٌ من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عند الله، فأْتنا بالألواح حتى نصدقك، فأنزل اللّهُ عزَّ وجل: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ فجثا رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) اللباب النقول.

ولا على أحد شيئاً، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ. . .﴾ الآية.

ورُوي: أن كعباً وأصحابه وفنحاص قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنتَ رسولاً من عند الله. . فأْتنا بكتاب من السماء جملة، كما جاء موسى بالألواح.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، ولا يرضى من أحد ﴿ٱلْجَهْرَ﴾ والإظهار أو الإسرار ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ والقبيح حالة كونه كائناً ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أو الفعل، والجهر ليس بقيد، وكذا القول ليس بقيد. ومعنى حب الله لشيء: هو الرضا به والإثابة عليه، والجهر يقابل السر والإخفاء. والسوء من القول: هو ما يسوء من يقال فيه، كذكر عيوبه ومساويه التي تؤذي كرامته؛ أي: لا يحبُّ الله رفع الصوت بالسوء؛ أي: بأحوال الناس المكتومة؛ كغيبة ونميمة، فإن العاقل من اشتغل بعيوبه.

والمعنى: أنه تعالى لا يحبّ من عباده أن يجهروا فيما بينهم بذكر العيوب والسيئات؛ لما في ذلك من المفاسد الكثيرة التي من أهمها:

١ ـ أنه مجلبة للعداوة والبغضاء بين من يجهر بالسوء ومن ينسب إليه هذا السوء، وقد يصل الأمر إلى هضم الحقوق وسفك الدماء.

٢ ـ وأنه يؤثر في نفوس السَّامعين تأثيراً ضارّاً بهم، فقد جرت العادة بأن الناس يقتدي بعضهم ببعض، فمن رأى إنساناً يسب آخر لضغائن بينه وبينه أو لكراهته إياه. . قلده في ذلك ولا سيما إذا كان من الأحداث الذين يغلب عليهم التقليد، أو من طبقة دون طبقته؛ إذ عامة الناس يقلدون خواصهم، فإذا ظهرت المنكرات في الخاصّة لا تلبث أن تصل إلى العامّة وتفشو بينهم، ومن تميل نفسه إلى منكر أو فاحشة. . يجترىء على ارتكابهما إذا علم أن له سلفاً وقدوةً فيهما، فسماع السّوء كعمل السوء، فذاك يؤثر في نفس السامع، وهذا يؤثِّر في نفس الرائي والناظر، وأقل هذه الأضرار: أنه يضعف في النفس استقباحه واستبشاعه، خصوصاً إذا تكرر السماع أو النظر. وكثير من الناس يجهل مبلغ تأثير الكلام في القلوب، فلا ينزهون ألسنتهم عن السوء من القول ولا أسماعهم عن الإصغاء إليه.

والخلاصة: أن اللَّهَ لا يحبُّ الجهر بالسُّوء من القول، ولا الإسرار به؛ إذ هو قد نهى عن النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، لكنَّه خص الجهر هنا بالذكر؛ لمناسبة بيان مفاسد الكفار والمنافقين في هذا السياق، والجهر بالسوء أشد ضرراً من الإسرار به؛ لأن ضرره وفساده يفشو في جمهرة الناس ويعم سائر الطبقات.

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ قيل: الاستثناء فيه متصل، والمعنى عليه: لا يحبّ الله[1] تعالى أن يجهر أحد بالسّوء كائناً من القول إلا جهر من ظلم فهو غير مَسْخوطٍ عليه عنده تعالى، وذلك بأن يقول: سرق فلان مالي، أو غصبني، أو سبني، أو قذفني، ويدعو عليه دعاء جائزاً؛ بأن يكون بقدر ظلمه، فلا يدعو عليه بخراب دياره لأجل أخذ ماله منه، ولا يسب والده وإن كان هو فعل ذلك، ولا يدعو عليه لأجل ذلك بالهلاك، بل يقول: اللهمَّ خلص حقي منه، أو اللهمَّ جازه أو كافئه، ولا يجوز أن يدعو عليه بسوء الخاتمة أو الفتنة في الدين. وقيل:[2] الاستثناء فيه منقطع، والمعنى عليه: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾، أي: لكن من ظلمه ظالم فجهر بالشكوى من ظلمه شارحاً ظلامته لحاكم أو غيره ممن ترجى نجدته ومساعدته على إزالة هذا الظلم.. فلا حرج عليه في ذلك؛ فإن الله لا يحب لعباده أن يسكتوا على الظّلم، ولا أن يخضعوا للضيم، بل يحب لهم العزة والإباء، فها هنا تعارضت مفسدتان: مفسدة الجهر بالشكوى من الظلم بقول السوء، ومفسدة السكوت على الظلم وهو مدعاة فشوه والتمادي فيه، وذاك مما يؤدي إلى هلاك الأمم وخراب العمران، وكانت ثانيهما أخف الضررين فأجيزت للضرورة التي تقدر بقدرها. وإذاً: فلا يجوز للمظلوم أن يتمادى في الجهر في السوء بما لا دخل له في دفع الظلم، وفي الحديث: «إن لصاحب الحق مقالاً». رواه الإمام أحمد.

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ ابن عباس وابن عمر وابن جبير وعطاء بن السائب والضحاك وزيد بن أسلم وابن أبي إسحاق ومسلم بن يسار والحسن وابن المسيب وقتادة وأبو رجاء: ﴿إلا من ظَلَمَ﴾ مبنياً للفاعل، وعلى هذه[2] القراءة فالاستثناء منقطع؛ أي: إلا من ظَلَم في فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ له. وقال قوم: معنى الكلام: لا يحب اللَّهُ أن يَجهر أحد بالسوء من القول، لكن مَنْ ظَلَمَ.. فإنه يجهر بالسوء ظلماً وعدواناً وهو ظالم في ذلك، وهذا شأن كثير من الظلمة؛ فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه وينالون من عرضه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعًا﴾ لِمَا يجهر به من السّوء، فلا يفوته قولٌ من أقوال مَنْ يجهر بالسوء ﴿عَلِيمًا﴾ بما يسر به منه، فلا يعزب عن علمه البواعث التي أدت إليه؛ إذ لا يخفى عليه شيء من أقوال العباد ولا من أفعالهم ونياتهم، فمن جهر بالسوء الذي لا يحبه اللَّهُ لعباده لضرره ومفسدته لظلم وقع عليه.. فإنه لا يؤاخذه، بل ربما أثابه على ذلك؛ لإراحة الناس من شر فاعله، فإن الظالم إن لم يؤاخذ على ظلمه يزداد فيه ضراوة وإصراراً. وقيل: سميعاً لكلام المظلوم، عليماً بالظالم. وقيل: سميعاً بشكوى المظلوم، عليماً بعقبى الظالم، أو عليماً بما في قلب المظلوم، فليتقِ الله ولا يقل إلاّ الحق. وهذه الجملة خبر، ومعناه: التهديد والتحذير ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ وتظهروا ﴿خَيْرًا﴾؛ أي: عمل بر وخير؛ كالصلاة والصيام والصدقة مثلاً ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ أي: تخفوا الخير وتعملوه سراً ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ وتسامحوا ﴿عَن سُوٓءٍ﴾؛ أي: عن مظلمة لكم المؤاخذة عليها؛ أي: تسامحوا عن ظلم من ظلمكم وهذا هو المقصود من الكلام[3]. وذكر إبداء الخير وإخفائه توطئة له، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وهذا تعليل لجواب الشرط المحذوف، تقديره: فهو أولى لكم من تركه؛ أي: فالعفو عن السوء أولى وأصلح لكم من ترك العفو؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾؛ أي:

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) البيضاوي.

كثير[1] العفو عن ذنوب المذنبين مع قدرته على الانتقام منهم، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى يعف عنكم يوم القيامة، لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم، كما قاله الحسن: ﴿قَدِيرًا﴾؛ أي: أقدر على عفو ذنوبك منك على عفو ذنوب من ظلمك، كما قاله الكلبي. وقيل: المعنى: إن الله كان عفواً لمن عفا، وهو: المظلموم، قديراً على إيصال الثواب إليه وعقوبة الظالم، وقيل:[2] المراد بالخير: المال.

والمعنى: إن تبدوا الصدقة فتعطوها الفقراء جهراً أو تخفوها فتعطوها سراً، أو تعفوا عن مظلمة.. فإن الله كان عفواً لمن عفا، قديراً على إيصال الثواب إليه. وبالجملة فهو حث للمظلوم على عفو ما رُخص له في الانتصار منه، حثاً له على مكارم الأخلاق.

والخلاصة: أن فاعلي الخير سراً وجهراً والعافين عمن يسيء إليهم.. يجزيهم ربهم من جنس ما عملوا، فيعفو عن سيئاتهم ويجزل مثوبتهم، والله من شأنه العفو، وهو القدير الذي لا يعجزه الثواب الكثير على العمل القليل.

واعلم: أن جميع مواضع الخيرات على كثرتها محصورة في قسمين[3]:

أحدهما: صدق النية مع الحق.

والثاني: التخلق مع الخلق. فالذي يتعلق بالخلق ينحصر في قسمين أيضاً، وهما:

إيصال نفعٍ إليهم في السّر والعلانية، وهو المشار إليه بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾.

ودفع ضرر عنهم، وهو المشار إليه بقوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ فدخل في هذين القسمين جميعُ أنواع الخير وأعمالِ البر.

ولما فرغ من ذكر المشركين والمنافقين.. ذكر الكفار من أهل الكتاب،

---

(١) المراح.

(٢) الخازن.

(٣) الخازن والمراح.

وهم اليهود والنصارى؛ لأنهم كفروا بمحمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزلة، والكفر بذلك كفر بالله تعالى، وينبغي حمل معنى الآية على هذا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ بمحمد ﷺ صراحة المستلزم كفرهم به كفرهم ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَ﴾ بجميع ﴿رسله﴾ تعالى[1]، لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً؛ فإن أهلَ الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا بالبعض.. كان ذلك كفراً بالله وبجميع الرسل، ومعنى قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ﴾ الإيمان بـ ﴿الله وَ﴾ بين الإيمان بـ ﴿رسله﴾؛ لأنهم كفروا بالرسل، بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله، فكان ذلك تفريقاً بين الله وبين رسله ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ﴾ الرسل ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ الرسل وهم اليهود، آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد ﷺ، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى، وكفروا بمحمد ﴿وَيُرِيدُونَ﴾؛ أي: يقصدون بقولهم ذلك ﴿أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: أن يجعلوا بين الإيمان بالكل وبين الكفر بالكل ﴿سَبِيلًا﴾؛ أي: ديناً متوسطاً بينهما، وهو الإيمان بالبعض والكفر بالبعض، والحال أنه لا واسطة بين الإيمان والكفر؛ إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله، وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ فالإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله نؤمن ونكفر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفرقون بين الله وبين رسله ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: هم الذين كفروا كفراً ﴿حَقّٗاۚ﴾؛ أي: ثابتاً يقيناً لا شك فيه؛ لأن الله تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا محمد ﷺ، فمن كفر بواحد منهم.. فقد كفر بالكل وبالله تعالى، وإنّما قال:[2] حقاً، توكيداً لكفرهم؛ لئلا يتوهم متوهم أن الإيمان ببعض الرسل يزيل اسم الكفر عنهم، وليعلم أن الكفر ببعض الأنبياء كالكفر بكلهم.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾؛ أي: هيأنا ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ اليهود والنصارى وغيرهم ﴿عَذَابٗا

---

(١) الشوكاني. (٢) الخازن.

﴿مُّهِينًا﴾؛ أي: ذا إهانة وإذلال لهم يهانون به في الآخرة جزاءً على كفرهم.

والخلاصة[1]: أن الكافرين بالرسل فريقان:

فريق: لا يؤمن بأحد منهم؛ لإنكارهم النبوة وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله تعالى، وأكثر الملحدين والشوعيين في هذا العصر من ذلك الفريق.

وفريق آخر: يؤمن ببعض الرسل دون بعض، كقول اليهود: نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد فهما ليسا برسولين؛ لأن النسخ عندهم من المستحيل، وكقول النصارى: نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد، وكل من الفريقين مستحقون للعذاب، ولا عبرة بما يدعونه إيماناً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، أي: وأعددنا لكل كافرٍ، سواء أكان منهم أم من غيرهم عذاباً فيه ذل وإهانة لهم؛ جزاءَ كفرِهِم الذي ظنوا فيه العزة والكرامة، ذاك أن من آمن بالله ولم يؤمن بوحيه إلى رسله.. لا يكون إيمانه صحيحاً، ولا يهتدي إلى ما يجب عليه من الشكر، ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذي يرضيه، ومن ثم ترى أمثال هؤلاء ماديين، لا تهمهم إلا شهواتهم، كما أن من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض، كأهل الكتاب.. لا يعتد بإيمانه؛ لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم، ومن فهم هذا حق الفهم.. علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها في محمد ﷺ، فهو قد جاء بكتاب حوى ما لم يحوه كتاب آخر، مع أنه نشأ بين قوم أميين، ونقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعي والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب.

وبعد أن ذكر حال الفريقين السابق ذكرهما ذكر حال فريق ثالث فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾؛ أي: والذين صدقوا بوحدانية الله تعالى ونبوة جميع أنبيائه، وأن جميع ما جاؤوا به من عند الله حق وصدق ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من الرسل بالإيمان به، بل آمنوا بجميعهم، وهم المؤمنون، وإنما

---

(١) المراغي.

﴿بِظُلْمِهِمْۚ﴾، أي: تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل وقوعه شرعاً في ذلك الوقت، وهو رؤية الله جهرة، وذلك لا يستلزم امتناعها يوم القيامة؛ فقد جاءت بذلك الأحاديث المتواترة، ومن استدل بهذه الآية على امتناع الرؤية يوم القيامة فقد غلط غلطاً بيناً، ولو طلبوا أمراً جائزاً.. لما سموا ظالمين، ولما أخذتهم الصاعقة، كما سأل إبراهيم عليه السلام أن يريه إحياء الموتى، فلم يسمه ظالماً ولا رماه بالصاعقة ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فأحييناهم بعد موتهم بالصاعقة، ثم بعد إحيائهم اتخذوا العجل الذي صاغه موسى السامري إلٰهاً، وعبدوه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ والمعجزات على يد موسى عليه السلام من اليد والعصا وفلق البحر وغيرها ﴿فَعَفَوْنَا﴾ وسامحنا لهم ﴿عَن ذَٰلِكَۚ﴾ الذنب العظيم حين تابوا، وتركنا عبدة العجل فلم نستأصلهم.

والمقصود من هذا[1]: تسلية النبي ﷺ، والمعنى: أنَّ هؤلاء الذين يطلبون منك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء إنما يطلبونه عناداً ولجاجاً، فإني قد أنزلت التوراة جملة واحدة على موسى، وآتيته من المعجزات الباهرات والآيات البينات ما فيه كفاية، ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد، وعبدوا العجل، وكل ذلك يدل على جهلهم وأنهم مجبولون على اللجاج والعناد. وفي قوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾ استدعاء إلى التوبة.

والمعنى: أنَّ أولئك الذين أجرموا لما تابوا.. عفونا عنهم، فتوبوا أنتم نعف عنكم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ أي: وأعطينا موسى قهراً ظاهراً وتسلطاً بيِّناً عليهم، فإنه أمرهم بقتل أنفسهم توبةً من عبادة العجل، فبادروا إلى الامتثال، فقتل منهم سبعون ألفاً في يوم واحد، وفي هذا بشارة للنبي ﷺ بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندون فإنك ستغلب عليهم آخراً وتقهرهم.

ثم حكى الله تعالى عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم، وقد تقدم بعضها في سورة البقرة، فقال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ﴾؛ أي: قلعنا ورفعنا وحبسنا

---

(١) الخازن.

فوق رؤوسهم ﴿ٱلطُّورَ﴾؛ أي: الجبل المسمى بالطور، وهو جبل معروف هناك، وفي[1] الشام جبل عرف بالطور ولزمه هذا الاسم، وهو طور سيناء، وليس هو المرفوع على بني إسرائيل؛ لأن رفع الجبل كان فيما يلي التيه من جهة ديار مصر، وهم ناهضون مع موسى عليه السلام، وتقدمت قصة رفع الطور في البقرة. ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾، أي: بسبب أخذ الميثاق وجعل العهد عليهم على أن يأخذوا جميع ما أنزل عليهم بقوة ويعملوا به مخلصين حين امتنعوا من قبول شريعة التوراة، فرفع الله عليهم الطور ليخافوا فقبلوها، وأعطوا العهد والميثاق على أَنْ لا يرجعوا عنها.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ على لسان موسى أو على لسان يوشع عليهما السلام: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾؛ أي: باب هذه القرية، وهي قرية بيت المقدس، أو أريحا حالة كونكم ﴿سُجَّدًا﴾ أي: ركعاً خاضعين مطأطئين الرؤوس مائلي الأعناق ذلة وانكساراً لعظمته؛ أي: وقلنا لهم على لسان يوشع: ادخلوا باب هذه القرية بذلة وانكسار، فخالفوا ودخلوا وهم يزحفون على أستاههم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ قيل: على لسان داود عليه السلام: ﴿لَا تَعْدُوا۟﴾؛ أي: لا تجاوزوا حدود الله ﴿فِى﴾ يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾ إلى ما لا يحل لكم فيه؛ أي: لا تظلموا باصطياد الحيتان فيه، وذلك أنهم نهوا عن أن يصطادوا السمك في يوم السبت، فاعتدوا واصطادوا فيه، فمسخوا قردة وخنازير، وقيل: المراد به: النهي عن العمل والكسب في يوم السبت.

وقرأ ورش[2]: ﴿لا تعدوا﴾ بفتح العين وتشديد الدال، على أن الأصل: لا تعتدوا، فألقيت حركة التاء على العين وأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال، والنص بالإسكان، وأصله أيضاً: لا تعتدوا وقرأ الباقون من العشرة ﴿لا تعْدوا﴾ بإسكان العين وتخفيف الدال من عدى يعد، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ وقرأ الأعمش والأخفش ﴿لا تعتدوا﴾ من اعتدى الخماسي. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ الميثاق الغليظ: العهد المؤكَّد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.

باليمين؛ أي: وأخذنا منهم عهداً مؤكَّداً شديداً بأن يعملوا بما أمرهم الله به، وأن ينتهوا عما نهاهم الله عنه. ثم إنهم نقضوا ذلك الميثاق، وهو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ ما[1]: مزيدة للتأكيد، والباء: سببية متعلقة بلعنَّا المحذوف، ويجوز أن تتعلق بـ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾ فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطف عليه إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾؛ أي: لعنَّا أهلَ الكتاب وفعلنا بهم ما فعلنا من لَعْن إلى غضب إلى ضرب الذلة والمسكنة وإزالة الملك والاستقلال بسبب نقضهم للميثاق الذي واثقهم الله به، فأحلوا ما حرمه الله، وحرموا ما أحله الله ﴿و﴾ لعناهم بـ﴿كفرهم﴾ وجحودهم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وحججه الدالة على صدق أنبيائه ﴿و﴾ لعناهم بـ﴿قتلهم الأنبياء﴾ الذين أرسلوا لهدايتهم بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم؛ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، أي: بغير استحقاق لذلك القتل، حتى في زعمهم ﴿و﴾ لعنَّاهم بـ ﴿قولهم﴾ للنبي ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: جمع أغلف، كحمر وأحمر، أي: مغطاة مغشاة، أي: عليها أغطية، وغشاوة، فهي لا تفقه ما تقول، ومحجوبة عليها حجاب لا يصل إليها شيء من الذكر والوعظ ولا يؤثر فيها، وقيل: جمع غلاف، أي: قلوبنا أوعية للعلم، فلا حاجة بنا إلى ما تدعونا إليه، فرد اللَّهُ عليهم بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أظهر القراء لام بل في ﴿بَلْ طَبَعَ﴾؛ إلا الكسائي، فأدغم من غير خلاف، وعن حمزة خلاف؛ أي: ليس الأمر كما قالوا: بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم، فغشيت وغطيت بغطاء معنوي، فلا تعي وعظاً؛ مجازاة على كفرهم، أو جعلها الله كالسكة المطبوعة ـ الدراهم مثلاً ـ في قساوتها، وجعلها بوضع خاص لا تقْبل غيرَه؛ أي: ليس ما وصفوا به قلوبهم هو الحق الواقع، بل لأن الله تعالى ختم عليها بسبب كفرهم الكسبي، وما لَه من الأثر القبيح في أعمالهم وأخلاقهم، فهم باستمرارهم على ذلك الكفر لا ينظرون في شيء آخر نظر استدلال واعتبار، مع أنه من الأمور التي يصل إليها اختيارهم، ولكنّهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أهل الكتاب ﴿إِلَّا﴾ إيماناً ﴿قَلِيلًا﴾ لا يعتد به، وهو

---

(١) البيضاوي.

إيمانهم بنبيهم وكتابهم فقط؛ لأنه تفريق بين الله ورسله، فالكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم، وهم قد كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام، أو لا يؤمنون إلا فريقاً قليلاً منهم؛ كعبد الله بن سلام وأضرابه، وقيل: لا يؤمنون قليلاً ولا كثيراً. ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: وطبع اللَّهُ على قلوبهم بكفرهم بعيسى عليه السلام؛ لإنكارهم قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب، وهو[1] معطوف على ﴿بكفرهم﴾؛ لأنه من أسباب الطبع، أو معطوف على قوله: ﴿فَبِمَا﴾ نقضهم ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله، ويكون تكرير ذلك الكفر إيذاناً بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى، ثم بعيسى، ثم بمحمد ﷺ ﴿و﴾ طبع الله على قلوبهم بـ ﴿قولهم﴾ وافترائهم ﴿عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ بنت عمران أمّ عيسى عليهما السلام ﴿بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾؛ أي: كذباً شنيعاً يبهت من يقال فيه، أي: يدهشه ويحيره، لبعده وغرابته. والمراد به هنا: رميها بالفاحشة، حيث رموها بيوسف النجار، وكان من الصالحين بعدما ظهر منها من الكرامات الدَّالة على براءتها من كل عيب؛ فإنها ملازمة للعبادة بأنواع الطاعات، وعيسى تكلَّم حال كونه طفلاً منفصلاً عن أمِّه، والمعنى: إن الله تعالى طبع على قلوبهم بكفرهم بعيسى وأمه ورميهم إيّاها بالكذب العظيم، وأي بهتان أعظم من البهتان الذي تُبهتُ به العذراء التقية.

والخلاصة: أن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حلَّ بهم من غضب الله ﴿و﴾ طبع عليها بـ﴿قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وصلبناه. ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في زعم عيسى نفسه، فإن وصفهم له بوصف الرسالة استهزاء به، أو أن الله وضع الذكرَ الحسن بقوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم، فإنهم قالوا: هو ساحر ابن ساحرة، أو إنَّ ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وصفٌ له من عند الله تعالى مدحاً له، وتنزيهاً له عن مقالتهم التي لا تليق بها. أي: وطبع على قلوبهم بسبب قولهم هذا القول المؤذِن بالجرأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله، وذكروه بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته بناء على أنه إنما ادعى النبوة

---

(١) البيضاوي.

والرسالة فيهم لا ألوهية كما ادعت النصارى، ثم قال تعالى إبطالاً ورداً لدعواهم قتله وصلبه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾؛ أي: ادعوا قتله وصلبه، والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا، وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ أي: ألقي شبه عيسى على غيره حتى قتِل وصلب، فظنّوا أنّهم قتلوا عيسى وصلبوه، وهم إنما قتلوا غيره وصلبوه، قيل: ألقي شبه عيسى على ططيانوس، فقتلوه بدل عيسى. قال أبو حيان: لم نعلم كيفية القتل، ولا من ألقي عليه الشبه، ولم يصح بذلك حديث.

روى[١] النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رهطاً من اليهود سبوه وأمه، فدعا عليهم، فمسخهم اللَّهُ قردةً وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء. ا هـ خطيب. وفي القرطبي في آل عمران قال الضحاك: لمَّا أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون في غرفة، وهم: اثنا عشر رجلاً، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة، فأخبر إبليس جميع اليهود، فركب أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة، فقال المسيح للحواريين: أيكم يخرج ويُقْتَل ويكون معي في الجنة؟ فقال رجل: أنا يا نبي الله، فألقى إليه مدرعته من صوف وعمامته من صوف وناوله عكازه، وألقى اللَّهُ عليه شبه عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه، وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة الطعام والمشرب، فصار مع الملائكة ا هـ.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في شأن عيسى ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: لفي تردد من قتله، وذلك أنهم لما قتلوا الشخص المشبه به.. كان الشبه ألقي على وجهه فقط، ولم يلق على سائر جسده شبه جسد عيسى فلما قتلوه.. نظروا إليه فقالوا: الوجه وجه عيسى، والجسد جسد غيره؛ فاختلفوا، فقال بعضهم: هذا عيسى، وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، فليس هذا المقتول بعيسى. وقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ ﴿مَا لَهُم﴾؛ أي: ما لليهود ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بقتله ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: من يقين، أقتل أم لم يقتل؟ ﴿إلا اتباع الظن﴾ استثناء منقطع؛ أي: ما لهم

---

(١) الفتوحات.

في قتله علمٌ حقيقي، ولكنهم يتبعون فيه الظن الذي تخيلوه بسبب إلقاء الشبه عليه. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾؛ أي: وما قتلوا عيسى بن مريم، وهم متيقنون أنه هو بعينه، إذ لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة؛ إذ الجند الذي أخذوه للقتل ما كانوا يعرفون شخص عيسى معرفة يقينية، بل أخذوا الذي ألقي عليه شبهه ظناً منهم أنه هو المسيح.

والخلاصة: أن روايات المسلمين جميعاً متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدي قتله، فقتلوا آخر ظنًّا منهم أنَّه هو.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: بل رفع الله سبحانه وتعالى عيسى بن مريم بروحه وجسده إلى موضع لا يجري فيه حكمُ غيرِ الله تعالى ولا يصل إليه حكم آدمي، وذلك الموضع هو السماء الثالثة كما في حديث «الجامع الصغير»: «آدم في السماء الدنيا تعرض عليه أعمال ذريته، ويوسف في السماء الثانية، وابنا الخالة يحيى وعيسى في السماء الثالثة.. إلخ» وفي بعض كتب المعاريج أنه في السماء الثانية.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾ في ملكه ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه، فرَفْعُ عيسى بروحه وجسده من الأرض إلى السماء لا صعوبة فيه بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وحكمته؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى عزيزٌ يغلب ولا يغلب، وبهذه العزة أنقذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين، وبحكمته جازى كل عامل بعمله، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد في الأرض ويوفيهم جزاءهم يوم القيامة - ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: وما أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿إِلَّا﴾ والله ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾ ذلك الكتابي ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾؛ أي: قبل موت ذلك الكتابي، قبل أن تزهق روحه، حين عاين ملائكة الموت، فلا ينفعه إيمانهُ وقتئذ؛ لانقطاع التكليف. والمعنى: وإن كان أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من أمور الدين، فيؤمن بعيسى إيماناً حقاً لا زيغ فيه ولا ضلال، فاليهودي يعلم أنه رسولٌ صادقٌ في رسالته

ليس بالكذّاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسولُه وليس بإله، وليس هو بابن الله.

وفائدة إخبارهم بذلك: بيان أنه لا ينفعهم حينئذ إيمانهم، فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ﴾ عيسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود: أنهم كذبوه وطعنوا فيه، وعلى النصارى: أنهم أشركوا به، وكل نبي شاهد على أمته، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم في الآخرة، فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته. روى البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حضر ـ حضره الموت ـ بشر بعذاب الله وعقوبته». وروى ابن مردويه عن ابن عباس: «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار» وهذا يؤيد ما روي عن ابن عباس في تفسير الآية: من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقبيح.

فصل في بيان الخلاف الجاري في مرجع الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾

واعلم: أنه اختلف المفسرون في هذا الضمير إلى من يرجع[١]:

فقال ابن عباس وأكثر المفسرين: إن الضمير يرجع إلى الكتابي، والمعنى على هذا القول: وما من أحد من أهل الكتاب إلا آمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابي، ولكن يكون ذلك الإيمان عند الحشرجة حين لا ينفعه إيمانه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانه، سواء احترق أو تردى من شاهق أو سقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة، فقيل

(١) الخازن.

له: أرأيت إن ضربت عنقه؟ قال: يتلجلج به لسانه. وقال شهر بن حوشب: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة بأجنحتها وجهه ودبره، وقالوا: يا عدو الله، أتاك عيسى نبياً فكذَّبت به! فيقول: آمنت أنه عبد الله ورسولُه، وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله وابن الله! فيقول: آمنت أنه عبدُ الله، فأهل الكتابين يؤمنون به، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان.

وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، والمعنى على هذا: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلا آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدةً وهي ملة الإسلام.

قال عطاء: إذا نزل عيسى إلى الأرض لا يبقى يهوديٌ ولا نصراني ولا أحدٌ يعبد غير الله إلا آمن بعيسى وأنه عبد الله وكلمته، ويدل على صحة هذا القول: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد». متفق عليه. زاد في رواية «حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الآية. وفي رواية قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلنَّ فيكم ابن مريم حَكَماً عادِلاً، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد». أخرجاه في «الصحيحين».

ففي هذا الحديث دليل على: أن عيسى ينزل في آخر الزمان في هذه الأمة، ويحكم بشريعة محمد ﷺ، وأنه لا ينزل نبياً برسالة مستقلةٍ وشريعة ناسخة، بل يكونُ حاكماً من حكام هذه الأمة وإماماً من أئمتهم؛ لقوله ﷺ: «فيكسر الصليب» يعني: يكسره حقيقة ويبطل ما تزعمه النصارى، وكذلك قتله الخنزير، وقوله:

«ويضع الجزية» يعني: لا يقبلها ممن بذلها من اليهود والنصارى، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام أو القتل وعلى هذا قد يقال: هذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم، فإن الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها منه، ولم يجز قتله ولا إجباره على الإسلام؟

والجواب: إنَّ هذا الحكم ليس مستمراً إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام، وقد أخبر النبي ﷺ بنسخه، وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام، بل الناسخ لهذا الحكم هو نبينا محمد ﷺ؛ لأنه هو المبين للنسخ، أو أنّ عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد ﷺ، فدل على أن الامتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد ﷺ، والله أعلم. قال الزجاج: هذا القول بعيد ـ يعني قول من قال: إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان ـ قال: لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ قال: والذين يبقون يومئذ، يعني: عند نزوله شرذمة قليلة منهم. وأجاب أصحاب هذا القول ـ يعني الذين يقولون: إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله في آخر الزمان ـ بأن هذا على العموم، ولكنَّ المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به.

ويكون معنى الآية: وما من أحد من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلا آمن بعيسى عند نزوله من السماء، وصحَّح الطبري هذا القول.

وقال عكرمة في معنى الآية: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، فلا يموت يهودي ولا نصراني حتى يؤمن بمحمد ﷺ، وذلك عند الحشرجة، حتى لا ينفعه إيمانه، والله أعلم.

الإعراب

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ﴾ نافٍ وفعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: جار ومجرور متعلق بالجهر. ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: جار ومجرور حال من السوء. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء، والاستثناء منقطع؛ أي: لا يحبّ الله الجهر بالسوء من أحد، لكن من ظُلم فله الجهر، وقيل: متصل، ولكنّه على حذف مضاف؛ أي: لا يحبّ الله الجهر بالسوء إلا جهر من ظلم. ﴿ظُلِمَ﴾: فعل ماضٍ مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على من، والجملة صلة الموصول. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿سَمِيعًا﴾: خبر أول له. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة للوعد والوعيد.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول مجزوم معطوف على تبدوا. ﴿أَوْ تَعْفُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم معطوف على تبدوا أيضاً. ﴿عَن سُوٓءٍ﴾: جار ومجرور متعلق بتعفوا، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾: تعليل لجواب الشرط المحذوف، وتقديره فهو أي العفو أولى لكم من تركه، فإن الله كان عفوّاً قديراً. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ (الفاء): تعليلية، (إن): حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها، ضمير يعود على الله. ﴿عَفُوًّا﴾: خبر أول لها. ﴿قَدِيرًا﴾: خبر ثان لها، وجملة كان: في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل النصب اسمها، ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بيكفرون، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ معطوف على لفظ الجلالة ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على يكفرون ﴿أَن يُفَرِّقُوا۟﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية، تقديره: ويريدون تفريقهم ﴿بَيْنَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يُفَرِّقُوا۟﴾. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على صلة الموصول ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾: مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿نُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير يعود على الذين كفروا. ﴿بِبَعْضٍ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول، ﴿وَنَكْفُرُ﴾: (الواو) عاطفة، (نكفر): فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الكافرين، ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة نؤمن. ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة معطوفة على جملة الصلة. ﴿أَن يَتَّخِذُوا﴾: ناصب وفعل وفاعل ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بيتخذوا على كونه مفعولاً أول له. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية ليريدون، والتقدير: ويريدون اتخاذهم سبيلاً بين ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
(١٥٢)﴾.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الْكَافِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها مستأنفة. ﴿حَقًّا﴾: نعت لمصدر محذوف تقديره: هم الكافرون كفراً حقاً، والعامل فيه: اسم الفاعل، أعني: لفظ الكافرون. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: متعلق به ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَالَّذِينَ﴾: مبتدأ أول. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلق بآمنوا. ﴿وَرُسُلِهِ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا﴾: جازم وفعل وفاعل، معطوف على آمنوا. ﴿بَيْنَ أَحَدٍ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بيفرقوا. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لأحد ﴿أُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿سَوْفَ﴾: حرف تنفيس. ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾: فعل ومفعول أول ﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول،

والجملة من المبتدأ الأول وخبره معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أو مستأنفة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لكان. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة كان مستأنفة.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل ومضاف إليه. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿تُنَزِّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بأن، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به. ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً لسأل، تقديره: يسألك أهل الكتاب تنزيلك عليهم كتاباً من السماء، وجملة سأل مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور صفة لكتاباً، أو متعلق بتنزل. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾ حرف تعليل وعطف على محذوف، تقديره: ولا تستغرب يا محمد سؤالهم لك ولا تستعظمه؛ لأنهم قد سألوا موسى أعجب وأغرب من ذلك، قد: حرف تحقيق، ﴿سَأَلُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿مُوسَىٰٓ﴾: مفعول أول، ﴿أَكْبَرَ﴾: مفعول ثانٍ، ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق بأكبر، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة المحذوفة والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾: الفاء حرف عطف وتفسير ﴿قالوا﴾ فعل وفاعل والجملة جملة مفسرة معطوفة على جملة سألوا. ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: مقول محكي لقالوا، وإن شئت قلت: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعولان، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿جَهْرَةً﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لأنها نوع من مطلق الرؤية فيلاقي عامله في الفعل كما في «الفتوحات». والجملة الفعلية في محل النصب مقول قالوا. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الفاء: حرف عطف وتفريع، أخذتهم الصاعقة: فعل ومفعول وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قالوا. ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ الباء: حرف جر وسبب، ظلم: مجرور بها، والهاء: مضاف إليه الجار والمجرور متعلق بأخذتهم ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الذكرى، أي: الأخباري،

﴿اتَّخَذُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿الْعِجْلَ﴾: مفعول أول له، والمفعول الثاني محذوف تقديره: إلهاً، كما أشرنا إليه في بحث التفسير، والجملة معطوفة على جملة قالوا، ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: جار ومجرور متعلق باتخذوا، ﴿مَا﴾: مصدرية، ﴿جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة ففي تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، والتقدير: من بعد مجيء البينات إياهم. ﴿فَعَفَوْنَا﴾: فعل وفاعل ﴿عَنْ ذَلِكَ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة اتخذوا. ﴿وَآتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مُوسَى﴾: مفعول أول. ﴿سُلْطَانًا﴾: مفعول ثان. ﴿مُبِينًا﴾: صفة له، والجملة معطوفة على جملة عفونا.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَرَفَعْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو معطوفة على آتينا. ﴿فَوْقَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف متعلق برفعنا، ويجوز أن يكون حالاً من الطّور. ﴿الطُّورَ﴾: مفعول به. ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق برفعنا. ﴿وَقُلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة رفعنا. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق برفعنا. ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾: مقول محكي لقلنا، وإن شئت قلت: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿سُجَّدًا﴾: حال من فاعل ادخلوا، والجملة في محل النصب مقول لقلنا. ﴿وَقُلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على رفعنا أيضاً. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بقلنا. ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾: مقول محكي لقلنا، وإن شئت قلت: ﴿لَا تَعْدُوا﴾ جازم وفعل وفاعل، ﴿فِي السَّبْتِ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿وَأَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على رفعنا. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق به. ﴿مِيثَاقًا﴾: مفعول به، ﴿غَلِيظًا﴾: صفة له.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿فَبِمَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية بمعنى الواو، الباء: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: زائدة، ﴿نَقْضِهِمْ﴾: مجرور بالباء ومضاف إليه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف،

تقديره: ولعناهم بسبب نقضهم. ﴿مِّيثَٰقَهُمۡ﴾: ميثاق مفعول النقض ومضاف إليه. ﴿وَكُفۡرِهِم﴾: معطوف على نقضهم. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بكفرهم. ﴿وَقَتۡلِهِمُ﴾: معطوف أيضاً على نقضهم. ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾: مفعول القتل. ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف، تقديره: قتلاً كائناً بغير حق. ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾: معطوف على نقضهم. ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾: مقول محكي لقولهم، وإن شئت قلت: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول القول. ﴿بَلۡ﴾: حرف عطف وإضراب إبطالي، ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بطبع، والجملة معطوفة على محذوف تقديره: ليس الأمر كما قالوا من قولهم: قلوبنا غلف بل طبع الله عليها. ﴿فَلَا﴾: الفاء: عاطفة تفريعية، لا: نافية. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة طبع. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلٗا﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً.

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾.

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ﴾: معطوف على قوله: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ وكرَّر الباء للفصل بينه وبين المعطوف عليه بأجنبي وهو قوله: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ...﴾ إلخ. ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾: معطوف على كفرهم. ﴿عَلَىٰ مَرۡيَمَ﴾: متعلق بقولهم، أو حال من بهتاناً. ﴿بُهۡتَٰنًا﴾: مفعول مطلق لقولهم، لأنه ضرب منه فهو كقولهم: قعد القرفصاء. ﴿عَظِيمٗا﴾: صفة بهتاناً. ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾: معطوف على كفرهم. ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: مقول محكي لقولهم، وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ونا: ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها، ﴿قَتَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة إنَّ في محل النصب مقول القول، ﴿عِيسَى﴾: بدل من المسيح، أو عطف بيان منه، ﴿ٱبۡنَ﴾: صفة لعيسى وهو مضاف، ﴿مَرۡيَمَ﴾: مضاف إليه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: بدل ثان من المسيح، أو عطف بيان منه، وهو مضاف، ولفظ الجلالة: مضاف إليه. ﴿وَمَا﴾: الواو: حالية،

﴿ما﴾: نافية، ﴿قَتَلُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من ضمير قولهم، ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: ناف وفعل وفاعل ومفعول معطوف على ما قتلوه. ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿شُبِّهَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب الفاعل، أو متعلق بشبه، ونائب الفاعل ضمير يعود على المقتول والمصلوب، والجملة استدراكية لا محل لها من الإعراب.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّ﴾ الواو: استئنافية، ﴿إنَّ﴾: حرف نصب، ﴿الَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿اخْتَلَفُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ ﴿اللام﴾: لام الابتداء، ﴿في شك﴾: جار ومجرور خبر إن، ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور صفة لشك، وجملة إنَّ: مستأنفة. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر، والعامل فيه الاستقرارُ المقدر، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ﴿من﴾: زائدة، ﴿علم﴾: مبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجر صفة ثانية لشك، أي غير معلوم.

وفي «الفتوحات»(١) قولُه: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ يجوز في ﴿علم﴾ وجهان:

أحدهما: أنه مرفوع بالفاعلية، والعامل أحد الجارين إما لهم، وإما به، وإذا جُعل أحدهما رافعاً له تعلق الآخر بما تعلق به الرافع من الاستقرار المقدر، ومِنْ: زائدة لوجود شرطي الزيادة.

والوجه الثاني: أن يكون مبتدأً زِيدت فيه ﴿مِنْ﴾ أيضاً، وفي الخبر احتمالان أحدهما: أن يكون ﴿لَهُم﴾ فيكون به إما حالاً من الضمير المستكن في الخبر والعامل فيها الاستقرار المقدر، وإما حالاً من علم، وإن كان نكرة؛

---

(١) الجمل.

لتقدمها ولاعتماده على نفي. والاحتمال الثاني: أن يكون ﴿به﴾ هو الخبر. ﴿ولهم﴾ متعلق بالاستقرار كما تقدم، وهذه الجملة المنفية تحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: الجر على أنها صفة ثانية لشك؛ أي: غير معلوم.

الثاني: النصب على الحال من شك، وجاز ذلك وإن كان نكرة؛ لتخصيصه بالوصف بقوله منه.

الثالث: الاستئناف، ذكره أبو البقاء، وهو بعيد ا هـ «سمين».

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، ﴿ٱتِّبَاعَ﴾: منصوب على الاستثناء. ﴿ٱلظَّنِّ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿قَتَلُوهُ﴾ فعل وفاعل ومفعول. ﴿يَقِينًا﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: وما قتلوه قتلاً يقيناً، والجملة في محل الجر معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ على كونها صفة لشك.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿بَل﴾: بل: حرف عطف وإضراب. ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق برفع، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: ليس الأمر كما قالوا من قولهم: إنا قتلنا المسيح، بل رفعه الله إليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَزِيزًا﴾: خبر أول لكان. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة. ﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية، (إن): نافية، ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه صفة لمبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: وما أحد كائن من أهل الكتاب ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾: اللام موطئة لقسم محذوف، تقديره: والله ليؤمنن، ﴿يؤمنن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يؤمنن﴾، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿يؤمنن﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه

في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر مستأنفة. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بشهيداً، أو بيكون. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير يعود على عيسى. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بشهيداً. ﴿شَهِيدًا﴾: خبر يكون، وجملة يكون مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾: يحبُّ بضم أوله، من أحب الرباعي، وهو بمعنى حبه، وهو أكثر استعمالاً من حب الثلاثي، فهو محب وذاك محب ومحبوب، وأما ثلاثيه فمن المضاعف المعدّى الذي انفرد بالكسر الشاذ، ولم يسمع فيه الضم وكان قياسه ضمَّ عين المضارع، ولكنه لم يسمع على ما قاله ابن مالك في لامية الأفعال:

فَذُوْ ٱلتَّعَدِّيْ بِكَسْرِ حَبَّهُ وَعِ ذَا   وَجْهَيْنِ هَرَّ وَشَذَّ عَلَّهُ عَلَلاَ

وعبارة «مناهل الرجال» هنا يقال: حبه يحبه، بفتح الياء وكسر الحاء حباً وحباً، لغة في أحبه يحبه بضم الياء وكسر الحاء، وقد تبع الناظم وابنه في ذلك الجوهري، لكن قال أبو حيان: إنه سمع فيه الضمَّ أيضاً، فيكون فيه وجهان، فعليه ليس في المضاعف المعدَّى كسرٌ فقط أصلاً. انتهت.

ومعنى حب الله للشيء هو: الرضا به والإثابة عليه كما مر، وعدمُ حبه للشيء: السخط عليه والعقاب به.

﴿ٱلْجَهْرَ﴾: ضد السر والإخفاء، يقال: جهر الأمر وبالأمر يجهر ـ من باب نصر ـ جهراً وجهاراً وجهرةً إذا أعلنه، وجهر بالقول يجهر ـ من باب فتح ـ جهراً وجهاراً إذا رفع به صوته، وجهر الصوت إذا رفعه. ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ ـ بضم أوَّله: اسم مصدر من ساءه الأمر يسوءه سوءاً وسواء وسواءة، من باب قال إذا أحزنه أو فعل به ما يكرهه، يجمع على أسواء. وكل آفة الشر والفساد.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من أبدى الرُّباعي، يقال: أبدى الشيء إذا

أظهره، ومن أخفى الرّباعي، يقال: أخفى الشيء إذا أسره وستره من غيره.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أصله أعددنا، قلبت الدال الأولى تاء، فهو من باب أفعل الرباعي، وليست التاء تاء الافتعال كما مر. ﴿سُلْطَنًا﴾: مصدر بمعنى التسلط، وفي «المختار»: والسلاطة: القهر، يقال: سلط ككرم وسمع، وسلاطة وسلوطة بالضم، وقد سلطه الله تسليطاً فتسلط عليهم، والسلطان: الوالي، والسلطان أيضاً: الحجة والبرهان، ولا يثنى ولا يجمع؛ لأن مجراه مجرى المصدر. انتهى. ﴿سُجَّدًا﴾: جمع ساجد، كعاذل وعذل، وراكع وركع، قال ابن مالك:

وَفُـعَّـلٌ لِـفَـاعِـلٍ وَفَـاعِـلَـهْ ... وَصْـفَـيْـنِ نَـحْـوُ عَـاذِلٍ وَعَـاذِلَـهْ

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ﴾: من عدا[1] يعدو - من باب غزا يغزو - وأصله: تعدووا، الواو الأولى المضمومة لام الكلمة استثقلت الضمة عليها فحذفت، فالتقى ساكنان فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فوزنه: تعفوا، وقرأ ورش: ﴿لا تعَدُّوا﴾ بفتح العين وتشديد الدال، على أن الأصل: لا تعتدوا، وتصريفه على هذه القراءة: أنه نُقلت فتحة التاء إلى العين الساكنة قبلها ثم قلبت التاء دالاً وأدغمت في الدَّال بعدها كما مر في بحث القراءة والمعنى: أنهم نهوا عن الاعتداء في السبت بصيد السمك، فخالف بعضهم واصطاد، وامتنع بعضهم من غير نهي للآخرين، وامتنع بعضهم مع نهي من اصطاد، فحل بمن اصطاد العذاب ونجا من نهى، وسيأتي بسط ذلك في سورة الأعراف.

﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: جمع أغلف، كحمر جمع أحمر، ويصح أن يكون جمع غلاف، ككتاب وكتب، وسكن للتخفيف. ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾: يقال: طبع الشيء يطبع - من باب فتح - طبعاً، إذا صوره بصورة ما، وطبع عليه إذا ختم عليه، ويقال: طبع الله على قلبه، أي: ختم وغطى، فلا يعي ولا يوفق، وطبع الدرهم إذا نقشه وسكه، وطبع السيف إذا عمله وصاغه، وطبع الله الخلق خلقهم. ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾: يقال: صلبه يصلبه صلباً، - من بابي نصر وضرب - إذا جعله

(١) الفتوحات.

مصلوباً، أي: معلقاً بعد القتل على خشبة قائمة مثلاً.

البلاغة

وتضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبديع[(١)]:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ و﴿وَيُرِيدُونَ﴾، وفي قوله: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ و﴿كِتَٰبًا﴾، وفي قوله: ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ و﴿مِّيثَٰقًا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿تُبْدُوا﴾ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وفي قوله: ﴿نُؤْمِنُ﴾ ﴿وَنَكْفُرُ﴾.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

ومنها: الإشارة في مواضع.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿أَن يُفَرِّقُوا﴾ ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا﴾، وهو حقيقة في الأجسام استعير للمعاني، وفي قوله: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ استعير للحجة، وفي قوله: ﴿غُلْفٌ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء؛ لعدم الفهم والإدراك؛ أي: لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة، و﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾.

ومنها: زيادة الحرف لمعنى التأكيد في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾.

ومنها: إسناد الفعل إلى غير فاعله في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، و﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وإلى الراضي به في قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، وفي قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾، وفي قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾.

ومنها: حسن النسق في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، والمعاطيف عليه؛ حيث نسقت بالواو التي تدل على الجمع فقط، وبين هذه الأشياء أعصار متباعدة، فشرّك أوائلهم وأواخرهم لعمل أولئك ورضا هؤلاء.

ومنها: إطلاق اسم الكل على البعض في قوله: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن والإنجيل، ولم يكفروا بشيء من الكتب إلا بهما، وفي قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا﴾

---

(١) البحر المحيط.

ولم يقلْ ذلك إلا بعضهم.

ومنها: التعريض والتهكم في قوله: ﴿قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إذا قلنا: إنه من كلامهم، قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء؛ لأنهم لا يؤمنون برسالته.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ رداً لمزاعمهم الفاسدة.

ومنها: التوجيه في قوله: ﴿غُلْفٌۢ﴾ من احتمال المصدر جمع غلاف، أو جمع أغلف.

ومنها: عود الضمير على غير مذكور في قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ على من جعلهما لغير عيسى.

ومنها: النقل من صيغة فاعل إلى صيغة فعيل في قوله: ﴿شَهِيدًا﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، والأصل: سيؤتيهم، وتنكير الأجر للتفخيم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ حيث أطلق الكل وأريد البعض.

ومنها: الحذف في مواضع.

ومنها[1]: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لغرض ذمهم وتذكيراً لوصفهم، أو المراد جميع الكافرين.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾؛ لأن قوله حقاً مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله.

ومنها: التوطئة في قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ قد ذكر

---

(١) الفتوحات.

في حيّز الشرط ثلاثة أشياء، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، إنما يظهر كونه جزاءً للثالث، فيكونُ المقصودُ مِنَ الكلام الثالث، والأوَّلان إنّما ذكرا توطئة له، كما أشار إليه «البيضاوي»، ونصُّه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾. طاعة وبراً ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي: تفعلوه سراً ﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾. لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصود. وذكر إبداء الخير وإخفائه توطئة له، ولذلك رتب عليه قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا
(١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
(١٦١) لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ
الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ۞ إِنَّا
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ
قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا
مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّٰكِنِ
اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ
يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الأيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] فضائح اليهود وقبيح أعمالهم.. ذكر هنا تشديده عليهم في الدّنيا والآخرة، أما في الدنيا: فتحريم طيبات كانت محللة لهم، وأما في الآخرة: فبما بينه الله بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، ثم بين أن فريقاً آمنوا إيماناً صادقاً، وعملوا الصالحات، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وتوعدهم بالأجر العظيم يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ...﴾

---

(١) المراغي.

الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما فرغ من الكلام على أهل الكتاب.. فإنه ذكر[1] عنهم أولاً أنهم يفرقون بين الله ورسله، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ثم انتقل إلى ذكر شيء من عنادهم وإعناتهم للنبي ﷺ، وطلبهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وبين أنه لا غرابة في ذلك؛ فقد شاغبوا موسى من قبله وسألوه ما هو أكبر من ذلك، ثم ذكر كفرهم بعيسى عليه السلام وبهتهم أمه، ومحاولتهم قتله وصلبه، وفي كلٍّ هذا دليل على تأصل العناد فيهم، ولولا ذلك.. لما شاغبوك، فإن الدليل على نبوتك أوضح مما يدعون الإيمان بمثله ممن قبلك، وختم هنا الكلام في محاجتهم ببيان أن الوحي جنس واحد، ولو كان إيمانهم بالرسل السابقين صحيحاً.. لما كفروا بمحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] أزال في الآيات السالفة ما كان لليهود من شبهة في نبوة محمد ﷺ بشهادة الله بما أنزل عليه مما لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله.. أنْذَرَ في هذه الآيات من يصر منهم على الكفر ويستمر على الإعراض والظلم، وبين لهم سوء العاقبة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما روى[3] ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال عدي بن زيد: ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى، فأنزل هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: دخل جماعة من اليهود على رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني أعلم أنكم تعلمون أني رسول الله» فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ...﴾ الآية.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي. (٣) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: فالباء للسببية، والتنوين للتنكير والتعظيم؛ أي: فبسبب ظلم عظيم واقع من الذين رجعوا وتابوا عن عبادة العجل. ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الذين هادوا ﴿طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾؛ أي: مستلذات كانت محللة لهم قبل ظلمهم، لا بسبب شيء آخر، كما زعموا أنها كانت محرمةً على مَنْ قبلهم، فإن اليهود كانوا كلّما فعلوا معصية من المعاصي يحرم عليهم نوع من الطيبات التي كانت محللة لهم ولمن قبلهم عقوبة لهم. يعني: ما حرمنا عليهم الطيبات التي كانت حلالاً لهم إلا بظلم عظيم ارتكبوه، وذلك الظلم هو: ما ذكره من نقضهم الميثاق، وما عدد عليهم من أنواع الكفر والكبائر العظيمة، مثل قولهم: اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، وكقولهم: أرنا الله جهرة، وكعبادتهم العجل، فبسبب هذه الأمور حرَّم الله عليهم طيباتٍ كانت حلالاً لهم، لعلهم يرجعون عن ظلمهم، وكانوا كلما ارتكبوا معصية يحرم عليهم نوع من الطيبات، وهم مع ذلك كانوا يفترون على الله الكذب، ويقولون: لسنا بأول من حُرِّمت عليه، بل كانت محرَّمةً على نوح وإبراهيم، فكذبهم اللّهُ تعالى في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أما الطيبات التي حرَّمها الله تعالى عليهم: فهي ما بُيِّن في قوله جلَّ ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الآية، وقد أبهمها الله تعالى هنا؛ لأن الغرض من السياق العبرة بكونها عقوبة، لا بيانها في نفسها، كما أبهم الظلم الذي كان سبباً في العقوبة؛ ليعلم أن أي نوع منه يكون سبباً للعقاب في الدنيا والآخرة، والعقاب:

إما دنيوي: كالتكاليف الشاقة زمن التشريع، والجزاء الوارد في الكتب على الجرائم، كالحدود والتعزيرات، وما اقتضته السنن التي سنها الله تعالى في نظم الاجتماع، من كون الظلم سبباً لضعف الأمم، وفساد عمرانها، واستيلاء الأمم الأخرى عليها.

وإما أخروي: هو ما بينه في الكتاب الكريم من العذاب في النار، ثم بين

هذا الظلم وفصله بعد ذكره أولاً إجمالاً؛ ليكون أوقع في النفس وأبلغ في الموعظة، فقال: ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾؛ أي: وحرَّمنا عليهم طيبات أحلت لهم بسبب صدهم ومنعهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ودينه ﴿كَثِيرًا﴾؛ أي: ناساً كثيراً، أو صداً كثيراً، أو زماناً كثيراً، والأول أولى، والصد والصدود: المنع، وهو يشمل صدَّهم أنفسهم عن سبيل الله بما كانوا يعصون به موسى، ويعاندونه مراراً، وصدهم الناس عن سبيل الله بسوء القدوة، أو بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

وإنما أعيدت الباء في قوله[1]: ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ ولم تُعَدْ في قوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ﴾ وما بعده؛ لأنه قد فصَل بين المعطوف والمعطوف عليه بما ليس معمولاً للمعطوف عليه، بل بالعامل فيه، وهو ﴿حَرَّمْنَا﴾ وما تعلق به، فلمَّا بعد المعطوف من المعطوف عليه بالفصل بما ليس معمولاً للمعطوف عليه.. أعيدت الباء لذلك، وأما ما بعده فلم يفصل فيه إلا بما هو معمول للمعطوف عليه، وهو الربا. ﴿و﴾ حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ﴿أخذهم﴾ وأكلهم ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ والزيادة في المعاملات ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿قد نهوا عنه﴾؛ أي: عن معاملة الربا مطلقاً على ألسنة أنبيائهم، والتوراةُ[2] التي بأيديهم إنما تصرحُ بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوتهم دون الأجانب، وهي محرَّفة، أما النسخة التي كتبها موسى.. فقد فقدت باتفاق اليهود والنصارى، وبعض أنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقاً، فلم يقيدوه بشعب إسرائيل، كقول داود في «المزمور الخامس عشر من الزبور»: فضته لا يعطيها بالربا، ولا يأخذ الرشوة من البريء ﴿و﴾ حرَّمنا عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ﴿أكلهم﴾ وأخذهم ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿بـ﴾ الوجه ﴿الباطل﴾؛ أي: بطريق الرشوة والخيانة وسائر الوجوه المحرمة مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ والسحت: الكسب الحرام، فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التي يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: هي من عند الله تعالى.

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

وفي ذكر هذه الآية امتنان على هذه الأمة حيث لم يعاملهم معاملة اليهود فيحرّم عليهم في الدنيا الطيبات عقوبةً لهم بذنوبهم، فهذه الأربعة هي الذنوب التي اقترفوها، والجرائم التي ارتكبوها، وشدد عليهم بسببها في الدنيا والآخرة، أما التشديد في الدنيا.. فهو ما تقدم من تحريم الطيبات عليهم، وأما التشديد عليهم في الآخرة.. فقد بين جزاءهم عليها في الآخرة، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: وأعددنا وهيّأنا للذين كفروا برسل الله، وجحدوا ما جاؤوا به، وأصروا على الكفر ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب دون من آمن منهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: عذاباً مؤلماً في نار جهنم خالدين فيها أبداً.

قال المفسرون[1]: إنّما قال: منهم؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى علم أنَّ قوماً منهم سيؤمنون، فيأمَنون من العذاب، وبعد أن بيَّن الله تعالى في هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم، وأطلق القولَ في ذلك، وكان هذا مما يوهم أنَّه شامل لكل أفرادهم.. جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾؛ أي: لكن المتمكنون في علم التوراة من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: منهم، ومن المهاجرين والأنصار وسائر أمتك ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: يا محمد، وهو القرآن ﴿و﴾ يؤمنون بـ ﴿بما أنزل من قبلك﴾ على سائر الأنبياء من الكتب السماوية؛ أي: لكنْ أهل العلم الصحيح بالدين منهم، المستبصرون فيه، غير التابعين للظنّ، الذين لا يشترون به ثمناً قليلاً من المال والجاه، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل.. يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى، وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل، ولا يفرِّقون بين الله ورسله بهوىً ولا عصبية، روى ابن إسحاق والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام، وأسيد بن سعية، وثعلبة بن سعية، حين فارقوا يهود وأسلموا.

---

(١) الخازن.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾؛ أي: وأمتدح المقيمين الصلاة الذين يُؤدّونها على وجه الكمال، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان؛ إذ إقامتها بإتمام أركانها علامة كمال الإيمان، واطمئنان النفس به. وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ﴾: مبتدأ، خبرُه محذوف، تقديره؛ أي: والمؤتون الزكاة المفروضة في مصارفها، والمؤمنون بوحدانية الله ومجيء اليوم الآخر، مع ما فيه من الحساب والجزاء، مثل المقيمين الصلاة في استحقاق المدح بالتبع؛ إذ إقامتها تستدعي إيتاء الزكاة، فإنّ الذي يقيمها على الوجه الذي طلبه الشرع.. لا يمنع الزكاة؛ إذ هي مما تزكي النفس، وتعلي الهمة، وتهون على النفس المال - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ الآية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الموصوفون بالصفات السابقة ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: سنعطيهم في الآخرة على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره: ثواباً جزيلاً لا يدرك وصفه إلا علام الغيوب، وهو الجنة. قال أبو حيان[1]: وارتفع الراسخون على الابتداء، والخبر ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لا غير؛ لأنَّ المدح لا يكون إلا بعد تمام الجملة، ومن جعل الخبر جملة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ فقوله ضعيف. وانتصب ﴿المقيمين﴾ على المدح، وارتفع ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾ أيضاً على إضمار (وهم) على سبيل القطع إلى الرفع، ولا يجوز أن يعطف على المرفوع قبله؛ لأن النعت إذا انقطع في شيء منه.. لم يعد ما بعده إلى إعراب المنعوت، وهذا القطع لبيان فضل الصلاة والزكاة، فكثر الوصف؛ بأن جعل في جمل. وقرأ ابن جبير[2]، وعمرو بن عبيد، والجحدري، وعيسى بن عمر، ومالك بن دينار، وعاصم عن الأعمش، ويونس وهارون عن أبي عمرو: ﴿والمقيمون﴾ - بالرفع - نسقاً على الأول، وكذا هو في مصحف ابن مسعود، قاله الفراء، وروى أنها كذلك في مصحف أُبَيّ، وقيل: بل هي فيه ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، كمصحف عثمان.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ حمزة ﴿سيؤتيهم﴾ ـ بالياء ـ عوداً على قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وقرأ باقي السبعة على الالتفات، ومناسبة ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾.

﴿إِنَّآ﴾ قد ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد هذا القرآن ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد نوح، والكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي: أوحينا إليك إيحاءً مثل إيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده، وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن حبان في «صحيحه» عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاث مئة وثلاثة عشر، جم غفير»، والمعنى: إنا قد أوحينا إليك هذا القرآن كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ممن يؤمن بهم، والله لم يُنَزِّل على أحد منهم كتاباً من السماء كما سألوك للتعجيز والعناد؛ لأن الوحي ضرب من الإعلام السريع الخفي، وليس بالأمر المشاهد الحسي.

وقيل: هذه الآية متصلة في المعنى بقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فهي[1] جوابٌ لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء جملةً واحدة، والمعنى: أنكم يا معشر اليهود تقرون بنبوة نوح، وبجميع المذكورين في هذه الآية، وهم اثنا عشر نبياً، وأنّ الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء، وأنتم يا معشر اليهود معترفون بذلك، وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتاباً جملة واحدة مثل ما أنزل على موسى، فكما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الأنبياء قادحاً في نبوته.. فكذلك لا يكون إنزال الكتاب على محمد ﷺ مفرقاً قادحاً في نبوته، بل قد أنزل عليه كما أُنزل عليهم.

قال المفسرون[2]: وإنما بدأ الله عز وجل بذكر نوح عليه السلام؛ لأنه أول نبي بعث بشريعة وتكليف، وأول نذير على الشرك، وأنزل الله عليه عشر صحائف، وكان أول من عُذِّبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام، وكان أطول الأنبياء عمراً، عاش ألف سنة،

---

(١) الخازن بتصرف.

(٢) الخازن.

لم تنقص قوّته، ولم يشب، ولم تنقص له سن، وصبر على أذى قومه طول عمره.

ثم ذكر الله تعالى الأنبياء من بعده جملة بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ ثم خص جماعة من الأنبياء بالذكر؛ لشرفهم وفضلهم فقال: ﴿و﴾ كما ﴿أوحينا إلى إبراهيم﴾ بن آزر ﴿و﴾ أوحينا بعد إبراهيم إلى ﴿إسماعيل﴾ بن إبراهيم، فمات بمكة ﴿و﴾ إلى ﴿إسحاق﴾ بن إبراهيم فمات بالشام ﴿و﴾ إلى ﴿يعقوب﴾ وهو إسرائيل بن إسحاق ﴿و﴾ إلى ﴿الأسباط﴾؛ أي: أولاد يعقوب الأثني عشر، فمنهم يوسف نبي رسول باتفاق، وفي البقية خلاف ﴿و﴾ أوحينا إلى ﴿عيسى﴾ بن مريم، وقدَّم[1] عيسى على أيوب ومن بعده ـ مع كونهم في زمان قبل زمانه ـ ردّاً على اليهود الذين كفروا به، وأيضاً قالوا ﴿و﴾ ليست إلا لمطلق الجمع. ﴿و﴾ إلى ﴿أيوب﴾ بن أموص ﴿و﴾ إلى ﴿يونس﴾ بن متَّى. قرأ الجمهور[2]: ﴿يونس﴾ بياء ونون مضمومتين بلا همز، وهي لغة أهل الحجاز، وقرأ نافع في رواية بن جمّاز عنه ﴿يونِس﴾، بكسر النون، وهي لغة لبعض العرب، وقرأ النخعي وابن وثاب بفتحها، وهي لغة لبعض عقيل، وبعض العرب يهمز ويكسر، وبعض أسد يهمز ويضم النون. ﴿و﴾ إلى ﴿سليمان﴾ بن داود ﴿و﴾ كما ﴿آتينا﴾: وأعطينا أيّاه ﴿داود﴾ بن أيشا ﴿زبورا﴾ ـ بفتح الزاي ـ بوزن رسول، وقرأ حمزة زُبوراً بالضم، وهو جمع زبر، بمعنى: مزبور؛ أي: مكتوب، كفلس وفلوس، وهو: اسم للكتاب الذي أنزل عليه، وهو مئة وخمسون سورة، ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، بل فيها تسبيح وتقديس وتحميد وثناء على الله عز وجل ومواعظ، وقد أفرد بالذكر، أعني: داود؛ لأن له شأناً خاصاً عند أهل الكتاب من حسن الصوت واجتماع الطيور عليه.

قال بعض العلماء[3]: وإنّما لم يذكر موسى في هذه الآية؛ لأنَّ الله أنزل عليه التوراة جملةً واحدة، وكان المقصود بذكر من ذكر من الأنبياء في الآية أنّه

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الخازن.

لم ينزّل على أحد منهم كتاباً جملة واحدة، فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام ﴿و﴾ كما أرسلنا ﴿رسلاً﴾ آخرين غير هؤلاء ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل تنزيل هذه السورة، وهم الذين ذكرت أسماؤهم في السور المكية، كقوله في سورة الأنعام ـ في سياق الكلام عن إبراهيم ـ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ﴿و﴾ كما أرسلنا ﴿رسلاً﴾ آخرين غير هؤلاء المذكورين ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ يا محمد، كالذين[1] أرسلوا إلى الأمم المجهول تاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك، كالصين واليابان والهند وأوروبا وأمريكا وأفريقيا وأروميا.

وإنّما لم يقص الله علينا خبرهم؛ لأنَّ القصد من القصص: العبرة والتثبيت والذكرى والاحتجاج على نبوته ﷺ، ـ كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾، وقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ـ وكل هذا يَثبت بذكر من قصهم الله علينا من الرسل.

فائدة: في أن إرسال الرسل عام في كل الأمم الأبيض والأحمر والأسود، وعلينا أنْ نعلم أن الله تعالى قد أرسل رسلاً في كل الأمم الأبيض والأحمر والأسود، فكانت رحمته بهم عامة، لا مختصة بشعب وجنس معين، كما يزعم أهل الكتاب، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾. وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. وهذه حقيقة دلَّ عليها الدّين السماوي، ولم يكن يعلمها أهل الكتاب الذين يزعمون أن القرآن مقتبس من كتبهم، وكم فيه من حقائق جلاها للناظرين بجميل بيانه،

---

(١) المراغي بزيادة.

بالوحي، وهو موافق لسنن الفطرة في تزكية النفوس وإعدادها للحياة الأبدية في عالم القدس، ويترتب على العمل به أو تركه جزاء حدده الله تعالى في الدنيا والآخرة، ولا يكون هذا الجزاء إلا لمن بلغته الدعوة على الوجه الصحيح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزًا﴾ لا يغالب في أمر يريده، ومن عزته: أن لا يجيب المتعنت إلى مطلوبه ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله. وحكمته تقضي هذا الامتناع عن الإجابة؛ لأنه يعلم أنه لو فعل ذلك لأصروا على لجاجهم، كما فعلوا مع موسى بعد أن جاءهم بما طلبوا، ومن حكمته أيضاً: اختلاف الكتب والشرائع، فإن اختلافها في كيفية النزول وتغايرها في بعض الشرائع والأحكام إنما هو لتفاوت طبقات الأمم في الأحوال التي يدور عليها فلك التكليف، فكلَّفهم الله تعالى بما يليق بشأنهم وحالهم.

وقوله عز وجل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ استدراك على ما علم من السياق من إنكارهم نبوته ﷺ، وعدم شهادتهم بها، وهي واضحة عندهم في مرتبة المشهود به، لكنَّهم استبدلوا المباهتة والمكابرة بالشهادة والإيمان، فسألوه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يثبت دعواه، ويكون شاهداً له، فكأنَّه تعالى يقول لرسوله ﷺ: إنهم مع وضوح نبوتك لا يشهدون بها، لكن الله يشهد لك بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله إليك، البالغ في فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته، فكان القرآن معجزاً. وإظهار المعجزة على يد من يدّعي الرسالة.. شهادة له بكونه صادقاً في دعواه، فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: يشهد لك بالنبوة ويبينها بهذا القرآن الذي أنزله إليك. وقرأ السلمي والجرَّاح الحكمي: ﴿لكنَّ الله﴾ بالتشديد، ونصب الجلالة، وقرأ الحسن: ﴿بما أُنزل إليك﴾ مبنياً للمفعول. ثمَّ أكد هذه الشهادة، فقال: ﴿أَنزَلَهُۥ﴾؛ أي: أنزل الله تعالى هذا القرآن حالة كونه متلبساً ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، بأنه في غاية الحسن ونهاية الكمال؛ أي: فإنّه أنزله بعلمه الخاص الذي لم تكن تعلمه أنت ولا قومك، بتأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان، وبما فيه من العلوم الإلٰهية والأدبية والسياسية

والاجتماعية، ومن علوم الأنبياء والرسل والأمم، وبما له من السلطان على الأرواح بهدايته، وبما فيه من أنباء الغيب عن الماضي والحاضر والمستقبل، وهو بهذه المزايا مثبت لشهادة الله به، وأنَّه وحي من عنده، وقيل: معناه: أنزله وهو عالم بأنك أهلٌ لإنزاله عليك، وأنك مبلغُه إلى عبادِه، وقيل: معناه: أنزله بما علم من مصالح عباده في إنزاله عليك. وقرأ السلميّ: ﴿نزَّله﴾ مشدّداً، وقال الزجاج: أنزله وفيه علمه. وقال أبو سليمان الدمشقي: أنزله من علمه. وقال ابن جريج: أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه.

والخلاصة[1]: كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيِّه: إنَّ جحود هؤلاء اليهود وعدم شهادتهم لك لا يضرّك بشيء، فالله يشهد بما أنزل إليك من الوحي، وأنت على يقين منه، وقد أيد الله شهادته لك بما أودعه فيه مما عجز عنه البشر، فكان بذلك مثبتاً لكونه أنزل عليك من لدنه، كما أيده بتصديق ما أنزله فيه من الوعد بالفلاح، والنصر لمن اتبعك، والوعيد لمن عاداك بالخذلان والخسران.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بذلك أيضاً؛ لأنَّ الذي نزل به إليك هو الروح الأمين، وهو منهم، كما يؤيدك بجند منهم يثبتونك ويثبتون المؤمنين في القتال، كما في غزوة بدر. قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾. وإنّما تعرَف[2] شهادةُ الملائكة له ﷺ بصدقه فيما يدعيه من النبوة والرسالة؛ لأن ظهور المعجز على يده ﷺ يدل على أنه تعالى شهد له بالنبوة، وإذا شهد الله بذلك فقد شهدت الملائكة بذلك بلا شك؛ لأنَّه ثبت في القرآن أنهم لا يسبقونه تعالى بالقول.

والمعنى: يا محمد، إنْ كذبك هؤلاء اليهود.. فلا تبال بهم، فإنّ اللّٰهَ تعالى ـ وهو إلٰه العالمين ـ يصدقك في ذلك، وملائكة السموات السبع والعرش والكرسي يصدقونك في ذلك، ومن صدقه الله والملائكة أجمعون.. لم يلتفت

---

(١) المراغي.

(٢) المراح.

إلى تكذيب أخس الناس ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ما شهد به لك من صدق نبوتك، وإن لم يشهد به غيرُه؛ حيث نصب الدليل، وأوضح السبيل، فشهادته أصدق، وقوله الحق، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وفيه تسلية للنبي ﷺ عن شهادة أهل الكتاب له، فإن اللَّهَ يشهدُ وملائكته كذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بمحمد ﷺ، وبما أنزله الله تعالى عليه وشهد به، وهو القرآن ﴿وَصَدُّوا۟﴾ غيرهم ومنعوا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عن دين الإسلام من أراد سلوكه، بإلقاء الشبهات في قلوبهم، وهم اليهود؛ حيث قالوا: ما نعرف صفة محمد في كتابنا، وقالوا: لو كان رسولاً لأتى بكتابه دفعة واحدة من السماء، وقالوا: إنَّ الله ذكر في التوراة أنَّ شريعة موسى لا تنسخ إلى يوم القيامة، وقالوا: إنّ الأنبياء لا يكونون إلا من ولد هارون وداود. ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: عن الحق والصواب؛ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأن المضلّ يكون أغرق في الضلال وأبعد في الانقطاع عنه؛ ولأنَّ أشد الناس ضلالاً منْ كان ضالاً، ويعتقد في نفسه أنه محق، ثم يتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال والجاه، ثم يبذل غاية ما في وسعه في إلقاء غيره في مثل ذلك الضلال، فهو قد سار في سبيل الشيطان وبعد عن سبيل الله، فلم يعد يفقه أنَّها هي الموصلة إلى خير العاقبة. وقرأ عكرمة وابن هرمز: ﴿وصُدوا﴾ بضم الصاد، قيل: وهي في اليهود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما أنزل إليك ﴿وَظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بإعراضهم عن الطريق الموصل إلى الخير والسعادة، وظلموا غيرهم بإغوائهم إياهم بزخرف قولهم وسوء سيرتهم وكتمان نعت محمد ﷺ وصدهم عن الصراط المستقيم وماتوا على الشرك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ أي: لم يكن من سنته تعالى أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب والجزاء؛ لأن الكفر والظلم قد أفسدا فطرتهم، وأثرا في نفوسهم، وأعميا قلوبهم وجعلاها تستمرىء قبيح الأفعال، وتهوى شر الخلال والأعمال، ولا يزول هذا إلا إذا اتجهت نفوسهم إلى ما يضاد ذلك من إيمان صحيح وعمل صالح يزكي النفوس مما ران عليها، ويطهرها وينشئها نشأة أخرى، ولا سبيل إلى ذلك يوم الجزاء والحساب، ومن ثم قال تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

﴿طَرِيقًا﴾؛ أي: وليس من شأنه أن يهدي أمثالهم طريقاً يوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾: فهي الطريق التي ينتهي إليها من دنس نفسه بالكفر والظلم، وأوغل في السير فيها طول عمره، واستمرأ الشرور والمفاسد، حتى هوت به إلى وادٍ سحيقٍ، يعني: يهديهم إلى طريق تؤدي إلى جهنم، وهي اليهودية، لما سبق في علمه أنهم أهل لذلك، فانتظار المغفرة ودخول الجنات لأمثال هؤلاء انتظارٌ لإبطال نظام العالم، ونقض لسنن الله وحكمته في خلق الإنسان، وما أجود قولَ الشاعر:

تَرْجُوْ ٱلنَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ ٱلسَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلْيَبَسِ

حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: مقدرين الخلود والدوام في جهنم ﴿أَبَدًاۚ﴾؛ أي: مدةً لا نهاية لها ولا انقضاء، أي: يدخلونها ويذوقون عذابها حال كونهم خالدين فيها أبداً، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها أبدَ الآبدين، وإنما قال: ﴿أَبَدًاۚ﴾ بعد ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ لدفع احتمال أن الخلود هنا يراد به المكث الطويل.

فائدة: والفرق بين الخلود والأبد: أن الخلود: بقاء الشيء مدةً طويلة على حال واحدة، لا يطرأ عليه فيها تغيير ولا فناء، والأبد: الزمن الممتد الذي لا نهاية له ولا انقضاء، يقال: تأبد الشيء إذا بقي أبداً، وأبد بالمكان ـ من باب تعب ـ أبوداً إذا أقام به ولم يبرحه.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تخليدهم في جهنم، أو ترك المغفرة لهم والهداية مع الخلود في جهنم ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: هيناً سهلاً على الله دون غيره؛ لأنه مقتضى حكمته وسننه، وليس بالعزيز على قدرته؛ لأنه لا يصعب عليه شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ وفي هذا تحقير لأمرهم، وبيانٌ بأن الله تعالى لا يعبأ بهم ولا يبالي بشأنهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان وغيرهم، وقيل: هو خطاب لمشركي مكة ﴿قَدْ

﴿جَآءَكُمُ﴾ هذا ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ الكريم محمد ﷺ حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآن المنزل عليه، أو حالة كونه متكلماً بالدعوة إلى توحيد الله وعبادته والإعراض عن غيره ﴿مِن﴾ عند ﴿رَّبِّكُمْ﴾ وخالقكم الذي يستحق منكم العبادة ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ وصدقوا بجميع ما جاء به من عند ربكم.. يكن الإيمان به ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وأحمد عاقبة مما أنتم عليه من الكفر والإشراك؛ لأن الإيمان يزكيكم ويطهركم من الدنس والرجس ويؤهلكم للسعادة الأبدية. وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأن الكفر ليس خيرٌ أصلاً ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: وإن تستمروا على كفركم بالله وبالرسول.. فإن الله سبحانه وتعالى غني عن إيمانكم، ولا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم، وقادر على جزائكم بما يقتضيه كفركم وسوء عملكم، فإن له ما في السموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً، وكلهم عبيده ينقادون لحكمه طوعاً أو كرهاً، فعبادة الكره وعدم الاختيار تكون بالخضوع لقدرته وسننه في الأكوان، وهي عامة في جميع الخلق، سواء منهم العاقل وغيره، وعبادة الاختيار: خاصة بالمؤمنين الأخيار، والملائكة الأبرار، ومن كان كذلك فهو قادر على إنزال العذاب الشديد عليكم لو كفرتم، أو فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره وحكمه، أو فمن كان كذلك لم يكن محتاجاً إلى شيء، ففي هذه الجملة وعيدٌ لهم مع إيضاح وجه البرهان، وإماطة الستر عن الدليل بما يوجب عليهم القبول والإذعان؛ لأنهم يعترفون بأن الله خالقهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ لا يخفى عليه من أعمال عباده المؤمنين والكافرين شيء ﴿حَكِيمًا﴾ لا يضيع عمل عامل منهم، ولا يسوي بين المؤمن والكافر والمحسن والمسيء، أي: وكان شأنهُ تعالى العلم المحيط، والحكمة البالغة الكاملة في جميع أفعاله وأحكامه، فهو لا يخفى عليه أمركم في إيمانكم وكفركم وسائر أحوالكم، ومن حكمته: أن يجازيكم على ما تجترحون من الآثام والموبقات؛ فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، فطوبى لمن نهى النفس عن الهوى وآثر الآخرة على الدنيا، وويل لمن أعرض عن ذكر ربِّه، وأعرض عن أمره ونهيه، وحالف الشيطان وحزبه.

الإعراب

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿فَبِظُلْمٍ﴾: (الفاء): زائدة، كما قاله أبو البقاء. و(الباء): سببية. ﴿ظلم﴾: مجرور بالباء، الجار والمجرور متعلق بحرّمنا الآتي. ﴿مِّنَ الَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة لظلم. ﴿هَادُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿حَرَّمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بحرمنا. ﴿طَيِّبَاتٍ﴾: مفعول به. ﴿أُحِلَّتْ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على طيبات. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأحلت، والجملة الفعلية صفة لطيبات. ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه معطوف على قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾. ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بصدهم. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به لصدهم؛ لأنه من إضافة المصدر إلى فاعله، أو صفة لمصدر محذوف، تقديره: صداً كثيراً، أو لزمان محذوف، تقديره: زماناً كثيراً.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ﴾: معطوف على صدهم، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿الرِّبَا﴾: مفعوله منصوب بفتحة مقدرة. ﴿وَقَدْ﴾: (الواو): حالية. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿نُهُوا﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ضمير أخذهم. ﴿وَأَكْلِهِمْ﴾: معطوف على ﴿صدهم﴾ وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ﴾: مفعول به لأكلهم، وهو مضاف. ﴿النَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿بِالْبَاطِلِ﴾: جار ومجرور متعلق بأكلهم على أنَّ الباء سببية، أو حال من ضمير أكلهم على أنَّ الباء للملابسة، أي: حالة كونهم متلبسين بالباطل. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على حرَّمنا. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: متعلق به. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور حال من الكافرين، أو صفة له. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾.

﴿لَٰكِنِ﴾: حرف استدراك. ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: مبتدأ. ﴿فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: متعلق به. ﴿مِنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة خبرُ المبتدأ، والجملة الاسمية جملة استدراكية، لا محل لها من الإعراب. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بيؤمنون. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ما. ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق بأنزل، والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها. ﴿وَمَآ﴾: موصولة، أو موصوفة في محل الجر معطوفة على (ما) الأولى. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير مستتر فيه، والجملة صلة لما، أو صفة لها. ﴿مِن قَبۡلِكَۚ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بأنزل.

﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾: الواو: استئنافية. ﴿المقيمين﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف، تقديره: أمدح المقيمين. ﴿ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾: مفعول المقيمين، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: مفعوله. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: معطوف على المؤتون. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿المؤمنون﴾. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: صفة لليوم، وخبر المبتدأ محذوف جوازاً، تقديره: والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة في استحقاق الفضل والمدح، والجملة مستأنفة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿سَنُؤۡتِيهِمۡ﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿أَجۡرًا﴾: مفعول ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً، وهذا الإعراب الذي ذكرناه أرجح الأعاريب كما أشرنا إليه في بحث التفسير نقلاً عن أبي حيان.

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾.

﴿إِنَّآ﴾: حرف نصب. و(نا): اسمها. ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ مستأنفة. ﴿إِلَيۡكَ﴾: متعلق بأوحينا.

﴿كَمَآ﴾: (الكاف): حرف جر. (ما): مصدرية. ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾: جار ومجرور متعلق بأوحينا. ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: معطوف على نوح. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة للنبيين، أو حال منه، أو متعلق بالنبيين. وقال أبو البقاء[1]: ولا يجوز أن يكون حالاً من النبيين، لأن ظروف الزمان لا تكون أحوالاً للجثث، ويجوز أن يتعلق ﴿مِنۢ﴾ بالنبيين، وجملة ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ صلة (ما) المصدرية، ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالكاف، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف، تقديره: إنّا أوحينا إليك إيحاء كائناً كإيحائنا إلى نوح والنبيين من بعده.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوحينا﴾ الأولى، على كونها صلة لما المصدرية. ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور متعلق بأوحينا. ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: معطوف على إبراهيم. ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾: معطوفان أيضاً على إبراهيم. ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: معطوف على إبراهيم، وكذا قوله: ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾: معطوفات على إبراهيم جرياً على القاعدة: أن المعطوفات إذا كثرت ـ وكان العطف بالواو ـ يكون على الأول. ﴿وَءَاتَيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿دَاوُۥدَ﴾: مفعول أول. ﴿زَبُورًا﴾: مفعول ثان، والجملة معطوفة على جملة ﴿أوحينا﴾.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَرُسُلًا﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: وأرسلنا رسلاً، والجملة المحذوفة معطوفة على ﴿أوحينا﴾، وهو[2] الدّال على هذا المحذوف بالالتزام، فإنَّ الإيحاء يلزمه الإرسال أو يدل عليه رسلاً ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صفة رسلاً. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق

---

(1) العكبري. (2) الجمل.

بقصصنا. ﴿مِن قَبۡلُ﴾: جار ومجرور متعلق بقصصنا أيضا. ﴿وَرُسُلٗا﴾: معطوف على رسلاً. ﴿لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ﴾: جازم، وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صفة رسلاً. ﴿عَلَيۡكَۚ﴾: متعلق بنقصصهم. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿تَكۡلِيمٗا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، والجملة مستأنفة.

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾.

﴿رُّسُلٗا﴾: مفعول لفعل محذوف، تقديره: أرسلنا رسلاً، والجملة مستأنفة. ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾: صفة. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: معطوف على مبشرين. ﴿لِئَلَّا﴾: (اللام): حرف جر وتعليل، (أنْ): حرف نصب ومصدر، (لا): نافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب بأن. ﴿لِلنَّاسِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ليكون. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: حال من حجة. ﴿حُجَّةُۢ﴾: اسم يكون مؤخر عن خبرها. ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بحجة، أو صفة لها، وجملة يكون صلة أن المصدرية، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بأرسلنا المحذوف، والتقدير: وأرسلنا رسلاً مبشرين ومنذرين؛ لإعدام كون حجة للناس على الله بعد الرسل. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿عَزِيزًا﴾: خبر أول لها. ﴿حَكِيمٗا﴾: خبر ثان لها، والجملة مستأنفة.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾.

﴿لَّٰكِنِ﴾: حرف استدراك. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَشۡهَدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بيشهد. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَيۡكَۖ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما أنزله إليك. ﴿أَنزَلَهُۥ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ضمير ﴿أَنزَلَهُۥ﴾، والتقدير: أنزله حالة كونه معلوماً له تعالى، أو

حال من فاعل ﴿أَنزَلَهُۥ﴾، تقديره: أنزله حالة كونه متلبساً بعلمه، وجملة أنزله جملة مفسرة لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَشْهَدُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاستدراكية على كونها لا محل لها من الإعراب. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، والباء زائدة. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَصَدُّوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على كفروا. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بصدوا. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿ضَلُّوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: مفعول مطلق. ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إنّ مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَظَلَمُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على كفروا. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يَكُنِ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بلم. ﴿لِيَغْفِرَ﴾: اللام: حرف جر وجحود. ﴿يغفر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بيغفر، وجملة يغفر في تأويل مصدر مجرور بلام الجحود، تقديره: لم يكن الله لغفرانهم، الجار والمجرور متعلق بواجب الحذف؛ لوقوعه خبراً ليكن، تقديره: لم يكن الله مريداً لغفرانهم، وجملة يكن من اسمها وخبرها في محل الرفع خبر إنّ، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها مستأنفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة. (لا): زائدة، زيدت لتأكيد نفي ما قبلها. ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾: (اللام): حرف جر وجحود. ﴿يهدي﴾: منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، وفاعله ضمير يعود على الله. و(الهاء): ضمير الغائبين في محل النصب مفعول

أول ليهدي. ﴿طَرِيقًا﴾: مفعول ثان له، وجملة يهدي صلة أن المضمرة، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام المتعلقة بخبر يكن المحذوف، وتقديره: لم يكن الله سبحانه وتعالى مريداً لغفرانهم، ولا مريداً لهدايتهم طريقاً. وقد أطلنا البحث عن لام الجحود في كتابنا «الخريدة البهية في إعراب أمثلة الآجرومية» فراجعه إن شئت.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿طَرِيقَ﴾: منصوب على الاستثناء، استثناء متصلاً؛ لأنّه من جنس الأول؛ لأن الأول في معنى العموم؛ لوقوعه في سياق النفي، ﴿طَرِيقَ﴾: مضاف. ﴿جَهَنَّمَ﴾: مضاف إليه. ﴿خَالِدِينَ﴾: حال مقدرة من مفعول يهديهم. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلق بخالدين. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية متعلق بخالدين. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: متعلق بيسيراً. ﴿يَسِيرًا﴾: خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة، (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿النَّاسُ﴾: صفة لأيّ، تابع للفظه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿بِالْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من الرسول، أو متعلق بجاء. ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الحال ـ أعني بالحق ـ، أي: حالة كون ذلك الحق كائناً من ربكم، أو متعلق بجاء، كما قاله أبو البقاء. ﴿فَآمِنُوا﴾: (الفاء): عاطفة سببية، كما في «الجمل». ﴿آمنوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾ على كونها جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿خَيْرًا﴾: خبر ليكن المحذوفة مع اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بخيراً، أو صفة له، وجملة يكن المحذوفة جواب لشرط مقدر،

تقديره: إن آمنتم يكن الإيمان خيرٌ لكم مما أنتم عليه، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه مستأنفة. ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾: جازم وفعل وفاعل، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فلا يضرّه كفركم، وجملة إن الشرطية مع جوابها المحذوف مستأنفة. ﴿فَإِنَّ﴾: (الفاء): تعليلية كما في «الجمل». (إنّ): حرف نصب. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لها. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب اسمها مؤخر. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ(ما)، أو صفة لها، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على السمٰوات، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بجواب الشرط المحذوف. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول له. ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: جمع راسخ، والراسخ: هو المبالغ في علم الكتاب، الثابت فيه، من الرسوخ، وأصل الرسوخ في لغة العرب: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ، وأصله في الأجرام: أن ترسخ الخيل، أو الشجر في الأرض، ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ رَسَخَتْ فِيْ ٱلصَّدْرِ مِنِّيْ مَوَدَّةٌ ... لِلَيْلَىٰ أَبَتْ آيَاتُهَا أَنْ تَغَيَّرَا

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: من أوحى الرباعي، يقال: أوحى يوحي إيحاء ووحياً، والوحي: اسم مصدر لأوحى، والوحي لغةً[1]: الإيماء والإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. والإلهامُ الذي يقع في النفس، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ وما يكون غريزة دائمة، كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ والإعلام في خفاء، بأن تعلم إنساناً بأمر تخفيه على غيره، كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

---

(١) المراغي.

ووحي الله إلى أنبيائه: عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة، أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام: بأن الإلهام وجدانٌ تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: والزبور[1]: ـ بفتح الزاي ـ وهي قراءة الجمهور، بمعنى: المزبور، أي: المكتوب، كالرسول والحلوب والركوب، بمعنى: المرسل والمحلوب والمركوب، من الزبر، أي: الكتابة ـ وبضمها ـ وهي قراءة حمزة، جمع زبر، كفلس وفلوس، والزبر بمعنى المزبور، والأصل في الكلمة: التوثيق، يقال: بئر مزبورة، أي: مطوية بالحجارة، وسمِّيَ كتاب داود زبوراً ـ بضم الزاي ـ؛ لقوة الوثيقة به، وفي «الفتوحات»: والزبور: جمع زبر، والزبر[2] ـ بالفتح ـ مصدر لزبر ـ من بابي ضرب ونصر، بمعنى: كتب أو جمع زبر ـ بالكسر ـ مثل: حمل وحمول، وقدر وقدور كما في «الشهاب». وفي «المختار». والزبر ـ بالكسر ـ: الكتاب، والجمع زبور، كقدر وقدور، ومنه قراءة بعضهم ﴿وآتينا داود زُبورا﴾اهـ.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾: تكليماً: مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز، قال الفراء: العرب تسمي ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فإن أوكد به لم يكن إلا حقيقة الكلام.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع[3]:

(١) الشوكاني.

(٢) الجمل.

(٣) البحر المحيط.

فمن ذلك: الطباق في قوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾ و﴿أُحِلَّتْ﴾، وفي قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾، وفي قوله: ﴿وَرُسُلًا﴾، وفي قوله: ﴿يَشْهَدُ﴾ و﴿يَشْهَدُونَ﴾، وفي قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾، وفي اسم الله.

ومنها: تخصيص بعض الأنبياء بالذكر في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ الخ؛ للتشريف وإظهار فضل المذكورين، وفيه تشبيه يسمى مرسلاً.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾، وهي في الأجرام، استعيرت للثبوت في العلم والتمكن فيه، وفي قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و﴿يَشْهَدُ﴾ و﴿طَرِيقًا﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، والأصل: سيؤتيهم، وتنكير الأجر؛ للتفخيم.

ومنها: تقديم السبب على المسبّب في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ تنبيهاً على فحش الظلم، وتقبيحاً له، وتحذيراً منه.

ومنها: الإشارة إلى أوصاف متعددة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾.

ومنها: للتأكيد بالمصدر في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، دلالة على وقوع الفعل على حقيقته، لا على مجازه، وهذا هو الغالب في كلامهم، وقد جاء التأكيد بالمصدر في المجاز إلا أنه قليل، فمن ذلك قول هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري:

بَكَىٰ ٱلْـخَـزُّ مِـنْ عَـوْفٍ وَأَنْـكَـرَ جِـلْـدَهُ وَعَـجَّـتْ عَـجِـيْـجَـاً مِـنْ جُـذَامِ ٱلْـمَـطَـارِفِ

وقال ثعلب: لولا التأكيد بالمصدر لجاز أن تقول: قد كلمت لك فلاناً، بمعنى كتبت إليه رقعة وبعثت إليه رسولاً، فلمّا قال: تكليماً.. لم يكنْ إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا[1] فرغ من محاجة اليهود وإقامة الحجة عليهم، وهم قد غلوا في تحقير عيسى وإهانته وكفروا به.. ذكر هنا محاجَّة النصارى خاصة، ودحض شبهاتهم، وهم قد غلوا في تعظيم عيسى وتقديسه، كما دحض شبهات اليهود فيما سلف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى[2] لمَّا حاجّ أهل الزيغ والضلال جميعاً، فحاجّ النصارى في الآية السابقة، وحاجّ اليهود في الآية التي قبلها، وحاجّ المنافقين

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

والمشركين أثناء السورة، وفي سور كثيرة غيرها، وأقام الحجة عليهم جميعاً، وظهرت نبوةُ محمد ﷺ ظهورَ الشمس في رابعة النهار.. نادى الناس كافةً، ودعاهم إلى اتّباع برهانه، والاهتداء بنوره.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ...﴾ الآية، مناسبتها لآخر السورة: أنَّ الله سبحانه وتعالى[1] لمَّا تكلم في أول السورة في أحكام الأموال من الإرث وغيره.. ختم آخرها بهذه الآية؛ ليتشاكل المبدأ والمقطع، والوسط مشتملٌ على المناظرة مع فرق المخالفين للدين، وكثيراً ما يقع ذلك في السور.

ورُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنَّه قال في خطبته: ألا إنَّ آية أول سورة النساء أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه مسلم عن محمد بن المنكدر، سمع جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي علي، فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب علي من وضوئه، فأفقت وقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئاً، حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾. الحديث أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود، وابن ماجه، وأحمد، والطيالسي، وابن الجارود، وأبو نعيم.

وروى ابن عبد الرزاق وابن جرير عن ابن سيرين قال[2]: نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ والنبي ﷺ في مسير له، وإلى جنبه حذيفة بن اليمان، فبلغها النبي ﷺ حذيفة، وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب، وهو يسير خلفه، فلما

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

استخلف عمر.. سأل عنها حذيفة، ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له حذيفة: والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني على أن أحدثك ما لم أحدثك يومئذ! فقال عمر: لم أرد هذا رحمك الله.

قال الخطابي: أنزل الله في الكلالة آيتين، إحداهما في الشتاء، وهي التي في أول سورة النساء، وفيها إجمال وإبهام لا يكاد يتبين المعنى من ظاهرها، ثم أنزل الآية الأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها، وفيها من زيادة البيان ما ليس في آية الشتاء، فأحال السائل عليها؛ ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عام أريد به خاص؛ أي: يا أهل الإنجيل، وهم النصارى، وقيل: المراد بهم الفريقان، فغلو اليهود: بتنقيص عيسى؛ حيث قالوا: إنه ابن زانية، وغلو النصارى: بالمبالغة في تعظيمه؛ حيث قالوا: إنه شريك الله أو ابنه ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ أي: لا تتجاوزوا في دينكم الحدود التي حددها الله لكم، ولا تبالغوا في تعظيم عيسى؛ حيث وصفتموه بأنه ابن الله، أو شريكه، فإنَّ الزيادة في الدين ليس بحق، كالنقص فيه ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ولا تعتقدوا فيه ﴿إِلَّا﴾ القول والاعتقاد ﴿ٱلۡحَقَّۚ﴾ والصواب الثابت بنص دينيّ متواتراً، أو برهان عقلي قاطع، ومن تنزيهه تعالى عن الشريك والولد؛ أي: لا تصفوه بما يستحيل اتصافه تعالى به من الاتّحاد والحلول في بدن الإنسان أو روحه، واتخاذ الزوجة والولد، وليس لكم على ما زعمتم من دعوى الاتّحاد والحلول واتخاذ الزوجة والولد شيء من الأدلة المذكورة، فإنّ(1) نصارى أهل نجران أربع فرق:

ملكانية: وهم الذين قالوا: عيسى والرب شريكان، **ومرقوسية**: وهم الذين قالوا: عيسى ثالث ثلاثة، **ومار يعقوبية**: وهم الذين قالوا: عيسى هو الله، **ونسطورية**: وهم الذين قالوا: عيسى ابن الله، فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

---

(1) مراح.

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ﴾ مبتدأ، و﴿عِيسَى﴾ بدل منه، أو عطف بيان له، و﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لعيسى ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبر المبتدأ؛ أي: إنما المسيح عيسى ابن مريم هو رسول الله تعالى إلى بني إسرائيل، لا شريكه ولا ابنه، وقد أمرهم بأنْ يعبدوا الله وحده، ولا يشركوا به شيئاً، وزهدهم في الدّنيا، وحثهم على التقوى، وبشرهم بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وأرشدهم إلى الاعتدال في كل شيء، فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان. وقرأ جعفر بن محمد ﴿إنما المسيح﴾ على وزن السكيت. ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾؛ أي: ومكون بكلمة الله سبحانه وتعالى وأمره الذي هو «كن»، من غير واسطة أب، ولا نطفة، ﴿أَلْقَىٰهَآ﴾؛ أي: أوصلها ﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾؛ أي: أوصل تلك الكلمة إلى مريم بنفخ جبريل في جيب درعها، فوصل النفخ إلى فرجها، فحملت به. ﴿وَرُوحٌ﴾: صادر ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه وتعالى، ومكون بأمره تعالى جبريل بالنفخ في جيبها، ولذلك نسبت إليه تعالى، وإنّما سمِّي روحاً؛ لأنّه حصل من الريح الحاصل من نفخ جبريل، والريح يخرج من الروح. وهذه الإضافة للتفضيل والتشريف، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى، فإن الله سبحانه وتعالى لما أرسل إلى مريم الروح الأمين جبريل.. بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاماً زكياً، فاستنكرت ذلك؛ إذ هي عذراء لم تتزوج، فقال لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فكلمة «كن»: هي الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشيء وإيجاده، وهو أيضاً مؤيد بروح منه، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، وكما قال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وآية الله في خلق عيسى بكلمته وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه.. كآيته في خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه، فخلقهما كان بغير السنة العامة في خلق الناس من ذكر وأنثى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾. وزعم بعض النصارى: أن كلمة ﴿مِّنْهُ﴾ تدل على أن عيسى جزء من الله، بمعنى أنه ابنه، فقد نقل بعض المفسرين: أن طبيباً حاذقاً نصرانياً جاء للرشيد، فناظر علي بن الحسين الواقدي المروزي ذات يوم، فقال:

إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية، فقرأ له الواقدي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فلئن صح ما تقول.. لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى، فأفحم النصراني وأسلم، ففرح بذلك الرشيد، ووصل الواقدي بصلة عظيمة.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان له من العمل». متفق عليه.

﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ يا أهل الكتاب ﴿بِٱللَّهِ﴾ إيماناً يليق به، وهو أنه واحد أحد، تنزه عن صفات الحوادث، وأنَّ كل ما في الكون مخلوق له، وهو الخالق له، وأن الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليابس منها، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها ﴿و﴾ آمنوا بـ ﴿رسله﴾ تعالى كلهم إيماناً يليق بشأنهم، وهو أنهم عبيد له، خصهم بضروب من التكريم والتعظيم، وألهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحي، ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ أيها النصارى: الآلهة ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ الأب والابن وروح القدس، وقيل: المراد بالآلهة الثلاثة: الله سبحانه وتعالى، ومريم، والمسيح، وقيل: يعنون بالثلاثة: الثلاثة الأقانيم؛ أي: الأشخاص، فيجعلونه سبحانه وتعالى جوهراً واحداً، وله ثلاثة أقانيم، ويعنون بالأقانيم: أقنوم الوجود، وأقنوم الحياة، وأقنوم العلم، فيقولون: الله ثلاثة أقانيم، كل منها عين الآخر، وكل منها إلٰه كامل، ومجموعها إلٰه واحد، وربّما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فإنّ في هذا تركاً للتوحيد الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء، واتباعاً لعقيدة الوثنيين، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول، ولا يقبله أولوا الألباب.

﴿ٱنتَهُوا۟﴾؛ أي: امتنعوا وانزجروا عن مقالتكم بالتثليث.. يكن الانتهاء عن القول بالتثليث ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ من القول به، أو المعنى: انتهوا عن التثليث،

وقولوا قولاً آخر خيراً لكم منه، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاؤوا بتوحيد الله وتنزيهه. ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما المستحق للعبادة من جميع المخلوقات إلا ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بالذات، منفرد في ألوهيته، منزه عن التعدد، فليس له أجزاء، ولا أقانيم، ولا هو مركب، ولا متحد بشيء من المخلوقات ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؛ أي: أسبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد، أو سبحوه تسبيحاً من ذلك، تقدس اللَّهُ سبحانه وتعالى على أن يكون له ولد، كما قلتم في المسيح: إنّه ابنه، إنه هو عينه، فإنه تبارك وتعالى ليس له مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولداً؛ لأن الولد جزء من الأب، وتعالى الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث، والتعبير[1] بالولد دون الابن ـ الذي يعبرون به في كلامهم ـ لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ.. فلا بدّ أن يكون ولداً؛ أي: مولوداً من تلقيح أبيه لأمه، وهذا محال على الله تعالى، وإن أرادوا الابن المجازي لا الحقيقي.. فلا خصوصية لعيسى في ذلك؛ لأنه قد أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار.

وقرأ الحسن: ﴿إن يكون له ولد﴾ ـ بكسر الهمزة، وضم النون من يكون ـ على أن: إنْ نافية؛ أي: ما يكون له ولد، فيفيد الكلام التنزيه عن التثليث والإخبار بانتفاء الولد، فالكلام جملتان، وفي قراءة الجمهور جملة واحدة. ﴿لَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، فمن كان مالكهما وما فيهما.. كان مالكاً لعيسى ومريم، وإذا كانا مملوكين له فكيف يتوهم كونهما له ولداً وزوجة؟ أي: إنه سبحانه وتعالى ليس له ولد يصح أن يسمى ابناً له حقيقة، بل له كل ما في السمٰوات وما في الأرض خلقاً وملكاً، والمسيح من جملتها، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾. ولا فرق في هذا بين الملائكة والنبيّين، وبين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم، ومن خلقه من أصل واحد كحواء وعيسى، ومن خلقه من الزوجين الذكر والأنثى، فكل هؤلاء عبيده يحتاجون إلى فضله وكرمه وجوده،

---

(١) المراغي.

وهو يتصرف فيهم كما يشاء. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: كفى به حافظاً ووكيلاً، إذا وكلوا أمورهم إليه، تكل الخلائق أمورهم إليه، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، فهو تعالى غني عن الولد، فإن الولد إنما يحتاج إليه أبوه ليعينه في حياته، ويقوم مقامه بعد وفاته، والله تعالى منزه عن كل ذلك. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وكفى به وكيلاً﴾؛ أي: مستقلاً بتدبير خلقه، فلا حاجة له إلى ولد يعينه انتهى.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: لن يأنف، ولن يتكبر، ولن يرتفع المسيح بن مريم عن أن يكون عبداً لله تعالى؛ أي: مقرّاً بالعبودية لله، مستمراً على عبادته وطاعته؛ لعلمه بعظمة الله تعالى وما يجب له من العبودية والشكر، وروي أن وفد نجران قالوا: يا محمد، إنك تعيب صاحبنا، فتقول: إنه عبد لله، فقال النبي ﷺ: «إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبداً لله» قالوا: بلى، فنزلت: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾.

وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿عبيداً لله﴾ بصيغة التصغير ﴿وَلَا﴾ يستنكف ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله تعالى، كجبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش؛ أي: لن يترفعوا عن أن يكونوا عباداً لله تعالى، وذكر الملائكة استطراد؛ لأنه لما ذكر شأن عيسى عليه السلام للرد على النصارى.. ذكر الملائكة للرد على المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله، ومحله في سورة الزخرف عند قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ إلخ. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ﴾ ويترفع ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ وطاعته تعالى أنفة وكبراً، فيرى أنه لا يليق به ذلك ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ عن الإيمان به والخضوع والتذلل له ﴿فسـ﴾ ـيجزيه أقبح الجزاء وأشد العذاب في الآخرة، إذ ﴿يحشرهم إليه جميعاً﴾؛ أي: إذ يحشر الناس إليه جميعاً للجزاء، المستنكفين منهم والمستكبرين وغيرهم في صعيد واحد، فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم، إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

---

(١) البحر المحيط.

فلا بدَّ من هذا التقدير؛ إذ الحشر عام للمؤمنين والكافرين كما يدل عليه التفصيل الآتي بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ﴾، فقد حذف من الإجمال ما أثبت في التفصيل. وقرأ الحسن بالنون بدل الياء في ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لحال الفريق المطوي ذكره في الإجمال، قدم على بيان حال مقابله؛ إظهاراً لفضله ومسارعة إلى بيان كون حشره أيضاً معتبراً في الإجمال، كما قدرناه سابقاً؛ أي: فأما الذين أمنوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات والمأمورات، واجتنبوا المنهيات ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ من غير أن ينقص منها شيئاً أصلاً؛ أي: سيعطيهم أجورهم وافيةً كاملة على إيمانهم وعملهم الصالح بحسب سنته تعالى في ترتيب الجزاء على مقدار تأثير الإيمان والعمل الصالح في النفس وتزكيتها وطهارتها من أدران الشرور والآثام ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وإحسانه على أجور أعمالهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ﴾؛ أي: أنفوا وترفعوا عن عبادته تعالى ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ أي: تكبروا عن الإيمان به تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: مؤلماً يستحقونه بحسب سنته أيضاً، بسبب استنكافهم واستكبارهم، لكن لا يزيدهم على ما يستحقون شيئاً؛ لأن رحمته سبقت غضبه، فهو يجازي المحسن بالعدل والفضل، ويجازي المسيء على إساءته بالعدل ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ولا يجد المستنكفون لأنفسهم من غير الله تعالى ﴿وَلِيًّا﴾ يلي أمورهم ويدبر مصالحهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويحفظهم من بأسه تعالى، ويرفع عنهم العذاب وينجيهم منه؛ إذ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لكافّة المكلّفين ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾؛ أي: رسول ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو: محمد رسول الله ﷺ، وإنما سماه برهاناً؛ لأنّ وظيفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل. أي: قد جاءكم من قبل ربّكم برهانٌ جلي يبين لكم حقيقة الإيمان به وبجميع ما أنتم في حاجة إليه من أمر دينكم، مؤيد

بالدلائل والبينات، ألا وهو النبي الأمي الذي هو برهان على حقية ما جاء به بسيرته العملية ودعوته التشريعية، فإن أمياً لم يتعلم في مدرسة ولم يعن في طفولته بما كان يسمى عند قومه علماً، كالشعر والنسب وأيام العرب، بل ترك ولدان المشركين وشأنهم، ولم يحضر سمار قومه ولا معاهد لهوهم، ولم يحظ من التربية المنزلية والتأديب الاجتماعي ـ في أول نشأته ـ ما يؤهله للمنصب الذي تصدى له في كهولته، وهو تربية الأمم تربية دينية اجتماعية سياسية حربية، وهو مع هذا قد قام به على أتم وجه وأكمل طريق، لهو برهان على عناية الله به وتأييده إياه بوحيه وهديه.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ بواسطة محمد ﷺ ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾؛ أي: نوراً نيراً في نفسه منوراً لغيره، وهو القرآن، وسماه نوراً؛ لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب؛ أي: وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتاباً، هو كالنور في الهداية للناس مبيناً لكل ما أنزل لبيانه، من توحيد الله وربوبيته، وهو المقصد الأعلى الذي بعث به جميع الرسل، وكان كلٌّ منهم يدعو أمته إليه، ويستجيب له الناس بقدر استعدادهم لفهم حقيقته، ثم لم يلبثوا أن يشوهوه بالشرك وضروب الوثنية التي تدنس النفوس، وتهبط بها من أوج العزة والكرامة إلى المهانة والذلة بالخضوع لبعض مخلوقات من جنسهم، أو من أجناس أخرى.

ولما تغلغلت الوثنية في جميع الأديان المعروفة وأفسدتها على أهلها.. أنزل الله تعالى لهداية البشر هذا النور المبين، وهو القرآن، فبين لمن يفهم لغته حقيقة التوحيد بالدلائل والبراهين الكونية والعقلية مع ضرب الأمثال، وذكر شيء من القصص؛ لكشف ما ران على هذه العقيدة من شبهات المضلين، وأوهام الضالين التي مزجتها بالشرك. هذا البيان الذي جاء به القرآن لتقرير التوحيد واجتثاث جذور الوثنية.. لم يكن معهوداً مثله من الحكماء، ولا من الأنبياء، فمن ثم وجب أن يكون من رب العالمين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

والخلاصة: أنّ محمداً النبي الأمي ﷺ كان برهاناً على حقية دينه، وكتابه

القرآن أنزل من العلم الإلٰهي، ولم يكن لعلمه الكسبي أن يأتي بمثله، وأنزل مبيناً لجميع الناس ما هم في حاجة إليه في معاشهم ومعادهم؛ ليتدبروا آياته ويسعدوا به في حياتهم الدنيا، وينالوا به الخير في العقبى، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾: في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأسمائه، وأحكامه ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: وتمسكوا بدينه، والتجؤوا إليه تعالى في أن يثبتهم على الإيمان ويصونهم عن نزغات الشيطان ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ وهي الجنة ونعيمها ﴿و﴾ في ﴿فضل﴾ وكرم منه وإحسان زائد، كالنظر إلى وجهه الكريم، والتعظيم وغير ذلك من مواهب الجنة. والاعتصام: التمسك بما يعصم ويحفظ؛ أي: فأما الذين يعتصمون بهذا القرآن ـ فيدخلهم الله في رحمة خاصة منه، لا يدخل فيها سواهم، وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم، ولكنه يخص من يشاء بما شاء من أنواعهما، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرحمة: الجنة، والفضل: ما يتفضل به عليهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو: الإسلام والطاعة والسعادة الروحانية، والجار والمجرور في محل نصب حال من صراطاً، والضمير المجرور عائد على الله، بتقدير مضاف؛ أي: إلى ثوابه؛ أي: ويهديهم طريقاً قويماً، وهدايةً خاصة تبلغهم السعادة في الدنيا بالعزة والكرامة، وفي الآخرة بالجنة والرضوان، وهذا الصراط المستقيم لا يهدي إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم، واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد: أنه يوفّقهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم. وسكت عن القسم الآخر المقابل لهؤلاء المؤمنين المعتصمين؛ للإيذان بأنه بعد ظهور البرهان لا ينبغي أن يوجد، وإن وجد لا يؤبه له ولا يهتم بشأنه.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾؛ أي: يسألك المؤمنون يا محمد عن كيفية إرث مال من ليس له ولد ولا والد، تقدم لك في مبحث أسباب النزول: أنها نزلت في جابر بن عبد الله، له تسع أخوات، وليس له ولد ولا والد، وروى الطبري عن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة، فسألوا عنها النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وختم الله سبحانه وتعالى هذه السورة بذكر الأموال، كما أنّه افتتحها بذلك؛ لتحصل المشاكلة بين المبدأ والختام.

وجملة ما في هذه السورة من آيات المواريث ثلاثة:

الأولى: في بيان إرث الأصول والفروع.

والثانية: في بيان إرث الزوجين والأخوة والأخوات من الأم.

والثالثة: هي هذه، في إرث الأخوة والأخوات الأشقاء، أو لأب. وأما أولو الأرحام فمذكورون في آخر الأنفال، والمستفتي عن الكلالة هو جابر، لما عاده النبي ﷺ في مرضه، فقال: يا رسول الله، إني كلالة، فكيف أصنع في مالي؟ كما مر. ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ ويجيبكم ﴿فِي﴾ بيان إرث ﴿ٱلْكَلَٰلَةِۚ﴾ ويبين لكم كيفية إرث مال من مات وليس له أصل ولا فرع وارثان، والكلالة: اسم يقع على الوارث وعلى الموروث، فإن وقع على الوارث.. فهو من سوى الوالد والولد، وإن وقع على الموروث.. فهو الذي مات ولا يرثه أحد من الوالدين، ولا أحد من الأولاد، والجواب هو ما ذكره بقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾ ومات، جملة[1] مستأنفة في جواب سؤال أخذ من يستفتونك، كأنه قيل: وما الذي يفتى به وما الحكم؟ فالوقف على الكلالة ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، أي: ولا والد، واقتصر سبحانه في هذه الآية على نفي الولد مع كون الأب يسقط الأخ كما يسقطه الولد الذكر؛ لأنّ المراد بيان حقوق الأخ مع الولد فقط هنا، وأما سقوطه مع الأب.. فقد تبين بالسنة، كما ثبت في «الصحيح» من قوله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر، والأب أولى من الأخ». ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ شقيقة، أو لأب ﴿فَلَهَا﴾؛ أي: فللأخت ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَۚ﴾ بالفرض، والباقي للعصبة.

والمعنى: إن مات امرؤ غير ذي ولد ووالد، وله أخت شقيقة، أو من الأب.. فللأخت نصف ما ترك بالفرض، والباقي للعصبة إن كان، أو لها بالرد إن لم يكن له عصبة، فإن كان له ولد ذكر، أو والد.. فلا شيء لها ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: المرءُ الكلالة ﴿يَرِثُهَآ﴾؛ أي: يرث أخته، جميع ما تركت إن فرض موتها

---

(١) الفتوحات.

مع بقائه ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذكر، ولا أنثى، أو والد يحجبه عن إرثها، فإن كان لها ولد ذكر. . فلا شيء له، أو أنثى. . فله ما فضل عن نصيبها، ولو كانت الأخت أو الأخ من أم. . ففرضه السدس، كما تقدم أول السورة. وإنما أطلق الإرث ولم يبين النصيب؛ لأنّ الأخ ليس صاحب فرض معين، بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل هو عصبة يحوز كل التركة عند عدم وجود أحد من أصحاب الفروض، وعند وجود أحد منهم يرث هو معه كلالةً جميع ما بقي ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾؛ أي: فإن كانت الأختان اثنتين فصاعداً دلَّ[1] على ذلك قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾. وقال «البيضاوي»: الضمير[2] لمن يرث بالأخوة، وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه باثنتين: التنبيه على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما، والمعنى: فإن كان من يرث بالأخوة شقيقتين، أو من أب. . فلهما الثلثان مما ترك أخوهما كلالةً، وكذا إن كن أكثر من اثنتين كأخوات جابر ـ فقد كن سبعاً أو تسعاً ـ والباقي لمن يوجد من العصبة إن لم يكن هناك أحدٌ من أصحاب الفروض، كالزوجة، وإلا أخذ كل ذي فرض فرضه أولاً. ﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾؛ أي: وإن كان من يرثون بالأخوة كلالة ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً﴾؛ أي: إخوة مختلطة رجالاً أشقاء، أو من أب، ونساء شقيقات، أو لأب ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾؛ أي: مثل نصيب الانثيين يقتسمون التركة على طريقة التعصيب، كما هي القاعدة في كل صنف اجتمع منه أفراد في درجة واحدة، إلا أولاد الأم، فإنهم شركاء في ثلث أمهم؛ لحلولهم محلها، ولولا ذلك لم يرثوا؛ إذ هم ليسوا من عصبة الميت. وقرأ ابن أبي عبلة[3]: ﴿فإن للذكر مثل حظ الأنثين﴾.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون أحكام دينكم من قسمة المواريث وغيرها كراهية ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ وتخطئوا فيها، وقرأ[4] الكوفي والفراء والكسائي وتبعهم الزجاج: ﴿لأن لا تضلوا﴾ وهي قراءة تفسيرية. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مصالح العباد في المبدأ والمعاد، وفيما كلّفهم به من الأحكام

---

(١) النسفي.
(٢) البيضاوي.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عالم؛ لأنّ علمه محيط بكل شيء، فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم، فهو لم يشرع لكم من من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم لصلاح أنفسكم، وذلك شأنه في جميع أفعاله وأحكامه فكلها موافقة للحكمة، دالة على واسع العلم وعظيم الرحمة. وقال أبو عبد الله الرازي[1]: في هذه السورة لطيفة عجيبة، وهي: أن أولها مشتمل على كمال تنزه الله سبحانه وتعالى وسعة قدرته، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم، وهذان الوصفان بهما تثبت الربوبية والألوهية، والجلال والعزّة، وبهما يجب أن يكون العبد منقاداً للتكاليف.

الإعراب

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَغۡلُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية. ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بتغلوا، والجملة الفعلية جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلا الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بتقولوا. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلۡحَقَّۚ﴾: مفعول به لتقولوا؛ لأنه بمعنى لا تذكروا ولا تعتقدوا، ويجوز أن يكون صفة للمصدر المحذوف، أي: إلا القول الحق.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: مبتدأ. ﴿عِيسَى﴾: بدل منه، أو عطف بيان منه. ﴿ٱبۡنُ﴾ صفة لعيسى، وهو مضاف. ﴿مَرۡيَمَ﴾: مضاف إليه. ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾: معطوف على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل النصب

---

(١) الفخر الرازي.

حال من كلمته، وقد مقدرة معه، أو حال من الضمير المجرور في كلمته. ﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: جار ومجرور متعلق بألقى. ﴿وَرُوحٌ﴾: معطوف على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور، صفة لـ﴿روحٌ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾.

﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، وتقديره: إذا عرفتم أن عيسى رسول الله وروح منه وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: آمنوا. ﴿آمنوا﴾: فعل وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿آمنوا﴾. ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الآلهة ثلاثة، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب مقول ﴿تقولوا﴾. ﴿ٱنتَهُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة بعاطف مقدَّر على جملة ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة. ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾: خبر ليكن المحذوفة مع اسمها، تقديره: يكن الانتهاء خيراً ﴿لَّكُمْ﴾ متعلق بخيراً، أو صفة له، وجملة يكن المحذوفة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَٰهٌ﴾: خبر. ﴿وَٰحِدٌ﴾: صفة له مؤكدة، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً، تقديره: أسبحه تسبيحاً، أو سبحوه تسبيحاً، وهو مضاف، وضمير الجلالة مضاف إليه، وجملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿أَن يَكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم ليكون. ﴿وَلَدٌ﴾: اسم يكون مؤخر، وجملة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: سبحانه عن كون ولد له، الجار والمجرور متعلق بسبحانه. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَا﴾:

موصولة، أو موصوفة في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لما، أو صفة لها ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما في السمٰوات ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز، والجملة مستأنفة، أو معطوفة.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب. ﴿يَكُونَ﴾: فعل ناقص منصوب، واسمه ضمير يعود على المسيح. ﴿عَبْدًا﴾: خبر يكون. ﴿لِّلَّهِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿عبداً﴾. ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على المسيح. ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: صفة للملائكة، وجملة يكون صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: عن كونه عبداً لله، ولا الملائكة المقربون عن كونهم عبيداً لله، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يستنكف﴾.

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: إستئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو جملة الجواب، أو هما. ﴿يَسْتَنكِفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿من﴾، فاعله ضمير يعود على مَن. ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَسْتَنكِفْ﴾. ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾: معطوف على يستنكف. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾: الفاء: رابطة لجواب مَنْ الشرطية وجوباً؛ لكون الجواب مقروناً بحرف التنفيس. ﴿سيحشرهم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بيحشر. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ضمير يحشرهم، والجملة الفعلية في محل الجزم بمَنْ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة مَنْ الشرطية مستأنفة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الله سبحانه وتعالى سيحشرهم إليه جميعاً، وأردت بيان

جار ومجرور متعلق بيفتيكم على إعمال الثاني، وهو اختيار البصريين، ولو أعمل الأول لأضمر في الثاني، فقال: يفتيكم فيها في الكلالة، وله نظائر في القرآن ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱمْرُؤٌاْ﴾: فاعل بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: إن هلك امرؤ هلك. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط لها. ﴿ٱمْرُؤٌاْ﴾: فاعل. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرؤ، والجملة الفعلية مفسرة لذلك المحذوف لا محل لها من الإعراب. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿ليس﴾. ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر. وجملة[1] ﴿لَيْسَ﴾ في محل الرفع صفة لـ﴿ٱمْرُؤٌاْ﴾، تقديره: إن هلك امرؤ غيرُ ذي ولد، وليست الجملة في محل النصب على الحال كما قاله صاحب «الكشاف» وأبو البقاء؛ لأن ذا الحال نكرة غير موصوفة، فإنَّ ﴿هَلَكَ﴾ مفسِّرٌ للفعل المحذوف لا صفة، قاله الطيبي، وهو ظاهر؛ لأن أصل صاحب الحال التعريف؛ لأنه محكوم عليه بالحال، وحق المحكوم عليه أن يكون معرفة؛ لأنَّ الحكم على المجهول لا يفيد غالباً.

﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ﴾.

﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل الرفع معطوفة على جملة ليس ﴿فَلَهَا﴾ (الفاء): رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿لها﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿نِصْفُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿مَا﴾: إما موصولة، أو موصوفة في محل الجر مضاف إليه. ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرىء، وجملة ترك صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: نصف ما تركه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾، على كونها جواباً لها، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأنها واقعة في جواب

---

(١) الفتوحات.

سؤال مقدر مأخوذ من يستفتونك، كأنه قيل: وما الذي يفتى به وما الحكم؟ فالوقف على الكلالة كما مر. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: استئنافية. هو: مبتدأ. ﴿يَرِثُهَآ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على امرىء، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَكُن﴾: فعل ناقص مجزوم بلم. ﴿لَّهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم ليكن. ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر، وجواب إن معلوم مما قبله، تقديره: إن لم يكن لها ولد.. فهو يرثها، والجملة مستأنفة.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

﴿فَإِن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حكم ما إذا كانت الأخت واحدة، وأردت بيان حكم ما إذا كانتا اثنتين.. فأقول لك. ﴿إن كانتا اثنتين﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿كَانَتَا﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بإن على كونه فعل شرط. ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾: خبر كان. ﴿فَلَهُمَا﴾: الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية. ﴿لهما﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلثُّلُثَانِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بإن، على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في الخبر. ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على امرىء، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط: الضمير المحذوف، تقديره: مما تركه.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾: جازم وفعل ناقص واسمه. ﴿إِخْوَةً﴾: خبر كان. ﴿رِّجَالًا﴾: بدل من إخوة. ﴿وَنِسَآءً﴾: معطوف على رجالاً. ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾: (الفاء): رابطة لجواب (إن) الشرطية. ﴿للذكر﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مِثْلُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. ﴿حَظِّ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: مضاف إليه، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الجزم بإن الشرطية، على كونها جواباً

لها، وجملة إن الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق به، والجملة مستأنفة ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدَّر إليه، تقديره: كراهية ضلالكم عن طريق العدل والحق، والمصدر المقدَّر منصوب بـ﴿يُبَيِّنُ﴾، على كونه مفعولاً لأجله، وهو متوفر الشروط المعتبرة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾: وهو خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾: من غلا يغلو، كدعا يدعو، أصله: لا تغلووا، بوزن: لا تفعلوا، بواوين أولاهما مضمومة، ويقال فيه: استثقلت الضمة على الواو، ثمَّ حذفت، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الواو الأولى ـ وهي لام الكلمة ـ، فصار: لا تغلوا، بوزن: لا تفعلوا، يقال: غلا الشيء يغلو غلواً وغلاء، إذا جاوز الحد، والغلو: مجاوزة الحد، ومنه: غلا السعر.. إذا صار غالياً، وغلوة السهم.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾: استنكف ـ من باب: استفعل السداسي ـ وهو من مزيد الثلاثي بثلاثة أحرف، وسئل[1] أبو العباس عن الاستنكاف؟ فقال: هو من النكف، يقال: ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف، والنكف: أن يقال له سوء، واستنكف: دفع ذلك السوء، انتهى. وفي «المصباح»: نكفت من الشيء نكفاً ـ من باب: تعب ـ ونكفت أنكف ـ من باب: قتل ـ لغة فيه. واستنكف: إذا امتنع أنفة واستكباراً، انتهى. وفي «البيضاوي»: والاستكبار دون الاستنكاف، ولذا عطف عليه فيما بعد، وإنما يستعمل الاستنكاف حيث لا استحقاق، بخلاف الاستكبار؛ فإنه قد يكون باستحقاق، انتهى. وقيل:[2] الاستنكاف: الامتناع عن الشيء أنفة وكبراً، والاستكبار: أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه، غروراً وإعجاباً بها، وفي «الفتوحات»: الاستنكاف: الأنفة والترفع، من نكفت الدمع إذا نحيته على وجهك بالأصبع، والمعنى هنا: لن يأنف عيسى، ولن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

يترفع، ولن يتكبر عن أن يكون عبداً لله تعالى.

﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾: البرهان: الحجة، يجمع على براهين، يقال: برهن الشيء وعليه عنه: إذا أقام عليه الحجة وأوضحه ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾: يقال: اعتصم به ـ من باب: افتعل ـ إذا أمسكه بيده، واعتصم بالله: إذا امتنع بلطفه من المعصية، واعتصم بالله من الشر والمكروه: التجأ به ولاذ وامتنع.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها:[1] الاستعارة في قوله: ﴿لَا تَغْلُواْ﴾: والغلو: حقيقة في ارتفاع السعر، وفي قوله: ﴿وَكِيلًا﴾: استعير لإحاطة علم الله بهم. وفي قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ استعير للمجازاة.

ومنها: التجنيس المماثل في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ و ﴿يُفْتِيكُمْ﴾.

ومنها: التفصيل في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

ومنها: ذكر[2] العام وإرادة الخاص في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فالكتاب عام أريد به الخاص، وهو الإنجيل، وكذلك أهل الكتاب المراد بهم حينئذ النصارى، فكل منهما عام أريد به خاص، وذلك لأن ما بعده يدل على ذلك، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾، وهي قولة النصارىٰ، وقيل: المراد بهم الفريقان، فغلو اليهود: بتنقيص عيسى؛ حيث قالوا: إنه ابن زانية، وغلو النصارى: بالمبالغة في تعظيمه؛ حيث قالوا: إنه إلٰه أو ابن إلٰه.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهو من نوع قصر موصوف على صفة.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الجمل.

ومنها: الإضافة للتشريف والتكريم في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾.

ومنها: التنكير للتعظيم والتفخيم في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، بمعنى: أنه روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة.

ومنها: المشاكلة بين المبدأ والختام في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم(١)

* * *

(١) وقد تم بعون الله وفضله تفسير سورة النساء في تاريخ: ١٤٠٩/٢/٩ هـ.

سورة المائدة

سورة المائدة مدنية، إلا قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع والنبي ﷺ واقف بعرفة، فقرأها النبي ﷺ في خطبته، وقال: «يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها، وحرموا حرامها»، وإنما قال فيها ذلك ـ مع كون كل القرآن كذلك ـ. لزيادة الاعتناء بها، وإلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، فإنها نزلت بمكة عام الفتح.

والمشهور أن المدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء نزل بالمدينة أو بمكة أو في سفر. وتسمَّى سورة المائدة، وسورة العقود، وسورة المنقذة. وسميت سورة المائدة؛ لورود ذكر المائدة فيها، حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته، وتكونُ لهم عيداً، وقصتها أعجب ما ذكر فيها؛ لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العلي العظيم. وآياتها مئة وعشرون في العد الكوفي، ومئة وثنتان وعشرون في العد الحجازي، ومئة وثلاثة وعشرون في العد البصري.

فضلها: ومما يدل على فضلها: ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال:(١) (أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها). أخرجه أحمد.

وروى البغوي بسنده عن ميسرة قال: إن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها، وهي قوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِ﴾،

(١) الخازن.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾، ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وتمام بيان الطهر في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾، و﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ وقوله: ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

المناسبة: ومناسبة افتتاحها لما قبلها[1]: هو أنه تعالى لما ذكر استفتاءهم في الكلالة وإفتاءهم فيها، وذكر أنه يبين لهم كراهة الضلال.. بين في هذه السورة أحكاماً كثيرة هي تفصيل لذلك المجمل، وقد ذكرناها آنفاً.

وقال المراغي: وجه التناسب بينها وبين ما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ أنّ سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً، فالصريح: عقود الأنكحة، والصداق، والحلف، والمعاهدة، والأمان. والضمني: عقود الوصية، والوديعة، والوكالة، والإجارة.

٢ ـ أنّ سورة النساء مهدت لتحريم الخمر، وسورة المائدة حرمتها ألبتة، فكانت متممة لشيء مما قبلها.

٣ ـ أنَّ معظم سورة المائدة في محاجة اليهود والنصارى، مع ذكر شيء عن المنافقين والمشركين، وقد تكرر ذكر ذلك في سورة النساء، وأطيل به في آخرها.

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة: أن الأولى بدئت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهذا أشبه بالتنزيل المكي، والثانية بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهذا أشبه بالتنزيل المدني المتأخر عن الأول.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة المائدة[3]

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الناسخ والمنسوخ لمحمد بن حزم.

تحتوي على تسع آيات منسوخة:

الآية الأولى منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ (٢ مدينة)، ثم نسخت بآية السيف.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾، نزلت في اليهود، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية، (٢٩) التوبة.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (٣٣ المائدة)، نسخت بالاستثناء منها فيما بعدها، بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾، فصارت ناسخة لها.

والآية الرابعة قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية (٤٢ المائدة) نسخت بقوله تعالى ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الآية (٤٩ المائدة).

والآية الخامسة قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الآية (٩٩ المائدة) نسخها آية السيف.

والآية السادسة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية (١٠٥ المائدة) نسخ آخرها أولها والناسخ منها قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ والهدى ههنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس في كتاب الله آية جمعت الناسخ والمنسوخ إلا هذه.

والآية السابعة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية (١٠٦ المائدة) أجاز الله تعالى شهادة الذميين على صفة في السفر ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (٢/الطلاق مدنية) وبطلت شهادة أهل الذمة في السفر والحضر.

والآية الثامنة قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ الآية (١٠٧ المائدة) نسخها الآية التي في الطلاق وهي قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ

﴿مِّنكُمْ﴾ الآية (٢ مدنية الطلاق).

والآية التاسعة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، أي: على حقيقتها إلى قوله ﴿أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ وباقي الآية محكمة، نسخ ذلك من الآية بشهادة أهل الإسلام. انتهى.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

المناسبة

قد مر لك قريباً بيان وجه التناسب بين هذه السورة وبين السورة التي قبلها بأتم بيان، فراجعه.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[١] ابن جرير عن عكرمة قال: قدم الحطم بن هند ـ واسمه شريح بن هند بن ضبعة البكري ـ المدينة في عير له، يحمل طعاماً، فباعه، ثم دخل على النبي ﷺ فبايعه وأسلم، فلمّا ولى خارجاً.. نظر إليه النبي ﷺ، فقال لمن عنده: «لقد دخل علي بوجه وولى بقفا غادر»، فلمّا قدم اليمامة.. ارتد عن

(١) لباب النقول.

الإسلام، وخرج في عير له يحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة، فلما سمع به أصحاب النبي ﷺ.. تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتطعوه في عيره، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، فانتهى القوم، وأخرج عن السدي نحوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصدُّ هؤلاء كما صدوا أصحابنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن مسنده في كتاب «الصحابة» من طريق عبد الله بن جبلة بن حبان بن حجر عن أبيه عن جده حبان قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وأنا أوقد تحت قدر فيها لحم ميتة، فأنزل الله سبحانه وتعالى: تحريم الميتة، فأكفأت القدر.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿أَوْفُوا۟﴾ وأتموا ﴿بِٱلْعُقُودِ﴾ والعهود المؤكدة التي بينكم وبين الله تعالى، أو بينكم وبين أنفسكم أو بينكم وبين الناس؛ أي: أوفوا ما عقده الله وجعله عليكم، وألزمه إياكم من التكاليف والأحكام الدينية، كالمأمورات: فوفاؤها فعلها، والمنهيات: فوفاؤها اجتنابها، وكالمعاملات الجارية بينهم، من بيع وشراء ونكاح وطلاق: فوفاؤها العمل بموجبها، وكالنذور التي ألزمها الشخص نفسه: فوفاؤها الإتيان بما نذره على نفسه.

وقال الراغب(١): العقود ثلاثة أضرب: عقد بين الله وبين العبد، وعقد بين

---

(١) المراغي.

العبد ونفسه، وعقد بينه وبين غيره من البشر، وكل واحد منها.. إما أن يوجبه العقل الذي أودعه الله في الإنسان، ويتوصل إليه ببديهة العقل، أو بأدنى نظر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾. وإما أن يوجبه الشرع، وهو ما دلّنا عليه كتابُ الله تعالى وسنةُ رسوله محمد ﷺ.

وأساس العقود في الإسلام هو هذه الجملة ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾؛ أي: إنه يجب على كل مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله، ما لم يحرم حلالاً، أو يحلل حراماً، كالعقد على أكل شيء من أموال الناس بالباطل؛ كالربا، والميسر والقمار، والرشوة، ونحو ذلك.

قيل[1]: المراد بالعقود: هي التي عقدها الله تعالى على عباده، وألزمهم بها من الأحكام، وقيل: هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات، والأولى شمول الآية للأمرين جميعاً، ولا وجه لتخصيص بعضهما دون بعض. قال الزجاج: المعنى: أوفوا بعقد الله عليكم، وبعقدكم بعضاً على بعض، انتهى. والعقد الذي يجب الوفاء به هو ما وافق الكتاب والسنة، فإن خالفهما.. فهو ردٌّ لا يجب الوفاء به، ولا يحل.

والخلاصة: يا معشر المؤمنين ائتوا بالعقود والتكاليف التي ألزمها اللَّهُ تعالى إياكم بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وائتوا بموجب العقود الجارية بينكم من المعاملات، من بيع وإجارة مثلاً، وبموجب العقود التي جرت بينكم وبين أنفسكم من النذور، والعتاق، والطلاق.

ثم شرع يفصّل تلك الأحكام التي أمر بالإيفاء بها، وبدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم، فقال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾ بعد تذكيتها ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الثلاثة، الإبل والبقر والغنم ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إلا ما سيتلى عليكم تحريمه في هذه السورة، بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ إلخ؛ أي: أحل الله سبحانه

---

(١) الشوكاني.

وتعالى لكم أيها المؤمنون أكل البهيمة من الأنعام الثلاثة، وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام بعد تذكيتها، وألحق بها بعض الوحوش والطيور بالسنة، كالظباء، وبقر الوحش، وحماره، والضب، والحمام، ونحوها إلا ما حرِّم أكله عليكم فيما سيتلى عليكم في الآية الثالثة من هذه السورة بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾.

وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: حال من الكاف في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾؛ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام حال كونكم غير محلي الصيد الذي حرّمه الله عليكم؛ أي: غير مجوزين للاصطياد في الإحرام باعتقاد حله، أو بفعله. ومعنى عدم إحلالهم له، تقرير حرمته عملاً واعتقاداً؛ أي: لا تجعلوه حلالاً عملاً واعتقاداً باصطياده، أو الأكل منه وأنتم محرمون بالحج، أو العمرة، أو كليهما، أو داخلون في أرض الحرم، فلا يحل الصيد لمن كان في أرض الحرم، ولو لم يكن محرماً، ولا للمحرم بالحج أو العمرة وإن كان في خارج حدود الحرم، بأن نوى الدخول في هذا النسك وبدأ بأعماله، كالتلبية.

والمعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا إن كانت الأنعام ميتةً، أو موقوذةً، أو متردِيةً، أو نطيحةً، أو افترسها السبع، أو ذُبحت على غير اسم الله، فهي محرمة، وإلا أن تحلوا الصيد في حال إحرامكم، أو في حال كونكم في الحرم؛ فإنه لا يحل لكم ذلك.

والخلاصة: أحلت لكم هذه الأشياء غير محلي الاصطياد، ولا أكل الصيد في الإحرام.

وقرأ الجمهور ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ بالنصب على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿غيرُ﴾ بالرفع، ويخرج على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وأنتم غير محلي الصيد. وقرأ الحسن والنخعي ويحيى بن وثّاب ﴿حرم﴾ بسكون الراء، وهي لغة تميمية، يقولون في رسل: رسل، وفي كتب: كتب ونحو ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَحْكُمُ﴾ ويقضي ﴿مَا يُرِيدُ﴾ ويشاء في عباده؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه، كما

شاء بحسب الحكم والمصالح التي يعلمها سبحانه، فأوفوا بعقوده وعهوده، ولا تنكثوها ولا تنقضوها، فهو مالك الكل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: معالم دين الله وأحكامه؛ أي: لا تتهاونوا مأمورات الشرع، ولا منهياته، ولا تنتهكوا حرمتها بترك المأمورات وفعل المنهيات، بل احترموا شعائر الله وأحكامه، بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، وهذا عام، وذكر ما بعده من المعطوفات من ذكر الخاص بعد العام. وقيل: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ ما أراد جعله أمارات تعلمون بها الهدى من الضلال؛ كمناسك الحج، وسائر فرائض دينه من حلال وحرام، وحدود حدها لكم.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا شعائر دين الله حلالاً لكم، تتصرفون فيها كما تشاؤون، بل اعملوا بما بيَّنه لكم، ولا تتهاونوا بحرمتها وتحولوا بينها وبين المتنسكين بها، وتصدوا الناس عن الحج في أشهر الحج.

وقيل: ﴿الشعائر﴾: الهدايا المشعرة؛ أي: المعلمة، وأشعارها: أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة، حتى يسيل دمه، فيكون ذلك علامة على أنه هدي، وهو سنة في الإبل والبقر، دون الغنم.

والمعنى: لا تحلوا أخذ الهدايا المشعرة بسرقة أو غصب أو نهب من صاحبها. وقال أبو حيان ﴿الشعائر﴾: هي جميع ما حرمه الله تعالى مطلقاً، سواء كان في الإحرام أو في غيره، والمعطوفات الأربعة بعده مندرجة في عموم قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، فكان ذلك تخصيصاً بعد تعميم.

والمعنى: لا تحلوا محرمات الله تعالى فعلاً واعتقاداً، بأن ترتكبوها وتعتقدوا حلها. ﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ ذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم، ورجب، ولا تنتهكوا حرمتها؛ بأن تقاتلوا فيها أعداءكم من المشركين، كما رُوي عن ابن عباس وقتادة.

﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿الْهَدْيَ﴾: الذي يهدى به إلى البيت الحرام من الأنعام أو غيرها، للتوسعة على من هناك من عاكفٍ وبادٍ؛ تقرباً إلى الله تعالى؛ وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصباً وذبحه، أو سرقته أو حبسه عند من أخذه. ﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿الْقَلَائِدَ﴾؛ أي: ذوات القلائد من الهدي؛ أي: ولا تحلوا الهدايا ذوات القلائد، وكأنه قال: لا تحلوا الهدي مقلداً ولا غير مقلد، وخص المقلد بالذكر؛ لأنه أكرم الهدي وأشرفه، والقلائد: جمع قلادة، وهي ما يعلق في عنق البعير ونحوه من حبل أو نعل؛ إشعاراً بأنها هدي. ﴿وَلَا﴾ تحلوا ﴿آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾، أي: ولا تحلوا قتال قوم قاصدين البيت الحرام لزيارته بحج أو عمرة، فتصدوهم عن ذلك بأي وجه كان. وقرأ عبد الله وأصحابه ﴿ولا آمي البيت الحرام﴾ بالإضافة. وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ حال من الضمير المستكن في آمّين؛ أي: حالة كون الآمّين يطلبون ربحاً وزيادة من ربهم بالتجارة المباحة، أو المعنى: طالبين ثوباً من ربهم ورضواناً منه بالحج أو العمرة، يحول[1] بينهم وبين عقوبته في الدنيا؛ لئلا يحل بهم ما حل بغيرهم في عاجل دنياهم، وهذا على قراءة الجمهور بالياء.. كلام مع المشركين، كما روي عن قتادة أنه قال: هم المشركون، يلتمسون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دنياهم، وفي رواية أخرى عنه: والرضوان الذي يبتغون أن يصلح لهم معايشهم في الدنيا، وأن لا يعجل لهم العقوبة.

وقرأ حميد بن قيس والأعرج[2]: ﴿تبتغون﴾ بالتاء، خطاباً للمؤمنين، والمعنى: على الخطاب: إن المؤمنين كانوا يقصدون قتالهم والغارة عليهم، وصدهم عن المسجد الحرام، امتثالاً لأمر الله تعالى وابتغاء مرضاته، إذ أمر تعالى بقتال المشركين وقتلهم، وسبي ذراريّهم، وأخذ أموالهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية. وقرأ الأعمش ﴿ورضواناً﴾ بضم الراء، وتقدم في آل عمران.. أنها قراءة أبي بكر عن عاصم، حيث وقع إلا في ثاني هذه السورة، فعنه فيه خلاف.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وفي «الخازن»: فصل: اختلف[1] علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فقال قوم: هذه الآية منسوخة إلى هنا؛ أي: إلى قوله: ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ وذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ يقتضي حرمة القتال في الشهر الحرام وفي الحرم، وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وقولُه: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ يقتضي حرمة منع المشركين عن البيت الحرام، وذلك منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، فلا يجوز أن يحج مشرك، ولا يأمن بالهدي والقلائد كافر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وأكثر المفسرين. وقال آخرون: لم ينسخ من ذلك شيء سوى القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلدونها من لحاء شجر الحرم.

والظاهر: ما عليه جمهور العلماء من نسخ هذه الآية؛ لإجماع العلماء على أن الله عز وجل قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها، وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه وذراعيه جميع لحاء شجر الحرم لم يكن ذلك أماناً له من القتل، إذا لم يكن قد تقدم له عقد ذمة أو أمان، وكذلك أجمعوا على منع من قصد البيت بحج أو عمرة من المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾، والله تعالى أعلم، انتهى.

ثم صرح بما فهم من قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ فقال. ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾؛ أي: وإذا خرجتم من إحرامكم بالحج أو العمرة، أو من أرض الحرم ﴿فَٱصْطَادُوا۟﴾ الصيد الذي حُرِّمَ عليكم بالإحرام؛ أي: في غير الحرم إن شئتم؛ لأنّه إنما حُرِّم عليكم الصيد في أرض الحرم، وفي حال الإحرام فقط، وقد زال سبب حرمته، والأمر[2] فيه أمر إباحة؛ لأنّه ليس واجباً على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد، نظير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أنه قد أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة.

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

وقرىء[1]: ﴿وإذا أحللتم﴾ وهي لغة في حل، يقال: أحل من إحرامه، كما يقال: حلَّ من إحرامه. وقرأ[2] أبو واقد، والجراح، ونبيح، والحسن بن عمران: ﴿فاصطادوا﴾ ـ بكسر الفاء ـ، قال الزمخشري: قيل: هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداءِ بها. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم وعدواتهم لكم؛ أي: شدة بغضكم لقوم من أهل مكة بسبب ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: عن العمرة عامَ الحديبية على ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾ وتبغوا عليهم؛ أي: لا يحملنكم بغضكم قوماً لأجل صدهم إياكم عن المسجد الحرام على ظلمكم واعتدائكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي من البغض.

والمعنى: ولا[3] يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم؛ لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام، وقد كان المشركون صدوا المؤمنين عن العمرة عام الحديبية، فنهى المؤمنين أن يعتدوا عليهم عام حجة الوداع، وهو العام الذي نزلت فيه هذه السورة؛ لأجل اعتدائهم السابق.

وقرأ الجمهور: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ ـ بتشديد النون ـ. قرأ الحسن[4]، وإبراهيم، وابن وثاب، والوليد عن يعقوب: ﴿يجرمنْكم﴾ بسكون النون، جعلوا نون التوكيد خفيفة. وقرأ النحويان[5]، وابن كثير، وحمزة، وحفص، ونافع: ﴿شنآن﴾: بفتح النون. وقرأ ابن عامر، وأبو بكر، وأبو جعفر: (شنْآن) بسكونها، والأظهر في الفتح: أن يكون مصدراً، وقد كثر مجيء المصدر على فعلان ـ بفتح العين ـ، وجوّزوا أن يكون وصفاً، وأما مجيء المصدر على فعْلان ـ بفتح الفاء، وسكون العين ـ. فقليل. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير ﴿إن صدوكم﴾ بكسرة الهمزة، على أنها شرطية، ويؤيدها قراءة ابن مسعود ﴿إن صدوكم﴾ وأنكر ابن جرير والنحاس

(١) الفتوحات.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.
(٥) أبو عمرو والكسائي.

وغيرُهما قراءة كسر إن، وقالوا: إنما صد المشركون الرسول والمؤمنين عام الحديبية، والآية نزلت عام الفتح سنة ثمان، والحديبية سنة ست، فالصد قبل نزول الآية. والكسر يقتضي أن يكون بعد؛ ولأن مكة كانت عام الفتح في أيدي المسلمين، فكيف يصدون عنها وهي في أيديهم؟ وهذا الإنكار منهم لهذه القراءة صعب جداً؛ فإنها قراءة متواترة؛ إذ هي في السبعة، والمعنى معها صحيح، والتقدير: إن وقع صد في المستقبل مثل ذلك الصد الذي كان زمن الحديبية، وهذا النهي تشريع في المستقبل، وليس نزول هذه الآية عام الفتح مجمعاً عليه، بل ذكر اليزيدي: أنها نزلت قبل أن يصدوهم، فعلى هذا القول يكون الشرط واضحاً. وقرأ باقي السبعة: بفتح الهمزة، جعلوه تعليلاً للشنآن، وهي قراءة واضحة؛ أي: شنئان قوم من أجل أن صدوكم عام الحديبية عن المسجد الحرام. والاعتداء: الانتقام منهم، بإلحاق المكروه بهم.

﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿عَلَى الْبِرِّ﴾؛ أي: على فعل المأمورات ﴿و﴾ على ﴿التقوى﴾؛ أي: وعلى اجتناب المنهيات. وقيل: تعاونوا على البر والتقوى؛ أي: على العفو والإغضاء[1]، ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى؛ أي: ليعن بعضكم بعضاً على ما يكسب البر والتقوى ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾؛ أي: على ترك المأمورات ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾؛ أي: على فعل المحظورات؛ أي: ولا يعن بعضكم بعضاً على الإثم والعدوان، وقيل: ولا تعاونوا على الانتقام والتشفي، والبر[2]: فعل المأمور، والتقوى: ترك المحظور، والإثم: ترك المأمور، والعدوان: فعل المحظور. وقال المراغي: البر: التوسع في فعل الخير، والتقوى: اتقاء ما يضر صاحبه في دينه أو دنياه، والإثم: كل ذنب ومعصية، والعدوان: تجاوز حدود الشرع والعرف في المعاملة، والخروج عن العدل فيها، وفي الحديث: «البر: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس». رواه مسلم وأصحاب السنن.

وروى أحمد والدارمي عن وابصة بن معبد الجهني: أنه قال: أتيت

---

(١) النسفي.

(٢) النحويان هما أبو عمرو والكسائي.

رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر والإثم» قلت: نعم - وكان قد جاء لأجل ذلك - فأخبره النبي ﷺ بما في نفسه وأجابه، فقال: «استفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

والأمر بالتعاون[1] على البر والتقوى.. من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن؛ إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضاً على كل ما ينفع الناس، أفراداً وجماعات، في دينهم ودنياهم، وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم.

وقد كان المسلمون في الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد، كما تفعله الجماعات اليوم، فإن عهد الله وميثاقه كان مغنياً لهم عن غيره، ولكن لما نكثوا ذلك العهد.. صاروا في حاجة إلى تأليف هذه الجماعات؛ لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب التعاون على البر والتقوى. وقلما ترى أحداً الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطاً بعهد معك لغرض معين، ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالباً.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، ولا تستحلوا شيئاً من محارمه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والانتقام لمن خالف أمره، ففيه وعيد شديد وتهديد عظيم. والمعنى: واتقوا الله بالسير على سننه التي بيّنها لكم في كتابه وفي نظم خلقه، حتى لا يصيبكم عقابه بالإعراض عن هدايته، فهو شديد العقاب لمن لم يتقه باتباع شرعه ومراعاة سننه في خلقه؛ إذ لا محاباة ولا هوادة في عقابه، فهو لم يأمر بشيء إلا إذا كان نافعاً، ولم ينه عن شيء إلا إذا كان ضاراً، وكذلك بعدم مراعاة السنن؛ لأن لذلك تأثيراً في خلق الإنسان وعقائده وأعماله، وكل ذلك مما يوقعه في الغواية، وينتهي به إلى سوء العاقبة، وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة، كما جاء في بعض

---

(١) المراغي.

الآيات التصريح بذلك، وفي بعضها التصريح بأحدهما، كقوله في عذاب الأمم في الدنيا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم شرع الله سبحانه وتعالى في بيان المحرمات التي أشير إليها في أول السورة بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهي عشرة أنواع:

الأول: ما ذكره بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ أي: حرم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة.. إلا ميتة السمك والجراد؛ فإنهما مستثنيان بالحديث، والميتة: هي التي زالت حياتها بغير ذكاة شرعية، سواء مات حتف أنفه، أو ذبحه مجوسي أو وثني مثلاً، وكان أهل الجاهلية يقولون: إنكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله! واعلم أن تحريم الميتة.. موافقٌ لما في العقول؛ لأن الدم جوهر لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حتف أنفه.. احتبس الدم في عروقه، وتعفن وفسد، وحصل من أكله مضار عظيمة.

والحكمة في تحريم الميتة:

١ ـ استقذار الطباع السليمة لها.

٢ ـ أنّ في أكلها مهانة تنافي عزة النفس وكرامتها.

٣ ـ والضرر الذي ينشأ من أكلها، سواء كانت قد ماتت بمرض، أو شدة ضعف، أو بغير ذلك.

٤ ـ وتعويد المسلم أن لا يأكل إلا مما كان له قصد في إزهاق روحه.

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلدَّمُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل الدم، والمراد به: الدم المسفوح؛ أي: السائل المائع الذي يسفح ويراق من الحيوان وإن جمد بعد ذلك، خلاف المتجمد طبيعة؛ كالطحال، والكبد، فإنهما خصّصا بالحديث، وكالدم الذي يتخلل اللحم عادة؛ فإنه لا يسمّى مسفوحاً، وكان أهل الجاهلية يملؤون الأمعاء من الدم بصبه فيها ويشوونه ويطعمونه الضيف.

وحكمة تحريم الدم: الضرر والاستقذار أيضاً، **أما الضرر؛ فلأنه** عسر

الهضم جد العسر، ويحمل كثيراً من المواد العفنة التي تنحل من الجسم، وهي فضلات لفظتها الطبيعة كما تلفظ البراز ونحوه، واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم، وقد يكون جراثيم بعض الأمراض المعدية، وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم، ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلي اللبن قبل شربه؛ لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية.

والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل لحم الخنزير، والمراد به: جميع أجزائه وأعضائه، وإنما خص اللحم بالذكر؛ لأنه المقصود بالأكل.

والحكمة في تحريم لحم الخنزير[1]: الضرر والاستقذار؛ لملازمته للقاذورات ورغبته فيها، أما ضرره.. فقد أثبته الطب الحديث؛ إذ أثبت أنه له ضرراً يأتي من أكله القاذورات، فإن أكله يولد الديدان الشريطية، كالدودة الوحيدة، ودودة أخرى تسمى الشعرة الحلزونية، وهي تنشأ من أكله الفيران الميتة، كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم هضماً؛ لكثرة الشحم في أليافه العضلية، وأن المواد الدهنية التي فيه تمنع وصول عصير المعدة إلى الطعام، فيعسر هضم المواد الزلالية، وتتعب معدة آكله، ويشعر بثقل في بطنه واضطراب في قلبه، فإن ذرعه القيء، فقذف هذه المواد الخبيثة.. خف ضرره، وإلا تهيجت المعدة وأصيب بالإسهال، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلاً وشرباً وتدخيناً، ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره.. لما أمكن الناس أن يأكلوه، ولا سيما أهل البلاد الحارة. قال أهل العلم: الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذي، فلا بدَّ أن يحصل للمغتذي أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء، والخنزير مطبوع على حرص عظيم، ورغبة شديدة في المشتهيات، فحرم أكله على الإنسان؛ لئلا يتكيف بتلك الكيفية، ولذلك إن الفرنج لما واظبوا على أكل لحم الخنزير.. أورثهم الحرص العظيم والرغبة الشديدة في المشتهيات

---

(١) المراغي.

وأورثهم عدم الغيرة، فإنَّ الخنزير يرى الذكر من الخنازير ينزو على الأنثى التي هي له ولا يتعرض له؛ لعدم الغيرة. وأما الشاة.. فإنها حيوان في غاية السلامة، فكأنها ذات عارية عن جميع الأخلاق، فلذلك لا يحصل للإنسان ـ بسبب أكل لحمها ـ كيفية أجنبية عن أحوال الإنسان.

والرابع: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ أي: وحرم[1] عليكم ما ذكر على ذبحه غير اسم الله تعالى، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عند الذبح، فحرم الله ذلك بهذه الآية، بقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، والمعنى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾؛ أي: رفع الصوت ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بغير اسم الله ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: عند ذبحه، فاللاّم بمعنى الباء، والباء بمعنى عند، والإهلال: رفع الصوت، يقال: أهل فلان بالحج.. إذا رفع صوته بالتلبية له: «لبيك اللهم لبيك»، واستهل الصبي إذا صرخ عند الولادة، والمراد به: ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من المخلوقات التي يعظمها الناس تعظيماً دينياً، ويتقربون إليها بالذبائح، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم: باسم اللات، أو باسم العزى، وحكمة التحريم في هذا: أنه من عبادة غير الله، فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه، وهو مما يجب إنكاره لا إقراره.

ويدخل في ذلك: ما ذكر عند ذبحه اسم نبي، أو ولي كما يفعل بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم، وساروا على نهجهم باعاً فباعاً، وذراعاً فذراعاً.

والخامس: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾؛ أي: التي[2] ماتت بانعصار الحلق وانحباس النفس فيها، فالمنخنقة على وجوه: منها: أن أهل الجاهلية كانوا يخنقون الشاة، فإذا ماتت أكلوها، ومنها: ما يخنق بحبل الصائد، ومنها: ما يدخل رأسها بين عودين من شجرة فتختنق، فتموت.

---

(١) الخازن.

(٢) المراح.

وقد روى ابن جرير في تفسيرها أقوالاً[1]: فعن السدي: أنها التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة، فتختنق فتموت، وعن ابن عباس والضحاك في التي تختنق فتموت، وفي رواية عن الضحاك: هي الشاة توثق فيقتلها خناقها، ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: هي التي تختنق، إما في وثاقها، أو بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت.

وهي بهذا المعنى من قبيل ما مات حتف أنفه، من حيث إنه لم يمت بتذكية الإنسان له لأجل أكله، فهي داخلة في الميتة، وإنما خصها بالذكر؛ لأن بعض العرب في الجاهلية يأكلونها، ولئلا يشتبه الأمر فيها على بعض الناس، بأن لموتها سبباً معروفاً، والعبرة في الشرع بالتذكية التي تكون بقصد الإنسان، لأجل الأكل حتى يكون واثقاً من صحة البهيمة التي يريد التغذي بها.

والسادس منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل الموقوذة ـ من الوقذ ـ وهي شدة الضرب، ويقال: شاة وقيذ وموقوذة، والموقوذة هنا: هي المضروبة بخشبة، أو عصا، أو حجر، أو بكل ما لا حد له، حتى تموت بلا ذكاة، وكانوا يأكلونها في الجاهلية.

والوقذ يحرم في الإسلام[2]؛ لأنه تعذيب للحيوان، قال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان في كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» رواه مسلم وأصحاب السنن.

ولما كان الوقذ محرماً حرم ما قتل به، وهي تدخل في عموم الميتة أيضاً على الوجه الذي ذكرنا؛ فإنها لم تذك تذكية شرعية، ويدخل في الموقوذة: ما رمي بالبندق ـ وهو نحو كرة من الطين تجفف ويرمى بها بعد يبسها ـ لما رُوي (أن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف ـ الرمي بالحصى ـ والخذف /بكل يابس غير محدد، سواء رمى باليد، أو بالمخذفة، أو بالمقلاع. وقال: «إنه يفقأ العين ولا ينكأ العدو، ولا يحرز صيداً» ففي هذا الحديث نص على العلة، وهو أنه تعذيب

---

(1) الطبري. (2) المراغي.

للحيوان، وليس سبباً مطرداً ولا غالباً للقتل.

أما بندق الرصاص المستعمل الآن وما في حكمه، كالمسدس.. فإنه يصيد وينكأ، ولذا أفتى العلماء بجواز الصيد به. قال ابن[1] عبد البر: واختلف العلماء قديماً وحديثاً في الصيد بالبندق والحجر والمعراض - ويعني بالبندق: قوس البندقة، وبالمعراض: السهم الذي لا ريش له، أو العصا التي رأسها محدد - قال: فمن ذهب إلى أنه وقيذ.. لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته، على ما رُوي عن ابن عمر، وهو قول مالك، وأبي حنيفة، وأصحابه، والثوري، والشافعي، وخالفهم الشاميون في ذلك، قال الأوزاعي: في المعراض كله خرق أو لم يخرق، فقد كان أبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعبد الله بن عمر، ومكحول.. لا يرون به بأساً، قال ابن عبد البر: هكذا ذكر الأوزاعي عن عبد الله بن عمر، والمعروف عن ابن عمر ما ذكر مالك عن نافع قال: والأصل في هذا الباب - والذي عليه العمل، وفي الحجة - حديث عدي بن حاتم، وفيه «ما أصاب بعرضة فلا تأكل، فإنه وقيذ» انتهى.

قلت: والحديث في «الصحيحين» وغيرهما عن عدي قال: قلت: يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله». فقد اعتبر النبي ﷺ الخرق وعدمه، فالحق أنه لا يحل إلا ما خرق، ولا ما صدم، فلا بدَّ من التذكية قبل الموت، وإلا كان وقيذاً. وأما البنادق المعروفة الآن - وهي بنادق الحديد التي تحمل فيها البارود والرصاص ويُرمى بها - فلم يتكلم عليها أهل العلم؛ لتأخر حدوثها؛ فإنها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المئة العاشرة من الهجرة، وقد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حياً؟ والذي يظهر لي.. أنه حلال؛ لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه، وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث السابق: «إذا رميت

---

(١) الشوكاني.

بالمعراض فخرق فكله» فاعتبر الخرق في تحليل الصيد، ذكره الشوكاني.

وهذه الأنواع الستة السابقة[1] من أقسام الميتة، وذكرها بعدها.. من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وإنما ذكرت بخصوصها للردّ على أهل الجاهلية؛ حيث كانوا يأكلونها ويستحلونها.

والسابع منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾؛ أي: الساقطة من علو إلى أسفل فماتت، من غير فرق بين أن تتردى من جبل، أو بئر، أو مدفن، أو غيرها، وسواء تردت بنفسها، أو رداها غيرها، والتردي: مأخوذ من الردى، وهو الهلاك، وهي في حكم الميتة؛ لأنه لم يكن للإنسان عمل في إماتتها، ولا قصد به إلى أكلها، ويدخل[2] فيها: ما إذا أصابه سهم وهو في الجبل فسقط على الأرض، فإنه يحرم أكله؛ لأنه لم يعلم هل مات بالتردي أو بالسهم؟ ولو رمى صيداً في الهواء بسهم فأصابه، فإن سقط على الأرض ومات.. حلَّ؛ لأن الوقوع على الأرض من ضرورته، وإن سقط على شجر أو جبل ثم تردى منه فمات.. لم يحل؛ لأنه من المتردية إلا أن يكون السهم ذبحه في الهواء، فيحل كيفما وقع؛ لأن الذبح قد حصل قبل التردية.

والثامن منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل النطيحة، وهي: البهيمة التي تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح، من غير أن يكون للإنسان عمل في إماتتها. وقرأ أبو عبد الله وأبو ميسرة: ﴿والمنطوحة﴾.

والتاسع منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل ما أكله السبع؛ أي: ما افترسه السبع ليأكله، ولو كان من جوارح السباع فمات بسبب افتراسه، سواء أكل منه أم لم يأكل، وأكله السبع؛ أي: ما افترسه السبع ليأكله، ولو كان من جوارح السباع فمات بسبب افتراسه، سواء أكل منه أم لم يأكل، وأكله منه ليس بشرط في التحريم؛ إذ يكفي فرسه إياه وقتله في تحريمه،

---

(١) الجمل.

(٢) المراح.

وكان العرب في الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع، ولكنّه مما تأنفه أكثر الطباع، وأكثر الناس يعد أكله ذلة ومهانة، وإن كانوا لا يخشون منه ضرراً. والسبع: اسم يقع على كل حيوان له ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترس بنابه؛ كالأسد، والذئب، والنمر، والفهد، ونحوها.

وقرأ الحسن، وأبو حيوة،والفياض، وطلحة بن سليمان[1]: ﴿السبع﴾ بسكون الباء، ورويت عن أبي بكر عن عاصم في غير المشهور، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ عبد الله: (وأكيلة السبع) وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿وأكيل السبع﴾ وهما بمعنى مأكول السبع، وقال ابن حيان: وذكر هذه المحرمات.. هو تفصيل لما أجمل في عموم قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وبهذا صار المستثنى والمستثنى منه معلومين.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾؛ أي: إلا ما أدركتموه من هذه الخمسة الأخيرة ـ التي أولها المنخنقة ـ وفيه بقية حياة ويضطرب اضطراب المذبوح، فذكيتموه وأمتموه إماتة شرعية لأجل أكله، وهو استثناء من جميع ما تقدم ذكره من المحرمات سوى ما لا يقبل التذكية، من الميتة، والدم ولحم الخنزير، وما أكل السبع، وذلك هو: ما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة.

وخلاصة المعنى: ولكن لا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية، ويكفي في صحة إدراك ذكاة ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة، بأن يطرف بعينه، أو يضرب بذنبه، وقد قال علي رضي الله عنه: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يداً أو رجلاً.. فكلها. وإن لم يكن فيه حياة مستقرة.. فلا يحل بتذكيته؛ لأن موته حينئذ يحال على السبب المتقدم على التذكية من الخنق، وأكل السبع وغيرهما.

والعاشر منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾؛ أي: وحرم عليكم أكل ما ذبح لأجل تعظيم النصب، فـ﴿على﴾ بمعنى اللام التعليلية، كما قاله

---

(١) البحر المحيط.

قطرب، والنُّصب: واحد الأنصاب، وهي حجارة كانت حول الكعبة، عددها ثلاث مئة وستون حجراً، وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها، ويعدون ذلك قربة، ومن هذا تعلم أن ما ذبح على النصب.. هو من جنس ما أهل لغير الله، فهو داخل فيه من حيث إنه يذبح بقصد العبادة لغير الله تعالى، وخص بالذكر مع دخوله فيه؛ لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل لقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير الله عليه، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها. وقيل: ليس هذا داخلاً فيما سبق؛ إذ ذاك فيما ذكر عند ذبحه اسم الصنم، وهذا فيما قصد بذبحه تعظيم الصنم من غير ذكر لاسم الصنم. قال ابن جريج[١]: كانت العرب تذبح بمكة وتنضح بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون للنبي ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فأنزل الله ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾.

وخلاصة ما تقدم[٢]: أن الله تعالى أحل أكل بهيمة الأنعام وسائر الطيبات من الحيوان، ما دب منها على الأرض، وما طار في الهواء، وما سبح في البحر، ولم يحرم إلا الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله تعالى.

وقد كان بعض العرب يذبح الحيوان على اسم غير الله، وهو شرك وفسق، وبعضهم يأكل الميتة ويقول: لم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟ ولكنَّ الفارق بينهما: ما في هذا من مظنة الضرر، وفيه مهانة للنفس، ومن ثم جعل الله حل أكل المسلم لذلك منوطاً بإتمام موته، والإجهاز عليه بفعله هو؛ ليذكر اسم الله عليه، فلا يكون من عمل الشرك، ولئلا يقع في مهانة أكل الميتة وخسة آكلها بأكله المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وفريسة السبع، إلى ما في الموقوذة من إقرار الواقذ على القسوة

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

وظلم الحيوان، وذلك محرم شرعاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلنُّصُبِ﴾ ـ بضمتين ـ وقرأ طلحة بن مصرف: بضم النون وإسكان الصاد، وقرأ عيسى بن عمر: بفتحتين، ورُوي عنه كالجمهور، وقرأ الحسن: بفتح النون وإسكان الصاد..

ثم أضاف إلى محرمات الطعام التي كان أهل الجاهلية يستحلونها عملاً آخر من أعمالهم وخرافاتهم، فقال: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾؛ أي: وحرم عليكم طلب معرفة ما قسم لكم من الخير والشر بواسطة ضرب القداح، وذلك أنهم إذا قصدوا سفراً أو غزواً أو تجارةً أو نكاحاً أو أمراً آخر من معاظم الأمور.. ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، والثالث: خال عن الكتابة، فإن خرج الأمر.. أقدم على الفعل، وإن خرج النهي.. أمسك، وإن خرج الغفل.. أعاد العمل مرة أخرى.

والاستقسام[2]: هو طلب معرفة ما قسم له دون ما لم يقسم له بواسطة الأزلام، والأزلام: جمع زلم، وهو قطعة من الخشب على هيئة السهم، لكن لا يركب فيه النصل الذي يجرح ما يرمى به من صيد وغيره، وكانت الأزلام ثلاثة، مكتوب على أحدها الأمر، وعلى الآخر النهي، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أراد أحدهم أمراً من معاظم الأمور.. أجال ـ حرك ـ هذه الأزلام، فإن خرج الأمر.. مضى لما أراد، وإن خرج النهي.. أمسك عن ذلك. ولم يمض فيه، وإن خرج الغفل.. أعاد الاستقسام كما مر آنفاً؛أي: وحرم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام، كما كانت تفعل العرب في الجاهلية، وحكمة هذا التحريم: أنه من الخرافات والأوهام التي لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل، يفعل ما يفعل من غير بينة ولا بصيرة، ويترك ما يترك كذلك، ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسدنة، ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأل فيه ولا شؤم، ومن ثَمَّ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

أبطل ذلك دين العقل والبصيرة، كما أبطل التطير والكهانة والعيافة[1] والعرافة وسائر خرافات الجاهلية، إلى أنَّ فيها افتراء على الله إن أرادوا بقولهم: أمرني ربي اللَّهَ عز وجل، وجهلاً وشركاً إن أرادوا به الصنم، إلى أنَّ فيه طلباً لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى به. وقد استن بعض جهال المسلمين بسنة مشركي الجاهلية، أو بما يشبهها، فتراهم يستقسمون بالسبح وغيرها، ويسمون ذلك استخارة، أو فألاً، فيقتطعون طائفة من حب السبحة ويحركونها حبة بعد أخرى يقولون: افعل على واحدة، لا تفعل على الثانية، ويكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة، وما هذا بالاستخارة التي ورد الإذن بها، بل قد ورد ما يؤيد تحريمها.

ومنهم من يستقسم، أو يأخذ الفأل من القرآن الكريم، فيصبغون عملهم بصيغة الدين، ويلبسون الباطل ثوب الحق، ولم يرد في هذا نص يجوز العمل به، ولكن الإلف والعادة جعلا هذه البدع مستحسنة، وتأولوا لها اسم الفأل الحسن، ورووا في ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها (أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الفأل الحسن)، وليس هذا من الفأل الحسن، بل الفأل ضد الطيرة التي أبطلتها الأحاديث.

والعجيب من أمر بعض المسلمين أنهم تركوا الاهتداء بالقرآن، وحرموه على أنفسهم، واكتفوا من الإيمان به، والتعظيم له بالاستقسام به، كما كانت الجاهلية تستقسم بالأزلام، أو الاستشفاء بمداد تكتب به آياته في كاغد، أو جام (فنجان)، وكل هذا من الضلالات والخرافات التي لم يرد شيء منها عن رسول الله ﷺ، ولا عن السلف الصالح. وأعجب من ذلك جعل بعض الدّجالين الاستقسام من قبيل الاستخارة، وجعل بعضهم له من قبيل القرعة المشروعة، وكل ذلك ضلال، إذ لا بينة فيه ولا سلطان.

الاستخارة التي وردت بها السنة: هي التوجه إلى الله تعالى، والالتجاء إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل عن المستخير الحيرة ويرشده إلى ما فيه الفائدة فيما

---

(١) العيافة: التفاؤل أو التشاؤم بطيران الطير ا هـ. م ج.

تتعارض فيه الدلائل والبينات، فلا يستبين له إن كان الخير في الإقدام أو في الترك، فإذا شرح الله صدره لشيء أمضاه. وقد روى الشيخان وأصحاب السنن وأحمد من حديث جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا سورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك...» الحديث.

والقرعة تشبه هذا، بل أمرها أظهر، فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعاً؛ كالقسمة بين اثنين؛ إذ لا وجه لإلزام من تقسم بينهما، بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصة وعَمرو الأخرى، فتكون القرعة طريقة حسنة عادلة.
﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾: الإشارة راجعة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا، وهذا أصح. والفسق: الخروج عن الحد، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن الفسق هو أشد الكفر، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر؛ أي: ذلكم الاستقسام بالأزلام، أو جميع المحرمات السابقة فسق، وخروج عن الطاعة والإيمان، ورغبة في الشرك والمعاصي؛ لأنه طلب لمعرفة الغيب، وذلك حرام.

وروى[1] البغوي بسند الثعلبي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تكهن أو استقسم أو تطير طيرة ترده عن سفره... لم ينظر إلى الدرجات العلى من الجنة يوم القيامة»، وذلك ضلال باعتقاد أنه طريق إلى الدخول في علم الغيب، وافتراء على الله تعالى إن كان مرادهم بربي هو الله سبحانه وتعالى. وقال قوم آخرون: إنهم كانوا يحملون تلك الأزلام عند الأصنام، ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهي على تلك الأزلام فبإرشاد الأصنام وإعانتهم، فلهذا السبب كان ذلك فسقاً؛ أي: شركاً وجهالةً، وهذا القول أقرب وأولى، كما قاله الفخر الرازي.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾؛ أي: في هذا اليوم الحاضر، وهو يوم

---

(١) المراح.

من هذه المحرمات السابقة من الميتة وما بعدها ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: بسبب مجاعة يُخاف معها الموت لو ترك الأكل منها فأكل منها وهو لا يجد غيرها حالة كونه ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾؛ أي: غير متعمد ﴿لِإِثْمٍ﴾ بأن يأكلها فوق الشبع، كما قاله أهل العراق، أو بأن يكون عاصياً بسفره، كما قاله أهل الحجاز ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أكل شيئاً من تلك المحرمات عندما اضطر إليه ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده، حيث أحل لهم ذلك المحرم عند احتياجهم إلى أكله.

وفي «الفتوحات»: هذه الآية من تمام ما تقدَّم ذكره في المطاعم التي حرمها الله تعالى، ومتصلة بها، والمعنى: أن المحرمات وإنْ كانت محرمة إلا أنَّها قد تحل في حالة الاضطرار إليها، ومن قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إلى هنا.. اعتراض وقع بين الكلامين، والغرض تأكيد ما تقدم ذكره في معنى التحريم؛ لأن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل، والنعمة الكاملة، والإسلام الذي هو المرضي عند الله تعالى، ومعنى الآية: فمن اضطر إلى أكل شيء مما ذكر، فأكل في مجاعة لا يجد فيها غيره، وهو غير مائل إليه لذاته، ولا جائر فيه، متجاوز قدر الضرورة.. فإنَّ الله غفور لمثله، لا يؤاخذه عليه، وهو رحيم به يرحمه ويحسن إليه.

وقرأ ابن محيصن: (فمن اطر) بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ الجمهور ﴿مُتَجَانِفٍ﴾ بألف من تجانف ـ من باب: تفاعل ـ. وقرأ أبو عبد الرحمٰن، والنخعي، وابن وثاب شذوذاً: (متجنف) بدون ألف من تجنف ـ من باب: تفعل ـ.

الإعراب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿أَوْفُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب النداء،

لا محل لها من الإعراب. ﴿بِٱلۡعُقُودِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بأوفوا. ﴿أُحِلَّتۡ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، وهو من إضافة الجنس إلى أخص منه، أو هي بمعنى من؛ لأن البهيمة أعم، فأضيف إلى أخص، كثوب خز، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل. ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء من بهيمة الأنعام، والتقدير[1]: أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا الميتة، وما أهل لغير الله، وغيرهما مما ذكر في الآية الثالثة من السورة. ﴿يُتۡلَىٰ﴾ فعل مغير الصيغة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلقان به ﴿غَيۡرَ﴾: حال من الضمير المجرور في عليكم، أو لكم، وقيل: هو حال من ضمير الفاعل في ﴿أَوۡفُواْ﴾، ﴿غَيۡرَ﴾: مضاف. ﴿مُحِلِّي﴾: مضاف إليه، وهو مضاف. ﴿ٱلصَّيۡدِ﴾: مضاف إليه، وحذفت النون للإضافة، وهو من إضافة الوصف إلى مفعوله. ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة حال من الضمير المستكن في ﴿مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾؛ لأنه جمع محل اسم فاعل، وهو يتحمل الضمير. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَحۡكُمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة لـ﴿ما﴾، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: يريده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، مجزوم بلا الناهية، والجملة

---

(١) العكبري.

جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ﴾: معطوف على شعائر. ﴿ٱلۡحَرَامَ﴾: صفة للشهر، وكذلك قوله: ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ﴾ معطوفات على شعائر الله ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾: مفعول به لآمين، لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل، وفاعله ضمير مستتر فيه، تقديره: ولا قوماً آمين هم البيت ﴿ٱلۡحَرَامَ﴾ صفة للبيت ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾: جار ومجرور صفة لفضلاً، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير في آمين؛ أي: حال كون الآمين مبتغين فضلاً من ربهم، ولا يجوز[1] أن تكون هذه الجملة صفة لآمين؛ لأن اسم الفاعل متى وصف قل عمله على الصحيح. ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾: معطوف على فضلاً.

﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾.

وَإِذَا: (الواو): استئنافية. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿حَلَلۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾: (الفاء): رابطة لجواب إذا. اصطادوا: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: (الواو): استئنافية. (لا): ناهية. ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: فعل ومفعول أول، أو مفعول به. ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾: فاعل ومضاف إليه، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿صَدُّوكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل النصب بأن المصدرية، وجملة أن المصدرية مع صلتها.. في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المقدرة المتعلقة بـ﴿شَنَـَٔانُ﴾، تقديره: شنآن قوم لأجل صدهم إياكم. ﴿عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بصدوكم. ﴿أَن تَعۡتَدُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، وجملة أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على كونه مفعولاً ثانياً ليجرمنكم، والتقدير: ولا يجرمنكم

(١) الفتوحات.

﴿شنآن﴾ قوم اعتداءكم عليهم: إن قلنا: إنَّ جرم يتعدى إلى مفعولين، أو مجرور بعلى: إن قلنا إنَّ جرم يتعدى إلى مفعول واحد، تقديره: ولا يحملنكم شنآن قوم على اعتدائكم عليهم.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، أو مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلْبِرِّ﴾: متعلق بـ﴿تعاونوا﴾. ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: معطوف على ﴿ٱلْبِرِّ﴾. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَتَعَاوَنُوا۟﴾. ﴿عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾: متعلق بلا تعاونوا. ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: معطوف على الإثم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ ومضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾: فعل مغيّر الصيغة ونائب فاعل وجار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لتفصيل ما أجمل في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾: معطوفان على الميتة ﴿وَمَآ﴾ (الواو): عاطفة. (ما): موصولة، أو موصوفة في محل الرفع معطوف على الميتة. ﴿أُهِلَّ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة. ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بأهل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لأهل، والباء فيه بمعنى في، ولكنّه على حذف مضاف، أي: وما رفع الصوت لغير الله في ذبحه، والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها، وكذا قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: معطوفات على الميتة ﴿وَمَآ﴾: (ما): في محل الرفع معطوف على الميتة. ﴿أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف،

تقديره: وما أكله السبع. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة في محل النصب على الاستثناء من الخمسة الأخيرة. ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف، تقديره: إلا ما ذكيتموه ﴿وَمَا﴾: (ما): موصولة، أو موصوفة معطوفة على الميتة. ﴿ذُبِحَ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ما، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المستتر في ذبح، ﴿عَلَى النُّصُبِ﴾: متعلق بـ﴿ذبح﴾، وعلى فيه بمعنى اللام. ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾: ناصب وفعل وفاعل وجار ومجرور متعلق به، والجملة في تأويل مصدر معطوف على الميتة، والتقدير: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة.

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾.

﴿الْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بيئس المذكور بعده ﴿يَئِسَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿ كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن دِينِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بيئس. ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف عطف وتفريع. لا: ناهية. ﴿تَخْشَوْهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة مفرعة على جملة يئس. ﴿وَاخْشَوْنِ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾، و(النون): نون الوقاية، و﴿ياء﴾ المتكلم المحذوفة: اجتزء عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به؛ لأن أصله: واخشوني.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

﴿الْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، متعلق بما بعده. ﴿أَكْمَلْتُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأكملت. ﴿دِينَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأَتْمَمْتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على أكملت. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بأتممت. ﴿نِعْمَتِي﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَرَضِيتُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَكْمَلْتُ﴾. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلق برضيت. ﴿الْإِسْلَامَ﴾: مفعول به. ﴿دِينًا﴾: تمييز محوّل عن المفعول منصوب.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿فَمَنِ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حرمة هذه المذكورات في حالة الاختيار، وأردت بيان حكم من اضطر إلى أكلها.. فأقول لك. (من): اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب، أو الشرط، أو هما. ﴿ٱضْطُرَّ﴾: فعل ماض مغيّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على مَنْ. ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق باضطر. ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾: منصوب على الحالية. ﴿لِّإِثْمٍ﴾: متعلق بمتجانف. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب من الشرطية. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول لها. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة من الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾: يقال في ثلاثيه: وفىٰ يفي وفاء، وفي رباعية: أوفى يوفي إيفاء، والوفاء والإيفاء: كل منهما الإتيان بالشيء وافياً لا نقص فيه، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، والمراد بالوفاء: القيام بموجب العقد، والعقود: جمع عقد، وهو في الأصل: ضد الحل، ثم أطلق على الجمع بين أطراف الشيء وربط بعضها ببعض، ويستعمل في الأجسام الصلبة؛ كعقد الحبل، وعقد البناء، ويقال: عقد اليمين، وعقد البناء؛ أي: أبرمه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، والمراد بالعقود هنا: ما يعم جميع ما ألزمه الله عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية، وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات، والمعاملات، ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن ديناً، بأن يحمل الأمر على معنى يعم الوجوب والندب.

﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: والبهيمة: ما لا نطق له، لما في صوته من الإبهام، وخص في العرف بما عدا السباع والطير. وقال الزمخشري: البهيمة: كل ذات أربع في البر والبحر. انتهى. وقال ابن عطية: البهيمة في كلام العرب: ما أبهم

من جهة نقص النطق والفهم انتهى. وقال في «القاموس»: البهيمة: كل ذات أربع قوائم، ولو في الماء، أو كل حي لا يميز. وما[1] كان على ـ فعيل أو فعيلة ـ وعينه حرف حلق اسماً كان، أو صفة.. فإنه يجوز كسر أوله إتباعاً لحركة عينه، وهي لغة بني تميم، تقول: رئي، وبهيمة، وسعيد، وصغير، وبحيرة، وبخيل. والأنعام: جمع نعم، وهي البقر والإبل والغنم. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾: و﴿الصيد﴾: مصدر صاد يصيد ويصاد، ويطلق على المصيد، وقال داود بن علي الأصبهاني: ﴿الصيد﴾: ما كان ممتنعاً، ولم يكن له مالك، وكان حلالاً أكله، وكأنّه فسر الصيد الشرعي.

و﴿الحرم﴾ ـ بضمتين ـ: جمع حرام، وهو المحرم بالحجّ أو العمرة، فهو صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل. ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: جمع شعيرة، وهي معالم دينه، وغلب في مناسك الحج. ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾: الهدي: ما يهدى إلى الحرم من الأنعام ليذبح هناك، وهو من النسك. ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: جمع قلادة، وهو ما يعلق في العنق، وكانوا يقلدون الإبل من الهدي بنعل، أو حبل، أو لحاء شجر؛ ليعرف ولا يتعرض له أحد، وكان الحرمي ربَّما قلّد ركابه بلحا شجر الحرم، فيعتصم بذلك من السوء. ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: جمع الآم، والآم: القاصد، يقال: أممت الشيء إذا قصدته؛ أي: قاصدين ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: ربحاً في التجارة. ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾؛ أي: رضاً من الله يحول بينهم وبين عقوبته في الدنيا. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾: يقال: جرمة على كذا: حمله عليه وجعله يجرمه؛ أي: يكسبه ويفعله، وقال أبو عبيدة والفراء: جرمه: كسبه، فلان جريمة أهله؛ أي: كاسبهم، والجارم: الكاسب، وأجرم فلان: اكتسب الإثم، وقال الكسائي: جرم وأجرم؛ أي: كسب غيره، وجرم يجرم جرماً: إذا قطع، وأصل الجرم: قطع الثمرة من الشجرة، وجرم بمعنى حق؛ لأن الحق يقطع عليه. قال الخليل: لا جرم أن لهم النار؛ أي: لقد حق. ﴿الشنآن﴾: البغض مطلقاً، أو الذي يصحبه التقزز من المبغوض، وهو[2] أحد مصادر شنىء، يقال: شنىء يشنأ ـ من باب: علم ـ شنأ

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وشنآناً ـ مثلثي الشين ـ، فهذه ستة، وشناء، وشناءة، وشناء، وشناءة، ومشناءة، ومشنئة، ومشنئة، وشناناً، وشناناً، فهذه ستة عشر مصدراً، وهي أكثر ما حفظ للفعل. وقال سيبويه: كل بناء كان من المصادر ـ على فعلان ـ بفتح العين. . لم يتعد فعله إلا أن يشذ شيء، كالشنآن. وفي «الفتوحات»[1]: الشنآن: مأخوذ من شنيء المعتدي، كعلم، يقال: شنئت الرجل أشنأه: إذا أبغضته، وهذا المصدر سماعي مخالف للقياس من وجهين: تعدي فعله، وكسر عينه؛ لأنه لا ينقاس إلا مفتوحُها اللازم، كما قال في «الخلاصة»:

وَفَعَلَ ٱللَّازِمُ مِثْلُ قَعَدَا   لَهُ فُعُوْلٌ بِٱطِّرَادٍ كَغَدَا

إلى أن قال:

وَٱلثَّانِيْ لِلَّذِيْ ٱقْتَضَىٰ تَقَلُّبَا

﴿وَٱلدَّمُ﴾: أصله: دمي، حذفت لامه اعتباطاً؛ أي: لغير علة تصريفية. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾: في «المختار»: وقذه: ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت ـ وبابه وعد ـ، وشاة موقوذة: قتلت بالخشب. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: هي التي ينطحها غيرُها فتموت بالنطح، وهي ـ فعيلة بمعنى مفعولة ـ صفة جرت مجرى الأسماء، فوليت العوامل، ولذلك ثبت فيها الهاء وفي «القاموس»: نطحه كمنعه وضربه إذا أصابه بقرنه ا هـ.

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾: السبع: اسم جنس يطلق على كل ذي ناب وظفر من الحيوان؛ كالأسد، والنمر، والدب، والذئب، والثعلب، والضبع، ونحوها. وقد أطلق على ذوات المخالب من الطير سباع، قال الشاعر:

وَسِبَاعُ ٱلطَّيْرِ تَغْدُوْ بِطَانَا   تَتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلّ

ومن العرب من يخص السبع بالأسد، وسكون الباء: لغة نجدية، وسمع فتحها، ولعل ذلك لغة ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾: جمع نصاب، ككتب جمع كتاب، وسُمِّي الصنم نصاباً؛ لأنه ينصب ويرفع ليعظم ويعبد ﴿بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ أي: القداح، واحدها

---

(١) الفتوحات.

زلم وزلم ـ بضم الزاي، وفتحها ـ، وهي: السهام. ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: اليأس: قطع الرجاء، يقال:[1] يئس الرجل منه ييأس ـ بالفتح ـ على القياس، وييئس ـ بالكسر ـ على الشذوذ، يأساً ويئاسة: إذا قنط منه وانقطع رجاؤه، كما قال ابن مالك في لامية الأفعال.

وَجْهَانِ فِيْهِ مِنَ ٱحْسِبْ مَعْ وَغِرْتَ وَحِرْ تَ ٱنْعِمْ بَئِسْتَ يَئِسْتَ أَوْلِهِ يَبِسْ وَهِلاَ

﴿فِى مَخْمَصَةٍ﴾: المخمصة: المجاعة التي تخمص فيها البطون؛ أي: تضمر، والخمص: ضمور البطن، والخلقة منه حسنة في النساء، ومنه يقال: خمصانة، وبطن خميص، ومنه: أخمص القدم، ويستعمل كثيراً في الجوع. ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾: وفي «المصباح»: جنف جنفاً ـ من باب: تعب ـ ظلم، وأجنف ـ بالألف ـ مثله.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة والبيان والبديع:

منها: الاستعارة في قوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾؛ حيث استعار الإتيان بالشيء غير ناقص ـ ككيل الطعام ـ للقيام بموجب تلك العقود مثلاً، الوفاء بالمأمورات: فعلها، والوفاء بالمنهيات: تركها.

ومنها: التشبيه: حيث شبه الإلزام والالتزام الجاريين بين الله وبين العباد بربط حبل بحبل؛ لأنَّ العقود حقيقة في الربوط.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: حيث استعار الحل ـ الذي هو حقيقة في الأجسام ـ لانتهاك حرماتها، وحيث استعار الإعلام للمتعبدات التي تَعبد الله بها العباد من الحلال والحرام.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

(١) مناهل الرجال على اللامية.

ومنها: إضافة الأعم إلى الأخص في قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، لأنَّ المراد القتال فيه، ففيه إطلاق المحل وإرادة الحال. وفي قوله: ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾؛ لأنّ المراد به الهدايا المقلدات، ففيه إطلاق الحال وإرادة المحل، عكس ما قبله.

ومنها: التعميم ثم التخصيص في قوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، وما بعده من المعطوفات؛ لأنها داخلة في شعائر الله.

ومنها: الحذف في مواضع، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ أي: أكلها.

ومنها: الإسناد إلى السبب في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾؛ لأنّ البغض يكون سبباً في الاعتداء.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا
عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ
أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا
مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا
بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ
جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي
وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا
اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ
قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

المناسبة

قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السابقة الخبائث التي حرمت عليهم.. أردف هنا بذكر الطيبات التي أحلت لهم؛ لإكمال دينهم بذكر الحلال والحرام.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما افتتح السورة بالأمر بإيفاء العهود، وَذَكَرَ تحليلاً وتحريماً في المطعم والمنكح واستقصى ذلك، وكان المطعم آكد من المنكح وقدمه عليه، وكان النوعان من لذات الدنيا الجسيمة ومهماتها للإنسان، وهي معاملات دنيوية بين الناس بعضهم من بعض.. استطرد منها إلى المعاملات الأخروية التي هي بين العبد وربّه سبحانه وتعالى.

ولما كان أفضل الطاعات بعد الإيمان الصلاة، والصلاة لا تكمن إلا بالطهارة.. بدأ بالطهارة وشرائط الوضوء، وذكر البدل عنه عند تعذر الماء، ولما كانت محاولة الصلاة في الأغلب إنّما هي بالقيام.. عبر بلفظ ﴿إِذَا قُمْتُمْ﴾؛ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

وعبارة المراغي هنا[2]: واعلم أن بين العبد وربه عهدين: عهد الربوبية والإحسان، وعهد العبودية والطاعة، وبعد أن وفى له بالعهد الأول، وبيَّن له ما يحل وما يحرم من لذات الحياة في الطعام والنكاح.. طلب إليهم الوفاء بالعهد الثاني، وهو عهد الطاعة، وأعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة، والصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة، لا جرم بدأ الله بذكر فرائض الوضوء.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[3] طائفة من الأحكام المتعلقة بالعادات.. ذكرنا بعهده وميثاقه علينا، وما التزمناه من السمع والطاعة له ولرسوله بقبول دينه الحق، لنقوم به مخلصين.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[4] أمر عباده بالوفاء بالعقود عامة، ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم، وتحريم ما يضرّهم

---

(1) البحر المحيط.
(2) المراغي.
(3) المراغي.
(4) المراغي.

من الطعام إلا في حال الضرورة، ثم ذكر حل طعام أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم.. ذكر هنا ما ينبغي أن يكون من معاملتهم مع من سواهم، سواء أكانوا أعداء أم أولياء، ثم ذكر وعده لعباده الذين عملوا الصالحات، ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة، إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم، وكانوا على وشك الإيقاع بهم، ولكن رحمهم، وكبت أعداءكم وردهم صاغرين، ليكون الشكر أتم، والوفاء ألزم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها[1]: لما ذكر تعالى أوامر ونواهي.. ذكر وعد من اتبع أوامره واجتنب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: لما ذكر ما لِمَنْ آمن.. ذكر ما لِمَنْ كفر.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه[2] الطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فاستأذن عليه، فأذن له، فأبطأ، فأخذ رداءه فخرج إليه وهو قائم بالباب، فقال: قد أذنا لك، قال: «أجل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب» فنظروا، فإذا في بعض بيوتهم جرو، فأمر أبا رافع: «لا تدع كلباً بالمدينة إلا قتلته»، فأتاه الناس، فقالوا: يا رسول الله، ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ...﴾ الآية.

وروى ابن جرير عن عكرمة أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب حتى بلغ العوالي، فدخل عاصم بن عدي، وسعد بن أبي خيثمة، وعويمر بن ساعدة، فقالوا: ماذا أحل لنا يا رسول الله؟ فنزلتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ

(١) البحر المحيط. (٢) لباب النقول.

أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

قال ابن الجوزي[1]: وأخرج الحاكم في «صحيحه» حديث أبي رافع، قال البغوي: فلما نزلتْ هذه الآية.. أذن رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها، ونهى عن إمساك ما لا نفع فيه منها. وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين ـ وهو زيد بن الخيل الذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير ـ قالا: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فماذا يحل لنا؟ فنزلت هذه الآية، قال البغوي: وهذا القول أصح في سبب نزولها.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما رواه البخاري من طريق مالك بن أنس عن عبد الرحمٰن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش.. انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾، فقال أسيد بن حضير: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فأصبنا العقد تحته، وفي رواية فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

والحديث أخرجه البخاري في مواضع، وأخرجه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، ومالك في الموطأ، وعبد الرزاق، والحاكم، وابن جرير.

---

(١) الخازن.

وروى الطبراني من طريق عباد بن عبد الله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا.. خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى، فسقط أيضاً عقدي، حتى حبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: بنيَّة في كل تكونين عناء وبلاء على الناس، فأنزل الله الرخصة في التيمم، فقال أبو بكر: إنك لمباركة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ...﴾ الآية، في سبب نزولها ثلاثة أقوال[1]:

الأول: أنها نزلت في شأن يهود من بني قريظة، أو بني النضير، وذلك أنّ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر عثمان وعلياً دخلوا عليهم - وقد كانوا عاهدوا النبي ﷺ على ترك القتال، وعلى أن يعينوه في الدِّيات - فطلب منهم مالاً قرضاً لدية رجلين مسلمين، أو معاهدين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ يحسبهما مشركين أو حربيين، فقالوا: اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم هموا بالفتك برسول الله ﷺ وبأصحابه، فجاء عمرو بن جحاش برحى عظيمة ليطرحها عليه ﷺ بموافقتهم، فأمسك الله تعالى يده، فنزل جبريل عليه ﷺ وأخبره بذلك، فقام في الحال مع أصحابه، وخرجوا إلى المدينة.

والثاني: عن قتادة أنها نزلت في قوم من العرب، وهم بنو ثعلبة وبنو محارب، أرادوا الفتك برسول الله ﷺ، وهو في غزوته، فأرسلوا إليه أعرابياً ليقتله ببطن نخل، وذلك أن رسول الله ﷺ نزل منزلاً، وتفرق عنه أصحابه يستظلون في شجر العضاه، وعلق رسول الله ﷺ سيفه بشجرة، فجاء أعرابي وسل سيف رسول الله ﷺ، ثم أقبل عليه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ قال النبي ﷺ: «الله» - قالها ثلاثاً -، فأسقطه جبريل من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك مني»؟ فقال: لا أحد، ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه، فأخبرهم، ولم يعاقبه. وفي رواية: أن الأعرابي قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن

---

(١) المراح.

محمداً رسول الله.

وعلى هذين القولين فالمراد من قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تذكير نعمة الله عليهم بدفع الشر عن نبيهم، فإنه لو حصل ذلك.. لكان من أعظم المحن.

والثالث: أنها نزلت في شأن المشركين أنهم رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان في غزوة ذي أنمار، وهي غزوة ذات الرقاع، وهي السابعة من مغازيه ﷺ، وذلك أن المسلمين قاموا إلى صلاة الظهر بالجماعة فلمَّا صلوا.. ندم المشركون في عدم إكبابهم عليهم، وقالوا: ليتنا أوقعنا بهم في أثناء صلاتهم، فقيل لهم: إن للمسلمين بعد هذه الصلاة صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وآبائهم، فهموا بأن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة، فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل جبريل بصلاة الخوف.

التفسير وأوجه القراءة

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: شروع منه في بيان ما أحله الله لهم، بعد بيان ما حرمه عليهم؛ أي: يسألك المؤمنون يا محمد ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾؛ أي: أي شيء أحل لهم؟ أو ما الذي أحل لهم من المطاعم إجمالاً، ومن الصيد ومن طعام أهل الكتاب ومن نسائهم؟ والسائلون هم: عاصم بن عدي، وسعد بن أبي خيثمة، وعويمر بن ساعدة، كذا قاله عكرمة كما مر في مبحث أسباب النزول، أي: يسألك المؤمنون ماذا أحل الله لهم من الطعام؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد في الجواب ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾؛ أي: أحل الله سبحانه وتعالى لكم أيها المكلفون المستلذات والمشتهيات التي تستطيبها النفوس السليمة الفطرة، المعتدلة المعيشة بمقتضى طبعها، فتأكلها باشتهاء واستلذاذ مما لم يرد بتحريمه نص من كتاب، أو سنة، وما أكله الإنسان كذلك يسيغه ويهضمه بسهولة ويتغذى بها غذاءً صالحاً، وما يستخبثه ويعافه لا يسهل عليه هضمه ويضرّه غالباً، فما حرّمه الله تعالى في الآية السابقة خبيث بشهادة الله الموافقة للفطرة المعتدلة، وأصحاب الفطر السليمة يعافون أكل الميتة حتف أنفها، وما ماثلها من فرائس السباع، والمترديات،

والنطائح، والدم المسفوح، وكذلك الخنزير يعافه من يعرف ضرره وانهماكه في أكل القاذورات.

والخلاصة: أحل لكم أيها المكلفون ما يستطاب أكله ويشتهى دون ما يخبث أو يعاف ﴿و﴾ أحل لكم أيضاً ﴿ما علمتم من الجوارح﴾؛ أي: صيد ما علمتموه من الكواسب، وسُمِّيت جوارح؛ لأنها تجرح الصيد؛ أي: من الحيوان الذي يكسب لكم بالاصطياد من سباع البهائم والطير؛ كالكلب، والباز، حال كونكم ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ أي: معلّمين الجوارح كيفية الاصطياد، جمع مكلب، والمكلب: معلم الكلاب لكيفية الاصطياد، ويقرأ ﴿مكلبين﴾ - بالتشديد والتخفيف - يقال: كلبت الكلب وأكلبته فتكالب، أي: علمته فتعلم الاصطياد، ذكره أبو البقاء، وحالة كونكم ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾؛ أي: تعلمون تلك الجوارح الاصطياد ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ﴾ من طرق التعليم، ومن الحيل في الاصطياد، والجملة الفعلية حال ثانية من ضمير علمتم، والمقصود من التكرار: المبالغة في اشتراط التعليم، وأن يكون من يعلم الجوارح نحريراً في علمه، موصوفاً بالتأديب.

قال أبو حيان[1]: وأقصى غاية التعليم: أن يشلى فيستشلي، ويدعى فيجيب، ويزجر بعد الظفر فينزجر، ويمتنع من أن يأكل من الصيد. وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ أي: معلمين، حال مؤكدة لعلمتم، وفائدة هذه الحال - وإن كانت مؤكدة فكان يستغنى عنها - أن يكون المعلم مؤتمراً بالتعليم، حاذقاً فيه، موصوفاً به، واشتقت هذه الحال من الكلب، وإن كانت جاءت غايةً في الجوارح على سبيل التغليب؛ لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب، فاشتقت من لفظه؛ لكثرة ذلك في جنسه.

وقرأ ابن عباس وابن الحنفية[2]: ﴿وما عُلِّمتم﴾ مبنياً للمفعول، أي: من أمر الجوارح والصيد بها، وقرأ أيضاً: ﴿مُكْلِبين﴾ من أكلب. وفعل وأفعل قد يشتركان، وظاهر قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ حصول التعليم من غير اعتبار عدد، وكان

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

أبو حنيفة لا يجد في ذلك عدداً، وقال أصحابنا: إذا صاد الكلب وأمسك ثلاث مرات.. فقد حصل له التعليم، وقال غيرهم: إذا فعل ذلك مرة واحدة.. فقد صار معلَّماً.

وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: إن تعليمكم إياهن ليس من قبل أنفسكم، إنّما هو من العلم الذي علمكم الله، وهو أن جعل لكم روية وفكراً، بحيث قبلتم العلم، فكذلك الجوارح، يصير لها إدراك ما وشعور بحيث يقبلن الائتمار والانزجار، وفي قوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ إشعار ودلالة على فضل العلم وشرفه، إذ ذكر ذلك في معرض الامتنان، ومفعول علم وتعلمونهن الثاني محذوف، تقديره: وما علمتموه طلب الصيد لكم، لا لأنفسهن تعلمونهن ذلك، وفي ذلك دلالة على أن صيد ما لم يعلم حرام أكله؛ لأن الله تعالى إنما أباح ذلك بشرط التعليم، والدليل على ذلك الخطاب في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وغير المعلم إنما يمسك لنفسه، وقوله: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: من الأدب الذي أدبكم به تعالى، وهو اتباع أوامره واجتناب نواهيه، فإذا أمر فائتمر، وإذا زجر فانزجر.. فقد تعلم مما علمنا الله تعالى. انتهى. والفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ تفريعية[1]؛ لأنّ الجملة مفرعة على ما تقدم من تحليل صيد ما علموه من الجوارح، و(مِنْ) في قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للتبعيض؛ لأنّ بعض الصيد لا يؤكل، كالجلد، والعظم، والفرث، وما أكل الكلب منه؛ أي: كلوا بعض ما أمسكنه لكم، وهو الذي لم يأكلن منه.

أي: فكلوا[2] من الصيد ما تمسكه الجوارح عليكم؛ أي: تصيده لأجلكم، فتحبسه وتقفه عليكم بعدم أكلها منه، فإنْ أكلت منه.. فلا يحل أكل ما فضل عنها عند الجمهور؛ لأنه مثل فريسة السبع المحرمة في الآية السالفة. ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: سموا الله على ما علمتم من الجوارح عند إرساله إلى الصيد؛

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

أي: قولوا: بسم الله عنده، وإن نسيتم.. فلا حرج عليكم، فعلى هذا[1] يكون الضمير في عليه عائداً إلى ﴿ما علمتم من الجوارح﴾؛ أي: سموا الله عليه عند إرساله، وقيل: الضمير عائد إلى ما أمسكن عليكم، والمعنى: سموا عليه إذا أدركتم ذكاته، وقيل: يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الأكل، يعني: واذكروا اسم الله عليه عند الأكل، وسيأتي بيان هذه في سورة الأنعام عند قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إن شاء الله تعالى.

والتسمية واجبة عند أبي حنيفة ومستحبة عند الشافعي. وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: إنا قوم نصيد بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك إلا أن يأكل الكلب، فلا تأكل فإني أخاف أن يكون إنما أمسك لنفسه، وإن خالط كلاباً لم يذكر اسم الله عليها فأمسكن وقتلن فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره» وفي رواية: «فإنك لا تدري أيها قتل»، وسألته عن صيد المعراض فقال: «إذا أصبت بحده فكل، وإذا أصبت بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكل، وإذا رميت الصيد فوجدته بعد يوم أو يومين ليس به إلا أثر سهمك فكل، فإن وقع في الماء فلا تأكل». متفق عليه. وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إنَّا بأرض قوم أهل كتاب، أفنأكل في آنيتهم؟ وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي؟ قال: «أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب: فإن وجدتم غيرها.. فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا غيرها.. فاغسلوها وكلوا فيها، وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل، وما صدت بكلبك المعلم فذكرت اسم الله عليه فكل، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل». أخرجه أبو داود بسند جيد.

﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ولا تقدموا على مخالفته، فتأكلوا من صيد الجوارح الغير المعلمة، أو مما تمسك عليكم من

(١) الخازن.

صيدها، وأمسكنه على نفسها، أو تطعموا ما لم يسم اسم الله عليه من الصيد والذبائح مما صاده أهل الأوثان، فإن الله تعالى قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه أيما اجتناب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ عندما يحاسب عباده يوم القيامة، واعلموا أن الله تعالى لا يضيع شيئاً من أعمالكم، بل تحاسبون عليها، وتجازون بها في الدنيا والآخرة، وهو يحاسب الناس كلهم يوم القيامة في وقت واحد، فما أجدر حسابه أن يكون سريعاً، ففيه تخويف لمن خالف أمره، وفعل ما نهاه عنه.

وبعد أن بين وجوب التذكية للذبائح لإبعاد المسلمين مما كان عليه المشركون من أكل الميتة، وشدد في التسمية على الطعام من صيد أو ذبيحة لإبعادهم عما كانوا عليه من الذبح لغير الله بالإهلال به لأصنامهم ليطهرهم من كل ما كانوا عليه من أدران الشرك.. بين حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناكحتهم، لأنَّهم لما كانوا في الأصل أهل توحيد ثم سرت إليهم نزعات الشرك ممن دخل في دينهم من المشركين، كان هذا مظنة التشديد في مؤاكلتهم ومناكحتهم، كما شدد في أكل ذبائح مشركي العرب، ونكاح نسائهم، فذكر أنا لا نعاملهم معاملة المشركين في ذلك، بل تحل لنا مؤاكلتهم، ونكاح نسائهم فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ هذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى وهي قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ أي: الآن أحل لكم المستلذات المشتهيات لأهل المروءة والأخلاق الجميلة على سبيل التفصيل، بعد أن كانت حلالاً لكم بالإجمال، وصار حكمها مستقراً ثابتاً.

وعبارة الخازن: وإنما كرر إحلال الطيبات للتأكيد، كأنَّه قال: اليوم أحل لكم الطيبات التي سألتم عنها، ويحتمل أن يراد باليوم اليوم الذي أنزلت فيه هذه الآية، أو اليوم الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾. ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. ويكون الغرض من ذكر هذا الحكم أنه تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ فبين أنه كما أكمل الدين وأتم النعمة.. فكذلك أتم النعمة بإحلال الطيبات، وقيل: ليس المراد باليوم يوماً معيناً.

وفي «تنوير المقباس»: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم الحج ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ أي: المذبوحات من الحلال ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ﴾؛ أي: ذبائح الذين ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أعطوا الكتاب التوراة والإنجيل وهم اليهود والنصارى ﴿حِلٌّ لَّكُمْ﴾؛ أي: حلال لكم ما كان حلالاً بالملة، فيحل لنا أكل ذبائح من تمسكوا بالتوراة والإنجيل إذ حلت المناكحة بيننا وبينهم، فحل الذبيحة تابع لحل المناكحة دون ذبائح أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من عبدة الأصنام والأوثان. والمراد بالطعام هنا الذبائح، لأن غيرها حلال بأصله، كالحبوب والثمار والفاكهة والخبز وما لا يحتاج إلى ذكاة، فإنه لا اختلاف في حلها باختلاف حال مالكها ومباشرها، والذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى كما مر آنفاً.

وفي هذه الآية: دليل[1] على أن جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين، وإن كانوا لا يذكرون على ذبائحهم اسم الله، وتكون هذه الآية مخصصة لعموم قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. وظاهر هذا أن ذبائح أهل الكتاب حلال، وإن ذكر اليهودي في ذبيحته اسم عزير، وذكر النصراني على ذبيحته اسم المسيح، وإليه ذهب أبو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس والزهري وربيعة والشعبي ومكحول، وقال علي وعائشة وابن عمر: إذا سمعت الكتابي يسمي غير الله فلا تأكل، وهو قول طاووس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. وقال مالك: إنه يكره ولا يحرم، فهذا الخلاف إذا علمنا أن أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله، وأمَّا مع عدم العلم فقد حكى الطبري، وابن كثير الإجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التي أهدتها إليه اليهودية، وهو في «الصحيح»، وكذلك جراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر، وعلم بذلك النبي ﷺ وهو في «الصحيح» أيضاً، وغير ذلك، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وأمَّا المجوس: فذهب الجمهور إلى أنها لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم،

---

(١) الشوكاني.

لأنهم ليسوا بأهل كتاب على المشهور عند أهل العلم، وخالف في ذلك أبو ثور، وأنكر عليه الفقهاء ذلك.

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ أي: وذبائحكم أيها المؤمنون حل لأهل الكتاب، فلا جناح عليكم أن تطعموهم من طعامكم أو تبيعوهم منه. وفائدة[1] ذكر ذلك: بيان أن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين، وليس كذلك إباحة المناكحة، فذكره للتمييز بين النوعين، وقال الشوكاني: وهذا من باب المكافأة والمجازاة، وإخبار للمسلمين بأن ما يأخذونه منهم من أعراض الطعام حلال لهم بطريق الدلالة الالتزامية.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ أي: وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر العفائف من المؤمنات إذا أعطيتموهن مهورهن، وإنما خص المحصنات بالذكر - وهن الحرائر أو العفائف - ليحث المؤمنين على تخيير النساء، ليكون الولد كريم الأصل من الطرفين، لا لنفي نكاح من عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق عند توفر الشرائط، وكذا نكاح غير العفيفات إذا تابت وحسنت توبتها. روى[2] طارق بن شهاب أن رجلاً أراد أن يزوج أخته فقالت: إني أخشى أن أفضحك، إني قد بغيت، فأتى عمر، فذكر ذلك له منها فقال: أليس قد تابت؟ قال: بلى. قال: فزوجها. وقرأ الشعبي: بكسر الصاد وبه قرأ الكسائي وقد تقدم الكلام في هذا مستوفى في البقرة والنساء، وذكرهن هنا توطئة وتمهيداً لقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر من الذين أعطوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: إذا أعطيتم من نكحتم من محصناتهم مهورهن، وتقييد الحل بإيتاء المهور لتأكيد الوجوب لا لاشتراطه في الحل، والتقييد بالحرائر لإخراج الإماء الكتابيات لأنه لا يجوز نكاحها إلا عند أبي حنيفة.

---

(١) المراغي.

(٢) الخازن.

وعبارة المراح هنا: وتقييد[1] الإحلال بإعطاء المهور يدل على تأكد وجوبها، وعلى أن الأكمل بيانها لا هو شرط لصحة العقد، إذ لا تتوقف على دفع المهر، ولا على التزامه. ومن تزوج امرأة وعزم على أن لا يعطيها صداقها.. كان في صورة الزاني، وتسمية المهر بالأجر يدل على أن أقل الصداق لا يتقدر، كما أن أقل الأجر لا يتقدر في الإجارات، انتهت، حالة كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾؛ أي: مريدين للتزوج والإعفاف لهن ولكم ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ أي: غير معلنين ومجاهرين بالزنا بهن ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾؛ أي: ولا مسرين بالزنا بمن لها حليل، أو متخذي صواحب تسرون بالزنا بهن؛ أي: ولا جاعلي صواحب منهن تزنون بهن سراً.

وعبارة الخازن هنا: يعني ولا منفردين ببغيّ واحدة قد خادنها وخادنته، واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده، فقد حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا، واتخاذ الصديق وهو الخدن، وأحله على جهة الإحصان، وهو التزوج بعقد صحيح. والمحصنون الأعفاء عن الزنا، والمسافحون الذين يأتون الفاحشة، مجاهرين بها، والمتخذوا الأخدان: الذين يأتونها سراً بالاختصاص بخدن من الأخدان، والخدن يطلق على الصاحب والصاحبة؛ أي: هن حل لكم إذا آتيتموهن أجورهن فعلاً، أو التزمتم بها حال كونكم أعفاء عن الزنا جهراً وسراً، إذ المقصد من الزواج أن يكون الرجل محصناً والمرأة محصنة يعف كل منهما الآخر، يجعله في حصن يمنعه من الفاحشة على أي وجه كانت، فلا يزني جهرة ولا سراً باتخاذ صاحبة خاصة به، ولا تكون المرأة كذلك.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: ومن يجحد وينكر ما أمر الله به من توحيده، ونبوة محمد ﷺ، وما جاء به من عند الله تعالى ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾؛ أي: فقد بطل ثواب عمله الذي كان عمله في الدنيا، وخاب وخسر في الدنيا والآخرة، وقيل في معنى الآية: ومن ينكر بشرائع الإسلام وتكاليفه التي من جملتها ما بين هنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة، ويمتنع عن قبولها.. فقد حبط عمله

---

(١) المراح.

الصالح الذي عمله قبل ذلك، وبطل ثوابه، سواء عاد إلى الإسلام أم لا، وخسر في الآخرة ما أعده الله للمؤمنين من الجزاء العظيم على الإيمان الصحيح، وهو إيمان الإذعان والعمل. روى ابن جرير عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن ناساً من المسلمين قالوا: كيف نتزوج نساءهم يعني نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.. الآية. فأحل الله تزوجهن على علم. انتهى. والمقصود من الآية: تعظيم شأن ما أحله الله تعالى وما حرمه، والتغليظ على من خالف ذلك. وقرأ ابن السميقع ﴿حبَط﴾ بفتح الباء. ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: ذلك الكافر ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: من المغبونين بذهاب الجنة ودخول النار إذا مات على ذلك الكفر، ولم يعد إلى الإيمان بذلك قبل الموت، وهذا الشرط لا بد منه؛ لأنه إذا تاب وآمن قبل الموت.. قبلت توبته وصح إيمانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة تعبيراً بالمسبب الذي هو القيام عن السبب الذي هو الإرادة على حد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي: إذا أردت قراءته، وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام إلى الصلاة إلا إذا كان محدثاً؛ أي: إذا أردتم فعل الصلاة والقيام إليها وأنتم محدثون.. فاغسلوا وجوهكم... إلخ، رفعاً للحدث الأصغر، وهذا التقييد مستفاد من السنة العملية في الصدر الأول. فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بريدة قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله؟ فقال: «عمداً فعلته يا عمر». وروى البخاري وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصاري سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال: قلت: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث. وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ». فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا في عهد النبي ﷺ يتوضؤون لكل صلاة، وإنما كان النبي ﷺ يتوضأ لكل صلاة غالباً،

وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك. ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة، وهو الأفضل، وإنما يجب على من أحدث، وآخر الآية يدل على ذلك فإنَّه ذكر الحديثين ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدهما، فعلم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما، ولو كانت الطهارة واجبة لكل صلاة لما كان لهذا معنى.

والخلاصة: أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث، وإنما يستحب تجديده لكل صلاة. وفروض الوضوء المذكورة في هذه الآية أربعة:

الأول: غسل الوجه، وذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾؛ أي: أمروا[1] الماء عليها، ولا حاجة إلى الدلك خلافاً لمالك. والغَسل بالفتح: إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ ونحوه، والوجوه: جمع وجه وحده: من أعلى تسطيح الجبهة إلى أسفل اللَّحْيَيْن طولاً، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً، لأنَّه مأخوذ من المواجهة الحاصلة بما ذكر، فيجب غسل جميع الوجه في الوضوء، ويجب إيصال الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين، والشارب والعنفقة، وإنْ كانت كثة، وأما اللحية: فإن كانت كثة لا ترى البشرة من تحتها.. لا يجب غسل ما تحتها، ويجب غسل ما تحت اللحية الخفيفة؛ والخفيفة هي ما ترى بشرتها من خلالها في مجلس التخاطب، والكثة بخلافها.

واستدل الشافعي على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية[2]، وحجته أن الوضوء مأمور به، وكل مأمور به يجب أن يكون منوياً، ولما روي في «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرىء ما نوى». والوضوء من الأعمال، ويجب أن يكون منوياً، وإنَّما قلنا: إن الوضوء مأمور به، وإنَّه من أعمال الدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. والإخلاص عبارة عن النية

(١) البيضاوي.
(٢) الخازن.

الخالصة، ومتى كانت النية الخالصة معتبرة كان أصل النية في جميع الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى معتبراً.

واستدل أبو حنيفة على عدم وجوب النية في الوضوء بهذه الآية، قال: إن النية ليست شرطاً لصحة الوضوء؛ لأنَّ الله تعالى أوجب غسل الأعضاء الأربعة في هذه الآية، ولم يوجب النية فيها، فإيجاب النية زيادة على النص، والزيادة على النص نسخ، ونسخ القرآن بخبر الواحد وبالقياس غير جائز. وأجيب عنه بأنا إنَّما أوجبنا النية في الوضوء بدلالة القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

والفرض الثاني من فروض الوضوء المذكورة في القرآن: غسل اليدين، وذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿و﴾ اغسلوا ﴿أيديكم إلى المرافق﴾ والأيدي جمع يد، وحدها في الوضوء: من رؤوس الأصابع إلى المرفق. والمرفق بكسر أوله هو من الإنسان أعلى الذراع وأسفل العضد؛ أي: مجتمع الذراع والعضد. وذهب جمهور العلماء إلى وجوب إدخال المرفقين في الغسل، وحجتهم أن كلمة ﴿إلى﴾ هنا بمعنى (مع) نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾؛ أي: مع أموالكم.

ويعضده من السنة ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه توضأ، فغسل وجهه، فأسبغ الوضوء، ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد، ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع في العضد، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ.

ونقل عن مالك والشعبي وزفر وأبي بكر بن داود الظاهري: أنَّه لا يجب إدخال المرفقين في الغسل، واختاره ابن جرير الطبري. ونقل عن مالك وقد سئل عن قول الله عز وجل: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ فقال: الذي أمر به أن يبلغ المرفقين في الغسل لا يجاوزهما. وحجة أصحاب هذا القول أن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية، وما يجعل غاية للحكم يكون خارجاً عنه كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾؛ ولأن الحد لا يدخل في المحدود، فوجب أن

لا يجب غسل المرفقين في الوضوء.

وأجيب عنها بأنَّ الحد إذا كان من جنس المحدود دخل فيه، كما في هذه الآية؛ لأنَّ المرفق من جنس اليد، وإذا لم يكن من جنس المحدود.. لم يدخل فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ لأنَّ النهار من غير جنس الليل، فلا يدخل فيه.

والثالث من فروض الوضوء المذكورة في القرآن: مسح الرأس، وذكره بقوله عز وجل: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ جمع رأس والرأس معروف. وقد اختلف فقهاء الأمصار في أقل ما يحصل به فرض مسح الرأس، فقال الشافعي: يكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ولو شعرة. وقال مالك: يجب مسح جميعه وهو إحدى الروايتين عن أحمد، والرواية الأخرى عنه: أنه يجب مسح أكثره. وقال أبو حنيفة: يجب مسح ربعه، لأن المسح إنَّما يكون باليد وهي تستوعب مقدار الربع في الغالب، وفي رواية أخرى عنه: أنه يجب مسح قدر ثلاثة أصابع منه.

والمراد إلصاق المسح بالرأس، وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح بالرأس، فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب، وأخذ الشافعي باليقين فأوجب مسح ما يقع عليه اسم المسح، وأخذ أبو حنيفة ببيان السنة وهو ما يروى عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ: (توضأ فمسح بناصيته وعلى العمامة والخفين) متفق عليه. وقدرت الناصية بربع رأس.

والفرض الرابع من الفروض المذكورة في القرآن: غسل الرجلين، وذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿و﴾ اغسلوا ﴿أرجلكم إلى الكعبين﴾ أي مع الكعبين. والكعبان: هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين، أي: واغسلوا أرجلكم مع الكعبين ويؤيده عمل النبي ﷺ وعمل الصحابة، وقول أكثر الأئمة. فقد روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبة فقال: «ويل للأعقاب من النار». وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة، فأدركنا وقد أرهقنا العصر، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا، قال: فنادى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً،

ويقوم المسح على الخفين عند لبسهما مقام غسل الرجلين، وقد روى ذلك خلائق لا يحصون من الصحابة، قال الحسن: حدثني سبعون من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمسح على الخفين، وقال الحافظ ابن حجر: قد صرّح جمع من الحفاظ بأن المسح على الخفين متواتر، وأقوى الأحاديث حجة فيه حديث جرير، فقد روى أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له: تفعل هكذا؟ قال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه.

والخلاصة: أن غسل الرجلين المكشوفتين ومسح المستورتين هو الثابت بالسنة، المتواترة المبينة للقرآن، والموافق لحكمة هذه الطهارة.

وقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه[1]: ﴿وأرجلِكم﴾ بالجر، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه والكسائي ويعقوب: ﴿وأرجلَكم﴾ بالنصب. أما على قراءة الجر فهو إما معطوف على الرؤوس، فكما يجب المسح في الرؤوس كذلك من الأرجل، وإنَّما عطفت الأرجل على الممسوح للتنبيه على الإسراف في استعمال الماء فيها، لأنها موضع صب الماء كثيراً، والمراد غسلها، أو مجرور بحرف جر محذوف متعلق بفعل محذوف، تقديره: وافعلوا بأرجلكم غسلاً، وحذف حرف الجر وإبقاء الجر جائز، ولا يجوز هذا الكسر على الجوار على أنَّه منصوب في المعنى، عطفاً على المغسول، لأنَّ الجر بالجوار لا يرتكب إلا عند أمن اللبس، وهنا لا يؤمن اللبس، وأيضاً شرطه أن يكون بدون عاطف، والعاطف هنا موجود. وأمَّا على قراءة النصب فهو إمَّا معطوف على الرؤوس؛ لأنَّه منصوب المحل، والعطف على المحل جائز كالعطف على اللفظ كما هو مشهور عند النحاة، وإمّا معطوف على وجوهكم، فظهر لنا أن العامل في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أحد شيئين، إمَّا قوله: ﴿وَامْسَحُوا﴾. وإمَّا قوله: ﴿فَاغْسِلُوا﴾ ولكن الأولى إعمال الأقرب منهما، حتى إن

(١) المراح.

بعضهم لا يجوز أن يكون العامل ﴿فَٱغْسِلُوا۟﴾ لما يلزم عليه من الفصل بين المتعاطفين بجملة مبينة حكماً مستقلاً ليس فيها تأكيد للأول، وليست هي اعتراضية، فوجب أن يكون عامل النصب في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ هو قوله: ﴿وَٱمْسَحُوا۟﴾ فتدل هذه الآية على وجوب مسح الأرجل، لكن وردت أحاديث صحيحة كثيرة بإيجاب غسل الرجل، وهو مشتمل على المسح ولا ينعكس، فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط، فوجب الرجوع إليه، ويقرأ في الشذوذ بالرفع على الابتداء؛ أي: وأرجلكم مغسولة أو كذلك.

فصل

قد تقدم أن الفروض المذكورة في هذه الآية أربعة، وهي: غسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين، وقد تقدم استدلال الشافعي بهذه الآية على وجوب النية في الوضوء، فصارت فرضاً خامساً، وذهب الشافعي ومالك وأحمد إلى وجوب الترتيب في الوضوء، وهو أن يغسل الأعضاء في الوضوء على الولاء كما ذكره الله تعالى في هذه الآية، فيغسل وجهه أولاً، ثم يديه، ثم يمسح رأسه، ثم يغسل رجليه، فصار الترتيب فرضاً سادساً. وذهب أبو حنيفة إلى أن الترتيب في الوضوء غير واجب، واحتج الشافعي على وجوب الترتيب بهذه الآية، وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه، ثم بغسل اليدين، ثم بمسح الرأس، ثم بغسل الرجلين، فوجب أن يقع الفعل مرتباً كما أمر الله تعالى، ولقوله ﷺ في حديث حجة الوداع «أبدأ بما بدأ الله به». وهذا الحديث وإن ورد في قصة السعي بين الصفا والمروة، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولأن أفعال النبي ﷺ في الوضوء ما وردت إلا مرتبة، كما ورد في نص الآية، ولم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكساً أو غير مرتب، فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء كما أمر الله تعالى ونص عليه في هذه الآية واجب، واحتج أبو حنيفة لمذهبه بهذه الآية أيضاً وذلك: أن الواو لا تفيد الترتيب، فإذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص، وذلك غير جائز. وأجيب عنه بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه توضأ إلا

مرتباً كما ذكر، وبيان الكتاب إنَّما يؤخذ من السنة.

فصل في ذكر الأحاديث التي وردت في صفة الوضوء وفضله

عن حمران مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه أن عثمان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات، فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه.. غفر له ما تقدم من ذنبه». متفق عليه.

زاد في رواية بعد قوله: «فأقبل بيديه وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه».

وعن عبد خير قال: أتانا علي كرم الله وجهه ـ وقد صلى ـ فدعا بطهور، فقلنا: ما يصنع بالطهور وقد صلى! ما يريد إلا ليعلمنا، فأتي بإناء فيه ماء وطست فأفرغ من الإناء على يمينه، فغسل يديه ثلاثاً، ثم تمضمض واستنشق ثلاثاً، فمضمض ونثر من كف يأخذ منه، ثم غسل وجهه ثلاثاً، وغسل يده اليمنى ثلاثاً، وغسل الشمال ثلاثاً، ثم جعل يده في الإناء فمسح رأسه مرة واحدة، ثم غسل رجله اليمين ثلاثاً، ورجله الشمال ثلاثاً، ثم قال: من سره أن يعلم وضوء رسول الله ﷺ فهو هذا. أخرجه أبو داود.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف الطهور؟ (فدعا بماء في إناء، فغسل كفيه ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل ذراعيه ثلاثاً، ثم مسح برأسه، فأدخل أصبعيه السبابتين في أذنيه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثلاثاً، ثم قال: هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم، أو قال: ظلم وأساء). أخرجه أبو داود.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ مسح برأسه وأذنيه

الختانين، وإن لم يكن معه إنزال، فختان الرجل هو الموضع الذي يقطع منه جلدة القلفة، وشفرا المرأة محيطان بثلاثة أشياء، ثقبة في أسفل الفرج وهي مدخل الذكر، ومخرج الحيض والولد، وثقبة أخرى فوق هذه مثل إحليل الذكر، وهي مخرج البول لا غير، وموضع ختانها وهو ثقبة البول، وهناك جلدة قائمة مثل عرف الديك، وقطع هذه الجلدة هو ختانها، فإذا غابت الحشفة.. حاذى ختانها ختانه، وهذا هو معنى التقاء الختانين. أي: وإن كنتم أيها المؤمنون مصابين بالجنابة المذكورة وأردتم القيام إلى الصلاة ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾؛ أي: تطهروا من الجنابة بغسل البدن كله قبل الدخول في الصلاة التي أردتم القيام إليها، والمرأة كالرجل في ذلك كله. وعن عائشة رضي الله عنها (أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم يفرغ بيمينه على شماله،فيغسل فرجه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء يخلل بهما أصول شعره، ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على سائر جسده).

وقرأ الجمهور: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾. تشديد الطاء والهاء المفتوحتين وأصله تطهروا فأدغمت التاء في الطاء، واجتلبت همزة الوصل، وقرىء: ﴿فاطهروا﴾ بسكون الطاء والهاء مكسورة من اطهر رباعياً؛ أي: فأطهروا أبدانكم، والهمزة للتعدية. ولما بين الله سبحانه وتعالى وجوب الطهارتين: الوضوء والغسل، وكان المسلم لا بد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك في اليوم، ولا بد له من الغسل في كل أسبوع مرة أو أكثر غالباً.. بين الرخصة في تركهما عند المشقة أو العجز؛ لأن الدين يسر لا حرج فيه ولا عنت فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾؛ أي: وإنْ كنتم مرضى مرضاً يضره الماء أو يشق فيه استعمال الماء جلدياً كان كالجدري والجرب وغيرهما من القروح والجراح أو غير جلدي كالباطني ﴿أَوْ﴾ مستقرين ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ طويلاً أو قصيراً، طاعة أو غيرها، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾؛ أي: المكان المنخفض الذي تقضى فيه حاجة الإنسان، التي لا بد منها، ويراد به شرعاً قضاء الحاجة من بول أو غائط؛ أي: أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها، كالطواف، ويسمى الحدث الأصغر ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بذكر أو غيره، المراد

بالملامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء، والحدث الموجب للغسل يسمى الحدث الأكبر، والموجب للوضوء يسمى الأصغر ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ يا معشر المسافرين والمحدثين حدثاً أصغر أو أكبر ﴿مَآءً﴾ بعد طلبه ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾؛ أي: فاقصدوا تراباً طاهراً ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ بالضربة الأولى ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ بالضربة الثانية ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الصعيد. وقد تقدم تفسير هذا في سورة النساء مستوفى، وكذلك تقدم الكلام على ملامسة النساء وعلى التيمم وعلى الصعيد، ووجه التكرير هذا هنا لاستيفاء الكلام في أنواع الطهارة، ومن في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ لابتداء الغاية، وقيل للتبعيض وفي قوله: ﴿مِنْهُ﴾ دليل على أنَّه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد وهو التراب.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ أيها المؤمنون فيما شرعه لكم في هذه الآية، وفي غيرها ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: حرجاً ما وضيقاً؛ أي: أدنى ضيق وأقل مشقة بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم عند عدم الماء، لأنَّه تعالى غني عنكم، رحيم بكم، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والصلاح لكم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الأقذار والرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة، فتكونوا أنظف الناس أبداناً، وأزكاهم نفوساً، وأصحهم أجساداً، وأرقاهم أرواحاً. وقيل المعنى[1]: ليطهر قلوبكم عن صفة التمرد عن طاعة الله تعالى، لأنَّ الكفر والمعاصي نجاسات للأرواح، وذلك لأنه تعالى لما أمر العبد بإيصال الماء إلى هذه الأعضاء المخصوصة ـ وكانت طاهرة ـ لم يعرف العبد في هذا التكليف فائدة معقولة، فلمَّا انقاد لهذا التكليف.. كان ذلك الانقياد محض إظهار العبودية، فأزال هذا الانقياد عن قلبه آثار التمرد، فكان ذلك طهارة للقلوب والأبدان، ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ فيجمع[2] لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح، والإنسان إنما هو روح وجسد. والصلاة تطهر الروح وتزكي النفس، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعود المصلي مراقبة ربه في السر والعلن، وخشيته حين الإساءة، والرجاء فيه لدى الإحسان، والطهارة

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

التي جعلها الله شرطاً للدخول في الصلاة، ومقدمة لها، تطهر البدن وتنشطه، فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها، فما أجل نعم الله على عباده! وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه! ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أو المعنى ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ببيان كيفية الطهارة، وهي نعمة الدين بعد ذكر نعمة الدنيا، وهي إباحة الطيبات من المطاعم والمناكح، أو بالترخيص في التيمم والتخفيف في حال السفر والمرض، فتستدلوا بذلك على أنَّه تعالى يخفف عنكم يوم القيامة، بأن يعفو عن ذنوبكم ويتجاوز عن سيئاتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: وعدكم ذلك لكي تديموا شكره على نعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية.

فصل في ذكر الحكمة في شرع الوضوء والغسل

للوضوء والغسل فوائد أهمها[1]:

١ ـ أن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطاً وهمة، ويزيل ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث، أو بغيره من الأعمال التي تؤثر تأثيره، وبذا يقيم الصلاة على وجهها، ويعطيها حقها من الخشوع، ومراقبة الله تعالى، إذ المشاهد أنَّه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسيمة غايتها، بالوقاع أو الإنزال، حصل تهيج عصبي كبير، يعقبه فتور شديد، بحسب سنة رد الفعل، ولا يعيد نشاطه إلا غسل البدن كله.

٢ ـ أن النظافة ركن الصحة البدنية، فإن الوسخ والأقذار مجلبة الأمراض والأدواء الكثيرة، ومن ثم ترى الأطباء يشددون في أيام الأوبئة والأمراض المعدية في المبالغة في النظافة، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجساداً، وأقلهم أمراضاً، لأنَّ دينهم مبني على المبالغة في نظافة الأبدان والثياب والأمكنة، فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفي الأسباب التي تولد جراثيم ـ أصول ـ الأمراض عند الناس.

---

(١) المراغي.

٣ ـ تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيشون معهم، إذ من كان نظيف البدن والثياب.. كان جديراً بحضور كل مجتمع، ولقاء أشراف الناس وفضلائهم، ومن كان وسخاً قذراً فإنَّه يكون محتقراً عند كرام الناس ولا يعدونه أهلاً لأن يحضر مجالسهم، ويشعر في نفسه الضعة والهوان.

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل والطيب ولبس الثياب النظيفة يوم الجمعة، لأنَّه يوم يجتمع فيه الناس في المساجد لعبادة الله تعالى. روى مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم من طرق عدة أن النبي ﷺ قال: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»، أي: بالغ ومكلف.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى هذه الأحكام، وذكر رفع الحرج الذي تم به الإنعام، ذكرنا بنعمه التي أنعم بها علينا فقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي هي نعمة الإسلام؛ أي: وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين، فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابين. وقيل المعنى؛ أي: تأملوا في جنس نعم الله تعالى عليكم، وهو إعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون عن الآفات، والإيصال إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، فجنس نعمة الله جنس لا يقدر عليه غير الله، فمتى كانت النعمة على هذا الوجه.. كان وجوب الاشتغال بشكرها أتم ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: وتذكروا العهد الذي عاهدكم به على لسان رسوله حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، المحبوب والمكروه والعسر واليسر، حين قلتم له: سمعنا ما أمرتنا به ونهيتنا عنه، وأطعناك فيه، فلا نعصيك في معروف، وكل ما جئتنا به فهو معروف.

مثل مبايعته ﷺ مع الأنصار في أول الأمر ليلة العقبة، ومبايعته ﷺ عامة المؤمنين بيعة الرضوان تحت الشجرة في الحديبية وغيرهما.

وكل نبي بعث في قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة، وقبول الدعوة والدخول في الدين، يعد قبولاً لهذا العهد، فعلينا أن نعد هذا التذكير خطاباً لنا، كما عده السلف من الصحابة خطاباً لهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون في نسيان

نعمته، ونقض ميثاقه، فلا تنقضوا عهده، ولا تخالفوا ما أمركم به، وما نهاكم عنه، سواء أكان في هذه الآيات أم في غيرها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بخطرات القلوب فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق، من نية الوفاء به، أو عدم الوفاء، وما تنطوي عليه السرائر، من الإخلاص أو الرياء، فلا تعزموا بقلوبكم على نقض تلك العهود؛ فإنَّه إنْ خطر ببالكم فالله يعلم ذلك، وكفى بالله مجازياً. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: كونوا مبالغين في القيام بالحق والعدل في أنفسكم، وفي غيركم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى في كل ما تعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق ابتغاء مرضاة الله تعالى من غير اعتداء على أحد ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: شاهدين بالعدل والحق والصدق بلا محاباة لمشهود له، ولا لمشهود عليه، لأجل قرابة أو مال أو جاه، ولا تركه لفقر أو مسكنة أو عداوة، فالعدل هو ميزان الحقوق، إذ متى وقع الجور في أمة لأي سبب.. زالت الثقة من الناس، وانتشرت المفاسد، وتقطعت روابط المجتمع، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منه إلى العدل، فيذيقوهم الوبال والنكال، وتلك سنة الله في حاضر الأمم وغابرها، ولكن الناس لا يعتبرون، والشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به، أو عن إظهار الحاكم الحق بالحكم به، أو إظهاره بالإقرار به لصاحبه، والتكاليف محصورة في نوعين: تعظيم أمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله. فقوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾. إشارة إلى النوع الأول وهو حقوق الله وقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ إشارة إلى الثاني وهو حقوق الخلق ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لا يحملنكم ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾؛ أي: شدة بغضكم لقوم مشركين ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾؛ أي: على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل فعله، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم، أو المعنى: ولا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم، وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم، وإن أساؤوا عليكم، ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لهم على ترك العدل في أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا

هم أصحاب حق، أو الحكم لهم بذلك، لأنَّ الله تعالى أمر جميع الخلق بأنْ لا يعاملوا أحداً إلا على سبيل الإنصاف، وترك الاعتساف، فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة، ويجعله فوق الأهواء، وحظوظ النفس، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما ﴿ٱعْدِلُوا۟﴾؛ أي: افعلوا العدل، والحق أيها المؤمنون في عدوكم ووليكم ﴿هُوَ﴾؛ أي: العدل المدلول عليه بقوله: إعدلوا ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: إلى الاتقاء من معاصي الله تعالى، أو إلى الاتقاء من عذاب الله تعالى، أو إلى التقوى التي أمرتم بها غير مرة.

وهذه[1] الجملة مؤكدة للجملة السالفة، كرره للعناية بأمر العدل، وأنَّه فريضة لا هوادة فيها؛ لأنَّه أقرب لتقوى الله تعالى، والبعد عن سخطه، وتركه من أكبر المعاصي، لما ينشأ عنه من المفاسد التي تقوض نظم المجتمعات وتقطع الروابط بين الأفراد، وتجعل بأسهم شديداً.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم، فيجازيكم عليها.

والمعنى: واتقوا سخطه وعقابه، لأنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، ظاهرها وباطنها، واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم للعدل، وقد مضت سنته في خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل في الدنيا الذلة والمهانة للأمم والأفراد، وفي الآخرة الخزي يوم الحساب.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالعدل والتقوى وبشرهم بأن يكون ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أي: ستر لذنوبهم ومحو لسيئاتهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: ثواب جسيم هو الجنة والرضوان منه تعالى، وهذه الجملة الاسمية مستأنفة استئنافاً بيانياً لسؤال مقدر، فكأنه قيل وأي شيء وعدهم؟ فقال المجيب لهم: مغفرة وأجر عظيم.

---

(١) المراغي.

فالإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة، فيغلب عليها حب الحق والخير، وتكون أهلاً للوصول إلى عالم القدس والطهر، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح، فضلاً من الله ورحمة من لدنه. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا بوحدانية الله تعالى وبرسالة رسله، ونقضوا عهوده ومواثيقه. والكفر هنا هو الكفر بالله ورسله، لا فرق في ذلك بين الكفر بالجميع وبين الكفر بالبعض ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرآنية، وبما جاءت به الرسل من عنده تعالى ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكافرون المكذبون ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: ملازموها ومصاحبوها أبداً لا يفارقونها. وهذه الآية نص قاطع في أن الخلود في النار ليس إلا للكفار، لأنَّ المصاحبة تقتضي الملازمة، كما يقال: فلان صاحبُ فلان، يعني ملازم له، وهذه الجملة مستأنفة، أتى بها جمعاً بين الترغيب والترهيب، إيفاء لحق الدعوة بالتبشير والإنذار.

وآيات الله قسمان: آياته المنزلة على رسله وآياته التي أقامها في الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وقدرته وإرادته، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه، والجحيم النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾؛ أي: أنَّ هؤلاء الكفار المكذبين سيصلون العذاب في نار عظيمة، أعدَّها الله تعالى لمن كفر وكذب بآياته، لأن نفوسهم قد فسدت، وسوء حالهم قد ران على قلوبهم فأصبحوا صماً عمياً لا يبصرون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، يعني محمداً ﷺ وأصحابه ﴿اذْكُرُوا﴾؛ أي: تذكروا ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾؛ أي: إنعامه تعالى عليكم، بدفع بأس العدو عنكم بالشكر عليها ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾؛ أي: إذ قصد قوم من الكفار ﴿أَن يَبْسُطُوا﴾ ويمدوا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والبطش والإهلاك، يقال: بسط إليه يده، إذا بطش به، وبسط إليه لسانه، إذا شتمه، ومعنى بسط اليد مدها إلى المبطوش به ﴿فَكَفَّ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ وصرفهم ﴿عَنكُمْ﴾ وحال بينكم وبين ما أرادوه بكم من الضرر. روي من طرق متعددة أن الآية نزلت في رجل من قبيلة هم بقتل النبي ﷺ، أرسله قومه لذلك، وكان

بيده سيف وليس مع النبي ﷺ سلاح، وكان منفرداً.

وفي رواية أخرى: إن السيف الذي كان بيد الأعرابي كان سيف رسول الله ﷺ، علقه في شجرة وقت الراحة، فأخذه الرجل، وجعل يهزه ويهم بقتل النبي ﷺ، ثم سقط في يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقال: «من يمنعك مني»؟ قال: لا أحد، ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه، فأخبرهم، وأبى أن يعاقبه، كما مر ذلك كله في أسباب النزول.

وعلى هذا فالمراد تذكيرهم بنعمة الله عليهم، بدفع الشر والمكروه عن نبيهم، فإنَّه لو حصل ذلك.. لكان من المحن الكبرى التي تصيب المسلمين.

وقيل: إن المراد تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الإسلام، وعظمة شوكة المسلمين، فبعد أنْ كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم، بدل الحال غير الحال، وأصبحوا أعزة بعد الذلة، وغالبين بعد أن كانوا مقهورين، فهو سبحانه وتعالى يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلها، سواء في ذلك حادثة المحاربي وأمثالها، لأن حفظه أولئك السلف هو حفظه لذلك الدين القويم، فالنبي ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وأصحابه هم الذين تلقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولاً وعملاً.

ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه في التأسي بالسلف في القيام بما جاء به الدين، من الحق والعدل والبر، ومعنى قوله: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء، من قتل ونهب، فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم، فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه؛ أي: كونوا مواظبين على طاعة الله تعالى، ولا تخافوا أحداً في إقامة طاعات الله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فليعتمد المؤمنون في جميع أمورهم: دينهم ودنياهم، فإنَّه تعالى الكافي لإيصال الخير ودفع الشر.

والمعنى: واتقوا الله الذي أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم، وتوكلوا عليه وحده، فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه بعد مراعاة سننه، والسير عليها في اتقاء كل ما يخشى ضره، وتسوء عاقبته، لا على

أوليائكم وحلفائكم، لأن الأولياء قد تنقطع بهم الأسباب، ويجيبون داعي اليأس إذا اشتد اليأس، والحلفاء قد يغدرون كما غدر بنو النضير وغيرهم، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس.. تذكر أن الله تعالى وليه، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله، ويخذل أعداءه، كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم، وقلتهم وفقرهم وتألب[1] الناس كلهم عليهم.

الإعراب

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة. ﴿مَاذَآ﴾: (ما): اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. (ذا): اسم الموصول في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل النصب مفعول ثان لِـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ﴿أحل﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على الموصول ﴿لَهُمْۖ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول القول ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع معطوف على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ولكنه على حذف مضاف كما مر في بحث التفسير تقديره: وصيد ما علمتم. ﴿عَلَّمْتُم﴾: فعل وفاعل ومفعولاه محذوف تقديره: وما علمتموه الاصطياد. ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾: جار ومجرور حال من المفعول الأول الذي هو الضمير المحذوف تقديره: وما علمتموه حالة كونه كائناً من الجوارح؛ أي: من الحيوان الكاسب لكم، وجملة (علم) صلة الموصول، والعائد الضمير المحذوف.

---

(١) يقال: تألب الناس على كذا إذا تجمعوا واتفقوا عليه ا هـ م.

وفي «الفتوحات»[1] قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ في (ما) هذه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها موصولة بمعنى الذي، والعائد محذوف؛ أي: ما علمتموه، ومحلها الرفع عطفاً على مرفوع ما لم يسم فاعله؛ أي: وأحل لكم صيد أو أخذ ما علمتم، فلا بدّ من تقدير هذا المضاف.

والثاني: أنها شرطية، فمحلها رفع بالابتداء والجواب قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ وإنَّما دخلت الفاء لكون الجواب جملة طلبية.

والثالث: أنَّها موصولة أيضاً، ومحلها الرفع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ وإنَّما دخلت الفاء تشبيهاً للموصول باسم الشرط وقوله: ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ في محل نصب على الحال، وفي صاحبها وجهان: أحدهما: الموصول، وهو ما، والثاني: أنَّه الهاء العائد على ما الموصولة، وهو في المعنى كالأول، قال الشيخ: وفائدة هذه الحال وإنْ كانت مؤكدة لقوله: ﴿عَلَّمْتُم﴾ فكان يستغنى عنها الإشارة إلى أن يكون المعلم ماهراً في التعليم حاذقاً. اهـ. «سمين».

﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾: حال من التاء في علمتم، ومفعولاه محذوفان تقديرهما: مكلبين إياهن الاصطياد؛ أي: معلمين ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لتعلمون، ومن فيه تبعيضية ﴿عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: علمكم الله إياه، وجملة ﴿عَلَّمَكُمُ﴾: صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، وجملة ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾: في محل النصب حال ثانية من فاعل علمتم.

وفي «الفتوحات» قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ في هذه الجملة أربعة أوجه[2]:

أحدها: أنَّها جملة مستأنفة.

---

(١) الجمل. (٢) الجمل.

الثاني: أنها جملة في محل نصب على أنها حال ثانية من فاعل علمتم، ومنع أبو البقاء ذلك لأنَّه لا يجيز للعامل الواحد أن يعمل في حالين.

الثالث: أنها حال من الضمير المستتر في مكلبين فتكون حالاً من حال، وتسمى المتداخلة وعلى كلا التقديرين المتقدمين فهي حال مؤكدة؛ لأن معناها مفهوم من علمتم ومن مكلبين.

الرابع: أن تكون جملة معترضة، وهذا على جعل ما شرطية أو موصولة خبرها ﴿فَكُلُوا﴾ فيكون قد اعترض بين الشرط وجوابه، أو بين المبتدأ وخبره. ا هـ «سمين» انتهت.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿فَكُلُوا﴾ (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أنه أحل لكم صيد ما علمتم وأردتم بيان كيفية الانتفاع به، وكيفية أكله.. فأقول لكم كلوا. ﴿كلوا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول به لِـ﴿كلوا﴾ و(من) فيه تبعيضية. ﴿أَمْسَكْنَ﴾: فعل وفاعل ومفعوله محذوف تقديره: أمسكنه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة أمسكن صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط الضمير المحذوف، وجملة (كلوا): في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وكون الفاء فصيحة إنَّما يتمشى على القول بأن ما علمتم معطوف على الطيبات، لا على الوجهين الأخيرين من الأوجه الثلاثة المذكورة فيه. ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق باذكروا، والجملة معطوفة على جملة ﴿كلوا﴾. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على كلوا. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ خبر إنَّ ومضاف إليه، وجملة إنَّ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

﴿الْيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بما بعده. ﴿أُحِلَّ﴾: فعل

ماضٍ مغير الصيغة. ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ ﴿أُحِلَّ﴾ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: نائب فاعل لـ ﴿أُحِلَّ﴾: والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَطَعَامُ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿طعام﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان لـ ﴿أُوتُوا۟﴾ لأنَّه بمعنى أعطوا. ﴿حِلٌّ﴾ خبر المبتدأ. ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية المذكورة قبلها، وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون ﴿طعام﴾ معطوفاً على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ و﴿أُحِلَّ لَكُمُ﴾: خبر مبتدأ محذوف ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ الواو عاطفة. ﴿المحصنات﴾: معطوف على ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره: والمحصنات من المؤمنات حل لكم أيضاً، وحل مصدر بمعنى الحلال، فلا يثنى ولا يجمع. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في المحصنات، أو من نفس المحصنات إذا عطفتها على الطيبات ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ الواو: عاطفة. ﴿المحصنات﴾: إما معطوف على الطيبات، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: حل لكم. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في المحصنات، أو حال من نفس المحصنات إذا عطفناه على الطيبات. ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل ونائب فاعل ومفعول ثان، والجملة صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُوتُوا۟﴾.

﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بـ ﴿أُحِلَّ﴾ أو بحل المحذوف. ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾. ﴿مُحْصِنِينَ﴾: حال من الضمير المرفوع في ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ فيكون العامل آتيتم، ويجوز أن يكون العامل ﴿أُحِلَّ﴾: أو (حل) المحذوف، ذكره أبو البقاء. ﴿غَيْرَ﴾: صفة لمحصنين. ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: مضاف إليه، أو حال من الضمير المستكن في ﴿مُحْصِنِينَ﴾، أو حال من فاعل ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ على أنه حال ثانية منه، وذلك عند من يجوز ذلك ﴿وَلَا﴾: (الواو):

عاطفة. (لا): زائدة زيدت لتأكيد النفي المفهوم من غير. ﴿مُتَّخِذِيٓ﴾: معطوف على ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾ مجرور بالياء وهو مضاف ﴿أَخْدَانٍۗ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع مجزوم على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على من. ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: متعلق به. ﴿فَقَدْ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من وجوباً لاقترانه بقد. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾: فعل وفاعل ومضاف إليه في محل الجزم بمن على كونه جواب الشرط لها، وجملة من الشرطية مستأنفة ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ. ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: جار ومجرور متعلق بما تعلق به الخبر الآتي ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ وقوله: ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: خبر وقوله: ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق بما تعلق به الخبر لا به، إذ معمول الصلة لا يتقدم عليها ا هـ. وفي «الكرخي»: الظاهر أن الخبر قوله: ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيتعلق قوله: ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بما تعلق به هذا الخبر، وهو الكون المطلق، ولا يجوز أن يكون ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هو الخبر، و﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ متعلقاً بما تعلق به الخبر، لأنه لا فائدة في ذلك. ا هـ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات، (أي): من الإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لأي، تابع للفظه، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿قُمْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿قُمْتُمْ﴾. ﴿فَٱغْسِلُوا۟﴾: الفاء رابطة لجواب إذا. ﴿اغسلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة إذا جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾: معطوف على وجوهكم. ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿اغسلوا﴾. وقال العكبري: ويجوز أن يتعلق بمحذوف

حال من أيديكم تقديره: حالة كونها مضافة إلى المرافق. ﴿وَٱمۡسَحُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿اغسلوا﴾. ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿امسحوا﴾. ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾: بالنصب معطوف على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾؛ أي: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم. وبالجر لفظاً على الجوار معطوف على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾ أيضاً، فتقول في إعرابه: أرجلكم معطوف على وجوهكم، وللمعطوف حكم المعطوف عليه تبعه بالنصب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الأخير، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الجوار؛ أي: اشتغال المحل بحركة سببها مجاورة المجرور ويقرأ في الشذوذ بالرفع على الابتداء؛ أي: وأرجلكم مغسولة، أو كذلك، ذكره أبو البقاء. ﴿إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿اغسلوا﴾ أو ﴿امسحوا﴾ أو حال من ﴿أرجلكم﴾.

﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾.

﴿وَإِن كُنتُمۡ﴾ جازم وفعل ناقص واسمه. ﴿جُنُبٗا﴾ خبر كان ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾: (الفاء): رابطة الجواب. ﴿اطهروا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم جواب إنْ الشرطية، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة. ﴿وَإِن كُنتُم﴾: جازم وفعل ناقص واسمه ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾: خبره ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف معطوف على خبر كان تقديره: أو مستقرين على سفر ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم معطوف على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ على كونها فعل شرط لإن ﴿مِّنكُم﴾: جار ومجرور صفة لأحد ﴿مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾: جار ومجرور متعلق بجاء ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾. ﴿فَلَمۡ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿تَجِدُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بلم. ﴿مَآءٗ﴾: مفعول به؛ لأنَّ وجد لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، لأنَّه من وجدان الضالة، والجملة في محل الجزم، معطوفة على جملة الشرط، لكنه قيد في غير المرض وهو الثلاثة بعده، وأمَّا المرض.. فيتيمم معه ولو مع وجود الماء ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: (الفاء): رابطة لجواب الشرط. ﴿تيمموا﴾: فعل وفاعل. ﴿صَعِيدٗا﴾: مفعول به. ﴿طَيِّبٗا﴾: صفة له، والجملة في محل الجزم جواب لإنْ الشرطية، وجملة إنْ الشرطية مستأنفة.

﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

﴿فَٱمۡسَحُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجزم معطوفة على جملة تيمموا على كونها جواب الشرط ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾: جار ومجرور. ومضاف إليه متعلق بـ ﴿امسحوا﴾ ﴿وَأَيۡدِيكُم﴾ معطوف على ﴿وُجُوهِكُمۡ﴾ ﴿مِّنۡهُۚ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿امسحوا﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿لِيَجۡعَلَ﴾: اللام حرف جر وتعليل. ﴿يجعل﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَيۡكُم﴾: متعلق به. ﴿مِّنۡ﴾: زائدة. ﴿حَرَجٖ﴾: مفعول به لجعل؛ لأنه يتعدى إلى مفعول واحد؛ لأنه بمعنى أوجد، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام، ومفعول ﴿يُرِيدُ﴾ محذوف تقديره: ما يريد الله الرخصة في التيمم لجعله حرجاً عليكم، واللام متعلقة بـ ﴿يُرِيدُ﴾ وقيل: اللام زائدة، وجملة أن المصدرية مفعول ﴿يُرِيدُ﴾ تقديره: ما يريد الله برخصة التيمم جعل حرج عليكم. ﴿وَلَٰكِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، ومفعول ﴿يُرِيدُ﴾ محذوف تقديره: ولكن يريد الرخصة في التيمم ليطهركم، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾. ﴿لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يطهر﴾: منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. و(الكاف): مفعوله، وجملة (أنْ) المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام وهي متعلقة بـ ﴿يُرِيدُ﴾؛ والتقدير: ولكن يريد الرخصة في التيمم لتطهيره إياكم، وقيل: اللام زائدة كما تقدم والتقدير: ولكن يريد تطهيره إياكم. ﴿وَلِيُتِمَّ﴾: (الواو): عاطفة. (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿يتم﴾: منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿نِعۡمَتَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ ﴿يتم﴾: وجملة أنْ المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ والتقدير: على الوجه الأول؛ ولكن يريد الرخصة في التيمم لتطهيره إياكم ولإتمام نعمته عليكم،

وعلى الوجه الثاني: ولكن يريد تطهيره إياكم وإتمام نعمته عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترجّ ونصب. و(الكاف): : اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾: في محل الرفع خبر لعل، والتقدير: لعلكم شاكرون، وجملة لعل مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞٧﴾.

﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾: (الواو): استئنافية. ﴿اذكروا﴾: فعل وفاعل. ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بنعمة الله، والجملة مستأنفة ﴿وَمِيثَـٰقَهُ﴾: معطوف على نعمة الله ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة للميثاق ﴿وَاثَقَكُم﴾ فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾. ﴿بِهِۦٓ﴾ متعلق بواثق، والجملة الفعلية صلة الموصول والعائد ضمير به ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿واثقكم﴾ ﴿قُلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: مقول محكي وإن شئت قلت ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْتُمْ﴾. ﴿وَأَطَعْنَا﴾: معطوف على ﴿سَمِعْنَا﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿اذكروا﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبرها ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بعليم، وجملة إن مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞٨﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿كُونُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: خبره. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بقوامين. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر ثان لكونوا، وجملة كونوا جواب النداء. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بشهداء. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية. ﴿يجرمن﴾: فعل مضارع في محل الجزم بلا الناهية مبني

على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. والكاف مفعول به. ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة ﴿كُونُواْ﴾: على كونها جواب النداء ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر ﴿أَلَّا﴾: ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَعۡدِلُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، وجملة أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بعلى تقديره: على عدم العدل، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾. ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿هُوَ أَقۡرَبُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾: متعلق بـ ﴿أَقۡرَبُ﴾. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها ﴿خَبِيرُۢ﴾: خبرها ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بخبير ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: يعملونه، وجملة إنَّ مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ⑨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ⑩﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني محذوف تقديره: وعد الله الذين أمنوا المغفرة والأجر العظيم، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿ءَامَنُواْ﴾ فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على آمنوا ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَأَجۡرٌ﴾: معطوف عليه ﴿عَظِيمٞ﴾: صفة لأجر، والجملة الاسمية مستأنفة استغنى بها عن ذكر المفعول الثاني لوعد لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿وَكَذَّبُواْ﴾: معطوف على ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ ﴿كذبوا﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: مضاف إليه والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، والجملة من المبتدأ الأول وخبره جملة كبرى في ضمنها جملة صغرى مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أيها﴾ منادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة، والجملة مستأنفة. ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة جواب النداء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: ﴿هَمَّ قَوْمٌ﴾ **فعل وفاعل مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾** ﴿أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول وجار ومجرور في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿هَمَّ﴾ ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿اللَّهِ﴾: (الفاء): تفريعية عاطفة على ﴿هم﴾ ﴿عَنكُمْ﴾ متعلق بكف ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: وهو فعل وفاعل، و(الفاء): زائدة، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: جمع طيبة وطيب والطيب ضد الخبيث، وهو صفة مشبهة من طاب يطيب من باب باع طيباً وطاباً وطيبة وتطياباً إذا لذّ وحلا وحسن وجاد، فالطيبات المستلذات. ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾: الجوارح الكواسب من سباع البهائم، والطير، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والباز والشاهين، وهي جمع جارحة، والهاء فيها للمبالغة، وهي صفة غالبة إذ لا يكاد يذكر معها الموصوف ذكره أبو البقاء، وسميت بذلك لأنها تجرح ما تصيد غالباً، أو لأنها تكتسب، يقال: امرأة لا جارح لها؛ أي: لا كاسب، ومنه ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ما كسبتم، ويقال: جرح واجترح بمعنى اكتسب ﴿مُكَلِّبِينَ﴾: جمع مكلب بالتشديد من التكليب، وهو تعليم الكلاب وإضراؤها، ثم استعمل في تعليم الجوارح مطلقاً. وقال أبو حيان: المكلب بالتشديد معلم الكلاب ومضربها على الصيد، وبالتخفيف صاحب الكلاب، وقال الزجاج: رجل مكلب ومكلب وكلاب صاحب كلاب ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: جمع محصنة يقال: أحصنت المرأة إذا عفت، فهي

محصنة، بفتح الصاد؛ أي: عفيفة، وأحصنت المرأة إذا تزوجت، لأن زواجها قد أحصنها، فهي محصنة بفتح الصاد؛ أي: متزوجة وأحصن الرجل إذا تزوج، فهو محصن إذا تزوج، وأحصن المرأة إذا زوجها. قيل: المراد بالمحصنات هنا الحرائر، وقيل: العفيفات عن الزنا ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن جمع أجر كفلس وفلوس ﴿مُحْصِنِينَ﴾: المراد بهم الأعفاء عن الزنا ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: مجاهرين بالزنا، ويقال: سافحا وتسافحا، إذا زنيا وفجرا، فهو مسافح؛ أي: مجاهر بالزنا.

﴿مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾؛ أي: مسرين بالزنا، والأخدان: جمع خدن بكسر أوله، والخدن الصديق، يطلق على الذكر والأنثى، وفي «المصباح» الخدن: الصديق في السر، والجمع: أخدان مثل حمل وأحمال انتهى. ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الغسل(١) في اللغة إيصال الماء إلى المغسول مع إمرار شيء عليه كاليد ونحوها، قاله بعضهم وقال آخرون: هو إمرار الماء على الموضع، ومن ذلك قول بعض العرب:

فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ ٱلدَّمْعُ كُحْلَهَا

والوجوه جمع وجه، وهو ما تحصل به المواجهة من الرأس ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ جمع يد، أصله يدي، بدليل جمعه على الأيدي حذفت لامه اعتباطاً؛ أي: لغير علة تصريفية ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾: جمع مرفق، والمرفق المفصل بين المعصم والعضد، وفتح الميم وكسر الراء أشهر ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾: جمع رجل والرجل معروفة، وجمعت على أفعل في القلة والكثرة ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ تثنية كعب، والكعب(٢) العظم الناتىء في وجه القدم، حيث يجتمع شراك النعل ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ الجنب صفة يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، فاطهروا بتشديد الطاء والهاء أصله تطهروا من باب تفعل الخماسي، فأدغمت التاء في الطاء واجتلبت همزة الوصل فصار اطهروا كما مر في مبحث القراءة ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض كجرحى جمع جريح وقتلى جمع قتيل ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾: يقال: غاط الحفرة يغوط غوطاً، من باب قال إذا حفرها، وغاط في

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

المكان إذا دخل فيه، ويقال: غوط البئر إذا حفرها فأبعد قعرها، وتغوط إذا قضى الحاجة، والغائط المطمئن من الأرض وموضع قضاء الحاجة، لأن الرجل إذا أراد التبرز كان يرتاد غائطاً من الأرض يغيب فيه عن أعين الناس، والغائط أيضاً العذرة.

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾: جمع قوام مبالغة قائم، والقوام بالشيء هو القائم به حق القيام ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: شهداء بالعدل جمع شهيد، ككرماء جمع كريم، وشرفاء، جمع شريف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ وفي قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، وفي لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، وفي قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ﴾، ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ﴾، ولفظ اليوم في قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾.

ومنها: عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾؛ أي: صيد ما علمتم، وفائدته: دفع توهم أن مصيد الجارحة ليس من الطيبات.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، وفي قوله: ﴿عَلَّمْتُم﴾ و ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

ومنها: الطباق المعنوي في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ لأن مكلبين بمعنى معلمين مؤكد لعلمتم.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ قد اعترض بها بين الشرط وجوابه، أو بين المبتدأ والخبر على جعل ما في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ شرطية أو موصولة خبرها ﴿فَكُلُوا﴾.

ومنها: إطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾؛ أي: بعض ما أمسكن فمن تبعيضية، وإلا فلا يجوز أكل دمه وفرثه.

ومنها: إقامة المسبب مقام السبب في قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: أردتم القيام إليها، وذلك أنَّ القيام متسبب عن الإرادة، والإرادة سببه.

ومنها: الحذف في عدة مواضع كقوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُوا۟ وُجُوهَكُمۡ﴾؛ لأنه على تقدير: وإذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا وجوهكم... إلخ.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[١]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الميثاق الذي أخذه على المؤمنين في قوله: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾. ثم ذكر وعده إياهم،

---

(١) البحر المحيط.

ثم أمرهم بذكر نعمته عليهم إذ كف أيدي الكفار عنهم.. ذكرهم بقصة بني إسرائيل في أخذ الميثاق عليهم، ووعده لهم بتكفير السيئات، وإدخالهم الجنة، فنقضوا الميثاق وهموا بقتل الرسول، وحذرهم بهذه القصة أن يسلكوا سبيل بني إسرائيل.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: لما ذكرنا(١) الله سبحانه وتعالى بميثاقه الذي واثقنا به على السمع والطاعة لخاتم النبيين ﷺ، بين لنا في هذه الآيات أخذ الميثاق على اليهود والنصارى، وما كان من نقضهم له، ومن عقابه لهم على ذلك في الدنيا بضروب الذلة والمسكنة، وفي الآخرة بالخزي والعذاب، لنعتبر بحالهم، ونبتعد أن نكون على مثالهم، وليشرح لنا العلة في كفرهم بالنبي ﷺ، وسبب تصديهم لإيذائه وعداوة أمته، وليقيم الحجة عليهم بما تراه من ذكر المحاجة، وبيان أنواع كفرهم وضلالهم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(٢) بين أنه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى، كما أخذه على هذه الأمة، وأنهم نقضوا العهد والميثاق وتركوا ما أمروا به، وأنهم أضاعوا حظاً عظيماً مما أوحاه إليهم، ولم يقيموا ما حفظوا منه.. دعاهم عقب ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبالكتاب الذي جاء به، وهذا البيان من دلائل نبوته ﷺ، وهو من معجزات القرآن الكثيرة المنبثة في تضاعيفه.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما(٣) أقام الحجة على أهل الكتاب عامة.. بين ما كفرت به النصارى خاصة.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) المراغي.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: إنَّ[1] النبي ﷺ أتاه اليهود يسألونه عن الرجم؟ فقال: «أيكم أعلم»؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور والمواثيق التي أخذت عليهم حتى أخذه أفكل ـ الرعدة ـ؟ فقال: إنَّه لما كثر فينا جلدنا مئة، وحلقنا الرؤوس، فحكم عليهم، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن قصي وبحر بن عمر وشاس بن عدي، فكلموه وكلمهم، ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته وعذابه، فقالوا: تخوفنا به يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه فأنزل الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ...﴾ الآية.

وروي عنه قال: دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام، ورغبهم فيه، فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذ: ما قلنا لكم هذا، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد جعل الله سبحانه وتعالى العهد المؤكد باليمين على بني إسرائيل، بواسطة موسى عليه

---

(١) لباب النقول.

السلام، على أن لا يعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وعلى أن يعملوا بجميع ما في التوراة، وفيها شريعتهم التي أختارها لهم ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾؛ أي: اخترنا منهم على لسان موسى عليه السلام ﴿اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾؛ أي: رئيساً بعدد أسباطهم، من كل سبط نقيب، وأرسلنا هؤلاء النقباء إلى الجبارين ليتجسسوا عن أحوالهم.

روي أنه لما نجا بنو إسرائيل واستقروا بمصر بعد هلاك فرعون.. أمرهم الله سبحانه وتعالى بالسير إلى بيت المقدس، وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إني جعلتها لكم وطناً ودار هجرة، فاخرجوا إليها وجاهدوا من كان فيها من الجبابرة، وإني ناصركم، وأمر موسى أن يأخذ من كل سبط نقيباً يكون كفيلاً بالوفاء بتنفيذ ما أمروا به، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وتكفل له به النقباء، وسار بهم، فلما دنا من الأرض المقدسة، بعث النقباء يتجسسون الأخبار، فرأوا أجساماً قوية، وأجراماً كبيراً، وشوكة وقوة، فهابوهم ورجعوا، وحدثوا قومهم بما رأوا، وقد كان موسى نهاهم عن ذلك، فنكثوا الميثاق إلا نقيبين ـ كالباً ويوشع ـ وهما اللذان قال الله فيهما: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الآية وسيأتي الكلام في ذلك بعد.

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى للنقباء على لسان موسى عليه السلام حين ذهبوا للتجسس ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنصر والعون والحفظ من الجبابرة. وقيل[1] هو خطاب لعامة بني إسرائيل، والقول الأول أولى؛ لأنَّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور، فكان عوده إلى النقباء أولى. ومعنى كونه معهم، أنَّه ناصرهم ومعينهم ما داموا محافظين على الميثاق، وهو راءٍ لأفعالهم، سميع لأقوالهم، عليم بضمائرهم، وقادر على مجازاتهم. ثم ابتدأ الكلام فقال مخاطباً لعامة بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام وعزتي وجلالي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ﴾ وأديتم ﴿الصَّلَاةَ﴾ المفروضة عليكم على وجهها ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾؛ أي: وأعطيتم ما فرض عليكم من الصدقات التي تتزكى بها نفوسكم. ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ الذين أرسلتهم إليكم بعد موسى، كداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى، ومحمد ﷺ.

---

(١) الخازن.

وتأخير الإيمان عن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة - مع كونهما من الفروع المرتبة عليه - لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل عليهم الصلاة والسلام ا هـ «كرخي». وقرأ الحسن: ﴿برسلي﴾ بسكون السين في جميع القرآن. ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: نصرتموهم بالسيف على الأعداء، معظمين لهم، بأن تدافعوا أعداءهم عنهم. وقرأ عاصم الجحدري: ﴿وعزَرْتموهم﴾. خفيفة الزاي. وقرأ في الفتح: ﴿وتعزروه﴾ بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي ومصدره: العَزْر. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ أي: قرضاً مخلصاً لوجه الله تعالى، والمراد بهذا الإقراض الصدقات المندوبة، وخصها بالذكر تنبيهاً على شرفها وفضلها؛ أي: وبذلتم من المال زيادة على ما أوجبه الله عليكم بالزكاة، فكنتم بذلك بمثابة من أقرض ماله لغني مليء وفي، لا يضيع عليه بل يجده أمامه عند شدة الحاجة إليه، وهذه الجمل كلها شرطية، فالشرط مركب من خمسة أمور وهي قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وجواب الشرط قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن فعلتم هذه المذكورات كلها.. لأزيلن عنكم بتلك الحسنات تأثير سيئاتكم التي سلفت منكم في نفوسكم، فلا يبقى فيها رجس، ولا خبث يقتضي العقاب، فإنَّ الحسنات يذهبن السيئات كما يغسل الماء الأدران والأوساخ ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: ولأدخلنكم تلك الجنات التي لا يدخلها إلا من كان طاهراً من الشرك، وما يتبعه من المعاصي والآثام التي تفسد الفطرة ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾؛ أي: فمن جحد منكم شيئاً مما أمرتكم به، فتركه، أو عمل شيئاً مما نهيته عنه بعد أخذ الميثاق بالوفاء لي بطاعتي واجتنابه معصيتي ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: الطريق الواضح المستوي المستقيم، الذي يوصل سالكه إلى إصلاح قلبه، وتزكية نفسه، ويجعله أهلاً لجوار ربه في تلك الجنات.

ثم بين أنهم لم يوفوا بهذا العهد فجازاهم على سوء صنيعهم فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أي: فبسبب نقضهم ورميهم وغدرهم الميثاق الذي أخذ عليهم بتكذيب الرسل، وقتل الأنبياء، وكتمان صفة محمد ﷺ، ومن ذلك الميثاق

الإيمان بمن يرسل إليهم من الرسل ونصرهم وتبجيلهم وتعظيمهم ﴿لَعَنَّهُمْ﴾ وطردناهم وأبعدناهم من رحمتنا. ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾؛ أي: جافية منصرفة عن الانقياد للدلائل، وقيل: يابسة غليظة لا تلين لقبول الحق، وقيل منكرة لا تقبل الوعظ، وكل هذا متقارب، وقسوة القلب غلظه وصلابته.

وقرأ الجمهور من السبعة[1]: ﴿قَٰسِيَةً﴾ اسم فاعل من قسا يقسو، وقرأ عبد الله وحمزة الكسائي: ﴿قَسِيَّة﴾ بغير ألف وبتشديد الياء، وهي فعلية للمبالغة، كشاهد وشهيد، وقيل معنى قسية على هذه القراءة رديئة يابسة. وقرأ الهيصم بن شراخ ﴿قسية﴾ بضم القاف وتشديد الياء كجي، وقرىء بكسر القاف إتباعاً؛ أي:[2] استحقوا مقتاً وغضباً وبعداً من ألطافنا، فإن نقض الميثاق أفسد قطرتهم، ودنس نفوسهم، وقسى قلوبهم، حتى قتلوا الأنبياء بغير حق، وافتروا على مريم وأهانوا ولدها الذي أرسل إليهم لإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم، وحاولوا قتله، وافتخروا بذلك، فبكل ذلك بعدوا عن رحمة الله تعالى، إذ جرت سنته أن الأعمال السيئة تؤثر في النفوس آثاراً سيئة، فتجعل القلوب قاسية لا تؤثر فيها الحجة والموعظة، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد من فضله ورحمته، وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه، ولا يراعي القوانين الصحية، فهو لا شك سيصاد بالأمراض والأسقام، ولا يلومن حينئذ إلا نفسه إذ كان هو السبب في ذلك بإهماله رعاية نفسه حالة كونهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾؛ أي: يغيرون كلام الله الذي أنزل في التوراة وحكمه الذي شرع لهم فيها ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: عن حاله التي نزلت عليها؛ أي: يغيرون ما شق عليهم من أحكامها، كآية الرجم، بدلوها لرؤسائهم بالتحميم - وهو تسويد الوجه بالفحم - وغيروا أيضاً نعت محمد ﷺ التي نزلت في التوراة تلبيساً على سفلتهم؛ أي: أزالوا صفته المكتوبة في التوراة، وكتبوا مكانها صفة أخرى، فغيروا المعنى والألفاظ، فتحريف الكلم عن مواضعه يكون إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان، وإمّا بتحريف المعاني، بحمل الألفاظ على غير ما

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وضعت له، وكل منهما قد وقع في التوراة وغيرها من كتبهم، كما هو معلوم واضح لمن اطلع على التوراة.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام وقرأ أبو عبد الرحمٰن والنخعي: ﴿الكلام﴾ بالألف وقرأ أبو رجاء ﴿الكلم﴾ بكسر الكاف وسكون اللام. وهذه الجملة[1] وما بعدها جاءت بياناً لقسوة قلوبهم، ولا قسوة أشد من الافتراء على الله تعالى، وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: تركوا بعضاً مما أمروا به في كتابهم، وهو الإيمان بمحمد ﷺ، وهذا[2] أيضاً من قسوة قلوبهم، وسوء فعلهم بأنفسهم، حيث ذكروا بشيء فنسوه. وتركوه، وهذا الحظ هو من الميثاق المأخوذ عليهم ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ﴾ وتقف وتظهر ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: على خيانة من اليهود، فالخائنة مصدر بمعنى الخيانة كالقائلة بمعنى القيلولة، والخاطئة بمعنى الخطيئة، ويدل على ذلك قراءة الأعمش: ﴿على خيانة﴾ أو اسم فاعل، والهاء للمبالغة، كرواية؛ أي: خائن أو صفة لمؤنث؛ أي: قرية خائنة أو فعلة أو نفس خائنة.

أي: إنك يا محمد لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة إثر خيانة، فلا تظنن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم، فهم قوم لا وفاء لهم، ولا أمان، فمن نقض عهد الله وميثاقه.. فكيف يرجى منه وفاء؟! وكيف تكون منه أمانة؟! فهذه عادتهم وديدنهم معك، وهم على ما كان أسلافهم من خيانة الرسل، وقتلهم الأنبياء، فهم لا يزالون يخونونك وينكثون عهودك، ويظاهرون عليك أعداءك، ويهمون بالفتك منك وأن يسموك، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ استثناء من الضمير في منهم، وهم الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلموا وصدقوا الله ورسوله، فلا تظنن بهم سوءاً ولا تخف منهم خيانة ولا خديعة، أو هم الذين بقوا على الكفر لكنهم بقوا على العهد ولم يخونوا فيه.

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾؛ أي: سامح عما فرطوا في حقك ولا تعاقبهم ﴿وَٱصْفَحْ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

أي: أعرض عن زلاتهم ولا تلتفت إليها ما داموا باقين على العهد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ﴾ ويثيب ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى الناس بالعفو والصفح عن زلاتهم وهفواتهم. قيل:[1] هذا منسوخ بآية السيف، وقيل: خاص بالمعاهدين؛ أي: فاعف[2] عما فرط من هؤلاء القليل، واصفح عمن أساء منهم، وعاملهم بالإحسان الذي يحبه الله تعالى، فأنت أحق الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه، وهذا رأي أبي مسلم. وقال غيره: فاعف عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جرمهم، فإنِّي أحب من أحسن العفو والصفح، إلى من أساء إليه إيثاراً للإحسان والفضل على ما يقتضيه العدل.

وقد ثبت أن النبي ﷺ رغب ـ عند ما دخل المدينة ـ في مصالحة اليهود وموادعتهم، فعقد معهم العهد على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا من يحاربه، ولا يمالئوا عليه عدواً له، وأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وحريتهم، وكان إذ ذاك منهم ثلاث طوائف حول المدينة، وهم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، فنقضوا العهد، وهموا بقتل النبي ﷺ، فحل له قتالهم، ولكنه رجح السلم على الحرب، واكتفى بطردهم من جواره، وبعث إليهم أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدته بها بعد ذلك.. ضربت عنقه فأقاموا يتجهزون أياماً، ثم ثبط عزيمتهم عبد الله بن أبي، وأرسل إليهم أن لا تخافوا، إن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، وكان رئيسهم المطاع حيي بن أخطب شديد العداوة للنبي ﷺ، وهو الذي زين لهم قتله والغدر له، فركن إلى قول ابن أبيّ، وبعث إلى النبي ﷺ: إنا لن نخرج من المدينة فافعل ما بدا لك.

فعلم النبي ﷺ أنهم يريدون الحرب، فخرج هو والمسلمون للقائهم، يحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما وصلوا إليهم أقاموا على حصونهم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

يرمونهم بالنبل والحجارة، ولما اشتد عليهم الحصار، ورأوا أن لا سبيل لهم إلى المقاومة، رضوا بالخروج سالمين، وعلموا أن وعد ابن أبيّ كان هو الغدر والخيانة بعينها، وقد كان النبي ﷺ قادراً حينئذ على استئصالهم والقضاء عليهم، ولكنه اختار العفو والإحسان، واختار إبعادهم عن المدينة على أن يخرجوا منها، وليس معهم إلا أولادهم وما حملت الإبل إلا السلاح، ورحلوا إلى خيبر، وهذه الآية نزلت بعد هذا كله، لأنها من آخر ما نزل، ولم يعاقب اليهود بعدها على خيانة ولا غدر، ولكنه أوصى بإجلائهم عن جزيرة العرب.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ وعهدهم وكتبنا عليهم في الإنجيل اتباع محمد ﷺ، وبيان صفته، وأن لا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئاً، كما أخذنا الميثاق على بني إسرائيل اليهود، وإنما قال[1] تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾. ولم يقل من النصارى؛ لأنَّهم الذين ابتدعوا هذا الاسم وسموا به أنفسهم ادعاء لنصر دين الله؛ حيث قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، لا أن الله تعالى سماهم به ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: تركوا نصيباً عظيماً مما أمروا به في الإنجيل، وهو الإيمان بمحمد ﷺ، وخص هذا[2] الواحد بالذكر مع أنهم تركوا أكثر ما أمرهم الله تعالى به؛ لأن هذا هو المعظم والمهم ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾؛ أي: ألقينا وأوقعنا ﴿بَيۡنَهُمُ﴾؛ أي: بين فرق النصارى، النسطورية، واليعقوبية، والملكانية، كل فرقة منهم تعادي الأخرى، وقيل: الضمير يعود إلى اليهود والنصارى؛ أي: أوقعنا بين اليهود والنصارى، قاله مجاهد وقتادة والسدي، فإنهم أعداء يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً. ﴿ٱلۡعَدَاوَةَ﴾ بالقتل والأسر ﴿وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾؛ أي: البغض في القلب ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ لأن نسيان حظ عظيم من كتابهم كان سبباً في تفرقهم في الدين، واتباع أهوائهم، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى في هذه الحياة.

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

أي: من كان همه من الدين ابتغاء رضوان الله تعالى، لا تقرير ما ألفه، ونشأ عليه، وأخذه من أسلافه، مع ترك النظر والاستدلال، أو المعنى من سبق في علمه أنه يتبع وإلا فمن اتبع فلا معنى لهدايته ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي: إلى طرق السلامة من العذاب والمخاوف الموصلة إلى دار السلام، وهو دين الإسلام، وهذا منصوب بنزع الخافض، كما قدرناه، لأن يهدي إلى الثاني بإلى أو باللام ﴿وَيُخۡرِجُهُم﴾؛ أي: ويخرج الله سبحانه وتعالى المتبعين رضوانه، فالضمير عائد إلى من، والجمع باعتبار المعنى، كما أن الإفراد في اتبع باعتبار اللفظ ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: من ظلمات فنون الكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي إلى نور الإيمان وقوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: بتوفيقه أو بإرادته، متعلق باتبع، ولا يجوز[1] أن يتعلق بيهدي، ولا بيخرج، إذ لا معنى له حينئذ، فدلت الآية على أنه لا يتبع رضوان الله إلا من أراد الله منه ذلك، وقيل ما يتعلق بيخرج؛ أي: يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه؛ أي: بإرادته بالجري على سننه تعالى في تأثير الأعمال الصالحة، والعقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي: يثبتهم[2] على ذلك الدين الحق بعد إجابة دعوة الرسول، وهو دين[3] الله وتوحيده، وقيل طريق الجنة، وقيل طريق الحق، والظاهر أنَّ هذه الجمل كلها متقاربة المعنى، وكررت للتأكيد، والفعل فيها مسند إليه تعالى، وإنَّما سمى الدين الحق صراطاً مستقيماً؛ لأنه واحد ومتفق من جميع جهاته. أمَّا الباطل فمتعدد الطرق، وكلها معوجة ملتوية، وفي «الفتوحات»: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هو أقرب الطرق إلى الله تعالى ومؤد إليه لا محالة، وهذه الهداية غير الهداية إلى سبل السلام، وإنَّما عطفت عليها تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾. أبو السعود. انتهت. وقد ذكر سبحانه[4] للكتاب ثلاث فوائد:

---

(١) المراح.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

(٤) المراغي.

١ ـ أن المتبع لما يرضي الله بالإيمان بهذا الكتاب يهتدي إلى الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة، من كل ما يبعده عن الشقاء والهلاك، فيقوم في الدنيا بحقوق الله والحقوق الواجبة عليه لنفسه ـ روحية كانت أو جسدية ـ وللناس ويكون في الآخرة منعماً نعيماً روحياً وجسدياً.

وخلاصة ذلك: أنَّه يتبع ديناً يجد فيه ما يوصله إلى السلامة من الشقاء في الدنيا والآخرة، لأنَّه دين الإخلاص والعدل والمساواة.

٢ ـ أنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التي أفسد بها الرؤساء جميع الأديان إلى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه حراً كريماً بين يدي الخلق، خاضعاً للخالق وحده.

٣ ـ أنه يهدي إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين إذا اعتصم به من اتبعه على الوجه الصحيح الذي أنزل لأجله، كما عمل بذلك أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقرأ عبيد بن عمير والزهري وسلام وحميد ومسلم بن جندب[١]: ﴿به الله﴾، بضم الهاء حيث وقع. وقرأ الحسن وابن شهاب: ﴿سبل﴾ ساكنة الباء.

وعزتي وجلالي: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا غيره، قال ابن عباس رضي الله عنهما[٢]: هؤلاء نصارى نجران، فإنهم قالوا هذه المقالة، وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى؛ لأنَّهم يقولون في المسيح: إنَّه هو الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وإنَّما قالوا هذه المقالة الخبيثة لأنهم يقولون بالحلول، وأن الله قد حل في بدن عيسى، فلما كان اعتقادهم ذلك لا جرم.. حكم الله عليهم بالكفر، وقيل: لم يصرح به أحد منهم، ولكن مذهبهم يؤدي إليه، حيث اعتقدوا اتصاف عيسى بصفاته الخاصة؛ أي: بأنَّه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم. ثم ذكر الله تعالى ما يدل على

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الخازن.

فساد مذهبهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة الشنيعة ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ ويقدر أن يدفع ﴿مِنَ﴾ أمر ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ﴾ الله تعالى ﴿أَن يُهْلِكَ﴾ ويبيد ويعدم ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾ مريم بنت عمران اللذين اتخذتموهما إلٰهين، وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إلٰه إلا الله، ولا رب غيره ولا معبود بحق سواه، ولو كان المسيح إلٰهاً كما تزعم النصارى.. لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقل حال، ولم يقدر على أن يدفع عن أمه الموت عند نزوله بها. وتخصيصها بالذكر مع دخولها في عموم من في الأرض، لكون الدفع عنها أولى وأحق من غيرها، فهو إذا لم يقدر على الدفع عنها، أعجز عن أن يدفع عن غيرها، وذكر من في الأرض للدلالة على شمول قدرته، وأنَّه إذا أراد شيئاً، كان لا معارض له في أمره، ولا مشارك له في قضائه؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء النصارى: من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه، بل عن سائر الخلق جميعاً إنْ أراد أن يهلكهم ويبديهم ويعدمهم.

والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع مضمن معنى الإنكار؛ أي: لا أحد يملك ذلك، ولو كان المسيح إلٰهاً لقدر على ذلك.

وخلاصة هذا: أن المسيح وأمه من المخلوقات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعاً.. لا يستطيع أحد أن يرد إرادته؛ لأنَّه هو مالك الملك الذي يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره.. فكيف يكون هو الله الذي بيده ملكوت كل شيء، فعيسى مماثل لمن في الأرض في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال، فلا يكون خالقاً. ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وسلطنتهما وتصرفهما ﴿و﴾ ملك ﴿ما بينهما﴾؛ أي: بين السمٰوات والأرض وما فيهما قاطبة، فهو صاحب الملك المطلق، والتصرف في السمٰوات والأرض وما بينهما؛ أي: بين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم، وإنَّما قال: وما بينهما ولم يقل: وما بينهن.. لأنه أراد

ما بين هذين النوعين أو الصنفين من الأشياء، فإنَّهما ملكه، وأهلهما عبيده، وعيسى وأمه من جملة عبيده. ثم دفع شبهة تحوك في صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال: ﴿يَخْلُقُ﴾ ويوجد سبحانه وتعالى ﴿مَا يَشَآءُ﴾ خلقه ويريد على أي هيئة شاء، ومن أيّ أصل شاء، وعلى أي شكل شاء؛ أي: إن تلك الشبهة التي عرضت لكم، وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإلٰه هو أنَّه خلق على غير السنة العامة، وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من عامة البشر، فالله له ملك السمٰوات والأرض، يخلق الخلق على مقتضى مشيئته، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط كعيسى عليه السلام، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط كحواء من آدم، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى كسائر الناس وعامة الحيوان، ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات، وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يده أيضاً، فيجب أن ينسب الكل إليه تعالى لا إلى من أجرى ذلك على يده. وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض، ولا على ألوهية لبعضها، ولا على حلول الإلٰه الخالق فيها، فسنة الله في خلق المسيح ومزاياه، لا تدل على كونه إلٰهاً ورباً؛ لأن هذه المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق، ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر فبقدرته يخلق ما يشاء، على أي شكل شاء، ومن أي أصل شاء، ومن غير أصل، ولا يستصعب عليه شيء.

والخلاصة: أن كل من تعلقت به مشيئته تعالى ينفذ بقدرته، وإنَّما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص، لا بالنسبة إليه تعالى، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون من علم كسبي يجهله غيرهم، أو عن تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ لعائن الله عليهم: نحن أبناء الله وأحباءه، أثبتت لأنفسها ما أثبتته لعزير، حيث قالوا: عزير ابن الله ﴿و﴾ قالت ﴿النصارى نحن أبناء الله

وأحباؤه﴾ أثبتت لأنفسها ما أثبتته للمسيح حيث قالوا: المسيح ابن الله. وقيل: هو على حذف مضاف؛ أي: نحن أتباع أبناء الله، وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة، والأمانيّ العاطلة. فأمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد إلزاماً وتبكيتاً إذا كان الأمر كما زعمتم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿بِذُنُوبِكُمْ﴾ في الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر، ولبلدكم المرة بعد المرة، ومن إزالة ملككم من الأرض، والأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه، فلستم إذاً أبناء الله ولا أحباؤه ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾؛ أي: من جملة ما خلق الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه لا يحابي أحداً ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يغفر له ممن يعلم أنَّه مستحق للمغفرة، وهم الذين آمنوا بالله تعالى وبرسله وتابوا من الكفر واليهودية والنصرانية ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذبه ممن يعلم أنَّه مستحق للعذاب، وهم الذين كفروا بالله وبرسله، وماتوا على اليهودية والنصرانية، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، فكل هذا لا يجزيكم فتيلاً ولا قطميراً، وإنَّما الذي ينفعكم هو الإيمان الصحيح، وصالح الأعمال، فالجزاء إنَّما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب والأنساب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، فله التصرف التام يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: الرجوع بالحشر والمعاد؛ أي: تصيرون إليه عند انتقالكم من دار الدنيا إلى دار الآخرة؛ أي: إنَّه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق في كل شيء بمقتضى علمه، وحكمته وعدله وفضله، وجميع المخلوقات عبيد له، لا أبناء ولا بنات ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

وختمها بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إشارة إلى أنَّه سيعذبهم في الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة، وأنَّهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنَّهم عبيد آبقون يجازون، لا أبناء وأحباء يحابون. وقد كان اليهود يعتقدون أنَّهم شعب الله الخاص، ميزهم عن سائر البشر، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم، وإنْ كان أصح منهم إيماناً وأصلح أعمالاً، ولا ينبغي أن يتبعوا محمداً ﷺ لأنه عربي لا إسرائيلي، والفاضل لا يتبع المفضول، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد

لأبنائه الأعزاء، والنصارى قد زادوا غروراً، فهم قد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه، وأنهم أبناء الله بولادة الروح، والمسيح ابنه الحقيقي، ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب.

وقد جاهد النبي ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً، ولم يجد ذلك فيهم شيئاً، فرفضوا دعوته، وردوا ما جاءهم به من أن العمل مرضاة لله، وبه تنال تزكية النفس، وإصلاحها كما جاهد صلف خبث النصارى وكبرهم، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وظلماً وعدواناً بشهادة المؤرخين، ومع كل هذا يدعون أنَّهم أبناء الله وأحباؤه، وأنَّهم ليسوا في حاجة إلى إصلاح دينهم، ولا دنياهم، كما فعل اليهود مثل ذلك.

والخلاصة: أن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر، وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب، ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ الذي بشرتم به في كتبكم، وأخبركم به أنبياؤكم حالة كونه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: في زمن انقطاع من الرسل وطول عهد بالوحي، جميع ما تحتاجون إليه من أمور دينكم ودنياكم، من عقائد أفسدتها عليكم نزعات الوثنية، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم في الأمور المادية والروحية، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع. وقد أرسل صلوات الله عليه، وقد فشا التغيير والتحريف في الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها، وطول زمانها، فاختلط فيها الحق بالباطل، والصدق بالكذب، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات، إذ لهم أن يقولوا: يا إلٰهنا عرفنا أنَّه لا بدّ من عبادتك، ولكن كيف نعبدك؟ فبعث الله محمداً ﷺ في ذلك الحين لإزالة هذا العذر الذي بينه سبحانه بقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾؛ أي: إنَّما أرسلنا إليكم رسولنا في زمن فترة الرسل، وانقطاع الوحي، كراهية أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين، ولا نذير ينذرنا بسوء العاقبة للمفسدين والضالين؛ أي: أرسلناه كراهية أن تقولوا هذا القول معتذرين عن تفريطكم ﴿فـ﴾ ـلا تعتذروا لأنَّه ﴿قد جاءكم بشير ونذير﴾ يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية، وأنها منوطة

بالإيمان والأعمال، وأن الله لا يحابي أحداً ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر، ومن دلائل قدرته نصر نبيه ﷺ، وإعلاء كلمته في الدنيا، وفي ذلك رمز لكم ـ إن كنتم من ذوي الأحلام ـ إلى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة.

فائدة: وقد اختلفوا[1] في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي وقتادة في رواية عنه: كانت ست مئة، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي وعن قتادة خمس مئة وستون سنة. وقال معمر عن بعض أصحابه: خمس مئة وأربعون سنة. وقال الضحاك: أربع مئة وبضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى عليه السلام عن الشعبي أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسع مئة وثلاث وثلاثون سنة، والمشهور هو القول الأول وهو أنها ست مئة سنة. ومنهم من يقول ست مئة وعشرون سنة، ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ست مئة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية. وبين كل مئة سنة شمسية، وبين القمرية نحو من ثلاث سنين. وكانت هذه الفترة بين عيسى بن مريم وبين محمد ﷺ، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي». وفي هذا رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي، يقال له خالد بن سنان. كما حكاه القضاعي وغيره.

وفي هامش «ابن كثير»: التحقيق الموافق للحساب الفلكي أن الهجرة النبوية كانت سنة ست مئة واثنين وعشرين لميلاد عيسى. والبعثة كانت قبل الهجرة بعشر سنين، باعتبار التبليغ، فهذا قريب ما اعتمده المؤلف انتهى.

ومدة ما بين موسى وعيسى ألف سنة، لكنها ليست فترة لبعثة كثيرين من الأنبياء بينهما، وكانوا ألف نبي على ما قيل، ويتعبدون بشريعة موسى، كداود وسليمان وزكريا ويحيى، على نبينا وعليهم صلوات الله وسلامه.

---

(١) ابن كثير.

والمقصود من الآية[1]: أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير **الأديان**، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عمّ جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى والصابئين.

الإعراب

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لقد﴾: اللام موطئة لقسم محذوف. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿وَبَعَثْنَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿بعثنا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها على كونها جواب القسم. ﴿مِنْهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بعثنا﴾ أو حال من ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، كما ذكره أبو البقاء. ﴿ٱثْنَىْ عَشَرَ﴾: عدد مركب معرب الصدر مبني العجز. ﴿ٱثْنَىْ﴾: مفعول به لـ﴿بعثنا﴾: منصوب وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة لأنه ملحق بالمثنى، الذي رفعه بالألف ونصبه وجره بالياء، وحذفت النون لشبه الإضافة، أو لشبه التركيب على ما قيل ﴿عَشَرَ﴾: جزء المفعول في محل النصب مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى حرف العطف، وإنَّما حرك ليعلم أنَّ له أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة طلباً للخفة لشبه التركيب لثقله ﴿نَقِيبًا﴾ تمييز منصوب.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى

---

(1) ابن كثير.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

﴿وَقَالَ﴾: (الواو): عاطفة، ﴿قال اللَّه﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لقد أخذ الله﴾ على كونها جواب قسم لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿إِنِّي﴾: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، و(الياء): ضمير المتكلم اسمها. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر إنَّ تقديره: إنِّي كائن معكم بالحفظ والمعونة، وجملة ﴿إنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿لَئِنْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿إنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿أَقَمْتُمُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بإن الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم، معطوفة على جملة ﴿أَقَمْتُمُ﴾ على كونها فعل شرط لـ﴿إن﴾. ﴿وَءَامَنتُم﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَقَمْتُمُ﴾. ﴿بِرُسُلِي﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿آمنتم﴾. ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَقَمْتُمُ﴾. ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿قَرْضًا﴾: مفعول مطلق لـ﴿أقرضتم﴾. ﴿حَسَنًا﴾ صفة لـ﴿قَرْضًا﴾. وقال أبو البقاء[1]: ﴿قَرْضًا﴾: يجوز أن يكون مصدراً محذوفَ الزوائد، والعامل فيه ﴿أقرضتم﴾؛ أي: إقراضاً، ويجوز أن يكون ﴿قَرْضًا﴾ بمعنى مقرضاً، فيكون مفعولاً به انتهى.

﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

﴿لَّأُكَفِّرَنَّ﴾: اللام: زائدة، زيدت لتأكيد لام القسم المذكورة سابقاً. ﴿أكفرن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول قال، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إنْ أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة.. أكفر

---

(١) العكبري.

عنكم سيئاتكم، وإنَّما جعلنا المذكور جواب القسم، وقلنا: جواب الشرط محذوف.. جرياً على القاعدة المشهورة عندهم: أنَّه إذا اجتمع شرط وقسم وذكر الجواب بعدهما.. كان الجواب للمتقدم منهما، ويقدر مثله للمتأخر منهما، كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ

﴿عَنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾. ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾: فعل ومفعول أول معطوف على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿جَنَّٰتٍ﴾: مفعول ثانٍ لأدخل، أو منصوب على الظرفية المكانية، متعلق بأدخل ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب صفة لجنات.

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿فَمَن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم حكم من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وآمن، وأردتم بيان حكم من كفر بعد ذلك.. فأقول لكم. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما. ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَفَرَ﴾. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بقد. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

﴿فَبِمَا﴾ (الفاء): استئنافية. (الباء): حرف جر وسبب. ﴿ما﴾: زائدة. ﴿نَقْضِهِم﴾: مجرور بالباء ومضاف إليه، متعلق بـ﴿لَعَنَّهُمْ﴾: وهو مصدر مضاف إلى الفاعل. ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾: مفعول المصدر، ومضاف إليه. ﴿لَعَنَّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية مستأنفة ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿لَعَنَّهُمْ﴾. ﴿قُلُوبَهُمْ﴾: مفعول أول، ومضاف إليه. ﴿قَٰسِيَةً﴾: مفعول ثانٍ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والجملة مستأنفة، قال أبو البقاء: ويجوز أن تكون[1] حالاً من المفعول في ﴿لَعَنَّهُمْ﴾ وأن تكون حالاً من الضمير في ﴿قَٰسِيَةً﴾، ولا يجوز أن يكون حالاً من القلوب، لأنَّ الضمير في ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ لا يرجع إلى القلوب، ويضعف أن يجعل حالاً من الهاء والميم في ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ انتهى.

﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

﴿وَنَسُوا۟﴾: (الواو): عاطفة. ﴿نسوا﴾: فعل وفاعل. ﴿حَظًّا﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُحَرِّفُونَ﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَظًّا﴾. ﴿ذُكِّرُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط ضمير ﴿بِهِۦ﴾. ﴿وَلَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَزَالُ﴾: فعل مضارع مرفوع ـ هي فعل من الأفعال الناقصة ـ واسمه ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب. ﴿تَطَّلِعُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ﴾: جار ومجرور، متعلق به. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿خَآئِنَةٍ﴾، وجملة ﴿تَطَّلِعُ﴾: في محل النصب خبر زال تقديره: ولا تزال يا محمد مطلعاً على خائنة منهم، وجملة زال مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء، والمستثنى منه ضمير منهم. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿قَلِيلًا﴾.

(١) العكبري.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿فَٱعۡفُ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أخلاقهم الشنيعة، من التحريف والنسيان والخيانة، وأردت بيان ما هو الأصلح لك، وما هو الأنفع لهم.. فأقول لك: اعف. ﴿اعف﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به. ﴿وَٱصۡفَحۡۚ﴾: فعل أمر معطوف على ﴿فَٱعۡفُ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من الذين﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَخَذۡنَا﴾ الآتي على كونه مفعولاً أول. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿أَخَذۡنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أَخَذۡنَا﴾ والتقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنَّا نصارى ميثاقهم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ والتقدير: ولقد أخذ الله الميثاق على اليهود فنقضوه، وأخذه على النصارى فنقضوه. ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَخَذۡنَا﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿حَظّٗا﴾. ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾.

﴿فَأَغْرَيْنَا﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿أغرينا﴾: فعل وفاعل. ﴿بَيْنَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق به. ﴿ٱلْعَدَاوَةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: معطوف عليه، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَنَسُوا۟﴾. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿أغرينا﴾. ﴿وَسَوْفَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿سوف﴾: حرف تنفيس. ﴿يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول. وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَصْنَعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما كانوا يصنعونه.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء مستأنفة. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ومفعول به. ﴿رَسُولُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير يعود على ﴿الرسول﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿رَسُولُنَا﴾. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تُخْفُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: جار ومجرور متعلق به، أو حال من الضمير المحذوف، أو من ﴿ما﴾، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: تخفونه. ﴿وَيَعْفُوا۟﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الرسول. ﴿عَن كَثِيرٍ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿يُبَيِّنُ﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿نُورٌ﴾: فاعل. ﴿وَكِتَـٰبٌ﴾:

معطوف عليه. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة لـ﴿كتاب﴾ والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة[1] لبيان أنَّ فائدة مجيء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع لا تحصى. ا هـ. «أبو السعود».

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَهْدِي﴾: فعل مضارع. ﴿بِهِ﴾: جار ومجرور، متعلق به. ﴿اللَّهُ﴾: فاعل. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿يَهْدِي﴾. ﴿اتَّبَعَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنِ﴾. ﴿رِضْوَانَهُ﴾: مفعول ﴿اتَّبَعَ﴾ وهو مضاف. والهاء مضاف إليه، وجملة ﴿اتَّبَعَ﴾: صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يَهْدِي﴾ أو بدل من ﴿رِضْوَانَهُ﴾ وجملة ﴿يَهْدِي﴾: من الفعل والفاعل في محل النصب بدل من جملة ﴿يُبَيِّنُ﴾ على كونها حالاً من ﴿رَسُولُنَا﴾ ويجوز[2] أن تكون حالاً من الضمير في ﴿يُبَيِّنُ﴾، ويجوز أن تكون صفة لـ﴿نُورٌ﴾ أو لـ﴿كتاب﴾ والهاء في ﴿بِهِ﴾ تعود على من سواء جعل ﴿يَهْدِي﴾ حالاً منه، أو صفة له، فلذلك أفرد، ذكره أبو البقاء. ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾ وضمير المفعول في ﴿يخرجهم﴾ عائد إلى ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾، وجمعه باعتبار المعنى، كما أفرده في ﴿اتَّبَعَ﴾ نظراً للفظ. ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾. وكذا قوله: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ متعلق به. ﴿بِإِذْنِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿اتَّبَعَ﴾: أو بـ﴿يخرجهم﴾ كما مرت الإشارة إليه في مبحث التفسير. ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة لصراط، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾.

---

(١) الفتوحات.

(٢) العكبري.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾.

﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مع جوابه مستأنفة. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿ٱبْنُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾. ﴿مَرْيَمَۖ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله ﴿جَمِيعًاۗ﴾ مقول محكي، وإن شئت قلت: ﴿فَمَن﴾[1]: الفاء عاطفة على محذوف تقديره: قل كذبوا فمن يملك من الله شيئاً، أوليس الأمر كذلك. ﴿مَن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿يَمْلِكُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمْلِكُ﴾. وقال أبو البقاء: إنَّه حال من شيئاً من حيث إنَّه كان صفة في الأصل للنكرة، تقدم عليها فانتصب حالاً. انتهى. والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿مَن﴾ الاستفهامية، وجملة ﴿مَن﴾ الاستفهامية في محل النصب معطوفة على الجملة المحذوفة التي قدرناها سابقاً على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض في محل الجزم بأن الشرطية على كونها فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿أَن يُهْلِكَ﴾: ناصب ومنصوب وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾: مفعول به. ﴿ٱبْنَ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَسِيحَ﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه وجملة

---

(١) الفتوحات.

﴿يُهۡلِكَ﴾: مع أن المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إنْ أراد إهلاك المسيح ابن مريم، وجواب ﴿إِنۡ﴾ الشرطية معلوم مما قبلها تقديره: إنْ أراد أن يهلك المسيح.. فمن يقدر أن يدفعه عنه، وجملة إنْ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿وَأُمَّهُۥ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾. ﴿وَمَن﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿جَمِيعٗاۗ﴾: حال من ﴿المسيح وأمه ومن في الأرض﴾. ويجوز[1] أن يكون حالاً من ﴿من﴾ وحدها ﴿ومن﴾ ههنا عام، سبقه خاص من جنسه هو ﴿المسيح وأمه﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿للَّه﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والجملة الإسمية مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل الجر معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيۡنَهُمَاۚ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها ﴿يَخۡلُقُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾ والجملة[2] مستأنفة ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ ما موصولة، أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿يَخۡلُقُ﴾. ﴿يَشَآءُۚ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّه﴾، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: ما يشاؤه. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٞ﴾ وهو خبر المبتدأ، والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿يَخۡلُقُ﴾ على كونها مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) العكبري.

(٢) العكبري.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً وقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ. ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾: خبر ومضاف إليه. ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾: معطوف على ﴿أبناؤه﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول قال. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾: إلى آخر الآية مقول محكي لقل، وإنْ شئت قلت: ﴿فَلِمَ﴾: الفاء رابطة الجواب بالشرط المحذوف جوازاً تقديره: إنْ كنتم كما زعمتم.. فلم يعذبكم بذنوبكم. (اللام): حرف جر. ﴿م﴾: اسم استفهام في محل الجر باللام، مبني بسكون على الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُعَذِّبُكُم﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿بِذُنُوبِكُم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يعذب﴾ وجملة ﴿يُعَذِّبُكُم﴾ في محل الجزم على كونها جواباً للشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف مع جوابه في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء. ﴿أَنتُم بَشَرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿مِّمَّنْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾. أي: بل أنتم بشر كائنون من جملة من خلقهم. ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة صلة ﴿من﴾: الموصولة، والعائد ضمير المفعول المحذوف تقديره: ممن خلقهم ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَغْفِرُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء المغفرة له. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: فعل ومفعول، والفاعل ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يَغْفِرُ﴾. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ معطوف على السمٰوات أيضاً. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ أو مستأنفة.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، والجملة مستأنفة ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق. ﴿جَآءَكُمۡ﴾: فعل ومفعول ﴿رَسُولُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿رَسُولُنَا﴾. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة في محل النصب حال من ﴿رَسُولُنَا﴾. ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾[1]: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَآءَكُمۡ﴾ على الظرفية؛ أي: جاءكم حين فتور من الرسل، وانقطاع من الوحي، أو متعلق بمحذوف حال من ضمير ﴿يُبَيِّنُ﴾ أو من ضمير ﴿لَكُمۡ﴾، أي يبين لكم ما ذكر حال كونه على فترة من الرسل، أو حال كونكم عليها أحوج ما كنتم إلى البيان. ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ جار ومجرور صفة لفترة؛ أي: كائنة من الرسل، مبتدأة من جهتهم ﴿أَن تَقُولُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بإضافة المصدر المقدر المعلل لقوله ﴿يُبَيِّنُ﴾، والمعنى يبين لكم كراهية قولكم عند تعذيبكم ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ﴾ وهو مقول محكي لـ﴿تَقُولُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿مَا﴾: نافية ﴿جَآءَنَا﴾: فعل ومفعول. ﴿مِنۢ﴾: زائدة. ﴿بَشِيرٖ﴾: فاعل. ﴿وَلَا نَذِيرٖ﴾: معطوف على بشير، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿تقولوا﴾. ﴿فَقَدۡ﴾: (الفاء): تعليلية لمعلول محذوف تقديره: فلا يكون لكم عذر يوم القيامة فتعتذروا؛ لأنَّه قد جاءكم بشير ونذير، والجملة المحذوفة مستأنفة. وما في «الشوكاني» هنا من أن الفاء فصيحة غير صواب، لأنَّه لا ينطبق عليها ضابط الفصيحة، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَكُم بَشِيرٞ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَنَذِيرٞ﴾: معطوف على ﴿بَشِيرٞ﴾ والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة تقديره: فلا يكون لكم اعتذار يوم القيامة؛ لمجيء بشير ونذير لكم في الدنيا. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَدِيرٞ﴾. ﴿قَدِيرٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة.

---

(١) الجمل.

﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾: نقيب القوم: من ينقب عن أحوالهم، ويبحث عن شؤونهم، ونقب عليهم نقابة إذا صار عليهم نقيباً؛ أي: يفتش عن أحوالهم وأسرارهم. والنقيب: فعيل بمعنى فاعل، مشتق من التنقيب وهو التفتيش، ومنه: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وسمي بذلك؛ لأنه يفتش عن أحوال القوم وأسرارهم كما مر آنفاً، وقيل: هو بمعنى مفعول، كأن القوم اختاروه على علم منهم وتفتيش عن أحواله، والظاهر أن النقيب فعيل للمبالغة، كعليم وخبير.

﴿وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾: عزر[1] الرجل، قال يونس بن حبيب: أثنى عليه بخير، وقال أبو عبيدة: عظمه، وقال الفراء: رده عن الظلم، ومنه التعزير؛ لأنه يمنع من معاودة القبيح. وفي «المختار»: التعزير التوقير والتعظيم. وفي «القاموس»: التعزير: ضربٌ دون الحد، وهو أشد الضرب، والتفخيم والتعظيم، وضد الإهانة كالعزر والتقوية والنصر ا هـ.

﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ يجوز أن يكون مصدراً محذوف الزوائد وعامله ﴿أقرضتم﴾؛ أي: إقراضاً، ويجوز أن يكون بمعنى المقرض، فيكون مفعولاً به، والقرض الحسن: ما كان عن طيب نفس ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وسطه، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: السبيل المستوي ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾؛ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا. ﴿قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾: اسم فاعل من: قسا يقسو قسوة، فياؤه بدل من واو، فأصله قاسوة؛ لأنه من القسوة. ويقرأ: قسية على وزن فعيلة، قلبت الواو ياء، وأدغمت فيها ياء، وفعيلة هنا بمعنى: فاعلة، ومعنى قاسية: يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: والتحريف إمالة الشيء، عن موضعه إلى أي جانب من الجوانب ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ يقال: طلع الشيء إذا برز وظهر، واطلع افتعل منه.

---

(١) البحر المحيط.

﴿خَآئِنَةٍ﴾ فيها ثلاثة أوجه[1]:

أحدها: أنها اسم فاعل، والهاء للمبالغة كراوية ونسابة؛ أي: على شخص خائن.

والثاني: أن التاء للتأنيث، وأنث على معنى طائفة، أو نفس أو فعلة خائنة.

والثالث: أنها مصدر كالعافية والعاقبة، ويؤيد هذا الوجه قراءة الأعمش ﴿على خيانة﴾، وأصل خائنة خاونة فأعلَّ إعلال قائمة ا هـ «سمين».

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ وفي «المختار»: والنصير الناصر، وجمعه أنصار، كشريف وأشراف، وجمع الناصر نصر كصاحب وصحب. والنصارى: جمع نصران ونصرانة، كالندامى جمع ندمان وندمانة، ولم يستعمل نصران إلا بياء النسب ونصره تنصيراً جعله نصرانياً. وفي الحديث: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه» ا هـ. وفي «المصباح»: ورجل نصارني بفتح النون، وامرأة نصرانية، ويقال: إنه نسبة إلى قرية اسمها نصرى، ولهذا قيل في الواحد نصرى على القياس والنصارى جمعه، مثل مهرى ومهارى، ثم أطلق النصراني على كل من تعبد بهذا الدين. ا هـ.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ من[2] أغراه بكذا؛ أي: ألزمه إياه، وأصله من الغراء بفتح الغين وكسرها، وهو ما يلصق به الورق أو الجلد ولامه واو. والأصل فأغرونا، وإنَّما قلبت الواو ياء لوقوعها رابعة، ومنه قولهم بيت مغروٌّ؛ أي: معمول بالغراء ويقال: غرى بالشيء، يغرى غراءً وغرى لصق به، وأغرى فلان زيداً بعمرو ولعه به، وأغريت الكلب بالصيد أشليته، وقال النضر: أغرى بينهم: هيّج.

وفي «المصباح»: غرى بالشيء غرىً ـ من باب تعب ـ أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل، وأغريته به إغراء فأغري به بالبناء للمفعول، والاسم الغراء بالفتح والمد، والغراء مثل كتاب ما يلصق معمول من الجلود، وقد يعمل من السمك والغرا ـ مثل العصا ـ لغة فيه، وغروت الجلد أغروه من باب عدا؛ ألصقته

---

(١) الجمل.   (٢) الفتوحات.

بالغراء، وقوس مغروةٌ وأغريت بين القوم مثل أفسدت وزناً، ومعنى: وغروت غرواً ـ من باب قتل ـ عجبت ولا غرو؛ أي: لا عجب.

﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ والملك[1] والمِلك: الضبط والحفظ والقدرة من قولهم: ملكت على فلان أمره؛ أي: قدرت عليه؛ أي: فمن يقدر؛ أي: يمنع.

﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾: والفترة أصلها السكون، يقال: فتر الشيء إذا سكن، وقيل: هي الانقطاع. قاله أبو علي الفأرسي وغيره، ومنه فتر الماء إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة، وفتر الرجل عن عمله إذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه، وامرأة فاترة الطرف؛ أي: منقطعة عن حدة النظر، والمعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثه ﷺ مدةً من الزمان، والهاء[2] فيه ليست للمرة الواحدة، بل فترة مرادف للفتور.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع:

فمنها: الالتفات في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾. ففيه التفات من الغيبة إلى التكلم، ومقتضى الظاهر أن يقول: وبعث الله، وإنَّما التفت اعتناء بشأنه.

ومنها: المجاز المرسل في ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، بإسناد الفعل إلى الآمر مثل قولهم: بنى الأمير المدينة.

ومنها: إطلاق المشترك وإرادة أحد معانيه في قوله: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ لأنَّ المراد به هنا: النصر.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ شبه الإنفاق في سبيل الله لوجه الله بالقرض على سبيل المجاز؛ لأنَّه إذا أعطى المستحق ماله لوجه الله تعالى، فكأنه أقرضه إياه. والاستعارة في قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان على طريقة الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى خطاب الفريقين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا﴾؛ لأن النسيان مجاز عن الترك من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ﴾؛ لأنه كناية عن إيقاع العداوة بينهم، والتعبير بالإغراء أبلغ، كأن العداوة لاصقة بهم كالغراء اللاصق بالجلد.

ومنها: القصر في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. وذلك أن الخبر إذا عرف بالألف واللام.. أفاد القصر، سواء كان التعريف فيه عهدياً أو جنسياً، فإذا ضم معه ضمير الفصل.. ضاعف تأكيد معنى القصر، فإذا صدرت الجملة بإنّ.. بلغ الكمال في التحقيق.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾، وفي قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ﴾. و﴿يهديهم﴾.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما أقام الحجة على بني إسرائيل، وأثبت لهم رسالة نبيه ﷺ بما أوحاه إليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبائهم، من البشارات، وأخبار الغيب، وتحريف الكتب ونسيان حظ منها، وأيد ذلك بدحض شبهاتهم، وإبطال غرورهم، وهم مع كل هذا لم يزدادوا إلا كفراً وعناداً.. بين هنا تمرد أسلاف اليهود على موسى عليه السلام وعصيانهم إياه، مع تذكيره إياهم نعم الله تعالى وتعداده لما هو العظيم منها، وأن هؤلاء الذين هم بحضرة الرسول هم جارون معكم مجرى أسلافهم مع موسى، ليعلم الرسول ﷺ أن مكابرتهم للحق من أخلاقهم توارثوها من أسلافهم، وتأصلت في طباعهم، فلا بدع إذا هم أعرضوا عن دعوتك، وصدوا عن هديك. وفي هذا من تسلية النبي ﷺ ما لا يخفى إلى ما فيه من زيادة معرفة طبائع الأمم، وسنن الاجتماع البشري.

التفسير وأوجه القراءة

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما فعلوا بعد أخذ

الميثاق؛ أي: واذكر يا محمد لبني إسرائيل المعاصرين لك وسائر من تبلغهم دعوتك قصة حين قال موسى لقومه، بعد أن أنقذهم الله تعالى من ظلم فرعون وقومه، وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ باللسان والجنان، واشكروه على ذلك بالطاعة له؛ لأن ذلك يوجب مزيدها كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وتركها يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾. قال الطبري: هذا تعريف من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بتمادي هؤلاء اليهود في الغيّ وبعدهم عن الحق، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة مخالفتهم لأنبيائهم مع كثرة نعم الله عليهم، وتتابع أياديه وآلائه لديهم، سلى بذلك نبيه محمداً ﷺ عما نزل به من مقاساتهم ومعالجتهم في ذات الله عز وجل. وقرأ ابن محيصن(١): ﴿يا قوم﴾ بضم الميم، وكذا حيث وقع في القرآن. وروي ذلك عن ابن كثير، وهذا الضم هو على معنى الإضافة، كقراءة من قرأ: ﴿قل رب أحكم بالحق﴾ - بالضم - وهي إحدى اللغات الخمس الجائزة في المنادى المضاف لياء المتكلم، وما ذكره الشوكاني هنا من تقديره بـ: يا أيها القوم اذكروا، غير صواب؛ لأنه يشعر بأنه نكرة مقصودة. وقد بين لهم موسى أصناف هذه النعم التي منحها لهم مولاهم، وحصرها في ثلاثة أشياء:

الأول: وهو أرفعها قدراً وأعلاها ذكراً ما ذكره بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾؛ يعني: أن موسى عليه السلام ذكر قومه بني إسرائيل بأيام الله عندهم، وبما أنعم به عليهم فقال: يا قومي اذكروا إنعام الله تعالى عليكم حين جعل فيكم أنبياء؛ لأنه لم يبعث في أمة من الأمم ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، فمنهم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه، فانطلقوا معه إلى الجبل، ومنهم أولاد يعقوب؛ فإنهم كانوا أنبياء على قول الأكثرين.

والمعروف عند أهل الكتاب(٢) أن المراد بالنبوة الإخبار ببعض الأمور

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

الغيبية التي تقع في المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل، وقد كان جميع أنبيائهم من بعد موسى يحكمون بما في التوراة ويعملون بها، حتى المسيح عليه السلام. وأيضاً فإن الله تعالى أعلم موسى أنَّه يبعث من بعده في بني إسرائيل أنبياء، فكان هذا شرفاً عظيماً لهم، ونعمة ظاهرة عليهم.

والثاني: ما ذكره بقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾؛ أي: واذكروا إنعام الله تعالى عليكم حين جعلكم ملوكاً وأحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً في أيدي القبط. والمراد من الملك هنا: الحرية في تدبير أمورهم وأمور أسرهم بأنفسهم. وفي هذا من تعظيم هذه النعمة ما لا يخفى، ويؤيد هذا: ما رواه أبو سعيد الخدري، مرفوعاً «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملِكاً». وما رواه أبو داود عن زيد بن أسلم: «من كان له بيت وخادم.. فهو ملك ولا شك أن من كان متمتعاً بمثل هذا.. كان متمتعاً بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية في التصرف في سياسة بيته، والناس يقولون إلى الآن لمن كان مخدوماً مع عشيرته، هانئاً في معيشته، مالكاً لمسكنه: هذا ملك أو ملك زمانه، يريدون أنه يعيش عيشة الملوك. وقال الضحاك: كانت منازلهم واسعة، فيها مياه جارية، ومن كان مسكنه واسعاً وفيه ماء جارٍ.. فهو ملك.

والثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ويا قوم اذكروا إنعام الله تعالى عليكم حين أعطاكم ما لم يعطِ أحداً من العالمين، من فلق البحر، وإغراق العدوّ، وإيراث أموالهم، وإنزال المن والسلوى، وإخراج المياه العذبة من الحجر، وتظليل الغمام؛ فإن ذلك لم يوجد في غير بني إسرائيل، أو عالمي زمانهم، وشعوبه التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك، فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام، فقد فلق البحر لهم، وأهلك عدوهم، وأورثهم أموالهم، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وأظل فوقهم الغمام، إلى غير ذلك من النعم التي أنعم الله بها عليهم، وبعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم، أمرهم بمجاهدة العدوّ، وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصروه فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا

﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾؛ أي: المطهرة[1] من الوثنية والشرك لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد، وجعلها مسكناً لهم وللمؤمنين، وإنَّما سميت مطهرة؛ لسكنى الأنبياء المطهرين فيها، فشرفت وطهرت بهم، فالظرف طاب بالمظروف، إنْ قلت: إنَّ الجبارين كانوا فيها، وهم غير مطهرين؟ أجيب بأنَّ الخير يغلب الشر، والنور يغلب الظلمة. وروى ابن عساكر عن معاذ بن جبل: إنَّ الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات، وبعضهم يسمي القسم الشمالي من هذا القطر باسم سورية، والباقي باسم فلسطين أو بلاد المقدس، أو الأرض المقدسة، أو أرض الميعاد؛ لأنَّ الله تعالى وعد بها ذرية إبراهيم، ويدخل فيما وعد الله به إبراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب. وقيل: معنى المقدسة المباركة؛ لكثرة خيراتها ونباتها وأشجارها ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: التي قسمها وقدرها لكم في سابق علمه، وجعلها مسكناً لكم. فإنْ[2] قلت: كيف الجمع بين الكتابة التي تفيد تحتم الدخول وبين قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؟.

قلت: إنَّ المراد بالكتب الأمر بالدخول، أو بأن معنى قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: قدرها لكم في اللوح المحفوظ إنْ لم تقع منكم مخالفة، وقد وقعت فحرمت عليهم أربعين سنة، فهو قضاء معلق.

وقيل معنى:[3] ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: وهبها الله لكم ميراثاً من أبيكم إبراهيم عليه السلام. روي أن إبراهيم عليه السلام لما صعد جبل لبنان قال الله سبحانه وتعالى له: «أنظر فما أدركه بصرك.. فهو مقدس وهو ميراث لذريتك» وكان بنو إسرائيل يسمون أرض الشام أرض الموعد. قال ابن عباس: الأرض هي الطور وما حوله. وقرأ ابن محيصن هنا وفي جميع القرآن: ﴿يا قومُ﴾ مضموم الميم ويروى قراءة عن ابن كثير، ووجهها أنها لغة في المضاف لياء المتكلم كقراءة: ﴿قال رب احكم بالحق﴾. وقرأ ابن السميقع: ﴿يا قومي ادخلوا﴾ بفتح الياء؛ لأنَّه منادى مضاف لياء المتكلم، قال ابن مالك:

---

(١) المراغي. (٢) صاوى. (٣) المراح.

وَٱجْعَلْ مُنَادَىٰ صَحَّ أَنْ يُضَفْ لِيَا كَعَبْدِ عَبْدِيْ عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

فقول موسى عليه السلام[1]: كتب الله لكم، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من حق السكنى في تلك البلاد المقدسة، لا أنَّ المراد أنَّها تكون كلها ملكاً لهم، لا يزاحمهم فيها أحد؛ لأن هذا مخالف للواقع، ولن يخلف الله وعده، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنَّه لا بد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح.

ونص هذا الوعد في سفر التكوين من التوراة: أنَّه لما مرّ إبراهيم بأرض الكنعانيين.. ظهر له الربّ وقال: لنسلك أعطيت هذه الأرض. وجاء فيه أيضاً: في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطيت هذه من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر فرات.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾؛ أي: لا تنكصوا ولا ترجعوا إلى خلفكم وعلى أعقابكم؛ أي: إلى مصر خوف العدوّ، وتتركوا طاعتي وما أوجبته عليكم من قتال الجبارين جبناً وفشلاً ﴿فَتَنقَلِبُوا﴾ وتصيروا بسبب ذلك ﴿خَٰسِرِينَ﴾ لخيري الدنيا والآخرة، لأن الفرار من الزحف من الكبائر، فإنَّهم لما سمعوا أخبار الجبارين قالوا: نجعل لنا رئيساً ينصرف بنا إلى مصر، وصاروا يبكون ويقولون: يا ليتنا متنا بمصر.

والمعنى: أي لا ترجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل والهدى والرشاد إلى الوثنية، والفساد في الأرض، بالظلم والبغي واتباع الأهواء؛ فإنَّ في هذا الرجوع خسراناً لكم، إذ تخسرون فيه هذه النعم، ومنها الأرض المقدسة التي ستعطونها جزاء شكركم، فتحرمون من خيراتها وبركاتها، وقد جاء في بعض أوصافها: «أنها تفيض لبناً وعسلاً» وتعاقبون بالتيه أربعين سنة، ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم.

ثم بعث موسى عليه السلام اثني عشر نقيباً ليتجسسوا لهم عن أحوال تلك الأرض، فلما دخلوا تلك البلاد.. رأوا أجساماً عظيمة هائلة، ثم انصرفوا إلى

---

(١) المراغي.

موسى فأخبروه بالواقعة، فأمرهم أن يكتموا ما شاهدوه، فلم يقبلوا قوله إلا رجلان منهم، وهما يوشع وكالب؛ فإنهما سهلا الأمر وقالا: هي بلاد طيبة كثيرة النعم، وقلوب القوم الذين فيها ضعيفة، وإن كانت أجسامهم عظيمة. وأما العشرة من النقباء.. فقد أوقعوا الجبن في قلوب الناس، حتى أظهروا الامتناع من غزوهم، ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر ولا يدخلنا الله بأرضهم، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا﴾؛ أي: قال قوم موسى له: إن في الأرض المقدسة ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عاتين متغلبين لا طاقة لنا بهم، ولا قوة لنا بقتالهم، وسمي أولئك القوم جبارين لشدة بطشهم، وعظم خلقهم، وكانوا ذوي أجسام عظيمة، وأشكالٍ هائلة، وهم العمالقة بقية قوم عاد. وقيل: من الروم من ولد عيص بن إسحاق.

وقرأ ابن السميقع: ﴿قالوا يا موسى فيها قوم جبارون﴾. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾؛ أي: لن ندخل أرض الجبارين التي أمرهم الله بدخولها؛ وهي الأرض المقدسة ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾؛ أي: حتى يخرج الجبارون من الأرض المقدسة، من غير صنع منا، فإنَّه لا طاقة لنا بإخراجهم منها، وإنَّما قالوا ذلك.. استبعاداً لخروج الجبارين منها، كقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بسبب ليس منا ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ فيها.

والخلاصة[1]: أنَّ موسى لما قرب بقومه حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة.. أمرهم بدخولها مع الاستعداد لقتال من يقاتلهم من أهلها، وأنهم لما غلب عليهم الضعف والذل، واضطهاد المصريين لهم، وظلمهم إياهم.. أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم، وقوة أهل تلك البلاد، وحاولوا الرجوع إلى مصر، وقالوا لموسى: إنَّا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها، وقولهم: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ تأكيد لما فهم مما قبله، مشعر بأنه لا علة لامتناعهم إلا ما ذكروه، وفي إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف، وخور

(١) المراغي.

العزيمة، وعلى أنَّهم لا يريدون أن يأخذوا شيئاً باستعمال قواهم البدنية ولا العقلية، ولا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم، ولا أن يجلبوا لها الخير، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا في هذه الحياة. ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال وتحيا حياة العزّ والكرامة وتكون ذات تصرف مطلق في شؤونها ومن ثم لم تقم لها دولة بعد ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى في مخالفة أمره ونهيه ويراقبونه ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالهداية والثقة بعون الله، والاعتماد على نصرة الله، والأشهر عند المفسرين أن الرجلين يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وهو ابن أخت موسى، ونبىء بعد موسى، وكالب بن يوقنا ختن موسى على أخته مريم بنت عمران، وهما اللذان وفيا من النقباء الذين بعثهم موسى في كشف أحوال الجبابرة، فكتما ما اطلعا عليه من حال الجبابرة إلا عن موسى، وأفشى ذلك بقية النقباء في أسباطهم، فآل بهم ذلك إلى الخور والجبن، بحيث امتنعوا عن القتال، فإذا فسرنا الرجلين بيوشع وكالب.. يستفاد من الكلام: أن مع موسى أقواماً يخافون الله فلا يبالون بالعدو لصحة إيمانهم وقوته، وهذان منهم، أو المعنى: من الذين يخافون العدوّ، لكن أنعم الله عليهما بالإيمان والثبات. وقيل[1]: هما رجلان من الجبابرة أنعم الله عليهما بالإيمان فآمنا، واجتمعا مع موسى، فحينئذ فالموصول واقع على الجبابرة، والواو في يخافون على بني إسرائيل، والعائد محذوف، والتقدير: قال رجلان من الجبارين الذين يخافهم بنو إسرائيل، أنعم الله عليهما بالإيمان مع موسى، ويدل على هذا التأويل قراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ﴿يخافون﴾ بضم الياء على صيغة المبني للمجهول؛ أي: الذين يخافهم بنو إسرائيل، وتحتمل هذه القراءة أن يكون الرجلان يوشع وكالب. ومعنى يخافون؛ أي: يهابون ويوقرون، ويسمع كلامهم لتقواهم وفضلهم، ويحتمل أن يكون من أخاف؛ أي: يخيفون بأوامر الله ونواهيه، وزجره ووعيده، فيكون ذلك مدحاً لهم كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾. ذكره أبو حيان في

---

(١) البحر المحيط.

«البحر». ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ﴾؛ أي: على الجبارين ﴿ٱلۡبَابَ﴾؛ أي: باب بلدهم؛ أي: باغتوهم وضاغطوهم في المضيق، وامنعوهم من البروز إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالاً.

وفي قراءة عبد الله: ﴿أنعم الله عليهما ويلكم ادخلوا عليهم الباب﴾. وهذا يدل على أن موسى كان قد أنزل محلته قريباً من المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ﴾؛ أي: باب بلدهم ﴿فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ من غير حاجة إلى القتال، فإنا شاهدنا أن قلوبهم ضعيفة، وإنْ كانت أجسامهم عظيمة؛ وإنَّما جزم هذان الرجلان بالغلبة؛ لأنَّهما كانا جازمين بنبوة موسى، فلما أخبرهم موسى بأن الله تعالى أمرهم بالدخول في تلك الأرض، وكتبها لهم قطعا بأن النصرة لهم، والغلبة حاصلة في جهتهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ في حصول هذا النصر لكم بعد ترتيب الأسباب، ولا تعتمدوا عليها فإنها غير مؤثرة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بصحة نبوة موسى، ومقرين بوجود الإله القادر، مصدقين لوعده.

والمعنى: أي[1] ادخلوا عليهم باب المدينة، فإذا فعلتم ذلك.. نصركم الله، وأيدكم بروح من عنده، بعد أن تعلموا ما في طاقتكم من طاعة ربكم، الذي تثقون به فيما لا يصل إليه كسبكم، إن كنتم مؤمنين بأن وعد الله حق، وأنَّه قادر على الوفاء به؛ وإنَّما جزم الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا.. ثقة بنبوة موسى، وهو قد أخبرهم بأنَّ الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتبها لهم، لا جرم قطعا بالنصر والغلبة على العدوّ.

﴿قَالُواْ﴾؛ أي: قال بنو إسرائيل لموسى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ﴾؛ أي: أرض الجبارين ﴿أَبَدٗا﴾؛ أي: مدة حياتنا ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾؛ أي: ما دام الجبارون مقيمين في أرضهم، وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً، أو عناداً وجرأة على الله وعلى رسوله ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ﴾ يا موسى ﴿وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ هم قالوا هذه المقالة جهلاً بالله عز وجل وبصفاته، وكفراً بما يجب له، أو استهانة بالله ورسوله، وقلة

---

(١) المراغي.

حتى فتحها، وأمر الله يوشع بن نون: أن يأمر بني إسرائيل ـ حين يدخلون بيت المقدس ـ أن يدخلوا بها سجداً، وهم يقولون حطة؛ أي: حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، ودخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون حبة في شعرة، وقد تقدم هذا كله في البقرة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم لما ندم على الدعاء عليهم، وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم؛ أي: لا تحزن يا موسى على هلاكهم وعقوبتهم؛ لأنهم أهل مخالفة وخروج عن الطاعة، فهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلٰهي، وقيل: الخطاب لمحمد ﷺ، والمراد بالفاسقين معاصروه؛ أي: هذه فعال أسلافهم، فلا تحزن أنت بسبب أفعالهم الخبيثة معك، وردهم عليك؛ فإنَّها سجية خبيثة موروثة عندهم.

فائدة: واختلف المفسرون في مقدار الأرض التي تاهوا فيها[1]، فقيل: مقدار ستة فراسخ، وقيل: ستة فراسخ في اثني عشر فرسخاً، وقيل: تسع فراسخ في ثلاثين فرسخاً، وكان القوم ست مئة ألف مقاتل، وكانوا يرحلون ويسيرون يومهم أجمع، فإذا أمسوا.. إذ هم في الموضع الذي رحلوا منه، وكان ذلك التيه عقوبة لبني إسرائيل، ما خلا موسى وهارون ويوشع وكالب؛ فإن الله تعالى سهله عليهم، وأعانهم عليه، كما سهل على إبراهيم النار وجعلها برداً وسلاماً.

فإنْ قلت:[2] كيف يعقل بقاء هذا الجمع العظيم، في هذا المقدار الصغير من الأرض أربعين سنة، بحيث لم يخرج منه أحد؟.

قلت: هذا من باب خوارق العادات، وخوارق العادات في أزمان الأنبياء غير مستبعدة؛ فإن الله على كل شيء قدير. وقيل: إن فسرنا ذلك التحريم بتحريم التعبد.. زال هذا الإشكال لاحتمال أن الله ما حرم عليهم الخروج من تلك الأرض، بل أمرهم بالمكث فيها أربعين سنة في المشقة والمحنة، جزاءً لهم على سوء صنيعهم، ومخالفتهم أمر الله، ولما حصل بنو إسرائيل في التيه شكوا إلى

---

(١) الخازن.   (٢) الخازن.

موسى عليه السلام حالهم، فأنزل الله عليهم المنّ والسلوى، وأعطوا من الكسوة ما هي قائمة لهم، فينشأ الناشىء منهم، فتكون معه على مقداره وهيئته، وسأل موسى ربه أن يسقيهم، فأتى بحجر أبيض من جبل الطور، فكان إذا نزل ضربه بعصاه، فيخرج منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط منهم عين، وأرسل الله عليهم الغمام يظللهم في التيه، ومات في التيه كل من دخله ممن جاوز عشرين سنة، غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، ولم يدخل أريحاء ممن قال: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾. واختلفوا في أنَّ موسى عليه السلام مات في التيه أم خرج منه. فقيل: إن موسى وهارون ماتا في التيه جميعاً. وإن[1] في هذا العقاب الإلٰهي لعبرة لأولي الألباب، يستفيدون منها، أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستعباد تذهب أخلاقها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتأنس بالمهانة، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطباعاً خلقية لها، كما رأينا ذلك في بعض الشعوب التي أخذها الاستئمار، كشعوب الأروميا في شرقي أفريقيا، وغيرهم ممن أخذهم واستعبدهم الاستئمار، فإذا خرجوا من بيئتهم، ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد.. حنوا إلى ما كانوا فيه أولاً، وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه، وهذا شأن البشر في جميع ما يألفون، ويجرون عليه من خير وشرّ.

وقد أفسد ظلم الفراعنة فطرة بني إسرائيل في مصر، وطبع عليهم بطابع الذلة والمهانة، وقد أراهم الله تعالى ما لم ير أحداً من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته، وصدق رسوله موسى عليه السلام، وبيَّن لهم أنَّه أخرجهم من مصر لينقذهم من العبودية إلى نعيم الحرية، ومع هذا كله كانوا إذا أصابهم نصب أو جوع، أو كلفوا أمراً يشق عليهم، يتطيرون بموسى، ويذكرون مصر ويحنون إلى العودة إليها، وحين غاب عنهم موسى عليه السلام لمناجاة ربه، اتخذوا لهم عجلاً من حليهم وعبدوه، وكان يعلم أن نفوسهم ميتة، لا تطيعهم على دخول أرض الجبارين وأن وعده تعالى لأجدادهم إنَّما يتم إذا هلك ذلك الجيل الذي

---

(١) المراغي.

نشأ في الوثنية، ونشأ بعده جيل جديد يعيش في حرية البداوة وعدل الشريعة. وعلى هذه السنة العادلة أمر الله بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله، لكنهم أبوا واستكبروا، فأخذهم بذنوبهم، وأنشأ من بعدهم قوماً آخرين، جعلهم الأئمة الوارثين بهممهم الموافقة لسنته في الاجتماع.

قصة وفاة موسى وهارون عليهما السلام

فأما هارون[1]: فإنه كان أكبر من موسى بسنة، قال السدي: أوحى الله عز وجل إلى موسى أني متوفي هارون، فأتِ به جبل كذا وكذا، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا بشجرة لم يرَ مثلها. وإذا بيت مبني وفيه سرير عليه فراش، وفيه رائحة طيبة، فلما رأى هارون ذلك البيت أعجبه وقال: يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير، قال: نمْ، قال: إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ، قال: لا تخف إنِّي أكفيك رب هذا البيت فنم، قال: يا موسى فنم أنت معي، فإن جاء رب هذا البيت غضب علي وعليك جميعاً، فلما ناما أخذ هارون الموتُ، فلما وجد مسه قال: يا موسى خدعتني، فلما قبض هارون، ورفع البيت والسرير إلى السماء ـ وهارون عليه ـ وذهبت الشجرة، فرجع موسى إلى بني إسرائيل وليس هارون معه، فقال بنو إسرائيل: حسد موسى هارون فقتله لحبنا إياه، قال موسى: ويحكم إن هارون كان أخي، أفترونني أقتله؟ فلما أكثروا عليه، قام موسى، فصلى ركعتين، ثم دعا الله عز وجل، فنزل السرير ـ وعليه هارون ـ فنظروا إليه وهو بين السماء والأرض فصدقوه، ثم رفع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صعد موسى وهارون عليهما السلام إلى الجبل، فمات هارون وبقي موسى، فقال بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته، وآذوه، فأمر الله الملائكة، فحملوه حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة، فصدقت بنو إسرائيل أنه مات، وبرأ الله موسى مما قالوه، ثم

---

(١) الخازن.

إن الملائكة حملوه ودفنوه، ولم يطلع على موضع قبره أحد إلا الرخم، فجعله أصم أبكم.

وأما وفاة موسى عليه السلام، فقال ابن إسحاق: كان صفي الله موسى عليه السلام قد كره الموت وأعظمه، فأراد الله تعالى أن يحبب إليه الموت، فنبأ يوشع بن نون، فكان موسى يغدو ويروح إليه ويقول له: يا نبي الله ما أحدث الله إليك؟ فيقول له يوشع: يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك، حتى كنت أنت تبتدىء به، وتذكره لي، ولا يذكر له شيئاً؟ فلما رأى موسى ذلك، كره الحياة وأحب الموت.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرسل ملك الموت إلى موسى، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت؟ فرد الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت يده من شعرة سنة، قال: أي رب ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر؟ قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثَم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر». متفق عليه.

وفي رواية لمسلم قال: جاء ملك الموت إلى موسى، فقال: أجب ربك، قال: فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها. ثم ذكر معنى ما تقدم. قال النواوي: قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث، وأنكره تصوره، قالوا: كيف يجوز على موسى فقأ عين ملك الموت؟ وأجاب عنه العلماء بأجوبة:

أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون الله قد أذن لموسى في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحاناً للملطوم، والله تعالى يفعل في خلقه ما يشاء، ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن موسى لم يعلم أنه ملك من عند الله تعالى، وظن أنَّه رجل قصده يريد نفسه، فدافعه عنها، فأدت المدافعة إلى فقأ عينه، لا أنه قصدها بالفقأ، وتؤيده رواية صكّه، وهذا جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين، واختاره المازري والقاضي عياض، قالوا: وليس في الحديث تصريح

بأنه قصد فقأ عينه. فإنْ قيل: فقد اعترف موسى حين جاءه ثانياً بأنه ملك الموت؟ فالجواب: أنَّه أتاه في المرة الثانية بعلامة علم بها أنه ملك الموت، فاستسلم له بخلاف المرة الأولى. وأما سؤال موسى الإدناء من الأرض المقدسة؟ فلشرفها وفضلها، وفضل من بها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم. وفيه دليل على استحباب الدفن في المواضع الفاضلة، والمواطن المباركة، والقرب من مدافن الصالحين.

قال بعض العلماء: وإنَّما سأل موسى الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس؛ لأنَّه خاف أن يكون قبره مشهوراً عندهم فيفتتن به الناس كما مرّ، والله أعلم.

قال وهب بن منبه: خرج موسى لبعض حاجته، فمرّ برهط من الملائكة يحفرون قبراً لم ير شيئاً أحسن منه، ولا مثل ما فيه من الخضرة والنضرة والبهجة، فقال لهم: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد كريم على ربه، فقال: إن هذا العبد من الله بمنزلة ما رأيت كاليوم قط؟ فقالت الملائكة: يا صفي الله تحب أن يكون لك؟ قال: وددت، قالوا: فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك، فنزل واضطجع وتوجه إلى ربه عز وجل، ثم تنفس أسهل تنفس، فقبض الله روحه، ثم سوت الملائكة عليه التراب.

وقيل: إن ملك الموت أتاه بتفاحة من الجنة فشمها فقبض روحه، وكان عمر موسى عليه السلام مئة وعشرين سنة، فلما مات موسى عليه السلام.. انقضت الأربعون سنة، وبعث الله يوشع إلى بني إسرائيل، فأخبرهم أن الله قد أمره بقتال الجبارين، فصدقوه وتابعوه، فتوجه ببني إسرائيل إلى أريحاء - وهي مدينة الجبارين - ومعه تابوت الميثاق، فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر. فلمّا كان في السابع نفخوا في القرون، وضجوا في الشعب ضجة واحدة، فسقط سور المدينة، فدخلوها وقاتلوا الجبارين وهزموهم، وهجموا عليهم يقتلونهم، فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل من الجبابرة يضربونها حتى يقطعونها، وكان القتال والفتح يوم الجمعة، فبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت، فقال: اللهم اردد علي الشمس، وقال للشمس: إنك في طاعة الله، وأنَّا في طاعة الله، وسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقف، حتى

ينتقم من أعداء الله قبل دخول السبت، ورد الله عليه الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين، وتتبع ملوك الشام، فاستباح منهم أحداً وثلاثين ملكاً، حتى غلب على جميع أرض الشام، وصارت كلها لبني إسرائيل وفرق عماله نواحيها، وجمع الغنائم، فجاءت النار لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غلولاً فليبايعني من كل قبيلة رجل ففعلوا، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس ثور من ذهب، مكلل بالياقوت والجوهر، قد غلّه رجل منهم، فجعله في القربان، وجعل الرجل معه، فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان.

وفي الحديث الصحيح ما يدل على صحة هذا، وهو ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا رجل اشترى غنماً، أو خلفات وهو ينتظر أولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنَّك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت ـ يعني النار ـ لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعها فجاءت النار فأكلتها». زاد في رواية فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا، ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا. أخرجه البخاري ومسلم.

الإعراب

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بمحذوف تقديره: اذكر يا محمد وقت قول موسى لقومه، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه. ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَالَ﴾. ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿خَٰسِرِينَ﴾ مقول محكي لقال، وإن شئت قلت: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يا:

حرف نداء. ﴿قوم﴾: منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه فتحه مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بالكسرة، منع من ظهورها اشتعال المحل بحركة المناسبة ﴿قوم﴾ مضاف. وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه مبنية على السكون، هذا على قراءة الجمهور بكسر الميم. وقرىء بضم الميم وإعرابه على هذه القراءة ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿قومُ﴾: منادى مضاف منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة المقلوبة ضمة تشبيهاً له بالنكرة المقصودة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة ﴿قوم﴾ مضاف، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة المقلوبة ضمة في محل الجر مضاف إليه، مبنية على السكون لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. وهذه اللغة أعني ـ لغة الضم ـ هي اللغة السادسة من اللغات الست الجارية في المنادى الصحيح الآخر، المضاف إلى ياء المتكلم، سواء كان لفظ أب أو أم أو غيرهما، كما بينتها بياناً شافياً في رسالتي المسماة بـ«هدية أولي العلم والإنصاف، في إعراب المنادى المضاف» المطبوعة مع «الباكورة» الموضوعة على «الآجرومية» ولم يذكر هذه اللغة ابن مالك في «ألفيته» حيث قال:

وَٱجْعَلْ مُنَادَىً صَحَّ أَنْ يُضَفْ لِيَا ... كَعَبْدِ عَبْدِيْ عَبْدَ عَبْدَا عَبْدِيَا

﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ٱذْكُرُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أو حال منها ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿فِيكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له. ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾: مفعول أول له، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لإذ. ﴿وَجَعَلَكُم﴾: فعل ومفعول أول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿مُّلُوكًا﴾: مفعول ثانٍ لجعل،

وجملة ﴿جَعَلَ﴾: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: فعل ومفعول أول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ثانٍ لآتى، وجملة آتى في محل الجرّ معطوفة على جملة ﴿جَعَلَ﴾ الأول. ﴿لَمْ يُؤْتِ﴾ جازم وفعل، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والمفعول الأول محذوف تقديره ما لم يؤته وهو العائد على ﴿مَّا﴾. ﴿أَحَدًا﴾ مفعول ثانٍ ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَحَدًا﴾، وجملة آتى صلة لما أو صفة لها ﴿يَٰقَوْمِ﴾ منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب مقول القول مع كونها جواب النداء. ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ صفة أولى لـ﴿ٱلْأَرْضَ﴾. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول في محل النصب صفة ثانية لـ﴿ٱلْأَرْضَ﴾. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿كَتَبَ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: كتبها الله لكم، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾. على كونها جواب النداء ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَرْتَدُّوا۟﴾، أو حال من فاعله تقديره: ولا ترتدوا حال كونكم منقلبين على أدباركم ﴿فَتَنقَلِبُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بحذف النون على كونه معطوفاً على ﴿تَرْتَدُّوا۟﴾، أو منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي ﴿خَٰسِرِينَ﴾ حال من فاعل تنقلبوا.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿دَٰخِلُونَ﴾ مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ منادى مفرد العلم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿قَوْمًا﴾: اسمها مؤخر. ﴿جَبَّارِينَ﴾ صفة ﴿قَوْمًا﴾، وجملة إنَّ في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء. ﴿وَإِنَّا﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِنَّا﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ونا: اسمها. ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ ناصب وفعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على قوم موسى، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ،

وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى، على كونها مقول القول. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يَخْرُجُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد حتى بمعنى إلى. ﴿مِنْهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أنْ﴾ المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بحتى، بمعنى إلى تقديره: إلى خروجهم منها، الجار والمجرور، متعلق بـ﴿نَّدْخُلَهَا﴾. ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ﴾ الفاء: فاء الفصيحة، لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت عدم دخولنا إلى خروجهم، وأردت بيان حكم ما إذا خرجوا منها.. فأقول لك. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿يَخْرُجُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنْهَا﴾ متعلق بـ﴿يَخْرُجُواْ﴾. ﴿فَإِنَّا﴾ الفاء: رابطة لجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿إِنَّا﴾: ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. و(نا): ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿دَاخِلُونَ﴾: خبر إنَّ مرفوع بالواو، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجزم على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾: الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور صفة أولى لـ﴿رَجُلَانِ﴾ ﴿يَخَافُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل ﴿عَلَيْهِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أَنْعَمَ﴾ وجملة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾ في محل الرفع صفة ثانية لـ﴿رَجُلَانِ﴾، ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ إلى قوله ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قال﴾، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْخُلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿ٱدْخُلُواْ﴾. ﴿ٱلْبَابَ﴾: مفعول به. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم قولنا: ادخلوا عليهم الباب، وأردتم بيان ما يترتب على الدخول.. فأقول لكم. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمنة معنى الشرط، في محل النصب على الظرفية،

والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿دَخَلْتُمُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾. ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إذا﴾ وجوباً. ﴿إن﴾: حرف نصب. (الكاف): ضمير المخاطبين في محل النصب اسمها ﴿غَٰلِبُونَۚ﴾: خبر إنَّ، وجملة إنَّ جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿توكلوا﴾. ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: (الفاء): زائدة. ﴿توكلوا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف معلوم مما قبلها تقديره: إنْ كنتم مؤمنين.. فتوكلوا على الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿قَٰعِدُونَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُواْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾: منادى مفرد علم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِنَّا﴾ ناصب واسمه. ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على قوم موسى، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ في محل النصب مقول القول. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿نَّدْخُلَهَآ﴾. ﴿مَّا﴾. مصدرية ظرفية. ﴿دَامُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيهَاۖ﴾: جار ومجرور خبر دام، وجملة دام صلة ما المصدرية ما مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه تقديره: مدة دوامهم فيها وهذا الظرف المقدر[1] بدل من ﴿أَبَدًا﴾ بدل بعض من كل لأنَّ الأبد يعم الزمن المستقبل كله، ودوام الجبارين فيها بعضه،

---

(١) الفتوحات.

وظاهر عبارة الزمخشري يحتمل أن يكون بدل كل من كل، أو عطف بيان، والعطف قد يقع في النكرتين، على خلاف فيه تقدم. ا هـ. «سمين». ﴿فَٱذْهَبْ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿اذهب﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على موسى ﴿أَنتَ﴾ تأكيد لضمير الفاعل المستتر ﴿وَرَبُّكَ﴾ معطوف على ضمير الفاعل المستتر في ﴿اذهب﴾ والجملة معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ﴾ على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه مرفوع عطفاً على العامل المستتر في ﴿اذهب﴾ وجاز ذلك للتأكيد بالضمير على حد قوله:

وَإِنْ عَلَىٰ ضَمِيْرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ   عَطَفْتَ فَافْصِلْ بِالضَّمِيْرِ الْمُنْفَصِلْ

الثاني: أنَّه مرفوع بفعل محذوف؛ أي: وليذهب ربك، ويكون من عطف الجمل، وقد تقدم لي نقل هذا القول، والرد عليه، ومخالفته لنص سيبويه عند قوله: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

الثالث: أنَّه مبتدأ والخبر محذوف، والواو واو الحال.

والرابع: أن الواو للعطف، وما بعدها مبتدأ محذوف الخبر أيضاً، ولا محل لهذه الجملة من الإعراب لكونها دعاء والتقدير: وربك يعينك. ا هـ. «سمين».

﴿فَقَـٰتِلَآ﴾ الفاء: عاطفة. ﴿قاتلا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَٱذْهَبْ﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿هَـٰهُنَا﴾ ها: حرف تنبيه. هنا: ظرف مكان في محل النصب على الظرفية، مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بـ﴿قَـٰعِدُونَ﴾. ﴿قَـٰعِدُونَ﴾ خبر إنَّ، وجملة إن مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ (٢٥)﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة.

﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾ إلى ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿رَبِّ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِنِّي﴾ ناصب واسمه ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿أَمۡلِكُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿موسى﴾، والجملة جواب النداء في محل خبر ﴿إِنَّ﴾ إنّ واسمها وخبرها في محل نصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿نَفۡسِي﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأَخِيۖ﴾ معطوف على ﴿نَفۡسِي﴾. ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿افرق﴾: فعل دعاء وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مفرعة معطوفة على جملة ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾. ﴿بَيۡنَنَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿افرق﴾. ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على ﴿بَيۡنَنَا﴾. ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ صفة للقوم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿فَإِنَّهَا﴾: (الفاء): استئنافية. (إنَّ): حرف نصب. و(الهاء): اسمها. ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾: خبرها. ﴿عَلَيۡهِمۡۛ﴾ متعلق بـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾، وجملة (إنَّ) في محل النصب مقول (قال). ﴿أَرۡبَعِينَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية وعلامة نصبه الياء. ﴿سَنَةٗۛ﴾ تمييز لـ﴿أَرۡبَعِينَ﴾، والظرف متعلق بـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾. ﴿يَتِيهُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلق به، والجملة في محل النصب حال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيۡهِمۡۛ﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ ظرف لقوله: ﴿يَتِيهُونَ﴾ فيكون التحريم على هذا غير مؤقت بهذه المدة، أو هو ظرف لـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ فيكون التحريم مقيداً بهذه المدة. والأول: تفسير كثير من السلف. وأمَّا الوجه الثاني: فيدل عليه ما روي أنَّ موسى عليه السلام سار بعده بمن بقي منهم، ففتح أريحاء وأقام فيها ما شاء الله، ثم قبض. اهـ

«كرخي». ﴿فَلَا تَأْسَ﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿لا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَأْسَ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة ـ وهو الألف ـ والفتحة قبلها دليل عليها، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على موسى والجملة الفعلية معطوفة مفرعة على جملة (إنَّ) في محل النصب على كونها مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَأْسَ﴾. ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ الملوك: جمع مَلِك بفتح أوله وكسر ثانيه، والملك صاحب الملك، وصاحب الأمر، وصاحب السلطة على أمة أو قبيلة أو بلاد. ومعنى كونهم ملوكاً: أنَّهم ملكوا أمرهم بعد أن كانوا مملوكين لفرعون. ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ والأدبار جمع دبر بفتح أوله وسكون ثانيه، والدبر خلف الشيء ووراءه، تقول: جعل كلامي دبر أذنيه؛ أي: تغافل عنه ولم يلتفت إليه. والمعنى هنا: لا ترجعوا وراءكم هاربين من الأعداء ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ جمع سلامة لجبار قال[1] الزجاج: الجبار من الآدميين العاتي، وهو البالغ النهاية في الفساد أو الكفر، أو الذي يجبر الناس على ما يريد، وأصله على هذا من الإجبار، وهو الإكراه؛ فإنَّه يجبر غيره على ما يريده، يقال: أجبره إذا أكرهه، وقيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا: المصلح لأمر نفسه، ثم استعمل في كل من جر إلى نفسه نفعاً بحق أو باطل. قال الفراء: لم أسمع فعالاً من أفعل إلا في حرفين: جبار من أجبر، ودراك من أدرك. وقال أبو حيان: والجبار فعال من الجبر، كأنه لقوته وبطشه يجبر الناس على ما يختار، والجبارة النخلة الطويلة العالية التي لا تنال بيد، واسم الجنس جبار. والمراد هنا: أنهم قوم عظام الأجسام، طوال متعاظمون، قيل: هم قوم من بقية قوم عاد، وقيل: هم من ولد عيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وقيل: هم من الروم، ويقال: إنَّ منهم عوج بن عنق المشهور المفرط، وما ذكره بعض المفسرين هنا والقصاصون في

(١) الشوكاني.

قصة عوج بن عنق من الأكاذيب الباطلة، والخرافات الفاشية، مما ينبغي أن يجرد الكتاب منها، وأن نضرب عنها صفحاً.

﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من التيه، وهو في اللغة الحيرة، يقال: منه تاه يتيه تيهاً، من باب باع، أو تاه يتوه توهاً من باب قال: إذا تحير في أمره. والأرض[1] التوهاء: التي لا يهتدىٰ فيها وأرض تيه، وقال ابن عطية: التيه لذهاب في الأرض إلى غير مقصود.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ والأسى[2]: الحزن، يقال: أسى من باب جوى بكسر العين، يأسى أسى بفتحها، ولام الكلمة يحتمل أن تكون من واو، وهو الظاهر لقولهم: رجل أسوان بزنة سكران؛ أي: كثير الحزن، ويقال في تثنيته: أسوان، ويحتمل أن تكون من ياء، فقد حكى رجل أسيان؛ أي: كثير الحزن، فتثنيته على هذا أسيان. ا هـ «سمين». وفي «المصباح» أسي أسى من باب تعب إذا حزن، فهو أسي مثل حزين، وأسوت بين القوم أصلحت، وآسيته بنفسي بالمد سويته، ويجوز إبدال الهمزة واواً في لغة اليمن فيقال: وسيته انتهى. وفي «المختار» وأسا على مصيبته من باب عدا؛ أي: حزن، وقد أسى له؛ أي: حزن له انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبلاغة والبديع:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، وفي قوله: ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿مُّلُوكًا﴾؛ لأن المعنى: جعلكم كالملوك في الاستقلال بأمر أنفسكم.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ لأنه كناية عن الهرب، وفي

---

(١) البحر المحيط. (٢) الجمل.

قوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لأنه كناية عدم التقدم للحرب، وفي قوله: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ لأنه كناية عن الفصل والحكم بينهم.

ومنها: التنبيه والإشارة في قوله: ﴿هَٰهُنَا﴾.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾؛ لأنها جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن المحرم عليهم دخولُ الأرض المقدسة لا ذاتها.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأنه بمعنى قدَّر الله لكم.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾، وفي قوله: ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، وفي قوله: ﴿فَإِن يَخْرُجُوا﴾.

ومنها: التأكيد في قوله: ﴿مَّا دَامُوا فِيهَا﴾؛ لأنه مؤكِّد لقوله: ﴿أَبَدًا﴾؛ لأنه على تقدير الظرف؛ لأن المعنى: لن ندخُلَها أبداً مدَّة دوامهم فيها.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ
الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا
بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ
فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ
مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ
يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ
أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ
يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(٣٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ
مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا
هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]، هي: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تمرد بني إسرائيل وعصيانهم أمر الله تعالى في النهوض لقتال الجبارين.. ذكر قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله، وأنهم اقتفوا في العصيان أول عاصٍ لله تعالى، وأنهم

(١) البحر المحيط.

انتهوا في خور الطبيعة وهلع النفوس والجبن والفزع إلى غاية بحيث قالوا لنبيهم الذي ظهرت على يديه خوارق عظيمة، وقد أخبرهم أن الله كتب لهم الأرض المقدسة: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ وانتهى قابيل إلى طرف نقيض منهم من الجسارة، والعتو، وقوة النفس، وعدم المبالاة، بأن أقدم على أعظم الأمور وأكبر المعاصي بعد الشرك وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها؛ بحيث كان أول من سن القتل، وكان عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، فاشتبهت القصتان من حيث الجبن عن القتل والإقدام عليه، ومن حيث المعصية بهما.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حسد اليهود للنبي ﷺ، وإعراضهم عن دعوته مع وضوح البراهين الدالة على صدقه، وكثرة الآيات المثبتة لنبوته، حتى هم قوم منهم أنْ يبسطوا أيديهم لقتله، وقتل كبار أصحابه؛ كما ذكر ذلك في قوله: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.. ذكر هنا قصة ابني آدم بياناً لكون الحسد - الذي صرف اليهود عن الإيمان بالنبي ﷺ وحملهم على عداوته - عريقاً في الآدميين وأثراً من آثار سلفهم، كان لهؤلاء منه الحظ الأوفر. فلا تعجب من حالهم بعد هذا؛ فإن لهم أشباهاً ونظائر في البشر كابني آدم، وقد حدث بينهم من أجل التحاسد سفك الدماء، وقتل الأخ أخاه، وبذر تلك البذور السيئة في بني آدم إلى قيام الساعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة[2]؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآية قبلها تغليظ الإثم في قتل النفس بغير نفس ولافسادٍ في الأرض.. أتبعه ببيان الفساد في الأرض الذي يوجب القتل؛ فإن بعض ما يكون فساداً في الأرض لا يوجب القتل، ولا خلاف بين أهل العلم أنَّ حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

أهل الإسلام.

وعبارة المراغي هنا: مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لمَّا بين فظاعة جرم القتل، وشدد في تبعة القاتل، فذكر أن من قتل نفساً بغير حق فكأنَّما قتل الناس جميعاً.. ذكر هنا العقاب الذي يؤخذ به المفسدون في الأرض؛ حتى لا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر فيما سلف أن اليهود قد هموا ببسط أيديهم إلى الرسول حسداً منهم له، وغروراً بدينهم، واعتقاداً منهم أنَّهم أبناء الله وأحباؤه.. أمر المؤمنين بأنْ يتقوه، ويبتغوا إليه الوسيلة بالعمل الصالح، ولا يفتتنوا بدينهم كما فعل أهل الكتاب، ثم أكد ذلك فبين أنَّ الفوز والفلاح لا يكون إلا بهما، فمن لم ينلهما لاقى من الأهوال يوم القيامة ما لا يستطاع وصفه.

وقال أبو حيان:[2] مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر جزاء من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً من العقوبات الأربع، والعذاب العظيم المعد لهم في الآخرة.. أمر المؤمنين بتقوى الله وابتغاء القربات إليه؛ فإن ذلك هو المنجي من المحاربة والعذاب المعد للمحاربين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما أرشد المؤمنين إلى معاقد الخير ومفاتح السعادة، وذكر فوزهم في الآخرة وما آلوا إليه من الفلاح.. شرح حال الكفار، وعاقبة كفرهم، وما أعد لهم من العذاب.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا...﴾ الآيتين، وقد ذهب أكثر الأئمة[1] إلى أنَّ الآيتين نزلتا في عكل وعرينة؛ فقد روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحابُ السنن عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ ناساً من عكل وعرينة قدموا على النبي ﷺ، وتكلموا بالإسلام، فاستوخموا المدينة - وجدوها رديئة المناخ - فأمر لهم النبي ﷺ بذود - بضع من الإبل - وراعٍ، وأمرهم أنْ يخرجوا فيشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبيّ ﷺ، واستاقوا الذود، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم - كحلوها بمسامير الحديد المحماة - وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم، زاد البخاري: أن قتادة الذي روى الحديث عن أنس قال: بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك (كان يحث على الصدقة، وينهى عن المثلة). وروى أبو داودَ والنسائي عن أبي الزناد أنَّ رسول الله ﷺ لما قطع الذين سرقوا لقاحه، وسمل أعينهم بالنار، عاتبه الله تعالى في ذلك فأنزل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: واقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم ﴿نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ عليه السلام؛ أي: خبر ولدي آدم من صلبه على الراجح عند المفسرين قابيل وهو أكبرهما وهابيل وهو أصغرهما تلاوةً متلبسة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ والصدق، مظهرة وكاشفة له، ومبينة لغرائز البشر وطبائعهم، وهي أنَّهم جبلوا على التباين والاختلاف الذي يفضي إلى التحاسد، والبغي، والقتل، ليعلموا الحكمة فيما شرعه الله في عقاب البغاة من الأفراد والجماعات، ويفقهوا أن بغي اليهود على الرسول والمؤمنين ليس من دينهم في شيء، وإنَّما ذاك للحسد

---

(١) المراغي.

والبغضاء، فما مثلهم إلا مثل ابني آدم؛ إذ حسد شرهما خيرهما، فبغى عليه فقتله، وكان مآله ما بينه الله سبحانه وتعالى في الآيات بعد. وهذه القصة دالة على أن كل ذي نعمة محسود، فلمَّا كانت نعم الله على سيدنا محمد ﷺ أعظم النعم، كان أهل الكتاب استخرجوا أنواع المكر في حقه ﷺ حسداً منهم، فكان ذكر هذه القصة تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾؛ أي: واتل عليهم قصتهما ليعتبروا بها حين قرب وقدم كل منهما إلى الله سبحانه وتعالى ﴿قُرْبَانًا﴾ وصدقة؛ بأمر أبيهما ـ وهو اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة. . ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ القربان ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل أصغرهما؛ أي: تقبل الله منه قربانه لتقواه، وإخلاصه، وطيب نفسه به ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ﴾ القربان ﴿مِنَ الْآخَرِ﴾ وهو قابيل أكبرهما أي لم يتقبل الله منه قربانه لعدم التقوى والإخلاص. ولم يبين الله سبحانه لنا كيف علما أنَّه تقبل من أحدهما دون الآخر، وربَّما كان ذلك بوحي من الله تعالى لأبيهما آدم عليه السلام. روي[1] عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما: أنَّ أحدهما كان صاحب حرث وزرع فقرب شر ما عنده وأرداه، غير طيبة به نفسه، وكان الآخر صاحب غنم وقرب أكرم غنمه، وأسمنها وأحسنها، طيبة به نفسه، كما روي عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تجيء النار من السماء لتأكله، ولا تأكل غير المقبول، وكل هذا من الأخبار الإسرائيلية التي ليس لها مستند يوثق.

والقرابين عند اليهود أنواع: منها المحرقات للتكفير عن الخطايا بذبح ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب، ومنها التقدمات من الدقيق والزيت والألبان، ومنها ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى، والقربان عند النصارى: ما يقدسه الكاهن من الخبز والخمر، فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة، والقربان عند المسلمين: اسم لذبائح النسك كالأضاحي وغيرها.

فأضمر الذي لم يتقبل منه القربان ـ وهو قابيل ـ لأخيه هابيل الحسد إلى أن

---

(١) المراغي.

أتى آدم مكة لزيارة البيت وغاب، فأتى قابيل لهابيل وهو في غنمه وقال؛ أي: قابيل لهابيل: والله لأقتلنك يا هابيل؛ أي: إن الذي لم يتقبل منه توعد أخاه وحلف ليقتلنه، فقال هابيل: ولم تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله تقبل قربانك ورد قرباني، وتريد أن تنكح أختي الجميلة وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس بأنك خير مني ويفتخر ولدك على ولدي. وقرأ زيد بن علي: ﴿لأقتلنْك﴾ بالنون الخفيفة. فأجابه الآخر الذي هو هابيل أحسن جواب ﴿فقال﴾: وما ذنبي الذي حملك على قتلي؟ فإن عدم قبول قربانك لعدم إخلاصك وتقواك لأنَّه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى القرابين، وسائر الأعمال الصالحة ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي ممن يتصف بتقوى الله، والخوف من عقابه باجتنابه الشرك، وسائر المعاصي كالرياء، والشح، واتباع الأهواء.

وخلاصة جوابه: إني لم أذنب إليك ذنباً تقتلني به، فإن كان الله لم يتقبل قربانك.. فحاسب نفسك لتعرف سبب ذلك؛ فإن الله إنما يتقبل من المتقين فاحمل نفسك على تقوى الله، والإخلاص له في العمل، ثم تقرب إليه بالطيبات يتقبل منك. قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب». وفي هذا من العبرة ما كان ينبغي أن يتعظ به المراؤون الذين يبتغون بما يتصدقون به الصيت ـ الذكر الحسن ـ واجتلاب الثناء من الناس، وحسن الأحدوثة.

ثم بين الله سبحانه وتعالى ما يجب للناس من احترام الدماء، وحفظ الأنفس، ولا سيما بين الأخوة فقال إخباراً عن هابيل: والله ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ ومددت ﴿إلي يدك لـ﴾ ـكي ﴿تقتلني﴾ وتباشر قتلي حسبما أوعدتني ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ وماد ﴿يَدِىَ إِلَيْكَ﴾ يا قابيل ﴿لـ﴾ ـكي ﴿أقتلك﴾ وأباشر قتلك؛ أي: إن مددت يدك لتقتلني، فما أنا بالمجازي لك على السيئة بسيئة مثلها، فذاك لا يتفق مع شمائلي، وصفاتي، وأخلاقي؛ إذ لست ممن يتصف بهذه الصفة المنكرة التي تنافي تقوى الله تعالى والخوف من عذابه. ثم بين علة امتناعه عن قتله فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى وأخشى ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ومالك المخلوقات أن

يعاقبني إن بسطت يدي إليك لأقتلك؛ أي: إنِّي أخاف الله، وأخشى أن يراني باسطاً يدي إلى الإجرام وسفك الدماء بغير حق، وهو رب العالمين الذي يغذيهم بنعمه، ويربيهم بفضله، وإحسانه، فالاعتداء على أرواحهم أكبر مفسدة لهذه التربية، ولا شك أن هذا الجواب يتضمن أبلغ الموعظة والاستعطاف لأخيه العازم على الجناية، وليس في الكلام ما يدل على عدم الدفاع ألبتة؛ ولكن فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل، وقد روى الشيخان وأحمد وغيرهم قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فقتل أحدهما صاحبه.. فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

ثم قفى على عظته البالغة، ونصائحه النافعة، بالتذكير بعذاب الآخرة من قبل أنَّ الوعظ لا يؤثر في كل نفس فقال: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ﴾ وأقصد بالابتعاد من مقابلة الجريمة بمثلها. وقرىء: ﴿أني أريد﴾ كما هو صح - بفتح الهمزة - بمعنى كيف أريد. ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ وترجع يا قابيل ﴿بِإِثْمِى﴾؛ أي: بإثم قتلك إياي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي كان منك قبل قتلي؛ أي: وإثمك الخاص بك، الذي كان من آثاره عدم قبول قربانك. وروي هذا عن ابن عباس. وقيل:(١) إن المراد أنَّ القاتل يحمل في الآخرة إثم من قتله، إنْ كان له آثام؛ لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق العباد لا يغفر الله منها شيئاً حتى يأخذ لكل ذي حق حقه، فيعطي المظلوم من حسنات الظالم ما يساوي حقه إنْ كانت له حسنات توازي ذلك، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إنْ كان له آثام وأوزار، وما نقص من هذا أو ذاك، يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار.

﴿فَتَكُونَ﴾؛ أي: فتصير سبب ما حملت من الإثمين ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ وأهلها في الآخرة جزاء ظلمك ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: عذاب النار ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: عقاب من تعدى، وعصى أمر الله بقتل أخيه، وبسائر المعاصي. وقيل:

(١) المراغي.

المعنى وكينونتك[1] من أصحاب النار جزاؤك؛ لأنّك من جنس الظالمين؛ لأنَّك ظالم في قتلي.

وقد سلك في عظته وجوهاً تأخذ بمجامع اللب، ويرعوي لها فؤاد المنصف، فقد تبرأ من كونه سبباً في حرمانه من تقبل القربان؛ لأن سبب التقبل عند الله هو التقوىٰ، ثم انتقل إلى تذكيره بما يجب من خوف الله، ثم إلى تذكيره بأن المعتدي يحمل إثم نفسه، وإثم من اعتدى عليه، ثم إلى تذكيره بعذاب النار لأنَّها مثوى الظالمين؛ ثم أبان[2] سبحانه وتعالى أنَّ المواعظ لم تجد فيه فتيلاً ولا قطميراً، فماذا تغني الزواجر والعظات في نفس الحاسد الظالم؟ فقال: ﴿فَطَوَّعَتۡ﴾ وزينت ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لقابيل ﴿نَفۡسُهُۥ﴾ الأمارة بالسوء، وسهلت عليه ﴿قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ هابيل ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾؛ أي: أنَّه كان يهاب قتل أخيه، وتجبن فطرته دونه، وما زالت نفسه الأمارة تشجعه عليه حتى تجرأ وقتله عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر في العاقبة، والمشاهد بالاختبار من أحوال الناس أن من تحدثه نفسه بالقتل يجد من نفسه صارفاً، أو عدة صوارف تنهاه عن القتل، حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح الفعل على الترك فحينئذ يقتل إنْ قدر.

قال ابن جريج[3]: لما قصد قابيل قتل هابيل لم يدرِ كيف يقتله، فتمثل له إبليس وقد أخذ طيراً، فوضع رأسه على حجر، ثم رضخه بحجر آخر، وقابيل ينظر إليه، فعلم منه القتل، فوضع قابيل رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم صابر، وقيل: بل اغتاله وهو نائم فقتله. واختلف في موضع قتله، فقال ابن عباس.. على جبل نور وقيل: على عقبة حراء، وقيل: بالبصرة عند مسجدها الأعظم، وكان عمر هابيل يوم قتل عشرين سنة، ولكن هذا الكلام كله من الإسرائيليات التي لا مستند لها يوثق به. وقد تكلم[4] المفسرون في أشياء من كيفية قتله، وعمره حين قتل، ولهم في ذلك اختلاف، ولم تتعرض الآية لشيء

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراح.
(٤) البحر المحيط.

من ذلك. وقرأ الحسن وزيد بن علي والجراح والحسن بن عمران وأبو واقد: ﴿فطاوعته﴾ على أن فاعل بمعنى فعل، ﴿فَأَصْبَحَ﴾؛ أي: صار قابيل بقتل أخيه هابيل ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا؛ لأنه أسخط والديه، وبقي مذموماً إلى يوم القيامة؛ ولأن له عقاباً عظيماً في الآخرة؛ أي: كان من الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة، فهو في الدنيا قد قتل أبر الناس به، وهو الأخ التقي الصالح، وخسر في الآخرة؛ لأنَّه لم يصر أهلاً لنعيمها الذي أعد للمتقين.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنَّه أول من سن القتل». متفق عليه.

قال أصحاب الأخبار[1]: لما قتل قابيل هابيل تركه بالعراء ـ الفضاء الذي لا يستتر فيه شيء ـ ولم يدر ما يصنع به؛ لأنَّه أول ميت من بني آدم على وجه الأرض، فقصدته السباع لتأكله، فحمله قابيل على ظهره في جراب أربعين يوماً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سنة حتى أروح وأنتن، فأراد الله أن يري قابيل سنته في موتى بني آدم في الدفن، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه حفيرة، ثم ألقاه فيها، وواراه بالتراب، وقابيل ينظر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وهيج وأظهر له ﴿غُرَابًا يَبْحَثُ﴾ ويحفر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حفيرة بمنقاره ورجليه بعد قتل صاحبه، ثم ألقاه فيها، وأثار التراب عليه، فتعلم قابيل ذلك من الغراب، واللام في قوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ إمَّا[2] متعلقة بـ﴿بعث﴾ حتماً والضمير المستكن فيه عائد إلى الله تعالى؛ أي: بعث الله سبحانه وتعالى الغراب ليري الله سبحانه القاتل قابيل ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى﴾ ويستر ذلك القاتل ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ أي: جيفة أخيه المقتول، أو متعلقة بـ﴿يبحث﴾، أو بـ﴿بعث﴾، والضمير راجع للغراب؛ أي: غراباً يبحث في الأرض ليري ذلك الغراب القاتل كيف يواري سوأة أخيه، و﴿كيف﴾ حال من ضمير يواري العائد

(١) الخازن. (٢) المراح.

إلى قابيل، كالضميرين البارزين، وهو معمول ليواري، وجملة الاستفهام معلقة للرؤية البصرية، أو العرفانية المتعدية لمفعول واحد قبل تعديتها بهمزة النقل وبعده لاثنين، وحينئذ فـ﴿كيف﴾ في محل المفعول الثاني سادة مسده، والمراد بالسوأة الجسد لقبحه بعد موته.

وفي الآية إيماء إلى أنَّ الإنسان قد يستفيد من تجارب ما سواه، ولمَّا كان[1] الإنسان في أعماله موكولاً إلى كسبه واختياره، وكان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم، لم يعرف القاتل كيف يواري جثة أخيه المقتول الذي يسؤوه أن يراها بارزة للعيان، وفي ذلك دلالة على أن الإنسان في نشأته الأولى كان ساذجاً قليل المعرفة، لكن لما فيه من الاستعداد والعقل، كان يستفيد من كل شيء علماً، واختباراً، وتنمية لمعارفه وعلومه، وقد أعلمنا الله سبحانه وتعالى أنَّ القاتل تعلم دفن أخيه من الغراب، فإنَّه تعالى بعث غراباً إلى ذلك المكان الذي هو فيه، فبحث في الأرض؛ أي: حفر برجليه فيها يفتش عن شيء كالطعام ونحوه، فأحدث حفرة في الأرض، فلما رآها القاتل - وقد كان متحيراً في موارة أخيه - زالت الحيرة عنه، واهتدى إلى دفنه في حفرة مثلها.

وقوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾؛ أي: أنَّه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن، وحين رأى القاتل الغراب يبحث في الأرض تعلم منه سنة الدفن، وظهر له جهله، وضعفه، كما أشار إلى ذلك سبحانه حاكياً عنه: ﴿قَالَ﴾: قابيل ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾؛ أي: يا هلكتىٰ أحضري إلي لأتعجب منك، فهذا أوانك - وهي كلمة جزع[2] وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم - والويل والويلة الهلكة والاستفهام في قوله: ﴿أَعَجَزۡتُ﴾ استفهام[3] تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب؛ أي: يا ويلتىٰ هل ضعفت ﴿أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ الذي وارى الغراب الآخر ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ وأستر ﴿سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ أي: جيفته وعورته عن الأعين

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

(٣) أبو السعود.

﴿فَأَصۡبَحَ﴾ قابيل ﴿مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ على حمله لهابيل على ظهره سنة؛ لأنَّه لم يعلم الدفن إلاّ من الغراب، وعلى قتله؛ لأنَّه لم ينتفع بقتله، ولأنه سخط عليه بسببه أبواه وإخوته، فكان ندمه لأجل هذه الأسباب، لا لكونه معصية، وعلى استخفافه بهابيل بعد قتله لتركه في العراء؛ أي: الفضاء، فلما رأى أنَّ الغراب دفن غراباً ميتاً.. ندم على قساوة قلبه، وقال: هذا أخي لحمه مختلط بلحمي، ودمه مختلط بدمي، فإذا ظهرت الشفقة من الغراب على غراب، ولم تظهر مني على أخي.. كنت دون الغراب في الرحمة والأخلاق الحميدة، فكان ندمه لهذه الأسباب، لا لأجل الخوف من الله تعالى، فلا ينفعه ذلك الندم. وقيل: قبل[1] هذه الجملة جملة محذوفة تقديرها: فوارى سوأة أخيه، ذكره أبو حيان.

والمعنى: قال القاتل[2]: وافضيحتي أقبلي فقد آن الأوان لمجيئك، فهل بلغ من عجزي أن كنت دون الغراب علماً وتصرفاً، والندم الذي أظهره من الأمور التي تعرض لكل من يفعل شيئاً، ثم يتبين له خطأ فعله، وسوء عاقبته، والندم الذي يكون توبةً هو ما يصدر من الشخص خوفاً من الله تعالى، وحسرة على تعدي حدوده، وهو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «الندم توبة». رواه أحمد والبخاري والحاكم والبيهقي.

فصل في ذكر قصة القربان وسببه وقصة قتل قابيل هابيل

ذكر أهل العلم بالأخبار والسير: أن حواء كانت تلد لآدم في كل بطن غلاماً وجارية، فكان جميع ما ولدته أربعين ولداً في عشرين بطناً، أولهم قابيل وتوأمته إقليما، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث، ثم بارك الله تعالى في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً. واختلفوا في مولد قابيل وهابيل، فقال بعضهم: غشى أدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمئة سنة، فولدت له قابيل وتوأمته إقليما في بطن، ثم هابيل وتوأمته لبودا في بطن. وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) المراغي.

كان يغشى حواء في الجنة قبل أنْ يصيب الخطيئة، فحملت بقابيل وأخته، فلم تجد عليهما وحماً، ولا وصباً، ولا طلقاً، ولم تر دماً وقت الولادة، فلما هبطا إلى الأرض تغشاها، فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الوحم، والوصب، والطلق، والدم، وكان إذا كبر أولاده.. زوج غلام هذا البطن جارية بطن أخرى، وكان الرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التي ولدت معه؛ لأنَّه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم، فكبر قابيل وأخوه هابيل، وكان بينهما سنتان، فلمَّا بلغوا أمر الله آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل، ويزوج هابيل إقليما أخت قابيل، وكانت إقليما أحسن وأجمل من لبودا، فذكر آدم ذلك لهما فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: هي أختي وأنا أحق بها، ونحن من أولاد الجنة، وهما من أولاد الأرض. فقال أبوه آدم: إنَّها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك، وقال: إن الله لم يأمرك بهذا، وإنما هو من رأيك، فقال لهما آدم: قربا لله قرباناً، فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها ـ وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار بيضاء فأكلتها، وإنْ لم تكن مقبولة لم تنزل النار بل تأكلها الطير والسباع ـ فخرجا من عند آدم ليقربا بالقربان، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب صبرة من طعام رديء، وأضمر في نفسه لا أبالي أتقبل مني أم لا، لا ليتزوج أختي أحد غيري، وكان هابيل صاحب غنم، فعمد إلى أحسن كبش في غنمه فقربه، وأضمر في نفسه رضا الله، فوضعا قربانهما على جبل، ثم دعا آدم، فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل، وقيل: بل رفع إلى الجنة فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام، قاله سعيد بن جبير وغيره. اهـ «خازن» مع بعض زيادات من «القرطبي».

قال المطلب بن عبد الله بن حنطب[1]: لما قتل ابن آدم أخاه.. رجفت الأرض بمن عليها سبعة أيام، وشربت دم المقتول كما تشرب الماء، فناداه الله تعالى: يا قابيل أين أخوك هابيل؟ فقال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً، فقال الله تعالى: إن دم أخيك ليناديني من الأرض، فلم قتلت أخاك؟ فقال: أين دمه إن قتلته؟ فحرم

(١) الخازن.

الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دماً بعده أبداً.

ويروى عن ابن عباس قال: لما قتل قابيل هابيل، كان آدم بمكة لزيارة البيت، وكان أولاده بالهند، فاشتاك الشجر - أي ظهر له شوك - وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وأغبرت الأرض، فقال: قد حدث في الأرض حدث، فأتى الهند عند أولاده، فوجد قابيل قد قتل أخاه هابيل. وقيل: لما رجع آدم من مكة سأل قابيل عن أخيه؟ فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلته، ولذلك اسود جلدك. وقيل: أن آدم مكث بعد قتل هابيل مئة سنة لا يضحك، وأنه رثاه بشعر فقال:

تَغَيَّرَتِ ٱلْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ ٱلأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيْحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِيْ طَعْمٍ وَلَوْنٍ ... وَقَلَّ بَشَاشَةُ ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيْحِ

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من قال: إن آدم قال شعراً فقد كذب، وإن محمداً ﷺ والأنبياء كلهم سواء، ولكن لما قتل هابيل رثاه آدم، وهو سرياني، فلمَّا قال آدم مرثيَّته، قال لشيث: يا بني أنت وصي، احفظ هذا الكلام ليتوارث فيرثى عليه، فلم يزل ينتقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية والسريانية، وهو أول من خط العربية، وكان يقول الشعر، فنظر في المرثية، فرد المقدم إلى المؤخر، والمؤخر إلى المقدم، فوزنه شعراً، وزاد فيه أبياتاً منها:

وَمَالِيْ لاَ أَجُوْدُ بِسَكْبِ دَمْعٍ ... وَهَابِيْلٌ تَضَمَّنَهُ ٱلضَّرِيْحُ
أَرَىٰ طُوْلَ ٱلْحَيَاةِ عَلَيَّ غَمّاً ... فَهَلْ أَنَا مِنْ حَيَاتِيْ مُسْتَرِيْحُ

قال الزمخشري: ويروى أنَّه رثاه بشعر، وهو كذب بحت. وقال الإمام الفخر الرازي: ولقد صدق صاحب «الكشاف» فيما قال. قال أهل الأخبار: فلما مضى من عمر آدم مئة وثلاثون سنة - وذلك بعد قتل هابيل بخمسين سنة - ولدت له حواء شيثاً. - وتفسيره هبة الله - يعني أنَّه خلف من هابيل، وعلمه الله ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادة الخالق في كل ساعة، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وصار وصي آدم وولي عهده، وأما قابيل فقيل له: اذهب طريداً شريداً فزعاً

مرعوباً، لا تأمن من تراه، فأخذ بيد أخته إقليما، وهرب إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليس، وقال له: إنَّما أكلت قربان هابيل لأنَّه كان يعبدها، فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك، فبنى بيت النار، فهو أول من عبد النار، وكان قابيل لا يمر به أحد إلا رماه بالحجارة، فأقبل ابن لقابيل أعمى، ومعه ابنه، فقال ابن الأعمى لأبيه: هذا أبوك قابيل، فرماه بحجارة فقتله، فقال ابن الأعمى لأبيه: قتلت أباك قابيل! فرفع الأعمى يده ولطم ابنه فمات، فقال الأعمى: ويل لي! قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي. فلما مات قابيل عقلت إحدى رجليه بفخذه، وعلق بها، فهو معلق بها إلى يوم القيامة، ووجهه إلى الشمس حيث دارت، وعليه حظيرة من نار في الصيف، وحظيرة من ثلج في الشتاء، فهو يعذب بذلك إلى يوم القيامة. قالوا: واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من الطبول، والزمور، والعيدان، والطنابير، وانهمكوا في اللهو، وشرب الخمر، وعبادة النار، والفواحش، حتى أغرقهم الله تعالى جميعاً بالطوفان في زمن نوح عليه السلام، فلم يبق من ذرية قابيل أحد، وأبقى ذرية شيث ونسله إلى يوم القيامة. ا هـ. من «الخازن».

وهذا كله من الإسرائيليات التي لا أصل لها ننقلها ولا نصدقها ولا نكذبها، ولكن يستأنس بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ - بألف بعد التاء وهي بدل من ياء المتكلم - وأصله: يا ويلتي بالياء، وهي قراءة الحسن، وأمال حمزة والكسائي وأبو عمرو ألف ويلتي. وقرأ الجمهور: ﴿أَعَجَزۡتُ﴾ بفتح الجيم. وقرأ ابن مسعود والحسن وفياض بن غزوان وطلحة وسليمان بن علي بكسرها، وهي لغة شاذة؛ وإنما مشهور الكسر في قولهم: عجزت المرأة؛ إذا كبرت عجيزتها. وقرأ الجمهور: ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ بنصب الياء عطفاً على قوله: أن أكون؛ كأنه قال: أعجزت أنْ أواري سوأة أخي. وقرأ طلحة بن مصرف والفياض بن غزوان: ﴿فأواريْ﴾ بسكون الياء. فالأولى أن يكون على

(١) البحر المحيط.

القطع؛ أي: فأنا أواري سوأة أخي، فيكون أواري مرفوعاً.

وقرأ الزهري: ﴿سَوَة أخي﴾ بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى الواو، ولا يجوز قلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ لأن الحركة عارضة، كهي في سمول لغة في سموءل. وقرأ أبو حفص: ﴿سوة أخي﴾ بقلب الهمزة واواً وإدغام الواو فيه، كما قالوا في شيء: شيّ، وفي سيئة: سيَّة. قال الشاعر:

وَإِنْ رَأَوْا سَـيَّـةً طَـارُوا بِـهَـا فَـرَحَـاً   مِنِّيْ وَمَا عَـلِـمُـوْا مِنْ صَالِـحٍ دَفَـنُـوْا

وقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الجمهور على أنَّه متعلق بقوله كتبنا الآتي، فحينئذ هو كلام مستأنف لا يوقف عليه، فالوقف على قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ تام؛ أي:[1] من أجل ذلك المذكور من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام، وهي حصول خسارة الدين، والدنيا، وحصول الندم، والحسرة، والحزن في القلب.

ويروى عن نافع أنَّه كان يقف على اسم الإشارة، ويجعله من تمام الكلام الأول، وحينئذ الجار والمجرور متعلق بما قبله، واسم الإشارة عائد على ﴿قتل قابيل هابيل﴾. والمعنى: فأصبح قابيل من النادمين من أجل قتله هابيل وعدم موارته له التراب. وقرأ ابن القعقاع: ﴿مِن اجل ذلك﴾ بكسر الهمزة وحذفها، ونقل حركتها إلى الساكن قبلها، كما قرأ ورش ﴿منَ اجل﴾ بحذفها وفتحها ونقل الحركة إلى النون، وقرأ الجمهور بفتح الهمزة، والمعنى على مذهب الجمهور: من أجل جناية قابيل على هابيل، وبسبب جريمته ومعصيته ﴿كَتَبْنَا﴾؛ أي: أوجبنا وفرضنا في التوراة ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: أن الشأن والحال ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ واحدة من بني آدم ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ أي: بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أو بغير فساد يوجب إهدار الدم، من كفر أو زنا أو قطع طريق. والمعنى[2]: أن نبأ ابني آدم هو الذي تسبب عنه الكتب المذكور على بني إسرائيل، وعلى هذا جمهور المفسرين، وخص بني

---

(١) المراح.   (٢) الشوكاني.

والقيام بحق الفرد بمقدار ما قرر له في الشرع قيام بحق الجميع، وكثيراً ما يشير القرآن إلى وحدة الأمة ووجوب تكافلها، حتى إنه ليسند أعمال المتقدمين إلى المتأخرين، ويشير إلى أن جناية الإنسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم.

ثم ذكر أن بني إسرائيل غلاظ القلوب، مسرفون في القتل وفي غيره، مع كثرة مجيء الرسل إليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد جاءت بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم، المؤكدة لوجوب مراعاته، والمحافظة عليه، وببيان الأحكام والشرائع التي كتبنا عليهم، فلم تغن عن الكثير منهم شيئاً، إذ لم تهذب نفوسهم، ولم تطهر أخلاقهم، فكانوا بعد كل هذا التشديد عليهم في أمر القتل يسرفون فيه وفي سائر ضروب البغي والعدوان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾؛ أي: ثمَّ إنَّ كثيراً من بني إسرائيل ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعد مجيء الرسل، وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾؛ أي: لمجاوزون حد الحق، ومبالغون في إكثار القتل، لا يبالون بعظمته؛ فإنهم كانوا أشدّ الناس جراءةً على القتل، حتى كانوا يقتلون الأنبياء. وإنَّما[1] قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾.. لأنَّه تعالى علم أنَّ منهم من يؤمن بالله ورسوله وهم قليل منهم، وعبارة «البيضاوي» هنا: أي[2] بعدما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة، تأكيداً للأمر، وتجديداً للعهد، كي يتحاموا عنها، كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل، ولا يبالون به، وبهذا اتصلت الآية بما قبلها، والإسراف التباعد عن حدّ الاعتدال في الأمر.

والعبرة في قصة ابني آدم: أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر، ولا يزال هو أسّ المفاسد في المجتمع، فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه نسباً، أو جنساً، أو ديناً، فيبغي عليه ولو بما فيه ضرر له وللمحسود. والأمة التي تنشر بين أفرادها هذه الرذيلة، قلما تنجح وتتوجه همم أبنائها إلى ما يرقي شأنهم

(١) الخازن.
(٢) البيضاوي.

بين الأمم الأخرى، وقلما يتعاونون على ما فيه صلاحهم وتقدمهم في سائر مرافق الحياة، فيصبحون عبيداً بعد أن كانوا سادة، وأذلاء بعد أن كانوا في عزة وبلهنية من العيش، كما رأينا وجربنا ذلك في بعض الشعوب الذين عليهم الاستئمار كشعوب الأروميا في شرقي أفريقيا.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: إنَّما[1] جزاء الذين يخالفون أحكام الله، وأحكام رسوله، أو إنَّما مكافأة الذين يحاربون أولياء الله، وأولياء رسوله، وهم المسلمون ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾؛ أي: يعملون في الأرض عمل فساد، أو يسرعون في الأرض مفسدين بالمعاصي من القتل، وأخذ المال ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ واحداً بعد واحد إن قتلوا ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ ثلاثة أيام بعد القتل والصلاة عليهم. وقيل: يصلبون أحياءً، ثم يطعن بطنهم برمح حتى يموتوا إن جمعوا بين القتل وأخذ المال، وعبارة «المنهاج» في باب قاطع الطريق: فإن قتل وأخذ مالاً.. قتل ثمَّ صلب مكتفاً معترضاً على نحو خشبة ثلاثة أيام بلياليها وجوباً، ثم ينزل إن لم يخف تغيره قبلها، وإلا أنزل وقت التغير، وقيل: يبقى وجوباً حتى يتهرى ويسيل صديده تغليظاً عليه. وفي قول: يصلب حياً قليلاً، ثم ينزل فيقتل، والمراد بالقليل: أدنى زمن ينزجر به غيره عرفاً، انتهى مع بعض زيادات للرملي، و﴿أو﴾[2] لتقسيم عقوباتهم تقسيماً موزعاً على جناياتهم. قال ابن جريج: ﴿أو﴾ في جميع القرآن للتخيير إلا في هذه الآية. قال الشافعي رحمه الله: وبه أقول. اهـ. «كرخي». ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بمفصل الكف ﴿وَأَرۡجُلُهُم﴾ بمفصل القدم، حال كونها ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾؛ أي: مختلفة في القطع بأن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، والتشديد في ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ﴾: قراءة الجمهور، وهو للتكثير بالنسبة إلى الذين يوقع بهم الفعل، والتخفيف في ثلاثتها قراءة الحسن ومجاهد وابن محيصن، ذكره أبو حيان في «البحر» ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ﴾؛ أي: يطردوا ويخرجوا ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: من أرضهم التي يريدون الإقامة بها إلى مسافة قصر فما فوقها؛ لأنَّ المقصود من النفي

---

(١) المراح.
(٢) جمل.

الوحشة، والبعد عن الأهل والوطن. والظاهر أنَّ نفيه من الأرض هو إخراجه من الأرض التي حارب فيها. فإذا عين الإمام جهة فليس للمنفي طلب غيرها؛ أي: ينفوا من الأرض إن أخافوا السبل، فالقتل[1] لمن قتل فقط، والصلب لمن قتل وأخذ المال، والقطع لمن أخذ المال ولم يقتل، والنفي لمن أخاف فقط، قاله ابن عباس وعليه الشافعي.

وقال أبو حنيفة[2]: النفي من الأرض هو الحبس، وهو اختيار أكثر أهل اللغة، قالوا: والمحبوس قد يسمى منفياً من الأرض لأنَّه لا ينتفع بشيء من طيبات الدنيا ولذاتها، ولا يرى أحداً من أحبابه، فصار منفياً عن جميع اللذات والشهوات والطيبات، فكان كالمنفي في الحقيقة. قال الشاعر وهو مسجون:

خَرَجْنَا مِنَ ٱلدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَلَسْنَا مِنَ ٱلأَمْوَاتِ فِيْهَا وَلَا ٱلأَحْيَا
إِذَا جَاءَنَا ٱلسَّجَّانُ يَوْمَاً لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا وَقُلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ ٱلدُّنْيَا
وَتُعْجِبُنَا ٱلرُّؤْيَا يَحُلُّ حَدِيْثَنَا إِذَا نَحْنُ أَصْبَحْنَا ٱلْحَدِيْثَ عَنِ ٱلرُّؤْيَا

وقال الشافعي: هذا النفي محمول على وجهين:

الأول: أن هؤلاء المحاربين إذا قتلوا وأخذوا المال.. فالإمام إنْ أخذهم أقام عليهم الحدّ، وإنْ لم يأخذهم طلبهم أبداً، فكونهم خائفين من الإمام هاربين من بلد هو المراد من النفي.

والثاني: القوم الذين يحضرون الواقعة، ويكثرون جمع هؤلاء المحاربين، ويخيفون المسلمين، ولكنهم ما قتلوا وما أخذوا المال.. فإن الإمام يأخذهم، ويعزرهم، ويحبسهم، فالمراد بنفيهم من الأرض هو هذا الحبس لا غير.

وقد جعل الله[3] سبحانه وتعالى هذا النوع من العدوان محاربة الله ورسوله؛ لأنَّه اعتداء على الحق والعدل الذي أنزل الله على رسوله، ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه في حفظ الحقوق، كما قال تعالى في المصرّين على أكل

---

(١) جلالين.
(٢) المراح.
(٣) المراغي.

الربا: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة.. يعدوا محاربين لله والرسول، ويجب على الإمام الذي يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك، كما فعل أبو بكر بمانعي الزكاة حتى يفيئوا ويرجعوا إلى أمر الله تعالى، ومن رجع منهم في أي وقت يقبل منه، ويكف عنه، وقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾؛ أي: يسعون فيها سعي فساد؛ أي: مفسدين لما صلح من أمور الناس في نظم الاجتماع وأسباب المعاش. وجمهور العلماء على أن الآية نزلت في قطاع الطريق من المسلمين، كما تدل على ذلك حادثة العرنيين الذين خدعوا النبي ﷺ والمسلمين بإظهار الإسلام، حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل، والسلب.. عادوا إلى قومهم، وأظهروا شركهم معهم، وقد عاقبهم النبي ﷺ بمثل عقوبتهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ويشترط في المحاربين ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون معهم سلاح، وإلا كانوا غير محاربين.

الثاني: أن يكون ذلك في الصحراء، فإن فعلوا ذلك في البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثوري وإسحاق.

الثالث: أن يأتوا مجاهرة، ويأخذوا المال، فإن أخذوه خفية.. فهم سراق، وإن اختطفوه وهربوا.. فهم منتبهون لا قطع عليهم، وكذا إن خرج الواحد والإثنان على آخر قافلة، فاستلبوا منها شيئاً؛ لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم.. فهم قطاع طريق.

والجزاء الذي يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة: إما القتل، أو الصلب، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض، وفوض لأولي الأمر الاجتهاد في تقدير العقوبة بقدر الجريمة.

والحكمة في عدم التعيين والتفصيل: أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان، وضررها يختلف كذلك، فمنها القتل، ومنها السلب، ومنها هتك الأعراض، ومنها إهلاك الحرث والنسل؛ أي: قطع الشجر، وقلع الزرع، وقتل المواشي، والدواب، أو الجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد، فللإمام أن يقتلهم إن قتلوا، أو يصلبهم إنْ جمعوا بين أخذ المال والقتل، أو

يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إنْ اقتصروا على أخذ المال، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق.

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات، فالقتل العمد العدوان يوجب القتل، ويجوز لولي الأمر العفو وترك القصاص، فغلظ ذلك في قاطع الطريق، وصار القتل حتماً لا هوادة فيه، ولا يجوز العفو عنه، وأخذ المال يتعلق به قطع اليمنى في غير قاطع الطريق بقطع الطرفين، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال.. جمع في حقهم بين القتل والصلب؛ لأن بقاءهم مصلوبين في ممر الطرق يكون سبباً لاشتهار إيقاع هذه العقوبة، فيصير ذلك زاجراً لغيرهم عن الإقدام على مثل هذه المعصية، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة، وهي النفي من الأرض.

ثم بين آثار هذه العقوبة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور فيهم من القطع، والقتل، والصلب، والنفي. ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ أي: ذل وهوان وفضيحة للمحاربين المذكورين في الدنيا بين الناس ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد هو عذاب النار، وبقدر تأثير إفسادهم في تدنيس نفوسهم، وتدسيتها، وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام.

واستحقاق الأمرين إنما هو للكافر(١)، وأما المسلم: فإنَّه إذا أقيم عليه الحد في الدنيا.. سقطت عنه عقوبة الآخرة، فالآية محمولة على الكافر، أو إن فيها تقديراً في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ إلخ؛ أي: إذا لم تقم عليه الحدود المذكورة؛ لأنَّ(٢) المسلم إذا عوقب بجناية في الدنيا.. كانت عقوبته كفارة له، وإن لم يعاقب في الدنيا فهو في خطر المشيئة، إنْ شاء عذبه بجنايته ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، هذا مذهب أهل السنة. ففي(٣) «صحيح

---

(١) الجمل.

(٢) الخازن.

(٣) ابن كثير.

مسلم» عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: أنْ لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا يعضه؛ أي: يقذف بعضنا بعضاً، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله.. فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه).

وعن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

ثم استثنى ممن يستحق العقوبة من تاب فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ورجعوا من شركهم وحربهم لله ورسوله، ومن السعي في الأرض بالفساد ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أيها الولاة بالأخذ لهم، فلا سبيل لكم عليهم بشيء من العقوبات المذكورة في الآية المتقدمة. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿غَفُورٌ﴾ لهم لما فرط منهم من الشرك وغيره ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بقبول توبتهم.

والمعنى:[1] لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذي تقدم ذكره من قطعوا الطريق وعثوا في الأرض فساداً إلا من تابوا إلى الله، وأنابوا إليه من قبل أن يتمكن منهم الحاكم، ويقدر على عقوبتهم، فإن توبتهم حينئذ - وهم في قوة ومنعة - جديرة بأن تكون توبة خالصة لله، صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب، والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا، وإذاً فهم قد تركوا الإفساد، ومحاربة الله ورسوله، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة، بل يصير أمرهم لمغفرة الله ورحمته كما قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب في الدنيا والآخرة،

---

(١) المراغي.

ولكن تبقى حقوق العباد، فلمن سلبهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها، ولمن قتل منهم أحداً أن يطالبوه بدمه، وهم مخيرون بين القصاص والديه والعفو، فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عمن تاب، ولم يثبت أن أحداً تقاص التائب حقاً ولم يسمع له الحاكم.

وإذاً فتوبته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوبة إلى أربابها، فإذا رأى ولي الأمر إسقاط حق مالي عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة.. وجب أن يضمنه من بيت المال «وزارة المالية».

والخلاصة: أن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب المحاربين المفسدين في الأرض، الذين يعملون أعمالاً مخلة بالأمن على الأنفس، والأموال، والأعراض في بلاد الإسلام، معتصمين في ذلك بقوتهم، مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم، وهو أن يطاردهم الحكام ويتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم.. عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها، ومراعاة المصلحة العامة، ومن تاب قبل القدرة عليه.. لا يعاقب بما هنا من العقوبات حكمه حكم سائر المسلمين. والظاهر[1] من الاستثناء المذكور في الآية عدم الفرق بين الدماء والأموال، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه عمل الصحابة، وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة، والحق: هو القول الأول، وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط بها العقوبة المذكورة في الآية كما يدل عليه قيد ﴿قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا عقاب الله وسخطه بترك المنهيات ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: واطلبوا الوسيلة، والقرب إليه، واستحقاق مثوبته، ومرضاته بفعل المأمورات ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ أي: في سبيل عبوديته، وطريق الإخلاص في معرفته وخدمته؛ أي: جاهدوا أنفسكم بكفها عن أهوائها، وحملها

---

(١) الشوكاني.

على النصفة والعدل في جميع الأحوال، وجاهدوا أعدائي، وأعداءكم، وأتعبوا أنفسكم في قتالهم ومنعهم من مقاومة الدعوة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتظفرون بنيل مرضاته، وبالفوز بكراماته؛ أي: افعلوا كل هذا المذكور، رجاء الفوز والفلاح والسعادة في المعاش والمعاد والخلود في جنات النعيم.

واعلم أنَّ[1] مجامع التكليف محصورة في نوعين: **أحدهما**: ترك المنهيات، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ **وثانيهما**: فعل المأمورات وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ والمراد بطلب الوسيلة والقرب إليه تعالى هو تحصيل مرضاته، وذلك بالعبادات والطاعات. ولما أمر الله تعالى بترك ما لا ينبغي وبفعل ما ينبغي، وكان الانقياد لذلك من أشق الأشياء على النفس، وأشدها ثقلاً على الطبع، لأن النفس لا تدعو إلا إلى المشتهيات واللذات المحسوسة.. أردف ذلك التكليف بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾؛ أي: بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة. ثم إن من يعبد الله تعالى فريقان: منهم من يعبده لا لغرض سوى الله، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ ومنهم من يعبده للثواب مثلاً، وهو المشار إليه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بالمحبوب، وتخلصون من المكروه.

ثم أكد ما سبق من أن مدار الفوز والفلاح تقوى الله وتزكية النفس، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: إن الذين جحدوا ربوبية ربهم، وعبدوا غيره من عجل أو صنم أو وثن وماتوا وهم على هذه الحال قبل التوبة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ أي: لو ثبت أن لكل واحد منهم ما في الأرض من أصناف أموالها، وذخائرها وسائر منافعها جميعاً ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾؛ أي: وضعفه معه ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾؛ أي: ليجعلوا كلاً منهما فدية لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: من تعذيب الله إياهم على تركهم أمره، وعبادتهم غيره، فافتدوا بذلك كله من العذاب الواقع يوم القيامة؛ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضاً

---

(١) المراح.

من عذابهم وعقابهم، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أيسر من هذا، وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي، ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة، فأبيت إلا الشرك». هذا لفظ مسلم، وفي رواية للبخاري قال: «يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: لقد كنت سألت ما هو أيسر من ذلك؛ أن لا تشرك بي». متفق عليه. ووحد[1] الضمير في ﴿به﴾ وإن كان قد تقدم شيئان: معطوف عليه ومعطوف، وهو ما في الأرض ومثله معه؛ إما لغرض تلازمهما، فأجرى مجرى الواحد كما قالوا: رب يوم وليلة مر بي، وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنَّه قال: ليفتدوا بذلك. قال الزمخشري: ويجوز أن تكون الواو في ﴿ومثله﴾ بمعنى مع فيوحد المرجوع إليه. وقرأ الجمهور: ﴿مَا تُقُبِّلَ﴾ مبيناً للمفعول، وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿ما تَقبل﴾ مبيناً للفاعل؛ أي: ما تقبل الله منهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: بل هو معذبهم عذاباً موجعاً مؤلماً لهم؛ لأنَّ سنته تعالى قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما تكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان، فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم، والمسلمون يعتقدون أن العمدة في النجاة تزكية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة.

فهذه الجملة الأخيرة تصريح بعدم قبول الفداء، وتصوير للزوم العذاب، فلا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ثم ذكر ما يلاقونه من الأهوال حينئذ فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: يتمنون الخروج من النار دار العذاب

---

(١) البحر المحيط.

والشقاء بعد دخولهم فيها، ويقصدونه بقلوبهم إذا رفعهم لهب النار إلى فوق. وقيل: يكادون يخرجون منها لقوة النار ودفعها لهم، ولكن لا يقدرون ذلك. وقرأ الجمهور[1] ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ مبيناً للفاعل، ويناسبه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾. وقرأ النخعي وابن وثاب وأبو واقد: ﴿أن يخرجوا﴾ مبيناً للمفعول، ويضعف هذه القراءة وما هم بخارجين من النار. ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ ألبتة، وإنَّما قال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ بدل وما يخرجون للمبالغة ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: للكافرين خاصة دون عصاة المؤمنين ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم، ثابت، لا يزول عنهم، ولا ينقطع ولا ينتقل أبداً، تارة بالبرد، وتارة بالحر، وتارة بغيرهما.

الإعراب

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَٱتْلُ﴾: (الواو): عاطفة أو استئنافية. ﴿اتل﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة ـ وهي الواو ـ وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على الجملة المقدرة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ...﴾ إلخ، يعني: اذكر يا محمد لقومك وأخبرهم خبر ابني آدم، أو الجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اتل﴾. ﴿نَبَأَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. ﴿ٱبْنَيْ﴾: مضاف إليه وهو مضاف. ﴿ءَادَمَ﴾: مضاف إليه مجرور بالفتحة؛ لأنَّه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف العلمية والعجمية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور[2] متعلق بمحذوف صفة لمصدر محذوف تقديره: واتل عليهم تلاوةً متلبسة بالحق والصدق، حسبما تقرر في كتب الأولين. وفي «السمين» قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيه ثلاثة أوجه[3]:

أحدها: أنَّه حال من فاعل ﴿اتل﴾ ذلك حال كونك متلبساً بالحق؛ أي: بالصدق.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) أبو السعود.
(٣) السمين.

الثاني: أنَّه حال من المفعول ـ وهو ﴿نَبَأَ﴾؛ أي: اتل نبأهما متلبساً بالحق والصدق، موافقاً لما في كتب الأولين، لتقوم عليهم الحجة برسالتك.

الثالث: أنَّه صفة لمصدر ﴿اتل﴾؛ أي: اتل ذلك تلاوةً متلبسةً بالحق والصدق، وكان هذا الوجه هو اختيار الزمخشري؛ لأنَّه بدأ به، وعلى كل من الأوجه الثلاثة: فالباء للمصاحبة وهي متعلقة بمحذوف. ا هـ.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لم مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية مبني على السكون لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً، والظرف متعلق بـ﴿نَبَأَ﴾؛ أي: اتل نبأهما وقصتهما الواقع في ذلك الوقت. ﴿قَرَّبَا﴾ فعل وفاعل. ﴿قُرْبَانًا﴾: مفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿فَتُقُبِّلَ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿تقبل﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿قُرْبَانًا﴾. ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿تقبل﴾ وتفعل هنا بمعنى الثلاثي المجرد، والجملة في محل الجر، معطوفة على جملة ﴿قَرَّبَا﴾. ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ﴾: الواو عاطفة. ﴿لم يتقبل﴾: جازم ومجزوم، ونائب فاعله ضمير يعود على القربان. ﴿مِنَ الْآخَرِ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾. ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ وفاعله ضمير يعود على ﴿الْآخَرِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: (اللام): موطئة للقسم. ﴿أقتلن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب مبني على الفتح. و(الكاف): ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به، وفاعله ضمير يعود على ﴿الْآخَرِ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على ﴿أَحَدِهِمَا﴾ والجملة

مستأنفة. ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. ﴿يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور، متعلق به، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

وقوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى﴾ إلى قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾: مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾ وإن شئت قلت: ﴿لَئِنۢ﴾: (اللام): موطئة لقسم محذوف. ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿بَسَطتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿إِلَيَّ﴾ ﴿إلى﴾: حرف جر مبني بسكون على الألف المنقلبة ياء مدغمة في ياء المتكلم. وياء المتكلم في محل الجر بـ﴿إلى﴾ مبني على الفتح، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَسَطتَ﴾ ﴿يَدَكَ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿لِتَقْتُلَنِى﴾: (اللام): حرف جر وتعليل. ﴿تقتل﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله: ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلْآخَرِ﴾ والنون: نون الوقاية والياء: ضمير المتكلم في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لقتلك إياي، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَسَطتَ﴾. ﴿مَآ﴾: حجازية تعمل عمل ليس. ﴿أَنَا۠﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِبَاسِطٍ﴾: خبرها، والباء: زائدة في خبر ﴿مَآ﴾ الحجازية، وهو اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح، وفاعله: ضمير يعود على ﴿أَنَا۠﴾. ﴿يَدِىَ﴾: مفعول ﴿باسط﴾ ومضاف إليه. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق ﴿بِبَاسِطٍ﴾ وجملة ﴿مَآ﴾ الحجازية جواب القسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف، دل عليه جواب القسم تقديره: إن بسطت إلي يدك لتقتلني.. فما أبسط يدي إليك لأقتلك، جرياً على القاعدة المقررة عند النحاة، من أنَّه إذا اجتمع شرط وقسم.. كان المذكور جواباً للسابق منهما، إلا فيما استثني عندهم كما مر لك ذكره مراراً.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿إِنِّىٓ﴾: ﴿إنَّ﴾ حرف نصب. و(الياء): اسمها. ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ﴾: فعل

ومفعول. ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: صفة للجلالة ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على المتكلم، أعني: هابيل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إن، وجملة إن: في محل الجر بلام التعليل المقدرة معللة لما قبلها.

﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِنِّىٓ﴾ حرف نصب. والياء اسمها. ﴿أُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المتكلم، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر إنَّ، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها في محل الجر، معطوفة على جملة إنَّ الأولى على كونها تعليلاً ثانياً لما قبلها. وقال أبو السعود: وإنَّما لم يعطف على التعليل قبله.. تنبيهاً على كفاية كل منهما في العلية. انتهى. ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ ناصب ومنصوب، وفاعله ضمير المخاطب أعني قابيل. ﴿بِإِثْمِى﴾: جار ومجرور ومضاف، متعلق بـ﴿تَبُوٓأَ﴾. ﴿وَإِثْمِكَ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تَبُوٓأَ﴾: صلة ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿أَن﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إنِّي أريد بوءك بإثمي وإثمك، ﴿فَتَكُونَ﴾: معطوف على ﴿تَبُوٓأَ﴾ منصوب، واسمها ضمير يعود على المخاطب. ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف خبر ﴿تكون﴾. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَطَوَّعَتْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿طوعت﴾: فعل ماضٍ. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به، ﴿نَفْسُهُۥ﴾: فاعل ومضاف إليه. ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة قوله: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿قتله﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على القاتل، والجملة معطوفة على جملة ﴿طوعت﴾. ﴿فَأَصْبَحَ﴾: (الفاء): عاطفة تفريعية. ﴿أصبح﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود على القاتل. ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أصبح﴾ وجملة ﴿أصبح﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

﴿فَبَعَثَ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنَّه قتل أخاه، وأردت بيان ما فعله بجيفة أخيه.. فأقول لك: ﴿بعث الله غراباً﴾: ﴿بعث الله﴾: فعل وفاعل. ﴿غُرَابًا﴾: مفعول، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿يَبْحَثُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْغُرَابِ﴾، والجملة صفة لـ﴿غُرَابًا﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْحَثُ﴾. ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ اللام حرف جر وتعليل. ﴿يريه﴾: فعل ومفعول أول منصوب بأنْ مضمرة جوازاً بعد لام كي: لأنَّه من أرى، بمعنى عرف يتعدى بالهمزة إلى مفعولين، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ إن قلنا اللام متعلقة بـ﴿بعث﴾، أو على الغراب إن قلنا هي متعلقة بـ﴿يَبْحَثُ﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الحال من فاعل ﴿يُوَٰرِى﴾ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿يُوَٰرِى﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر فيه يعود على القاتل أعني: قابيل. ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿يُوَٰرِى﴾: في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لأرى؛ لأنَّها معلقة عنها باسم الاستفهام، وجملة يرى من الفعل والفاعل: صلة أنْ المضمرة، أنْ مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور إما متعلق بـ﴿بعث﴾ تقديره: فبعث الله غراباً، لإراءة الله إياه كيفية مواراة سوأة أخيه، أو متعلق بـ﴿يَبْحَثُ﴾ تقديره: غراباً يبحث في الأرض لإراءة الغراب إياه كيفية مواراة سوأة أخيه. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ إما متعلق بـ﴿بعث﴾، فالضمير المستتر في الفعل عائد على ﴿ٱللَّهُ﴾ أو متعلق بـ﴿يَبْحَثُ﴾ فالضمير عائد على الغراب. وفي «السمين» قوله: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى﴾ هذه اللام يجوز فيها وجهان:

أحدهما: أنَّها متعلقة بـ﴿يَبْحَثُ﴾؛ أي: ينبش ويثير التراب للإراءة.

والثاني: أنَّها متعلقة بـ﴿بعث﴾، وكيف معمولة لـ﴿يُوَٰرِى﴾، وجملة الاستفهام معلقة للرؤية البصرية، فهي في محل المفعول الثاني سادة مسده؛ لأنَّ رأى البصرية قبل تعديتها بالهمزة متعدية لواحد، فاكتسبت بالهمزة مفعولاً آخر،

وتقدم نظيرتها في قوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. ا هـ.

﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على القاتل، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالَ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿ويلتى﴾: منادى مضاف منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف بعد قلب الكسرة فتحة لمناسبة الألف، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ويلة: مضاف. و(ياء المتكلم المنقلبة ألفاً للتخفيف): في محل الجر مضاف إليه، مبني على السكون لشبهها بالحرف شبهاً وضعياً، وجملة النداء: في محل النصب مقول. ﴿قَالَ﴾. وفي هذا المقام بحث نفيس ذكرته في رسالتي «هدية أولي العلم والإنصاف في إعراب المنادى المضاف». ﴿أَعَجَزْتُ﴾: (الهمزة): للاستفهام التعجبي. ﴿عجزت﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿أَنْ أَكُونَ﴾: ناصب وفعل ناقص واسمه ضمير المتكلم يعود على القاتل، ﴿مِثْلَ هَٰذَا﴾: خبر أكون ومضاف إليه. ﴿ٱلْغُرَابِ﴾: بدل من اسم الإشارة، وجملة ﴿أَنْ﴾: المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: أعجزت كوني مثل هذا الغراب. ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾: (الفاء): عاطفة، ﴿أواري﴾: معطوف على ﴿أَكُونَ﴾ وفاعله ضمير يعود على القاتل، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَكُونَ﴾. ﴿سَوْءَةَ أَخِي﴾: مفعول به ومضاف إليه، ﴿فَأَصْبَحَ﴾ (الفاء): عاطفة. ﴿أصبح﴾: فعل ماضٍ ناقص واسمه ضمير يعود على القاتل. ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿أصبح﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَتَبْنَا﴾ وتقديمه

عليه لإفادة الحصر، و﴿كَتَبْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة، ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿كَتَبْنَا﴾. ﴿أَنَّهُۥ﴾: أنَّ حرف نصب ومصدر. والهاء: ضمير الشأن في محل النصب اسمها. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الجواب أو الشرط أو هما. ﴿قَتَلَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿نَفْسًۢا﴾: مفعول به. ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قَتَلَ﴾، أو حال من الضمير في ﴿قَتَلَ﴾ كما ذكره أبو البقاء؛ أي: مَنْ قتل نفساً ظالماً، ﴿أَوْ فَسَادٍ﴾: معطوف على نفس، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بفساد؛ لأنَّه بمعنى إفساد، أو صفة له. ﴿فَكَأَنَّمَا﴾: الفاء: رابطة لجواب من الشرطية. ﴿كأنَّ﴾: حرف تشبيه ملغاة لا عمل لها. ﴿ما﴾: كافة لكفها ما قبلها عن العمل فيما بعدها. ﴿قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلنَّاسَ﴾، أو تأكيد له، وجملة من الشرطية في محل الرفع خبر أنَّ، وجملة أنَّ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿كَتَبْنَا﴾ تقديره: من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل كون من قتل نفساً بغير نفس أو فساد.. مثل من قتل الناس جميعاً في هتك حرمة الدماء.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ (الواو): عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿أَحْيَاهَا﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ﴾: فعل ومفعول في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ ﴿جَمِيعًاۚ﴾: حال من الناس، أو تأكيد له، وجملة ﴿مَنْ﴾: الشرطية معطوفة على جملة ﴿مَنْ﴾ الأولى. ﴿وَلَقَدْ﴾: (الواو): استئنافية. اللام: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول. ﴿رُسُلُنَا﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة

القسم المحذوف مستأنفة. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿الرسل﴾؛ أي: حالة كونهم متلبسين بالبينات ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾: ناصب واسمه. ﴿مِّنْهُم﴾ جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمسرفون الآتي، وكذلك يتعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وكون[1] لام الابتداء، لا يعمل ما بعدهما فيما قبلها، محله إذا كانت اللام في محلها فإن زحلقت إلى الخبر عمل ما بعدها فيما قبلها كما هنا. ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: اللام: لام الابتداء، زحلقت إلى الخبر. ﴿مسرفون﴾: خبر إنَّ، وجملة إنَّ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على كونه جواباً لقسم محذوف.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُحَارِبُونَ﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾. ﴿فَسَادًا﴾: مفعول من أجله. وفي «الفتوحات» وفي نصب ﴿فَسَادًا﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّه مفعول من أجله؛ أي: يحاربون ويسعون لأجل الإفساد، وشرط النصب موجود.

والثاني: أنَّه مصدر واقع موقع الحال؛ أي: ويسعون في الأرض مفسدين أو ذوي فساد، أو جعلوا نفس الفساد مبالغة.

والثالث: أنَّه منصوب على المصدر؛ أي: أنَّه نوع من العامل قبله، لأنَّ يسعون معناه في الحقيقة يفسدون فساداً، وفساداً اسم مصدر قائم الإفساد، والتقدير: يفسدون في الأرض بسعيهم فساداً. انتهت.

---

(١) الجمل.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾: ناصب وفعل ونائب فاعل، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر مرفوع على الخبرية تقديره: إنَّما جزاء الذين يحاربون الله تقتيلهم، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾. ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ﴾: فعل ونائب فاعل ومضاف إليه معطوف على ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾. ﴿وَأَرۡجُلُهُم﴾: معطوف على ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾، ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾: جار ومجرور حال من الأيدي والأرجل؛ أي: حالة كونها مختلفة في القطع بمعنى أنَّه تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ﴾: فعل مغير الصيغة ونائب فاعل معطوف على ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾. ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ متعلق به، وأو في جميع الأمثلة للتقسيم والتنويع؛ أي: تقسيم عقوبتهم تقسيماً موزعاً على حالتهم وجناياتهم.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ أول. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿خِزۡيٞ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿خِزۡيٞ﴾ والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، وجملة المبتدأ الأول مع خبرة مسأنفة استئنافاً بيانياً. وفي «الفتوحات» وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون ﴿لَهُمۡ﴾ خبراً مقدماً و﴿خِزۡيٞ﴾: مبتدأ مؤخراً. ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ صفة له، فيتعلق بمحذوف.

والثاني: أن يكون ﴿خِزۡيٞ﴾ خبراً لـ﴿ذَٰلِكَ﴾ و﴿لَهُمۡ﴾ متعلق بمحذوف على أنَّه حال من ﴿خِزۡيٞ﴾؛ لأنَّه في الأصل صفة له، فلما قدم عليه.. انتصب حالاً.

والثالث: أنْ يكون ﴿لَهُمۡ﴾: خبراً لذلك و﴿خِزۡيٞ﴾: فاعل ورفع الجار هنا الفاعل لما اعتمد على المبتدأ. ا هـ. «سمين». ﴿وَلَهُمۡ﴾: (الواو): عاطفة.

﴿لهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿عَذَابٌ﴾؛ لأنَّه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عَذَابٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من ﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ﴾، ﴿تَابُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَابُوا﴾ قبل مضاف. ﴿أَنْ تَقْدِرُوا﴾: ناصب وفعل وفاعل، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من قبل قدرتكم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَقْدِرُوا﴾. ﴿فَاعْلَمُوا﴾ الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره إذا عرفتم هذا الاستثناء وأردتم بيان سعة رحمة الله وغفرانه.. فأقول لكم. ﴿اعلموا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿غَفُورٌ﴾ خبر أول لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿رَحِيمٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة أنَّ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿اعلموا﴾ تقديره: فاعلموا كون الله تعالى غفوراً رحيماً. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إنَّه منصوب على الاستثناء من المحاربين.

والثاني: أنَّه مرفوع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، والعائد محذوف؛ أي: غفور لهم، ذكر هذا الثاني أبو البقاء، وحينئذ يكون الاستثناء منقطعاً بمعنى: لكن التائبون يغفر لهم. اهـ. «سمين».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾:

حرف تنبيه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا﴾ فعل وفاعل ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱبْتَغُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَٱبْتَغُوٓا﴾. وفي «الفتوحات» في ﴿إِلَيْهِ﴾ وجهان:

أحدهما: أنَّه متعلق بالفعل قبله.

والثاني: أنَّه متعلق بنفس الوسيلة. قال أبو البقاء: لأنَّها بمعنى المتوسل به، فلذلك عملت فيما قبلها يعني: أنَّها ليست بمصدر، حتى يمتنع أنْ يتقدم معمولها عليها، ويجوز أنْ يكون حالاً؛ أي: وابتغوا الوسيلة كائنة إليه. ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ مفعول به ﴿وَجَٰهِدُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾. ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿وَجَٰهِدُوا﴾. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: ﴿لعل﴾: حرف ترج ونصب بمعنى كي، و(الكاف): اسمها. وجملة ﴿تُفْلِحُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ إنَّ: حرف نصب. واسم الموصول في محل النصب اسمها ﴿كَفَرُوا﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب مقدر. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، لـ﴿أَنَّ﴾. ﴿مَّا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر عن خبرها. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَّا﴾ أو صفة لها. ﴿جَمِيعًا﴾ توكيد لاسم ﴿إِنَّ﴾ أو حال منه.

﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَمِثْلَهُۥ﴾ ﴿مثل﴾: معطوف على اسم أنَّ وهو ما الموصولة، وقيل: إنَّه منصوب على أنَّه مفعول معه وهو رأي الزمخشري وهو مضاف، و(الهاء): مضاف

إليه. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف حال من ﴿مثله﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾: من اسمها وخبرها في تأويل مصدر، مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف بعد لو الشرطية؛ لأنَّ لو الشرطية لا تدخل إلا على الفعل والتقدير: إنَّ الذين كفروا لو ثبتَ كون ما في الأرض جميعاً ومثله معه لهم ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ (اللام): لام كي. ﴿يفتدوا﴾: فعل وفاعل منصوب بأنْ مضمرة بعد لام كي. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يفتدوا﴾، وضميره عائد على ما الموصولة، وجيء بالضمير مفرداً وإنْ تقدمه شيئان وهما: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾، إما لتلازمهما، فهما في حكم شيء واحد؛ وإما لأنَّه حذف من الثاني لدلالة ما في الأول عليه كقوله:

وَإِنِّـي وَقَـيَّـارٌ بِـهَـا لَـغَـرِيْـبُ

أي: لو أن لهم ما في الأرض ليفتدوا به ومثله معه ليفتدوا به، وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، بأن يؤول المرجع المتعدد بالمذكور كما مر بعض ذلك في بحث التفسير ذكره في «الفتوحات». وجملة أنْ المضمرة مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بلام كي تقديره: لافتدائهم به أنفسهم من عذاب يوم القيامة، الجار والمجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر أن وهو لهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يفتدوا﴾ أيضاً. ﴿مَا﴾: نافية رابطة لجواب ﴿لَوْ﴾ وجاء على الأكثر من كون الجواب المنفي بغير لام. ﴿تُقُبِّلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة بمعنى قبل، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾: الموصولة ومثله. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر إنَّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والتقدير: إنَّ الذين كفروا غير مقبول منهم فداؤهم لو ثبت كون ما في الأرض جميعاً ومثله معه لهم فافتداؤهم به، وجملة إنَّ من اسمها وخبرها مستأنفة ﴿وَلَهُمْ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية على كونها خبراً لـ﴿أَنَّ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾: ناصب وفعل وفاعل، وجملة أنْ المصدرية مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: يريدون خروجهم من النار ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَخْرُجُواْ﴾. ﴿وَمَآ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية. ﴿هُم﴾: ضمير الغائبين في محل الرفع اسمها. ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾ خبرها و(الباء) فيه زائدة. ﴿مِنْهَاۖ﴾: جار ومجرور متعلق ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على جملة قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. ﴿وَلَهُمْ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لهم﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّقِيمٌ﴾: صفة له، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ اتل فعل أمر من تلا يتلو تلاوة، يقال: تلا الكتاب إذا قرأه، والتلاوة: القراءة، ولا تكاد تستعمل إلا في قراءة كلام الله تعالى، والنبأ: الخبر الذي يهتم به لفائدة ومنفعة عظيمة، سمي به لأنَّه يأتي من مكان إلى آخر، ويجمع على أنباء ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ والقربان فيه احتمالان[1]:

أحدهما: وبه قال الزمخشري: أنَّه اسم لما يتقرب به إلى الله عز وجل من صدقة أو ذبيحة أو نسك أو غير ذلك، يقال: قرب صدقة وتقرب بها.

والاحتمال الثاني: أنْ يكون مصدراً في الأصل، ثم أطلق على الشيء المتقرب به كقولهم: نسج اليمن وضرب الأمير، ويؤيد ذلك أنَّه لم يثن مع أن الموضع موضع تثنية لأن كلاً من قابيل وهابيل له قربان يخصه، والأصل إذ قربا قربانين، وإنَّما لم يثن؛ لأنَّه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد وغيره ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ يقال: بسط اليد إليه يبسط من باب نصر بسطاً إذا مدها إليه ليقتله ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ يقال: باء يبوء بوءاً من باب قال: إذا رجع ويقال: باء بالحق، أو بالذنب، إذا أقر به، وباء فلان بفلان بواء، إذا قتل به وصار دمه بدمه، وفي

(١) الجمل.

النهاية لابن الأثير: أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي؛ أي: التزم وأقر. ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فطوعت؛ أي: فشجعت وزينت. قرأ الجمهور[1]: طوعت بتشديد الواو، ويقرأ شاذاً: ﴿طاوعت﴾ بوزن فاعل بالألف والتخفيف كما مر، وهما لغتان، والمعنى زينت، وقال: (طاوعت) تتعدى بغير لام، وهذا خطأ؛ لأن التي تتعدى بغير اللام تتعدى إلى مفعول واحد، وقد عداه ههنا إلى قتل أخيه، وقيل: التقدير: طاوعته نفسه على قتل أخيه، فزاد اللام وحذف على، ذكره أبو البقاء.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾ الغراب[2] طائر معروف، ويجمع في القلة على أغربة، وفي الكثرة على غربان وغراب اسم جنس، وأسماء الأجناس إذا وقعت على مسمياتها من غير أن تكون منقولة من شيء.. فإن وجد فيها ما يمكن اشتقاقه حمل على أنَّه مشتق، إلا أن ذلك قليل جداً، بل الأكثر أن تكون غير مشتقة نحو: تراب وحجر وماء، ويمكن أن يكون غراب مأخوذاً من الاغتراب، فإن العرب تتشاءم به، وتزعم أنَّه دال على الفراق ﴿يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ البحث في الأرض.. نبش التراب وإثارته. ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ من أرى الرباعي التي هي مزيد رأى بمعنى: عرف المتعدية لواحد، فتتعدى بالهمزة لاثنين: الأول: الضمير البارز، والثاني: جملة كيف ﴿يُوَارِى﴾ يقال: وارى الشيء يواري مواراة، من باب فاعل إذا أخفاه، والسوأة ما يسوء ظهوره، والعورة والسوأة يجوز تخفيف همزتها بإلقاء حركتها على الواو، فتبقى سوأة أخيه، ولا تقلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ لأن حركتها عارضة، ذكره أبو البقاء. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ الويل حلول الشر، والويلة: الفضيحة والبلية والهلكة؛ أي: وافضيحتاه، وهي كلمة جزع وتحسر، والألف فيه بدل من ياء المتكلم ﴿أَعَجَزْتُ﴾ من باب فعل المفتوح، وهي اللغة الفاشية، وحكى الكسائي فيه: فعل بكسر العين والعجز: عدم الإطاقة ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ من الندم: وهو التحسر والتلهف، يقال: ندم يندم، من باب فرح إذا تحسر.

---

(١) العكبري. (٢) البحر المحيط.

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ والأجل في الأصل[1]: الجناية، يقال: أجل عليهم شراً؛ أي: جنى عليهم جناية، ثم استعمل في تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل سبب.

وعبارة الشوكاني: أي من أجل ذلك القاتل وجريرته، وبسبب معصيته، وقال الزجاج: أي: من جنايته، قال: يقال: أجل الرجل على أهله شراً بأجل أجلاً، إذا جنى مثل أخذ يأخذ أخذاً انتهت. والإسراف البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة. ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من حارب من باب فاعل الرباعي يحارب محاربة، والمحاربة من الحرب ضد السلم، والسلم السلامة من الأذى، والضرر والأفة والأمن على النفس والمال، والأصل في معنى كلمة الحرب التعدي وسلب المال، وحربية الرجل: ماله الذي يعيش به، والفساد ضد الصلاح، وكل ما يخرج عن وضعه الذي يكون صالحاً نافعاً.. يقال: إنَّه فسد، ومن كان سبباً لفساد شيء يقال إنَّه أفسده، فإزالة الأمن من الأنفس أو الأموال أو الأعراض، ومعارضته تنفيذ الشريعة العادلة كل ذلك.. إفساد في الأرض ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ والتقتيل المبالغة في القتل بكونه حتماً لا هوادة فيه، ولا عفو من ولي الدم ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ والتصليب المبالغة في الصلب، أو تكرار الصلب، كما قال الشافعي: يصلب بعد القتل ثلاثة أيام؛ بأن يربط على خشبة ونحوها منتصب القامة ممدود اليدين، وربما طعنوا المصلوب ليعجلوا موته ﴿أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف معناه: إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى، والعكس بالعكس. ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والنفي من الأرض: النقل من البلد أو القطر الذي أفسدوا فيه إلى غيره من بلاد الإسلام إذا كانوا مسلمين؛ فإن كانوا كفاراً.. جاز نفيهم إلى بعض بلاد الإسلام، أو بعض بلاد الكفار ﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ﴾ الخزي: الذلّ والفضيحة، يقال: أخزاه الله، إذا فضحه وأذله ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ﴾؛ أي: من قبل التمكن من عقابهم. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ اتقاء الله: هو اتقاء سخطه وعقابه

(١) المراغي.

بعدم مخالفة دينه وشرعه، يقال: اتقى عن الشيء، إذا جعل لنفسه وقايةً عنه، وهو من افتعل الخماسي، أصله اتقوا، يقال: اتقى اتقاء إذا صار تقياً، وابتغاء الوسيلة: طلب الوصول والقرب إليه تعالى بما يرضيه من العمل الصالح. والوسيلة[1] الواسلة إلى ما يتقرب منه، يقال: وسله وتوسل إليه، واستعيرت الوسيلة لما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وقال لبيد:

أَرَىٰ ٱلنَّاسَ لاَ يَدْرُوْنَ مَا قَدْرُ أَمْرِهِمْ ... أَلاَ كُلُّ ذِيْ لُبٍّ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَاسِلُ

وأنشد الطبري:

إِذَا غَفِلَ ٱلْوَاشُوْنَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا ... وَعَادَ ٱلتَّصَابِيْ بَيْنَنَا وَٱلْوَسَائِلُ

وفي «المصباح»: وسلت إلى الله بالعمل أسل من باب وعد، رغبت وتقربت، ومنه اشتقاق الوسيلة وهي: ما يتقرب به إلى الشيء، والجمع الوسائل، والوسيل: قيل: جمع وسيلة، وقيل: لغة فيها، وتوسل إلى ربه توسيلة إذا تقرب إليه بعمل. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

منها: الطباق بين كلمة ﴿قَتَلَ﴾ و﴿أَحْيَا﴾ وهو من المحسنات البديعية، وكذلك بين ﴿يعذب﴾ و﴿يغفر﴾.

ومنها: الحذف في قوله: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّه على حذف مضاف؛ أي: يحاربون أولياء الله لأن الله تعالى لا يحارب ولا يغالب، فالكلام على سبيل المجاز.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾.

ومنها: التعريض بعدم تقوى القاتل في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَتُقُبِّلَ﴾، ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ﴾.

---

(١) الكشاف ١/ ٤٨٨.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ﴾، وفي قوله: ﴿قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا﴾ لأنَّ تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر على تفسير الجمهور.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ لأنه استعار الإحياء للاستبقاء، لأنَّ المراد استبقاءها وعدم التعرض لقتلها، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ الآية. قال الزمخشري[1]: هذا تمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه من الوجوه.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ﴾ ﴿مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ﴾.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿كَتَبْنَا﴾؛ أي: أمرنا بكتابته في الكتب المنزلة، ففيه نسبة الفعل إلى الآمر.

ومنها: تنزيل غير العاقل منزلة العاقل في قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ لأنَّ أصل النداء أنْ يكونَ للعاقل حقيقة، وقد ينادى ما لا يعقل مجازاً.

ومنها: الاهتمام في قوله: ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ لأنَّ المراد بسوأة أخيه جسده، فإنَّه مما يستقبح بعد موته، وخصت السوأة بالذكر للاهتمام بها، ولأن سترها

---

(١) الكشاف (١/٤٨٨).

آكد. وفيه أيضاً مجاز مرسل بإطلاق اسم البعض على الكل.

ومنها: الإتيان بضمير الشأن في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ المنبىء[1] عن كمال شهرته ونباهته وتبادره إلى الأذهان، عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير ما بعده في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من الأول إلا شأن مبهم له خطر، فبقى الذهن مترقياً لما يعقبه، فيتمكن عند وروده فضل تمكن؛ فكأنَّه قيل: إن الشأن الخطر هذا. ا هـ. «أبو السعود».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الجمل.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٣)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ..﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها[١]: أنَّه تعالى لما ذكر جزاء المحاربين بالعقوبات التي فيها قطع الأيدي والأرجل من خلاف، ثم أمر بالتقوى لئلا يقع الإنسان في شيء من الحرابة، ثم ذكر حال الكفار.. ذكر حكم السرقة؛ لأن فيها قطع الأيدي بالقرآن، والأرجل بالسنة على ما يأتي ذكره، وهو أيضاً حرابة من حيث المعنى؛ لأنَّ فيه سعياً بالفساد، إلا أن تلك على سبيل الشوكة والظهور، والسرقة على سبيل الاختفاء والتستر.

وعبارة المراغي هنا: لما بين الله[٢] سبحانه وتعالى عقاب المحاربين الذين

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

يفسدون في الأرض، ويأكلون أموال الناس بالباطل جهرة، وأمر بتقوى الله، وابتغاء الوسيلة، والجهاد في سبيله، وهي الأعمال التي يكمل بها الإيمان، وتتهذب بها النفوس، حتى تنفر من الحرام، وتبتعد عن المعاصي.. ذكر هنا عقاب اللصوص الذين يأكلونها كذلك خفية، وجمع في هذه الآيات بين الوازع الداخلي: وهو الإيمان والصلاح،والوازع الخارجي: وهو الخوف من العقاب والنكال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ مناسبتها لما قبلها[1]: أنَّه تعالى لما ذكر تصرفه في أحكام السراق، ولم يحاب ما ذكر من العقوبات عليهم.. نبه على أن ذلك هو تصرف في ملكه، وملكه لا معقب لحكمه فيه، فيعذب من يشاء عذابه، وهم المخالفون لأوامره، ويغفر لمن يشاء وهم التائبون.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ...﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه تعالى لما بين أحكام الحرابة والسرقة، وكان في ذكر المحاربين أنَّهم يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فساداً.. أمره تعالى أنْ لا يحزن، ولا يهتم بأمر المنافقين وأمر اليهود من تعنتهم وتربصهم به، وبمن معه الدوائر، ونصبهم له حبائل المكروه، وما يحدث لهم من الفساد في الأرض، ونصب المحاربة لله ولرسوله، وغير ذلك من الرذائل الصادرة عنهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو: أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فقطعت يدها اليمنى، فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ فأنزل الله في سورة المائدة ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ...﴾ الآية.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) لباب النقول.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ...﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه مسلم عن البراء بن عازب قال: مرَّ على النبي ﷺ يهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم ﷺ فقال: «هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟؟ قال: لا والله لولا أنَّك نشدتني لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا زنى الشريف.. تركناه، وإذا زنا الضعيف.. أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنّي أول من أحيا أمرك إذا أماتوه» فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمداً ﷺ؛ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإنْ أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

وللآيات سبب آخر أيضاً: وهو ما أخرجه أبو داود بسند رجاله رجال «الصحيح» (ج ٤/ ص ٢٨٦) عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير.. قتل به، وإذا قتل رجل من النضير.. يودي بمئة وسق من التمر، فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفعوه إلينا نقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ، فأتوه فنزلت ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ والقسط: النفس بالنفس، ثم نزلت ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى (ج ٢/ ص ٦١) وقد يمكن أنه قد اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كلّه. والله أعلم.

عمر وإبراهيم وابن أبي عبلة: ﴿والسارق والسارقة﴾ بالنصب على الاشتغال وهي قراءة أيضاً. وقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مفعولان لأجله معلّلان للقطع؛ أي: اقطعوا أيديهما مجازاة لهما على عملهما وكسبهما السيء، وتنكيلاً ومنعاً لغيرهما عن السرقة، ولا عبرة أعظم من قطع اليد، الذي يفضح صاحبه طول حياته، ويسمه بميسم العار والخزي، ولا شك أن هذه العقوبة أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم، فالأرواح كثيراً ما تتبع الأموال إذا قاوم أهلها السراق وحاولوا منعهم من أخذها ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ أي غالب في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل المعاصي، فلا معقب لحكمه لأنَّه القاهر على كل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وشرائعه وتكاليفه، فهو يضع الحدود والعقوبات بحسب الحكمة التي توافق المصلحة، فما أمر بأمر إلا وهو صلاح، ولا نهى عن أمر إلا وهو فساد، وكأنَّه يقول: شددوا على السراق فاقطعوهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً. وقيل: معنى ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: يضع الشيء في محله، فلا يحكم بقطع يده ظلماً، لأنَّ السارق لما خان هان، ولهذا أورد بعض اليهود على القاضي عبد الوهاب البغدادي سؤالاً حيث قال شعر:

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِيْنَ عَسْجَدٌ وُدِيَتْ   مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِيْ رُبْعِ دِيْنَارِ

فأجابه القاضي رضي الله عنه بقوله:

عِزُّ ٱلأَمَانَةِ أَغْلاَهَا وَأَرْخَصَهَا   ذُلُّ ٱلْخِيَانَةِ فَٱفْهَمْ حِكْمَةَ ٱلْبَارِيْ

فصل في بيان الأحكام المتعلقة بالآية وفيه خمس مسائل

المسألة الأولى: اقتضت هذه الآية وجوب القطع على كل سارق، وقطع رسول الله ﷺ في السرقة. وعن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ قالوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله!»، ثم قام فخطب ثم قال: «إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف.. تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف..

أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أتي رسول الله ﷺ بسارق فقطعه، فقالوا: ما كنا نراك تبلغ به هذا؟ قال: «لو كانت فاطمة لقطعتها» أخرجه النسائي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده». متفق عليه. قال الأعمش: يرون أنه بيض الحديد، وإنَّ من الحبال ما يساوي دراهم. أما السارق الذي يجب عليه القطع.. فهو البالغ العاقل، العالم بتحريم السرقة، فلو كان حديث عهد بالإسلام ولا يعلم أنَّ السرقة حرام فلا قطع عليه.

المسألة الثانية: اختلف العلماء في قدر النصاب الذي يقطع به، فذهب أكثر العلماء إلى أنَّه ربع دينار، فإن سرق ربع دينار، أو متاعاً قيمته ربع دينار.. يقطع، وهذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وبه قال عمر بن عبد العزيز والأوزاعي والشافعي. ويدل له: ما روي عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» أخرجاه في «الصحيحين».

وذهب مالك وأحمد وإسحاق إلى أنَّه ثلاثة دراهم أو قيمتها؛ لما روي عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ «قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم» أخرجه الجماعة. والمجن: الترس.

ويروى: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن قدر النصاب الذي تقطع فيه اليد خمسة دراهم، وبه قال ابن أبي ليلى، لما روي عن أنس قال: قطع أبو بكر في مجن قيمته خمسة دراهم وفي رواية: (قطع رسول الله ﷺ) أخرجه النسائي، وقال: الرواية الأولى أصح.

وذهب قوم إلى أنَّه قطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم، ويروى ذلك عن ابن مسعود، وإليه ذهب سفيان الثوري وأبو حنيفة، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ: أول من قطع في مجن قيمته دينار أو عشرة

دراهم). أخرجه أبو داود.

فإذا سرق نصاباً من المال من حرزٍ لا شبهة له فيه.. قطعت يده اليمنى من الكوع، ولا يجب القطع بسرقة ما دون النصاب. وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن: القدر غير معتبر فيجب القطع في القليل والكثير، وكذا الحرز غير معتبر أيضاً عندهم، وإليه ذهب داود الظاهري، واحتجوا بعموم الآية، فإن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ يتناول القليل والكثير، وسواء من حرز أو غير حرز.

المسألة الثالثة في الحرز: الحرز: هو ما جعل للسكنى وحفظ الأموال، كالدور والمضارب والخيم التي يسكنها الناس، ويحفظون أمتعتهم فيها، فكل ذلك حرز وإن لم يكن فيه حافظ ولا عنده، وسواء سرق من ذلك وهو مفتوح الباب أو مغلق، فأما ما كان في غير بناء ولا خيمة.. فإنَّه ليس بحرز، إلا أن يكونَ عنده من يحفظه. أما نباش القبور فإنَّه يقطع، وهو قول مالك والشافعي وأحمد، وقال ابن أبي ليلى والثوري والأوزاعي وأبو حنيفة: لا قطع عليه، فإن سرق شيئاً من غير حرز كثمر من بستان لا حارس له، أو حيوان في برية ولا راعٍ له، أو متاع في بيت منقطع عن البيوت.. فلا قطع عليه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ سئل عن الثمر المعلق؟ فقال: «من أصاب بفيه منه من ذي حاجة غير متخذ خبنة فلا شيء عليه»، أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي، وزاد فيه «ومن خرج بشيء منه فعليه غرامة مثله والعقوبة، ومن سرق منه شيئاً بعد أن يؤويه الجرين فبلغ ثمن المجن فعليه القطع، ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثله والعقوبة»، قوله: غير متخذ خبنة ـ الخبنة بالخاء المعجمة وبعدها باء موحدة ثم نون ـ وهو ما يحمله الإنسان في حضنه، وقيل: هو ما يأخذه في خبنة ثوبه، وهو ذيله وأسفله، والجرين: موضع التمر الذي يجفف فيه مثل البيدر للحنطة.

وروى مالك في «الموطأ»، عن أبي حسين المكي أن رسول الله ﷺ قال: «لا قطع في ثمر معلق ولا في حريسة الجبل، فإذا أواه المراح أو الجرين..

فالقطع فيما بلغ ثمن المجن» هكذا رواه مالك منقطعاً، وهو رواية من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم، فإن هذه الرواية عن أبي حسين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وجده هو عبد الله بن عمرو بن العاص. قوله: «ولا في حريسة الجبل» من العلماء من يجعل الحريسة السرقة نفسها يقال: حرس يحرس حرساً، إذا سرق، ومنهم من يجعلها المحروسة. ومعنى الحديث: أنَّه ليس فيما يحرس في الجبل إذا سرق قطع؛ لأنه ليس بحرز، وقيل: حريسة الجبل هي الشاة التي يدركها الليل قبل أن تصل مأواها، والمراح ـ بضم الميم ـ هو الموضع الذي تأوي إليه الماشية بالليل.

وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «ليس على خائن ولامنتهب ولا مختلس قطع» أخرجه الترمذي والنسائي.

المسألة الرابعة: إذا سرق مالاً له فيه شبهة، كالولد يسرق من مال والده، أو الوالد يسرق من مال ابنه، أو العبد يسرق من مال سيده، أو الشريك يسرق من مال شريكه.. فلا قطع على أحد من هؤلاء فيه. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تقطع المرأة إذا سرقت من مال زوجها، ولا هو إذا سرق من مال زوجته. وقال مالك: يقطعان، ذكره أبو حيان في «البحر».

المسألة الخامسة: إذا سرق أول مرة.. قطعت يده اليمنى من الكوع، وإذا سرق ثانية.. قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، واختلفوا فيما إذا سرق مرة ثالثة، فذهب أكثرهم إلى أنَّه تقطع يده اليسرى، فإن سرق مرة رابعة.. قطعت رجله اليمنى، ثم إذا سرق بعد ذلك.. يعزر ويحبس حتى تظهر توبته. يروى هذا عن أبي بكر، وهو قول قتادة، وبه قال مالك والشافعي لما روي عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال في السارق: «إن سرق فاقطعوا يده، ثم إن سرق فاقطعوا رجله» ذكره البغوي بغير سند. وذهب قوم إلى أنَّه إنْ سرق بعدما قطعت يده ورجله.. فلا قطع عليه بل يحبس. وروي عن علي أنه قال: إني أستحيي أن لا أدع له يداً يستنجي بها، ولا رجلاً يمشي بها. وهذا قول الشعبي والنخعي والأوزاعي، وبه قال أحمد وأصحاب الرأي.

﴿فَمَن تَابَ﴾ من السراق إلى الله تعالى، ورجع عن السرقة ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ لنفسه بعمله ما نهاه الله عنه من سرقة أموال الناس ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ نفسه وزكاها بأعمال البر. قال أبو حيان: وظاهر الآية أنَّه بمجرد التوبة لا يقبل إلا إذا ضم إلى ذلك الإصلاح، وهو: التنصل من التبعات بردها إن أمكن، وإلا فبالاستحلال منها، أو بإنفاقها في سبيل الله إن جهل صاحبها، انتهى. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: يقبل توبته تفضلاً منه وإحساناً لا وجوباً عليه، ويرجع إليه بالرضا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورٞ﴾ لما كان منه قبل التوبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب.

فصل

وهذه التوبة مقبولة فيما بينه وبين الله؛ فأما القطع: فلا يسقط عنه بالتوبة عند أكثر العلماء؛ لأن الحد جزاء على الجناية، ولا بد من التوبة بعد القطع، وتوبته: الندم على ما مضى، والعزم على تركه في المستقبل، وإعادة المال المسروق بعينه إن كان باقياً، وإلا فدفع قيمته إن قدر. وعن أبي أمية المخزومي أن رسول الله ﷺ أتى بلص قد اعترف اعترافاً ولم يوجد معه متاع فقال له رسول الله ﷺ: «ما إخالك سرقت»، فقال: بلى، فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يعترف، فأمر به فقطع، ثم جيء به، فقال له رسول الله ﷺ: «استغفر الله وتب إليه» فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه، فقال النبي ﷺ: «اللهم تب عليه»، أخرجه أبو داود والنسائي بمعناه. وإذا قطع السارق.. يجب عليه غرم ما سرق من المال عند أكثر أهل العلم. وقال الثوري وأصحاب الرأي: لا غرم عليه، فلو كان المسروق باقياً عنده.. يجب عليه أن يرده إلى صاحبه وتقطع يده؛ لأنَّ القطع حق الله، والغرم حق الآدمي، فلا يسقط أحدهما بالآخر، والله أعلم.

ثم بين الله سبحانه وتعالى أن عقاب السراق والعفو عن التائبين جاء وفق الحكمة والعدل والرحمة فقال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ يا محمد أو يا مخاطَب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سلطنتهما وتدبيرهما وتصرفهما، يدبر الأمر فيهما بحكمته وعدله ورحمته وفضله، يعني أنَّ الله تعالى

مدبر أمر ما في السمٰوات والأرض ومصرفه، وخالق من فيهما ومالكه، لا يمتنع عليه شيء مما أراده فيهما؛ لأن ذلك كله في ملكه وإليه أمره. ومن حكمته أنَّه وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يعد به سارقاً، كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين في الأرض، وأنَّه يغفر للتائبين من هؤلاء وهؤلاء، ويرحمهم إذا صدقوا في التوبة وأصلحوا عملهم و﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه من العصاة تربية له، وتأميناً لعباده من شره وأذاه. ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ المغفرة له من التائبين برحمته وفضله، ترغيباً لهم في تزكية أنفسهم. قال ابن عباس[1] رضي الله عنهما: يعذب من يشاء على الصغيرة، ويغفر لمن يشاء على الكبيرة، وقيل: يعذب من يشاء على معصيته وكفره بالقتل والقطع وغير ذلك في الدنيا، ويغفر لمن يشاء بالتوبة عليه، فينقذه من الهلكة والعذاب، وإنما قدم التعذيب على المغفرة لأنَّه في مقابلة قطع السرقة على التوبة.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر على تعذيب من أراد تعذيبه من خلقه، وعلى غفران ذنوب من أراد إسعاده وإنقاذه من الهلكة من خلقه؛ لأنَّ الخلق كلهم عبيده، وفي ملكه، فلا يعجزه شيء في تدبير ملكه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ خاطب الله محمداً ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ في مواضع كثيرة من القرآن، وما خاطبه بيا أيها الرسول إلا في موضعين، هما: في سورة المائدة في هذا الموضع، وموضع آخر بعده وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهذا الخطاب للتشريف والتعظيم، وتأديب المؤمنين وتعليمهم أن يخاطبوه بوصفه كما كان يفعل بعض أصحابه بقولهم: يا رسول الله، وجهل هذا بعض الأعراب لخشونتهم وسذاجة فطرتهم فكانوا ينادونه «يا محمد» حتى أنزل الله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فكفوا عن ندائه باسمه. والحاصل: أن نداءه بيا أيها النبي وبيا أيها الرسول نداء تشريف وتعظيم وتفخيم لقدره، ونادى غيره من الأنبياء باسمه فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى

(١) الخازن.

مُتَوَفِّيكَ﴾، ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وقوله: ﴿لَا يَحۡزُنكَ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي رباعياً، والباقون بفتح الياء وضم الزاي ثلاثياً، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ هكذا قراءة الجمهور بالألف من سارع، وقرأ السلمي يسرعون بغير ألف من أسرع، والمسارعة إلى الشيء: الوقوع فيه بسرعة والمراد هنا: وقوعهم في الكفر بسرعة عند وجود فرصة، وآثر لفظ (في) على لفظ (إلى) للدلالة على استقرارهم فيه؛ أي: لا تهتم أيها الرسول ولا تبال بمسارعة هؤلاء المنافقين الذين يبادرون في إظهار الكفر، وموالاة أعداء المؤمنين عندما يرون الفرصة سانحة؛ فالله يكفيك شرهم، ويقيك ضرهم، وينصرك عليهم، وعلى من شايعهم وناصرهم.

والمراد بالنهي عن الحزن هو أمر طبيعي، وليس للإنسان فيه اختيار النهي عن لوازمه التي يفعلها الناس مختارين من تذكر المصائب، وتعظيم شأنها، وبذا يتجدد الألم، ويبعد أمد السلوى. ثم بين أن أولئك المسارعين في الكفر من المنافقين ومن اليهود فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ فـ(مِنْ) فيه بيانية للمسارعين والباء في قوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ متعلقة بقالوا، لا بآمنا، وهؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ هم المنافقون وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ يعني اليهود، معطوف على ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وهو تمام الكلام، يعني أنَّ المسارعين في الفكر هم طائفة من المنافقين، وطائفة من اليهود.

والمعنى: لا يحزنك يا محمد الذين يسارعون في الكفر حالة كونهم من المنافقين الذين أذاعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وحالة كونهم من الذين هادوا؛ أي: من اليهود. وقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ راجع للفريقين، أو إلى المسارعين، واللام في قوله: ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ للتقوية أو لتضمين السماع معنى القبول، وسماعون خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم؛ أي: كل من الفريقين من المنافقين واليهود سماعون؛ أي: كثيروا الاستماع، سماع قبول للكذب الذي يقوله ويفتريه رؤوسائهم وأحبارهم في نعوت النبي ﷺ، وفي أحكام دينهم التي يتلاعبون فيها بأهوائهم. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر: ﴿لِلكِذْب﴾ بكسر الكاف وسكون الذال، وقرأ زيد بن علي أيضاً: «الكُذُب» بضم الكاف والذال، وجمع كذوب كصبور وصبر؛ أي: سماعون لكذب الكذب ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ

﴿يَأۡتُوكَۖ﴾؛ أي: هم سماعون أيضاً لكلامك يا محمد؛ لأجل إخباره ونقله لقوم آخرين من اليهود، لا يأتونك تكبراً وبغضاً؛ لأنهم لتكبرهم وبغضهم لك لا يقربون مجلسك ولا يحضرونه، وهم يهود خيبر، زنى فيهم محصنان فكرهوا رجمهما، فبعثوا قريظة ليسألوا النبي ﷺ عن حكمهما، وأرسلوا الزانيين معهم، فأمرهم النبي ﷺ برجمهما؛ أي: إنَّ[1] هؤلاء القوم من اليهود لهم صفتان: سماع الكذب من أحبارهم، ونقله إلى عوامهم، وسماع الحق منك ونقله لأحبارهم ليحرفوه فقوله ﴿لِقَوۡمٍ﴾؛ أي: لأجل قوم لا يأتونك؛ أي: فيكونون وسائط بينك وبين قوم آخرين، والوسائط هم قريظة، والقوم الآخرون هم يهود خيبر. وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ صفة ثالثة لقوم؛ أي: سماعون لكلامك لنقله إلى قوم يحرفون ويزيلون ويغيرون ويبدلون كلم التوراة وأحكامها المذكورة فيها. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ أن وضعها الله تعالى وأثبتها فيها عن ﴿مَوَاضِعِهِۦۖ﴾؛ أي: عن مواضع تلك الكلم، فالضمير عائد على لفظ الكلم؛ أي: يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه في مواضعه، إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة، كما في نعوت محمد ﷺ، أو بإخفائه وكتمانه، كالبشارة بظهوره، ونصره بالرعب، وآية الرجم أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه، وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له، وقرىء ﴿الكلم﴾ بكسر الكاف وسكون اللام ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: يقول هؤلاء المحرفون ـ وهم يهود خيبر ـ لمن أرسلوهم إلى الرسول ﷺ ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم، وأرادوا أن يحابوهما بعدم رجمهما، وهم بنو قريظة ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ﴾ وأعطيتم ﴿هَٰذَا﴾ الجلد الذي طلبناه من محمد ﴿فَخُذُوهُ﴾؛ أي: فاقبلوه منه؛ أي: يقول المرسلون ـ وهم يهود خيبر ـ لمن أرسلوهم ـ وهم قريظة ـ إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضاً عن الرجم.. فخذوها وارضوا بها ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ﴾؛ أي: وإن لم تعطوا هذا الجلد، بأن أفتاكم الرجم ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ أن تقبلوه، وابتعدوا منه؛ أي: وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك، ولا ترضوا به.

---

(١) الفتوحات.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾ وغوايته وضلاله وكفره ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: فلن تستطيع له أن تدفع عنه شيئاً من أمر الله الذي حكم عليه، وأراد به الذي هو الكفر والضلال؛ أي[1]: ومن يرد الله تعالى أن يختبرهُ في دينه، فيظهر الاختبار كفره وضلاله.. فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئاً من الهداية والرشد؛ فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم مقدار فسادهم، فهم يقبلون الكذب دون الحق، وهم محرفون كاتمون لأحكام كتابهم إتباعاً لأهوائهم ومرضاة لرؤسائهم وذوي الجاه منهم، فلا تحزن بعد هذا على مسارعتهم في الكفر، ولا تطمع في جذبهم إلى الإيمان، فإنَّك لا تملك لأحد نفعاً، وإنَّما عليك البلاغ والبيان، ولا تخف عاقبة نفاقهم، فإنَّما العاقبة للمتقين من أهل الإيمان، ولهم الخزي والهوان.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكرهم من الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ أي: أولئك المنافقون واليهود هم ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق، وخبث الضلالة؛ لإنهماكهم فيهما، كما طهر قلوب المؤمنين؛ أي[2]: إنَّ أولئك الذين بلغت منهم الفتنة ذلك المبلغ، هم الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق؛ لأنَّ إرادته إنَّما تتعلق بما اقتضته سننه العادلة في نفوس البشر من أنَّها إذا دأبت على الباطل، ومرنت على الكيد والشر، وألفت الخلاف والضر، تحيط بها خطيئتها، وتطبق عليها ظلمتها.. فلا يبقى لديها لنور الحق منفذ، وتصبح غير قابلة للاستبصار والاعتبار الذي جعله الله وسيلة للاتعاظ والهداية، فهؤلاء الرؤساء من اليهود وأعوانهم لا تقبل طباعهم سواها، فلا تتعلق إرادته سبحانه بتطهير قلوبهم، وإلا كان ذلك خلافاً لما اقتضته سننه، وتبديلاً لنظمه في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

﴿لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المنافقين واليهود ﴿خِزْيٌ﴾؛ أي: ذل بالفضيحة للمنافقين، وبظهور نفاقهم بين المسلمين، وخوفهم من قتل المسلمين إياهم، وبالجزية والافتضاح لليهود بظهور كذبهم في كتمان التوراة ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء المنافقين واليهود ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد، وهو الخلود في النار، وصفه بالعظم لتزايده فلا انقضاء له، أو لتزايد ألمه، أو لهما؛ أي: فخزي المنافقين في الدنيا هتك أستارهم بإطلاع الرسول على كذبهم، وخوفهم من القتل، وخزي اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصوص كتابهم في إيجاب الرجم، وعلو الحق على باطلهم، وقد صدق الوعيد على كل يهود الحجاز، كما يصدق على كل من يفسدون كفسادهم، ولا يغني عنهم الانتساب إلى نبي لم يتبعوه، ولا تنفعهم دعوى الإيمان بكل نبي لم يتبعوه، وعذابهم في الآخرة نجزم بحصوله، ولا نعلم مقدار كنهه، وحقيقة أمره.

قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرره[1] تأكيداً لقبحه، وليكون كالمقدمة لما بعده وهو: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وهو من أخبار ذلك المبتدأ المقدر سابقاً؛ أي: سماعون للكذب الذي كانوا ينسبونه إلى التوراة ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾؛ أي: الحرام الذي[2] يصل إليهم من الرشوة في الحكم، ومهر البغي، وعسيب الفحل، وثمن الدم، وثمن الكلب، وثمن الخمر، وثمن الميتة، وحلوان الكاهن، وأجرة النائحة والمغنية، وأجرة مصور التماثيل، وثمن النرد وآلات اللهو، وثمن الصور الحيوانية إلى غير ذلك من أنواع المحرمات، روي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس وأبي هريرة ومجاهد.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب[3]: ﴿السُّحُت﴾ بضمتين. وقرأ باقي العشرة بإسكان الحاء، وزيد بن علي وخارجة بن مصعب، عن نافع بفتح

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) البحر المحيط.

السين وإسكان الحاء، وقرىء بفتحتين، وقرأ عبيد بن عمير أيضاً بكسر السين وإسكان الحاء، فبالضم والكسر والفتحتين، اسم المسحوت: كالدهن والرعي والنبض، وبالفتح والسكون مصدر أريد به المفعول، كالصيد بمعنى المصيد، أو سكنت الحاء طلباً للخفة.

قيل: نزلت[1] في حكام اليهود، مثل كعب بن الأشرف ونظرائه، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم. قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاهم أحدهم برشوة.. جعلها في كمه، ثم يريها إياه ويتكلم بحاجته، فيسمع منه ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب ويأكل الرشوة وهي: السحت. وأصل السحت الاستئصال، يقال: سحته إذا استأصله، وسميت الرشوة في الحكم سحتاً؛ لأنَّها تستأصل دين المرتشي، والسحت كله حرام، تحمل عليه شدة الشره، وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا تكون له بركة، ولا لآخذه مروءة، ويكون في حصوله عار، بحيث يخفيه لا محالة، ومعلوم أن حال الرشوة كذلك، فلذلك حرمت الرشوة على الحاكم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم». أخرجه الترمذي. وأخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال الحسن: إنَّما ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً، أو يبطل عنك حقاً. وقال ابن مسعود: الرشوة في كل شيء، فمن شفع شفاعة ليرد بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً فأهدى بها إليه فقبل.. فهو سحت، فقيل له: يا أبا عبد الرحمٰن ما كنا نرى ذلك إلا الأخذ على الحكم، فقال: الأخذ على الحكم كفر، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ يا محمد؛ أي: جاءك اليهود متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: فأنت[2] مخير بين

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

الحكم بينهم، والإعراض عنهم، وتركهم إلى رؤسائهم، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم، بل هم مخيرون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة، وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا؛ لأن من أخذت منهم الجزية.. تجري عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواريث وسائر العقود إلا في الخمر والخنزير فإنَّهم يقرون عليه، ولكن لا يظهرونه، ويمنعون من الزنا كالمسلمين، فإنَّهم نهوا عنه ويقام عليهم حدّه.

فصل

اختلف علماء التفسير في حكم هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنَّها منسوخة، وذلك أنَّ أهل الكتاب كانوا إذا ترافعوا إلى النبي ﷺ.. كان مخيراً، فإن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم، ثم نسخ ذلك بقوله ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فلزمه الحكم بينهم وزال التخيير، وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدي.

والثاني: أنَّها محكمة، والحكام المسلمين بالخيار إذا ترافعوا إليهم.. فإن شاؤوا حكموا بينهم، وإن شاؤوا أعرضوا عنهم، وهذا القول مروي عن الحسن والشعبي والنخعي والزهري، وبه قال أحمد ابن حنبل، وهو الصحيح لأنَّه لا منافاة بين الآيتين. أمّا قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ففيه التخيير بين الحكم والإعراض. وأمّا قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ففيه بيان كيفية الحكم إذا حكم بينهم.

قال الإمام فخر الدين الرازي(١): ومذهب الشافعي أنَّه يجب على حاكم المسلمين أن يحكم بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليه؛ لأنَّ في إمضاء حكم الإسلام عليهم إذلالاً وصَغاراً لهم، فأمّا المعاهدون الذين لهم مع المسلمين عهد

---

(١) الفخر الرازي.

إلى مدة.. فليس بواجب على الحاكم أن يحكم بينهم، بل يتخير في ذلك، وهذا التخيير المذكور في هذه الآية مخصوص بالمعاهدين. ولو ترافع إلينا ذميان في شرب الخمر.. لم نحدهما وإن رضيا بحكمنا؛ لأنَّهما لا يعتقدان تحريمها، وأمَّا إذا تحاكم مسلم وذمي وجب على الحاكم الحكم بينهم إجماعاً، لا يختلف القول فيه؛ لأنَّه لا يجوز للمسلم الانقياد لحكم أهل الذمة، وكذا الذمي مع المعاهدين، انتهى بزيادة بعض الحروف.

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحكم بينهم ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ من الضرر، فالله حافظك من ضررهم؛ أي: لأنهم إنَّما يتحاكمون إليك لطلب الأخف، فإذا أعرضت عنهم، وأبيت عن الحكم بينهم.. شق عليهم إعراضك عنهم، وصاروا أعداء لك، فلا تضرك عداوتهم لك، فإن الله تعالى يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾، أي: وإن اخترت الحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي أمرت به، وهو ما تضمنه القرآن واشتملت عليه شريعة الإسلام ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾؛ أي: يثيب العادلين في الحكم.

والاستفهام في قوله ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ إلخ، إستفهام تعجيب من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ من تحكيمهم إياه، مع أنهم لا يؤمنون به وبكتابه، والحال أن الحكم منصوص عليه في التوراة التي يدعون الإيمان بها، وتنبيه على أنَّهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنَّما طلبوا به ما هو أهون عليهم وإن لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم، ثم يعرضون عن حكمه ﷺ الموافق لكتابهم من بعد التحكيم، والرضا بحكمه ﷺ فقوله: ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ حال من فاعل يحكمونك وقوله: ﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ حال من التوراة وقوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ معطوف على يحكمونك.

والمعنى: واعجب يا محمد من تحكيمهم إياك في حدّ الزنا، والحال أن عندهم التوراة كتابهم حالة كون التوراة موصوفة بكون حكم الله بالرجم في الزنا موجوداً فيها، ثم اعجب من توليهم وإعراضهم عن حكمك من بعد تحكيمهم

إياك، ورضاهم بحكمك.

فائدة: والاستفهام التعجبي ضابطه هو إيقاع[1] المخاطب في العجب؛ أي: التعجب. والتعجب هنا من وجهين:

الأول: قوله: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ...﴾ إلخ.

والثاني: قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ...﴾ إلخ كما أشرنا إليه في التفسير؛ أي: وكيف[2] يحكمونك في قضية كقضية الزانيين وعندهم التوراة، وهي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته إياها. وخلاصة ذلك أن أمرهم لمن أعجب العجب، وما سبب ذلك إلا أنَّهم ليسوا بمؤمنين بالتوراة إيماناً صحيحاً، ولا هم مؤمنين بك، إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره، إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضاً، أيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء من الله تعالى يعني اليهود ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بالتوراة وإن كانوا يظهرون الإيمان بها لإعراضهم عنها أولاً، وعما يوافقها ثانياً، أو بك ولا بها، وإن طلبوا الحكم منك لأنَّهم لا يعتقدون صحة حكمك، وذلك دليل على أنَّه لا إيمان لهم بشيء، وأنَّ مقصودهم تحصيل منافع الدنيا، وأغراضهم الفاسدة، دون اتباع الحق.

الإعراب

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨﴾.

﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ مبتدأ. ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾: معطوف عليه، وفي الخبر وجهان:

أحدهما: وعليه سيبويه أنَّه محذوف تقديره: حكم السارق والسارقة فيما

(١) الجمل.

(٢) المراغي.

يتلى عليكم أو فيما فرض عليكم، ويكون قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾ بياناً لذلك الحكم المقدر، فما بعد الفاء مرتبط بما قبلها، ولذلك أتي بها فيه لأنَّه هو المقصود، ولو لم يؤتِ بالفاء لتوهم أنَّه أجنبي، والكلام على هذا جملتان: الأولى: اسمية خبرية، والثانية: فعلية إنشائية.

وثانيهما: وعليه الأخفش وجماعة من النحاة: أن الخبر الجملة الإنشائية من قوله: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾ وإنَّما دخلت الفاء في الخبر لشبه المبتدأ باسم الشرط في العموم، إذ الألف واللام فيه موصولة، بمعنى الذي والتي، والصفة صلتها، فهي في قوة قولك: والذي يسرق والتي تسرق فاقطعوا أيديهما، والجملة من المبتدأ والخبر على كلا الوجهين مستأنفة كما سبق، ذلك كله في بحث التفسير. ﴿أَيۡدِيَهُمَا﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿جَزَآءَۢ﴾: مفعول لأجله منصوب، بـ﴿اقطعوا﴾ فالجزاء علة للأمر بالقطع، أو منصوب على المصدرية بفعل محذوف تقديره: جازاهما الله جزاء على ما كسبا، والجملة المحذوفة معللة للقطع أيضاً، كما ذكره أبو البقاء. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر بمعنى على. ﴿ما﴾: موصولة أو مصدرية. ﴿كَسَبَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: على الذي كسباه من السرقة، أو صلة (ما) المصدرية تقديره: على كسبهما، والجار والمجرور على كلا الوجهين متعلق بـ﴿جَزَآءَۢ﴾. ﴿نَكَٰلٗا﴾: مفعول لأجله منصوب[1] بـ﴿جَزَآءَۢ﴾ فالنكال علة للجزاء، فتكون العلة معللة بشيء آخر، فتكون كالحال المتداخلة، كما تقول: ضربته تأديباً له، إحساناً إليه، فالتأديب علة للضرب، والإحسان علة للتأديب. اهـ. «سمين». ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿نَكَٰلٗا﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَزِيزٌ﴾ خبر أول. ﴿حَكِيمٞ﴾ خبر ثانٍ، والجملة مسأنفة.

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾.

---

(١) الفتوحات.

﴿فَمَن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حكم السارق والسارقة، وأردت بيان حكم من تاب بعد سرقته.. فأقول لك. ﴿من تاب﴾: من اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿تَابَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ(من) على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على مَنْ. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَابَ﴾. ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ(من) معطوف على ﴿تَابَ﴾: وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها منصوب. ﴿يَتُوبُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلَيۡهِۗ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتُوبُ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مسأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه. ﴿غَفُورٞ﴾ خبر أول له. ﴿رَّحِيمٌ﴾ خبر ثانٍ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. وما ذكر الشوكاني في أن الاستفهام للإنكار غير صواب. ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَعۡلَمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم، بـ﴿لم﴾ وفاعله ضمير يعود على محمد، أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾ وجملة ﴿أَنَّ﴾ من اسمها وخبرها في تأويل مصدر ساد مسد مفعول علم تقديره: ألم تعلم كون ملك السماوات والأرض له تعالى. ﴿يُعَذِّبُ﴾ فعل مضارع والفاعل يعود على الله. ﴿مَن﴾ اسم موصول في محل نصب مفعول به ﴿يَشَآءُ﴾ مضارع صلة

الموصول ﴿وَيَغْفِرُ﴾ معطوفة على ﴿يُعَذِّبُ﴾ ﴿لِمَن﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿يغفر﴾ ﴿يَشَآءُ﴾ مضارع والفاعل يعود على الله، والجملة صلة الموصول ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾. ﴿قَدِيرٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ (يا): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة. (ها): حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: صفة لـ(أي)، وجملة النداء مستأنفة. ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾: جازم وفعل ومفعول. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعل، والجملة الفعلية جواب النداء. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْكُفْرِ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ أو من ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾. ﴿قَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قالوا بأفواههم: آمنا. ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾: جازم وفعل وفاعل ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿قَالُوٓا۟﴾. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور معطوف على الجار والمجرور في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾، ﴿هَادُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم؛ أي: كل من الفريقين: اليهود والمنافقين قوم سماعون، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره مستأنفة، قوله: ﴿لِلْكَذِبِ﴾ فيه وجهان[1]:

أحدهما: اللام زائدة، تقديره: سماعون للكذب.

والثاني: ليست زائدة، فهي متعلقة بـ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، والمفعول محذوف تقديره

---

(١) العكبري.

سماعون أخباركم ليكذبوا عليكم فيها.

﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾.

﴿سَمَّٰعُونَ﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر سابقاً، وقيل توكيد لفظي للأول وتكرير له. ﴿لِقَوۡمٍ﴾ متعلق به؛ أي: لأجل قوم، ويجوز أن تتعلق اللام في ﴿لِقَوۡمٍ﴾ بالكذب سماعون الثاني: مكرر والتقدير: ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿ءَاخَرِينَ﴾ صفة أول ﴿لِقَوۡمٍ﴾. ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾: جازم وفعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر صفة ثانية ﴿لقوم﴾. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثالثة ﴿لِقَوۡمٍ﴾ أو في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم يحرفون الكلم، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾.

﴿يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر صفة رابعة ﴿لِقَوۡمٍ﴾، أو في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم يقولون، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾. ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن شئت قلت: ﴿إِنۡ﴾ حرف شرط جازم. ﴿أُوتِيتُمۡ﴾: فعل ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. هذا في محل النصب مفعول ثان. لـ﴿أُوتِيتُمۡ﴾ والأول كان نائب فاعل له. ﴿فَخُذُوهُ﴾ الفاء: رابطة لجواب (إنْ) الشرطية وجوباً. ﴿خذوه﴾ فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إِنۡ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنۡ﴾ الشرطية في محل النصب مقول القول. ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ﴾ الواو: عاطفة. ﴿إِن﴾ حرف شرط. ﴿لَّمۡ﴾: حرف جزم. ﴿تُؤۡتَوۡهُ﴾: فعل ونائب فاعل ومفعول ثان مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾: (الفاء): رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿احذروا﴾ فعل وفاعل مبني على حذف النون، والجملة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها جواباً

لها، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة عل جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿يَقُولُونَ﴾.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿يُرِدِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿منْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَلَن﴾ (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية وجوباً، لكون الجواب مقروناً بلن. ﴿لن﴾: حرف نصب. ﴿تَمْلِكَ﴾ منصوب بـ﴿لن﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَمْلِكَ﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَمْلِكَ﴾ أيضاً، أو حال من ﴿شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به أو منصوب على المصدرية، وجملة ﴿تَمْلِكَ﴾ في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَنْ﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: خبر والجملة مستأنفة ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ جازم وفعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد الضمير في ﴿قُلُوبَهُمْۚ﴾ ﴿أَن﴾ حرف نصب. ﴿يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾: فعل ومفعول به ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: لم يرد الله تطهير قلوبهم. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: جار ومجرور متعلق بالاستقرار المتعلق به الخبر. ﴿خِزْيٌۖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة[1] استئنافاً بيانياً لجواب سؤال ناشىء من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب، كأنَّه قيل: فما لهم من العقوبة؟ فقيل: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا

(١) الفتوحات.

﴿خِزۡيٌۖ﴾ إلخ. ﴿وَلَهُمۡ﴾ الواو: عاطفة. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار المتعلق به الخبر. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٞ﴾ صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾.

﴿سَمَّٰعُونَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم سماعون، والجملة مستأنفة كرره للتأكيد وتوطئة لما بعده. ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ متعلق به. ﴿أَكَّٰلُونَ﴾: خبر لمبتدإ محذوف. ﴿لِلسُّحۡتِۚ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة بعاطف مقدر على الجملة التي قبلها. ﴿فإن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حالهم الخبيثة وأردت بيان حكم ما إذا تحاكموا إليك.. فأقول لك. ﴿إن جاءوك﴾ إن حرف شرط. ﴿جَآءُوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول في محل الجزم بإنْ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَٱحۡكُم﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية وجوباً. ﴿احكم﴾: فعل أمر في محل الجزم (بإنْ) على كونه جواباً لها مبني على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿أَوۡ﴾ حرف عطف وتخيير ﴿أَعۡرِضۡ﴾: فعل أمر في محل الجزم معطوف على ﴿احكم﴾، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَنۡهُمۡۖ﴾: جار ومجرور، متعلق به، وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية: في محل النصب قول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

﴿وَإِن﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُعۡرِضۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(إن) على كونه فعل شرط لها وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به. ﴿فَلَن﴾: الفاء: رابطة لجواب (إن) الشرطية وجوباً، لاقترانه بـ(لن). ﴿لن﴾: حرف نصب. ﴿يَضُرُّوكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بـ(لن). ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: شيئاً من الضرر،

والجملة الفعلية في محل الجزم بإنْ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة إن الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة إن الأولى على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿وَإِنْ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿حَكَمْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿فَاحْكُم﴾ (الفاء): رابطة لجواب ﴿إنْ﴾ الشرطية. ﴿احكم﴾: فعل أمر في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَيْنَهُم﴾ ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿بِالْقِسْطِ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ﴿احكم﴾ تقديره: حالة كونك متلبساً بالقسط، وجملة إن الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة إن الأولى. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ناصب واسمه ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾.

﴿وَكَيْفَ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿كيف﴾ اسم استفهام في محل النصب حال من فاعل ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول مرفوع بثبات النون، والجملة مستأنفة. ﴿وَعِندَهُمُ﴾ الواو: واو الحال. ﴿عندهم﴾: ظرف ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿التَّوْرَاةُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ مبتدأ مؤخر ومضاف إليه، والجملة في محل النصب حال من التوراة، والعامل فيها ما في (عند) من معنى الفعل.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾، والجملة معطوفة على جملة

﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ ﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾ حجازية تعمل عمل ليس. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محل الرفع اسمها. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبر ﴿ما﴾ والباء زائدة والجملة مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾: ﴿السارق﴾: اسم فاعل من سرق يسرق من باب ضرب سرقاً بفتح الراء وسرقاً بكسرها، وسرقة بفتحها وسرقة بكسرها وسرقاناً، يقال: سرقه الشيء، وسرق منه الشيء، إذا أخذه منه خفية وبحيلة. وقال[1] الجوهري: السرقة بكسر الراء اسم الشيء المسروق، والمصدر من سرق يسرق سرقاً، وسرقة، وهو: أخذ الشيء في خفية عن الأعين، ومنه استرق السمع ومسارقة النظر. ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ اسم فاعل لمذكر يجمع على سرقة ككامل وكملة، وعلى سراق كعاذل وعذال، وعلى سارقون. ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾: اسم فاعل لمؤنث يجمع على سوارق وسارقات. وقال ابن عرفة[2]: السارق عند العرب: من جاء مستتراً إلى حرز فأخذ منه ما ليس له. ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾: يقال قطع الشيء يقطع، من باب فتح قطعاً ومقطعاً وتقطاعاً إذا جزه وأبانه وفصله، والقطع معناه: الإزالة والإبانة. والأيدي جمع يد برد اللام المحذوف في المفرد اعتباطاً؛ أي: لغير علة تصريفية، وجمعه هنا فراراً من كراهة الجمع بين تثنيتين، لو قال فاقطعوا يديهما، واليد: الجارحة المعروقة، واختلفوا في محل قطعها كما بيناه في بحث التفسير.

﴿جَزَآءًۢ﴾ مصدر معنوي لاقطعوا؛ فهو منصوب به؛ لملاقته له في المعنى، أو منصوب بمحذوف يلاقيه في اللفظ تقديره: فجازوهما جزاء ﴿نَكَٰلًا﴾ اسم مصدر لنكل من باب فعل المضاعف ينكل تنكيلاً ونكالاً، ككلم يكلم تكليماً وكلاماً. وفي «المصباح»: نكل به ينكل من باب قتل نكلة قبيحة إذا أصابه بنازلة،

(١) الصحاح.
(٢) البحر المحيط.

ونكل به بالتشديد مبالغة، والاسم النكال. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ﴾ والحزن: ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب، ويقال: حزن يحزن حزناً من باب نصر ضد سره، وحزن يحزن حزناً من باب فرح له، وعليه ضد سر وفرح، فهو حزين، وأحزن الرجل إذا حزنه.

قال الشوكاني[1]: الحزن والحزن: خلاف السرور، وحزن الرجل بالكسر فهو حزن وحزين، وأحزنه غيره وحزنه، قال اليزيدي: حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم وقد قرىء بهما ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ يقال: سارع[2] إلى الشيء إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه، وأسرع فيه إذا أسرع فيه وهو داخل فيه، وهنا كان الكفار داخلين في ظرف الكفر محيطاً بهم سرادقه، فالمفاعلة في سارع ليست على بابه، فهو بمعنى أسرع ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ جمع سماع من صيغ المبالغة على زنة فعال معدول عن سامعون وكذلك ﴿أَكَّٰلُونَ﴾ جمع أكال مبالغة آكل ﴿لِلسُّحۡتِۚ﴾ السحت والسحت بسكون الحاء وضمها: الحرام وكل ما خبث من المكاسب وحرم، فلزم منه العار، وقبح الذكر، كثمن الكلب والخنزير والخمر والرشوة في الحكم، سمي بذلك لأنه يسحت البركة؛ أي: يذهبها، أو لأنه يسحت عمر صاحبه، ويقال: سحته الله؛ أي: أهلكه، ويقال: أسحته إذا استأصله. وفي «المختار»: وسحته من باب قطع وأسحته استأصله، وقرىء بهما في قوله تعالى: ﴿فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾؛ أي: يستأصلكم ويهلككم، ومصدر الثلاثي سحت بفتحتين وسحت بإسكان الحاء. وقال الفراء: أصل السحت كلب الجوع، ويقال: فلان مسحوت المعدة إذا كان لا يلقى أحداً إلا خائفاً، وهو راجع لمعنى الهلاك، ويقال للحالق اسحت؛ أي: استأصل، وسمى الحرام سحتاً لأنَّه يسحت الطاعات؛ أي: يذهبها ويستأصلها.

---

(١) فتح القدير.

(٢) المراغي.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

منها: العموم في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾؛ لأن أل فيهما موصولة فتعم؛ لأنَّ المعنى: والذي سرق والتي سرقت.

ومنها: المجاز المرسل بإطلاق الكل وإرادة البعض في قوله: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ لأنَّ المقطوع الكف لا كل اليد.

ومنها: وضع الجمع موضع المثنى، لأنَّ المقطوع يمينهما؛ لأنَّه ليس في الإنسان إلا بيمين واحدة، وما هذا سبيله يجعل فيه الجمع مكان الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

ومنها: الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتفخيم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

ومنها: إيثار كلمة ﴿في﴾ الدالة على الظرفية على كلمة ﴿إلى﴾ الأصلية في تعدية مادة سارع في قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يفارقونه، وإنَّما يتنقلون بالمسارعة عن بعض فنونه إلى بعض آخر.

ومنها: التفصيل في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾، و﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، و﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، وفي قوله: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، و﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لزيادة التأكيد والتقرير.

ومنها: تنكير ﴿خِزْىٌ﴾ للتفخيم والتهويل.

ومنها: الطباق بين كلمتي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجيبي في قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ لأنه تعجيب لرسول الله ﷺ من تحكيمهم إياه، وهم لا يؤمنون به وبكتابه.

ومنها: الإشارة بالبعيد في قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للإيذان ببعد درجتهم في العتو والمكابرة.

ومنها: اللف والنشر المشوش في قوله: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ فهما راجعان لقوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ على خلاف الترتيب السابق.

ومنها: الحذف في مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر عجيب حال اليهود من تركهم حكم التوراة وهم يعلمونه، وطلبهم من النبي ﷺ الحكم بينهم ورضاهم به إذا وافق أهوائهم، وتركهم له إذا جاء على غير ما يريدون.. ذكر هنا أمر التوراة وأنها أنزلت هداية لبني إسرائيل، ثم أعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد،

---

(١) المراغي.

وفي ذلك من العبرة أن الانتماء إلى الدين لا ينفع أهله إذا لم يقيموه ولم يتهدوا بهديه، وأن إيثار أهل الكتاب أهوائهم على هدى دينهم هو الذي أعمى لهم عن نور القرآن والاهتداء به.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أنَّه تعالى لما ذكر أنَّه بين في التوراة أن حكم الزاني المحصن الرجم، وغيرته اليهود.. ذكر هنا أنَّه بين في التوراة أن النفس بالنفس وغيرته اليهود أيضاً، ففضلوا بني النضير على بني قريظة، وخصوا إيجاب القود على بني قريظة دون بني النضير.

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أنَّه لما ذكر تعالى أنَّ التوراة يحكم بها النبيون.. ذكر هنا أنَّه قفاهم بعيسى ابن مريم تنبيهاً على أنَّه من جملة الأنبياء، وتنويهاً وتنزيهاً له عما تدعيه اليهود فيه، وأنَّه من جملة مصدقي التوراة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[3]: أن الله سبحانه وتعالى لما بين إنزال التوراة ثم الإنجيل على بني إسرائيل، وذكر ما أودعه فيهما من الهدى والنور، وما ألزمهم به من إقامتهما، وما أوعدهم به من العقاب على ترك الحكم بهما.. ذكر هنا إنزاله القرآن على خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ومنزلته من الكتب قبله، وأنَّ الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر.

وعبارة أبي حيان[4] قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنَّه أنزل التوراة فيها هدى ونور، ولم يذكر من أنزلها عليه لاشتراكهم كلهم في أنَّها أنزلت على موسى، فترك ذكره للعلم بذكر، ثم ذكر عيسى وأنَّه أتاه الإنجيل، فذكره ليقروا أنَّه من

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

جملة الأنبياء، إذ اليهود تنكر نبوته وإذا أنكرته أنكرت كتابه، فنص تعالى عليه وعلى كتابه.. ذكر هنا إنزال القرآن على محمد ﷺ، فذكر الكتاب ومن أنزله عليه مقرراً لنبوته وكتابه؛ لأن الطائفتين ينكرون نبوته وكتابه، وجاء هنا ذكر المنزل عليه بكاف الخطاب لأنَّه أنص على المقصود، وكثيراً ما جاء ذلك بلفظ الخطاب لأنَّه لا يلتبس ألبتة.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ الآية، قال المفسرون[1]: سبب نزول هذه الآية: استفتاء اليهود رسول الله ﷺ في أمر الزانيين وقد سبق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: أنَّ جماعة من اليهود ـ منهم كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس ـ قال بعضهم لبعض.. اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن تبعناك اتبعك اليهود، وإنَّ بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم إليك، فتقفي لنا عليهم ونحن نؤمن بك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.

وذكر مقاتل: أن جماعة من بني النضير قالوا له: هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا أهل قريظة في أمر الدماء كما كنا عليه من قبل ونبايعك؟ فنزلت هذه الآية. قال القاضي أبو يعلى: وليست هذه الآية تكراراً لما تقدم، وإنما نزلتا في شيئين مختلفين، أحدهما: في شأن الرجم، والآخر في التسوية في الديات حين تحاكموا إليه.

قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ...﴾ الآية، سبب نزولها[3]: أن النبي ﷺ لما حكم بالرجم على اليهوديين تعلق بنو قريظة ببني النضير وقالوا: يا محمد

---

(١) زاد المسير.

(٢) زاد المسير.

(٣) زاد المسير.

هؤلاء إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، إذا قتلوا منا قتيلاً.. أعطونا سبعين وسقاً من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً.. أخذوا منا مئة وأربعين وسقاً، وإن قتلنا منهم رجلاً قتلوا به رجلين، وإن قتلنا امرأة.. قتلوا بها رجلاً، فاقض بيننا بالعدل، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لبني النضير على بني قريظة فضل في عقل ولا دم». فقال بنو النضير: والله لا نرض بقضائك، ولا نطيع أمرك، ولنأخذن بأمرنا الأول، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

قال الزجاج: ومعنى الآية: أتطلب اليهود حكماً لم يأمر الله به وهم أهل كتاب الله كما تفعل الجاهلية؟

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ على موسى عليه السلام ﴿فِيهَا هُدًى﴾؛ أي: بيان[1] للأحكام والشرائع والتكاليف ﴿وَنُورٌ﴾؛ أي: بيان للتوحيد والعقائد والنبوة والمعاد.

وعبارة المراغي هنا: أي إنَّا[2] أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق، وعلى نور وضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم، وبهذا الهدى خرج بنو إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وبذلك النور أبصروا طريق الاستقلال في أمر دينهم ودنياهم ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾؛ أي: بالتوراة. ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾؛ أي: انقاد، والحكم بالتوراة، فإن من الأنبياء من لم تكن شريعته شريعة التوراة، والذين كانوا منقادين لحكم التوراة هم الذين كانوا من مبعث موسى إلى عيسى عليهما السلام. وقيل: بينهما ألف نبي، وكلهم بعثوا بإقامة التوراة حتى يحدوا حدودها، ويقوموا بفرائضها، ويحلوا حلالها، ويحرموا حرامها ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ متعلق بيحكم؛ أي: يحكمون بها فيما بين اليهود؛ أي: يحكمون لهم وعليهم وبهم.

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

وعبارة المراغي[1]: أي أنزلناها قانوناً يحكم به النبيون الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين، موسى ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل إلى عيسى عليه السلام، للذين هادوا؛ أي: لليهود خاصة لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة، ولم يكن لداود وسليمان وعيسى شريعة دونها. انتهت.

وقال الحسن والزهري وعكرمة وقتادة والسدي[2]: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو سيدنا محمد ﷺ لأنَّه حكم على اليهوديين بالرجم، وكان هذا حكم التوراة، وإنَّما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له، ولأنَّه قد اجتمع فيه من خصال الخير ما كان حاصلاً لأكثر الأنبياء.

وقال ابن الأنباري: هذا رد على اليهود والنصارى؛ لأنَّ بعضهم كانوا يقولون الأنبياء كلهم يهود أو نصارى، فرد الله عليهم بذلك؛ أي: فإنَّ الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين؛ أي: منقادين لتكاليف الله تعالى، وفي ذلك تنبيه على قبح طريقة هؤلاء اليهود المتأخرين، فإن غرضهم من ادعاء الحكم بالتوراة أخذ الرشوة، واستتباع العوام، وتعريض بهم بأنهم بعدوا عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء عليهم السلام.

وقال ابن عباس: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾؛ أي: تابوا من الكفر ورجعوا عن عبادة العجل، وقال الزجاج[3]: ويحتمل أن يكون في الآية تقديم وتأخير على معنى: إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾؛ أي: ويحكم بأحكام التوراة الربانيون؛ أي: العلماء المجتهدون الذين انسلخوا من الدنيا، وزهدوا فيها، واشتغلوا بترتبية الناس بالدين والعلم ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾؛ أي: ويحكم بها الأحبار؛ أي: العلماء الذين حبروا وستروا الجهل والضلال بعلمهم وصلاحهم، والتزموا طريقة النبيين، وجانبوا دين اليهود، فالمراد بالربانيين الزهاد، وبالأحبار العلماء. وعن ابن عباس: الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره، والأحبار هم الفقهاء وسائر علمائهم

(1) المراغي.
(2) المراح.
(3) زاد المسير.

والمعنى: ولا تتركوا بيانها للناس والعمل بها رجاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه، أو غيرهما من الحظوظ العاجلة التي تصدكم عن الاهتداء بآيات الله، وتمنعكم عن الخير العظيم الذي تنالونه من ربكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه، وحكم بغيره، كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتحميم، وكتمانهم الرجم وقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة، وفي بعضهم بنصف الدية، والله قد سوى بين الجميع في الحكم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبينه، وغطوه وأظهروا لهم غيره، وقضوا به. وعبارة «المراح» هنا: قال ابن عباس: ومن لم يبين ما بين الله تعالى في التوراة من نعت محمد، وآية الرجم.. فأولئك هم الكافرون بالله والرسول والكتاب. وقال عكرمة: أي: ومن لم يحكم بما أنزل الله، منكراً له بقلبه، وجاحداً له بلسانه.. فقد كفر. أمَّا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه ذلك إلا أنَّه حكم بضده.. فهو ظالم فاسق لتركه حكم الله تعالى. انتهت. وخلاصة المعنى: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به منكراً له.. كان كافراً لجحوده به، واستخفافه بأمره، وإنما ذكر[1] الكفر هنا لأنَّه يناسب المقام؛ لأنَّه جاء عقب قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهذا كفر، فناسب ذكر الكفر هنا، والإشارة بقوله ﴿أولئك﴾ إلى من، والجمع باعتبار معناها، وكذلك ضمير الجماعة في قوله: ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فصل

واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآيات الثلاث فيه[2]، وهي قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. فقال

---

(١) الفتوحات. (٢) الخازن.

جماعة من المفسرين: إن الآيات الثلاث نزلت في الكفار، ومن غير حكم الله من اليهود، لأنَّ المسلم وإن ارتكب كبيرة لا يقال: إنَّه كافر، وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن البراء بن عازب. قال: أنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في الكفار كلها أخرجه مسلم.

وعن ابن عباس قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصةً قريظة والنضير، أخرجه أبو داود. وقال مجاهد في هذه الآيات الثلاث: من ترك الحكم بما أنزل الله رداً لكتاب الله.. فهو كافر ظالم فاسق. وقال عكرمة: ومن لم يحكم بما أنزل الله، جاحداً به.. فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به.. فهو ظالم فاسق. وهذا قول ابن عباس أيضاً، واختيار الزجاج لأنَّه قال: من زعم أن حكماً من أحكام الله تعالى التي أتت بها الأنبياء باطل.. فهو كافر. وقال طاووس: قلت لابن عباس أكافر من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال: به كفر وليس بكفر، ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ونحو هذا روي عن عطاء قال: هو كفر دون الكفر. وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود، وفي هذه الأمة، فكل من ارتشى وبدل الحكم، فحكم بغير حكم الله تعالى.. فقد كفر وظلم وفسق، وإليه ذهب السدي، لأنه ظاهر الخطاب. وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عياناً عمداً وحكم بغيره، وأما من خفي عليه النص، أو أخطأ في التأويل.. فلا يدخل في هذا الوعيد. وقال الرازي نقلاً عن عكرمة: إنَّ الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله إنَّما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أمَّا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنَّه أتى بما يضاده.. فهو حاكم بما أنزل الله ولكنَّه تارك له، فلا يدخل تحت هذه الآية. وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: الثلاث الآيات التي في المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إلخ، ليس في الإسلام منها شيء، هي من الكفار. وعن الشعبي أنَّه قال: الثلاث الآيات التي في

المائدة أولها في هذه الأمة، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾؛ أي: فرضنا على بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ الجانية مقتولة ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ المجني عليها فمدخول الباء هو المجنيّ عليه في هذا وما عطف عليه ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ مفقوءة ﴿بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ﴾ مجدوعة ﴿بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ﴾ مقطوعة ﴿بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ﴾ مقلوعة ﴿بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ﴾ والمراد بها ما يشمل الأطراف ﴿قِصَاصٌ﴾؛ أي: ذات قصاص إذا كانت بحيث تعرف المساواة؛ أي: يقتص فيها إذا أمكن فيها القصاص كالشفتين والأنثيين واليدين والقدمين واللسان والذكر ونحو ذلك. أمَّا ما لا يمكن فيه القصاص، كرض في لحم أو كسر في عظم، أو جراحة في بطن يخاف منها التلف.. ففيه أرش وحكومة. والحكومة[1]: جزء من دية النفس نسبته إليها كنسبة ما نقص من قيمة المجني عليه بفرضه رقيقاً، فلو كانت قيمته بلا جناية عشرة وبها تسعة.. فالحكومة عشر الدية، وهذا الحكم وإن كتب عليهم فهو مقرر في شرعنا.

وفي هذه الآية توبيخ لليهود، وتقريع لكونهم يخالفون ما كتبه الله عليهم في التوراة كما حكاه هنا، ويفاضلون بين الأنفس كما سبق، وقد كانوا يقيدون بني النضير من بني قريظة، ولا يقيدون بني قريظة من بني النضير.

وظاهر النظم القرآني[2]: أن العين إذا فقئت حتى لم يبق فيها مجال للإدراك.. أنَّها تفقأ عين الجاني بها، والأنف إذا جدعت جميعها.. فإنَّها تجدع أنف الجاني بها، والأذن إذا قطعت جميعها.. فإنها تقطع أذن الجاني بها، وكذلك السن. فأمَّا إذا كانت الجناية ذهبت ببعض إدراك العين، أو ببعض الأنف، أو ببعض الأذن.. فليس في هذه الآية ما يدل على ثبوت القصاص، وقد اختلف في ذلك إذا كان معلوم القدر يمكن الوقوف على حقيقته، وكلامهم مدوّن في كتب الفروع.

---

(١) الجمل. (٢) الشوكاني.

والظاهر في قوله: ﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أنَّه لا فرق بين الثنايا والأنياب والأضراس والرباعيات، وأنَّه يؤخذ بعضها ببعض، ولا فضل لبعضها على بعض، وإليه ذهب أكثر أهل العلم، ولكنه ينبغي أن يكون المأخوذ في القصاص من الجاني هو المماثل للسن المأخوذة من المجني عليه، فإن كانت ذاهبة.. فما يليها. وقرأ[1] نافع وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب والأعمش بنصب ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ وما بعدها من المعاطيف على التشريك في عمل إن النصب، وخبر إن هو المجرور، وخبر والجروح قصاص، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بنصب، ﴿والعين﴾ ﴿والأنف﴾ ﴿والأذن﴾ ﴿والسن﴾، ورفع ﴿والجروح﴾ على أثر الجروح مبتدأ خبره قصاص، فتكون عاطفة جملة على جملة، وفيما قبله عاطفة مفرد على مفرد، وقرأ الكسائي وأبو عبيد بالرفع في الجميع عطفاً على المحل؛ لأن النفس قبل دخول الحرف الناصب عليها كانت مرفوعة على الابتداء. قال ابن المنذر: ومن قرأ بالرفع جعل ذلك ابتداء كلام يتضمن بيان الحكم للمسلمين. وقرأ أبيّ بنصب النفس والأربعة بعدها، وقرأ ﴿وأن الجروح قصاص﴾ بزيادة أن الخفيفة، ورفع الجروح، ويتعين في هذه أن تكون أن مخففة من الثقيلة لا تفسيرية. وقرأ نافع ﴿والأذن بالأذْن﴾ بإسكان الذال معرفاً ومنكراً، ومثنى حيث وقع، وقرأ الباقون بالضم، فقيل: هما لغتان كالنكر والنكر، وقيل: الإسكان هو الأصل وإنما ضم اتباعاً. وقيل: التحريك هو الأصل وإنما سكن تخفيفاً.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾؛ أي: فمن تصدق بما يثبت له من حق القصاص، وعفا عن الجاني، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: فهذا التصدق ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾؛ أي: لذلك المتصدق يكفر الله به ذنوبه، ويعفو عنه كما عفا عن أخيه بقدر ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته، وفي هاء ﴿له﴾[2] قولان: أحدهما: أن الهاء في ﴿له﴾ كناية عن المجروح أو وليّ المقتول، وذلك أن المجروح إذا تصدق بالقصاص.. كان ذلك كفارة لذنوبه، وهذا قول ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص والحسن، ويدل له ما روي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل

---

(١) البحر المحيط. (٢) الخازن.

يصاب بشيء من جسده فيتصدق به.. إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة». أخرجه الترمذي. وعن أنس قال: (ما رأيت رسول الله ﷺ رفع إليه شيء فيه قصاص إلا أمر فيه بالعفو) أخرجه أبو داود والنسائي. وعن عبد الله بن عمر: تهدم عنه ذنوبه بقدر ما تصدق به. وروى عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق من جسده، بشيء.. كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه». والقول الثاني: في أن الضمير في قوله له يعود إلى الجارح أو القاتل، يعني أن المجني عليه إذا عفا عن الجاني.. كان ذلك العفو كفارة لذنب الجاني لا يؤاخذ به في الآخرة، وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل، كما أن القصاص كفارة، وأمَّا أجر العافي فعلى الله تعالى.

قال ابن القيم: والتحقيق أن القاتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله تعالى، وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولي ندماً على ما فعل، وخوفاً من الله تعالى، وتوبة نصوحاً.. سقط حق الله تعالى بالتوبة، وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق للمقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده، ويصلح بينه وبينه انتهى.

ولو سلم القاتل نفسه اختياراً من غير ندم وتوبة، أو لم يمكن من نفسه بل قتل كرهاً.. سقط حق الوارث فقط، وبقي حق الله تعالى؛ لأنه لا يسقط إلا بالتوبة، وبقي أيضاً حق المقتول، ويطالبه به في الآخرة لأن القاتل لم يسلم نفسه تائباً، ولم يصل منه للمقتول شيء. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تعالى في القصاص، وفي غيره، نزلت[1] هذه الآية حين اصطلحوا على أنْ لا يقتل الشريف بالوضيع ولا الرجل بالمرأة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الممتنعون عن حكم الله ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم، حيث لم يحكموا بما أنزل الله تعالى، الضارون لها بالعقوبة المؤبدة؛ أي: إن[2] كل من أعرض عما أنزل من القصاص المبني على قاعدة المساواة بين الناس، وحكم بغيره.. فهو من الظالمين، إذ العدول عن ذلك لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر، وغمص حق المفضل عليه وظلمه.

---

(١) الفتوحات. (٢) المراغي.

والإتيان[1] بضمير الفصل مع اسم الإشارة، وتعريف الخبر يستفاد منه أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية، وناسب ذكر الظلم هنا لأنه جاء عقب أشياء مخصوصة من أمر القتل والجرح، فناسب ذكر الظلم المنافي للقصاص والتسوية، وإشارة إلى ما كانوا قرروه من عدم التساوي بين النضير وقريظة. ذكره أبو حيان. قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ شروع[2] في بيان أحكام الإنجيل إثر بيان أحكام التوراة، وهو عطف على أنزلنا التوراة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: وأتبعنا على آثار النبيين الذين يحكمون بالتوراة وبعثنا عقبهم بعيسى ابن مريم حالة كون عيسى ﴿مُصَدِّقًا﴾ وموافقاً بقوله وفعله ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: لما قبل عيسى مما أتى به موسى ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ في التوحيد وبعض الشرائع، ومعنى كون عيسى مصدقاً للتوراة أنه أقرّ بأنه كتاب منزل من عند الله تعالى، وأقر بأنه كان حقاً، وجب العمل به قبل ورود النسخ والمعنى؛ أي:[3] وبعثنا عيسى بن مريم بعد هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعاً طريقهم، جارياً على هديهم، مصدقاً للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله، فشريعة عيسى عليه السلام هي التوراة، وقد نقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال: «ما جئت لأنقض الناموس» شريعة التوراة «وإنَّما جئت لأتمم»، أي: لأزيد عليها ما شاء الله أن أزيد من الأحكام والمواعظ، ولكن النصارى نسخوها وتركوا العمل بها إتباعاً لبولس - رئيسهم - وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أعطينا عيسى ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ بكسر الهمزة وقرىء شاذاً بفتحها معطوف على قفينا وقوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ حال من الإنجيل؛ أي: وأعطيناه الإنجيل حالة كون الإنجيل مشتملاً على الهدى، ومنقذاً من الجهالة والضلالة، لاشتماله على الدلائل الدالة على التوحيد، والتنزيه المنافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل، وعلى براءة الله تعالى عن الزوجة والولد والمثل والضد، وعلى النبوة، وعلى المعاد، ومشتملاً على النور والبيان الذي يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه، لأنه بيان للأحكام الشرعية، ولتفاصيل التكاليف.

---

(١) الشوكاني. (٢) أبو السعود. (٣) المراغي.

والخلاصة: حالة كون الإنجيل هادياً إلى التوحيد، ونوراً وبياناً للأحكام المشروعة لهم، والمراد بالهدى التوحيد، وبالنور الأحكام، فالعطف مغاير (و) حالة كون الإنجيل ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: لما قبل الإنجيل ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وهنا المنصوب معطوف على محل فيه هدى ونور على كونه حالاً من الإنجيل.. فليس بتكرار للأول، لأن في الأول: الإخبار بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة، وفي الثاني: الإخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة فظهر الفرق بين اللفظين، وأنَّه ليس بتكرار، فالإنجيل مشتمل على النص بتصديق التوراة زيادة على تصديق المسيح لها بقوله وعمله.

والمعنى: أي حال كونه موافقاً لما في التوراة من أصول الدين، ومن بعض الشرائع، أو معترفاً بأنها من عند الله وإن نسخت أحكامها، لأن الله سبحانه وتعالى كلف أمة كل عصر بأحكام تناسبها، فالنسخ في الأحكام الفرعية لا الأصول كالتوحيد فلا نسخ فيه، بل ما كان عليه آدم من التوحيد هو ما عليه باقي الأنبياء ﴿و﴾ حالة كون الإنجيل ﴿هُدًى﴾ للناس؛ أي: سبب اهتداء لهم لاشتماله على البشارة بمبعث محمد ﷺ، فهو سبب لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ، فهذه المسألة أشد المسائل احتياجاً إلى البيان، فالإنجيل يدل دلالة ظاهرة عليها لكثرة المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى في ذلك، فظهر مما ذكرنا لك الفرق بين هدى وهدى مرتين ﴿و﴾ حالة كون الإنجيل ﴿موعظة للمتقين﴾؛ أي: واعظاً لهم لاشتماله على النصائح والزواجر والمواعيظ البليغة، والأمثال والحكم النافعة، وإنَّما خص الموعظة بالمتقين؛ لأنَّهم الذين ينتفعون بها. والحكمة[1] في زيادة الموعظة في الإنجيل دون التوراة لأن التوراة كان فيها الأحكام الشرعية فقط، وإنما المواعظ كانت في الألواح وقد تكسرت، وأما الإنجيل فهو مشتمل على الأحكام والمواعظ جميعاً.

وقرأ الضحاك: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ بالرفع، أي: وهو هدى وموعظة. وقرأ الجمهور بالنصب كما تقدم تقريره ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ﴾ قرأ الجمهور بلام الأمر ساكنة، وجزم الفعل بعدها، وبالواو حينئذ عاطفة، والجملة مقول لقول

---

(١) صاوي.

محذوف معطوف على آتينا، والمعنى: وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه ومن تبعه بالحكم ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾؛ أي: في **الإنجيل** من الأحكام، فإنه قبل البعثة المحمدية حق، وأما بعدها فقد أمروا في غير موضع بأن يعملوا بما أنزل الله على محمد ﷺ في القرآن الناسخ لكل الكتب المنزلة، أو المعنى[١]: وليحكم أهل الإنجيل، بما أنزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ، ومن الأحكام التي لم تنسخ بالقرآن، فإن الحكم بالأحكام المنسوخة ليس حكماً بما أنزل الله فيه بل هو تعطيل له، إذ هو شاهد بنسخها؛ لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة بنسخها. وقرأ الأعمش وحمزة بنصب الفعل من ﴿يحكم﴾ وكسر اللام، على أن اللام لام كي، والواو حينئذ للاستئناف، واللام متعلقة بمحذوف والتقدير: وآتيناه الإنجيل ليحكم هو ومن تبعه بما أنزل فيه من الأحكام في زمانهم. وقرأ أبي[٢]: ﴿وأن ليحكم﴾ بزيادة أن قبل لام كي، ونصب الفعل بعدها، فأن زائدة، فاللام متعلقة بمحذوف تقديره: وآتيناه الإنجيل ليحكم هو ومن تبعه بما أنزل الله فيه كما مرّ آنفاً. وقرىء[٣] أيضاً: ﴿وأن ليحكم﴾ بجزم الفعل على أن موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم؛ أي: وأمرنا بأن ليحكم.

قال أهل المعاني[٤]: قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المعنى: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل، فيكون هذا إخباراً عما فرض عليهم في وقت إنزاله عليهم من الحكم بما تضمنه الإنجيل، ثم حذف القول؛ لأن ما قبله من قوله: (وكتبنا) (وقفينا) يدل عليه، وحذف القول كثير.

والوجه الثاني: أن يكون قوله (ليحكم) ابتداءً واستئنافاً، وفيه أمر للنصارى بالحكم بما في كتابهم وهو الإنجيل.

فإن قلت: فعلى هذا الوجه كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن.

---

(١) المراح.
(٢) البحر المحيط.
(٣) بيضاوي.
(٤) الخازن.

قلت: إنَّ المراد بهذا الحكم الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن ذكره في الإنجيل ووجوب التصديق بنبوته موجود، فإذا آمنوا بمحمد ﷺ. . فقد حكموا بما في الإنجيل.

وعبارة المراغي: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾؛ أي:[1] وقلنا لهم: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الأحكام، والمراد: وأمرناهم بالعمل به، فهو كقوله في أهل التوراة ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾، وخلاصة ذلك زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره، مثل ما فعل اليهود من إخفاء أحكام التوراة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في الكتب المنزلة من عنده تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: المتمردون الخارجون عن الإيمان إنْ كان مستهيناً، وعن طاعة الله إنْ كان لاتباع الشهوات. والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام، وأن عيسى عليه السلام كان مستقلاً بشرع مأموراً بالعمل بما فيه من الأحكام، قلت أو كثرت، لا بما في التوراة خاصة، ويشهد لذلك حديث البخاري «أعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها، وأهل الإنجيل الإنجيل فعملوا. . .» الحديث. وناسب[2] هنا ذكر الفسق؛ لأنه خروج عن أمر الله تعالى إذ تقدم قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ وهو أمركما قال تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: خرج عن طاعة أمره تعالى، فقد اتضح مناسبة ختم الجملة الأولى بالكافرين، والثانية بالظالمين، والثالثة بالفاسقين.

وفي الحقيقة[3]: الفسق يرجع للظلم؛ لأنَّه مخالفة الأمر، فتعبيره بالظلم أولاً، وبالفسق ثانياً، تفنن. قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وما عطف عليه؛ أي: وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب؛ أي: القرآن حالة كونه متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق والعدل، فالجار والمجرور في محل الحال من الكتاب، أو من فاعل أنزلنا، أو من الكاف في إليك، وحالة كونك ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: لما تقدمه ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: من[4] الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله تعالى على عبده ورسوله

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) صاوي.

(٤) ابن كثير.

محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾. وفي «الفتوحات» قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال من الكتاب؛ أي: حال كونه مصدقاً لما تقدمه، إما من حيث أنَّه نازل حسبما نعت فيه، أو من حيث إنَّه موافق له في القصص والمواعيد، والدعوة إلى الحق والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش. وأمَّا ما يترائى من مخالفته في بعض جزئيات الأحكام المتغيرة بسبب تغير الأعصار.. فليس بمخالفة في الحقيقة، بل هي موافقة لها من حيث إنَّ لكل من تلك الأحكام حق الإضافة إلى عصره، متضمن للحكمة التي يدور عليها أمر الشريعة، وليس في المتقدم دلالة على أبدية أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر، وإنما يدل على مشروعيتها مطلقاً من غير تعرض لبقائها وزوالها، بل نقول: هو ناطق بزوالها، مع أن الناطق بصحة ما ينسخها نطق بنسخها وزوالها. اهـ. «أبو السعود». وقوله: ﴿مَا يُتْلَىٰ﴾ معطوف على مصدقاً؛ أي: وأنزلنا[1] عليك هذا القرآن حالة كونه أميناً وشاهداً وحاكماً على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب الكريم الذي أنزله على محمد ﷺ آخر الكتب وخاتمها، وأشملها وأعظمها، وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل الله تعالى بحفظه بنفسه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ لأن هذا القرآن هو الذي لا ينسخ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف، وإذا كان كذلك.. كانت شهادة القرآن على سائر الكتب بالصدق باقية.

وقرأ ابن محيصن ومجاهد[2]: ﴿مهيمَناً﴾ بفتح الميم الثانية على صيغة اسم المفعول؛ أي: مؤتمناً ومحفوظاً عليه، فإنه يصان من التحريف والتبديل، والحافظ هو الله تعالى، ففي قراءة اسم الفاعل الضمير في عليه، عائد على الكتاب الثاني وفي قراءة اسم المفعول، عائد على الكتاب الأول، وفي كلا الحالين هو حال من الكتاب

---

(١) ابن كثير.
(٢) البحر المحيط.

الأول لأنه معطوف على مصدقاً، والمعطوف على الحال حال.

﴿فَٱحۡكُم﴾ يا محمد ﴿بَيۡنَهُم﴾؛ أي: بين جميع أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: بالقرآن والرجم الذي أنزل الله تعالى إليك لاشتماله على جميع ما شرعه الله لعباده في جميع الكتب السابقة عليه ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ يا محمد ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾؛ أي: أهواء أهل الكتاب وشهواتهم التي هي الجلد والتحميم في الزاني المحصن، التي طلبوها منك حالة كونك معرضاً ومنحرفاً ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ الذي هو الرجم في المحصن، وفيه[1] النهي له ﷺ أن يتبع أهوية أهل الكتاب ويعدل عن الحق الذي أنزله الله عليه، فإن أهل كل ملة من أهل الملل يهوون أن يكون الأمر على ما هم عليه وما أدركوا عليه سلفهم، وإن كان باطلاً منسوخاً أو محرفاً عن الحكم الذي أنزله الله على الأنبياء، كما وقع في الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله تعالى.

والفاء في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ فاء الفصيحة، والمعنى: وإذا[2] كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله من الكتب الإلٰهية وهو أنه رقيب وشهيد.. فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام دون ما أنزله إليهم، إذ شريعتك ناسخة لشريعتهم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: ولا تتبع ما يريدون، وهو الحكم بما يسهل عليهم، ويخفُّ احتماله، مائلاً بذلك عما جاءك من الحق الذي لا شك فيه ولا ريب ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ فاللام متعلقة بجعلنا، ومنكم صفة لكل، ولا يضر الفصل بينهما بالعامل، والمعنى: لكل أمة كائنة منكم يا أيها الأمم الثلاثة، أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد، جعلنا؛ أي: عيناً ووضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة لا تكاد أمة تخطىء شرعتها التي عينت لها، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى شرعتهم التوراة، والتي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ شرعتهم الإنجيل، وأما أنتم أيها الموجودون في عصر محمد ﷺ من سائر

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

المخلوقات إلى يوم القيامة فشرعتكم القرآن ليس إلا، فآمنوا به وآمنوا بما فيه، فالشرعة وكذا الشريعة: الأحكام المشروعة التي شرعها الله تعالى لعباده ليتعبدوا بها ربهم، والمنهاج: الطريق الواضح الذي يؤدي إلى الشريعة، وقيل: الشرعة الأحكام المشروعة في العبادات والمعاملات من الأركان والشروط وغيرها، والمنهاج الفرائض والسنن والمعاملة التي لها أحكام مشروعة وشرائط مخصوصة، وقيل: هما بمعنى، والتكرار للتأكيد، والمراد بهما الدين. وقال قتادة: شرعة ومنهاجاً؛ أي: سبيلاً وسنة، فالسنن مختلفة للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة يحل الله عز وجل فيها ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم السلام. وروي عن قتادة أنَّه قال: الدين واحد والشريعة مختلفة. قال علي بن أبي طالب: الإيمان منذ بعث آدم عليه السلام: شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، ولكل قوم شريعة ومنهاج. انتهى. وقرأ النخعي وابن وثاب: ﴿شرعة﴾ بفتح الشين.

فائدة: قال العلماء[1]: وردت آيات دالة على عدم التباين بين طرق الأنبياء، منها قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ومنها قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ووردت آيات دالة على حصول التباين بينها، منها هذه الآية وهي قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وطريق الجمع بين هذه الآيات: أن كل آية دلت على عدم التباين، فهي محمولة على أصول الدين من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فكل ذلك جاءت به الرسل من عند الله، فلم يختلفوا فيه، وأما الآيات الدالة على حصول التباين بينها.. فمحمولة على الفروع وما يتعلق بظواهر العبادات، فجائز أن يتعبد الله عباده في كل وقت بما شاء، فهذا هو طريق الجمع بين الآيات، والله أعلم بأسرار كتابه.

---

(١) الفتوحات.

ومن هذا يفهم أن الشريعة[1]: هي الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل، وينسخ اللاحق منها السابق، وأن الدين: هو الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء، وهذا العرف الجاري الآن، إذ يخصون الشريعة بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام.

والخلاصة: أنَّ الشريعة اسم للأحكام العملية وأنَّها أخص من كلمة الدين، وتدخل في مسمى الدين من جهة أن العامل بها يدين لله تعالى بعمله، ويخضع له ويتوجه إليه مبتغياً مرضاته وثوابه بإذنه. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة، ورسول واحد، وكتاب واحد، ومنهاج واحد، تسيرون عليه، وتعملون به بأنَّه يخلقكم على استعداد واحد، وأخلاق واحدة، وطور واحد، في معيشتكم، فتصلح لكم شريعة واحدة في كل الأزمان فتكونون كسائر أنواع المخلوقات التي يقف استعدادها عند مستوى معين، كالطير أو كالنحل.. ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: جماعة متفقة على شريعة واحدة في جميع الأعصار، من غير اختلاف ولا نسخ ولا تحويل؛ أي: لفعل ذلك، إذ هو داخل تحت قدرته لا يستعصي عليه ﴿ولكن﴾ لم يشأ الله أن يجعلكم أمة واحدة، بل شاء الله أن يجعلكم أمة مختلفة في الشرائع ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ وأعطاكم من الشرائع المختلفة المناسبة للأزمنة والجماعة، هل تعملون بها منقادين لله تعالى، معتقدين أنَّ اختلافها مبني على الحكم اللطيفة والمصالح النافعة لكم، أم تتبعون الهوى وتقصرون في العمل؟

ومعنى ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ أي: فيما[2] أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والأزمان والرسل، هل تعملون بذلك وتذعنون له، أو تتركونه وتخالفون ما اقتضته مشيئة الله وحكمته، وتميلون إلى الهوى وتشترون الضلالة بالهدى؟ وفيه دليل على أن اختلاف الشرائع هو لهذه العلة، أعني الابتلاء

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

والامتحان، لا لكون مصالح العباد مختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص.

ثم بين أنَّ الشرائع إنَّما وضعت للاستباق إلى الخير، لتجازى كل نفس بما عملت، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فالخطاب فيه لأمة محمد ﷺ؛ أي: إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع لابتلائكم.. فبادروا يا أمة محمد بالأعمال الصالحات التي تقربكم إلى الله زلفى، وسارعوا إلى ما هو خير لكم في دينكم ودنياكم، انتهازاً للفرصة وإحرازاً للفضل والسبق ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ وإنكم ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ دون غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي: ترجعون إليه كلكم في الحياة الثانية ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: يخبركم عند الحساب ﴿بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه في الدنيا وفي أمور الدين، ويجازي المحسن على قدر إحسانه، والمسيء بإساءته، فاجعلوا الشرائع سبباً للتنافس في الخيرات، لا لإقامة الشحناء والعداوة بين الأجناس والعصبيات، والأثرة والتقدم بالوطن والجنسيات، لا بالعلم والتقوى والفضائل الدينيات. وهذه الجملة كالعلة لما قبلها.

قوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ معطوف على الكتاب؛ أي: وأنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه، وقد استدل بهذا على نسخ التخيير المتقدم في قوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: إنا أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله وأنزلنا إليك فيه ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليك ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القصاص ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: شهواتهم بالاستماع لهم، وقبول كلامهم، ولو لمصلحة في ذلك، كتأليف قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل، أي: ولا تتبع أهوائهم في عدم قتل الشريف بالوضيع وعدم قتل الرجل بالمرأة. قال العلماء[1]: ليس في هذه الآية تكرار لما تقدم، وإنَّما أنزلت في حكمين مختلفين: أمَّا الآية الأولى: فنزلت في رجم المحصن، وأن اليهود طلبوا منه أن يجلده، وهذه الآية نزلت في شأن الدماء والديات حين

---

(١) الخازن.

تحاكموا إليه في أمر قتيل كان بينهم. ﴿وَٱحْذَرْهُمْ﴾؛ أي: واحذر يا محمد هؤلاء اليهود الذين جاؤوا إليك من ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ ويصرفوك وينزلوك ويصدوك بمكرهم وكيدهم ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ في كتابه، فيحملوك على ترك العمل به لتحكم بغيره، ويردوك إلى أهوائهم.

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك.. اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأنَّ بيننا وبين قومنا خصومة فنخاصمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك وأنزل الله عزّ وجل فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ كما مرّ ذلك في أسباب النزول، يريد أن الحكمة في إنزال هذه الآية: إقرار النبي ﷺ على ما فعل، والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله، وعدم الانخداع لليهود.

فقوله: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ بدل اشتمال من المفعول؛ أي: واحذرهم فتنتهم، أو مضاف إليه لمفعول من أجله محذوف؛ أي: احذرهم مخافة أنْ يفتنوك؛ أي: يصرفوك عن الحق، ويلقوك في الباطل كما سيأتي في بحث الإعراب ﴿فإن تولوا﴾؛ أي: فإن أعرضوا عن حكمك بما أنزل الله بعد تحاكمهم إليك وأرادوا غيره ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فاعلم يا محمد ما سبب ذاك إلا لأن الله يريد ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ ويعذبهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو ذنب التولي والإعراض عما جئت به؛ لأنَّ استثقالهم لأحكام التوراة وتحاكمهم إليك لعلك تتبع أهوائهم، ومحاولتهم لفتنتك عن بعض ما أنزل الله إليك، كل هذه أمارات على فساد الأخلاق وانحلال روابط الاجتماع، ولا بد أن تكون نتيجتها وقوع العذاب بهم، وقد حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم ما حل، فقد أجلى النبي ﷺ بني النضير عنها وقتل بني قريظة.

وإنَّما خص بعض الذنوب؛ لأن الله جازاهم في الدنيا على بعض ذنوبهم

بالقتل والسبي والجلاء، وأخر مجازاتهم على باقي ذنوبهم إلى الآخرة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: اليهود وغيرهم، لأنَّهم ردوا حكم الله تعالى ﴿لَفَـٰسِقُونَ﴾؛ أي: خارجون عن دائرة الطاعات، ومعادن السعادات، يعني: متمردون في الكفر، مصرون عليه، خارجون من الحدود والشرائع التي اختارها الله تعالى لعباده. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إذعانهم لما جاء به من الهدى والدين، وإعراضهم عن ذلك النور الذي أنزل إليه، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره، أي: أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك، ويتولون عنه فيبغون عنك حكم الجاهلية المبني على التحيز والهوى لجانب دون آخر، وترجيح القوي على الضعيف؟ والمعنى: لا يبغون حكم الجاهلية منك على سبيل الظفر به لعصمتك. روي: أن بني النضير تحاكموا إلى الرسول ﷺ في خصومة كانت بينهم وبين بني قريظة، وطلب بعضهم من النبي ﷺ أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل وجعل دية القرظي ضعفي دية النضيري لمكان القوة والضعف، فقال ﷺ: «القتلى بواء» سواء، فقال بنو قريظة: لا نرضى ذلك، فنزلت الآية.

وخلاصة ذلك: توبيخهم، والتعجيب من حالهم بأنهم أهل كتاب وعلم، ومع ذلك كانوا يبغون حكم الجاهلية الذي يجيء به محض الجهل وصريح الهوى. وقرأ الجمهور[1] ﴿أفحكم﴾ بنصب الميم، وهو مفعول يبغون. وقرأ السلمي وابن وثاب وأبو رجاء والأعرج: ﴿أَفَحُكْمُ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ برفع الميم على الابتداء، والظاهر أن الخبر هو قوله: ﴿يبغون﴾ وحسن حذف الضمير قليلاً في هذه القراءة كون الجملة فاصلة. وقرأ قتادة: ﴿أبحكم الجاهلية﴾ بالباء الجارة بدل الفاء، وقرأ قتادة والأعمش أيضاً: ﴿أفحكم﴾ بفتح الحاء والكاف والميم، وهو جنس لا يراد به واحد، كأنه قيل: أحكام الجاهلية يبغون؛ أي: أفيطلبون حاكماً كحكام الجاهلية، وهي: إما الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى الموجبة للمداهنة في الأحكام، وإما أهل الجاهلية، وهي إشارة إلى الكهان الذين كانوا

---

(١) البحر المحيط.

يأخذون الحلوان - وهي رشا الكهان - ويحكمون لهم بحسبه، وبحسب الشهوات أرادوا بسفههم أنْ يكون خاتم النبيين حكماً كأولئك الحكام. وقرأ الجمهور: ﴿يَبْغُونَۚ﴾ بالياء على نسق الغيبة المتقدمة، وقرأ ابن عامر: ﴿تبغون﴾ بالتاء على الخطاب، وفيه مواجهتهم بالإنكار والردع والزجر، وليس ذلك في الغيبة فهذه حكمة الالتفات، والخطاب ليهود قريظة والنضير، والمعنى: قل لهم يا محمد: أفحكم الجاهلية تبغون. والاستفهام في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للإنكار أيضاً؛ أي: لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين، لا عند أهل الجهل والأهواء؛ أي: لا أحد[1] أحسن حكماً من حكم الله عند قوم يوقنون بدينه، ويذعنون لشرعه؛ لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق من الحاكم، والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه، وبهذا يحصل التفاضل بين الشرائع الإلٰهية والقوانين البشرية.

والخلاصة: أن مما ينبغي التعجب منه من أحوالهم، أنَّهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ويؤثرونه على حكم الله العادل، وفي الأول: تفضيل القوي على الضعيف واستذلاله واستئصال شأفته، وفي الثاني: العدل الذي يستقيم به أمر الخلق وبه ينتشر الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس، ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير، واللام في[2] قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ وقولهم: سقياً لك، فيتعلق بمحذوف تقديره؛ أي: هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنْ لا أحسن حكماً من الله تعالى، وقيل: بمعنى عند كما أشرنا إليه في الحل.

الاعراب

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ

(١) المراغي. (٢) البيضاوي.

﴿ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: (إن): حرف نصب. و(نا) ضمير المتكلمين في محل النصب اسمها. ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر (إنَّ) وجملة (إنَّ) مستأنفة. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿هُدًى﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَنُورٌ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾. ﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِهَا﴾: متعلق به. ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من الضمير المجرور في ﴿فِيهَا﴾: أو مستأنفة[1] مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها، وقد جوز كونها حالاً من ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ فتكون حالاً مقدرة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة لـ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾. ﴿أَسْلَمُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يحكم﴾. ﴿هَادُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾: معطوفان على ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر. (ما): اسم موصول في محل الجر بالباء، الجار[2] والمجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا﴾: وقد أعاد الجار لطول الكلام، وهو جائز أيضاً، وإن لم يطل، وقيل: متعلق بفعل محذوف عامل في ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ تقديره: يحكم الربانيون والأحبار بما استحفظوا، وقيل: الجار والمجرور في محل النصب مفعول به لـ﴿يَحْكُمُ﴾ تقديره: يحكمون بسبب استحفاظهم ذلك. ﴿ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة (ما) الموصولة، والعائد محذوف تقديره: بما استحفظوه. ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من الضمير المحذوف أو من (ما). ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾: (الواو): عاطفة، ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿شُهَدَآءَ﴾. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر كانوا، وجملة ﴿كانوا﴾: معطوفة على جملة ﴿ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ على كونها صلة (لما). ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟﴾: الفاء: فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أيها اليهود

---

(١) الفتوحات. (٢) العكبري.

المعاصرين لمحمد ﷺ حال أسلافكم، وصلاح أحوالهم، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم ﴿لا تخشوا الناس﴾: لا: ناهية جازمة. ﴿تَخْشَوُا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿اخشوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاءً عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَا تَخْشَوُا﴾. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾: الواو: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَشْتَرُوا﴾: فعل وفاعل مجرور بلام الناهية. ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿لِلَّذِينَ﴾. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة له، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ﴾. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾: الواو: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما. ﴿لَّمْ يَحْكُم﴾: جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحْكُم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره بما أنزل الله. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿من﴾ الشرطية وجوباً لكن الجواب جملة اسمية. ﴿أولئك﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواباً لها، والجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

﴿وَكَتَبْنَا﴾: (الواو) عاطفة. ﴿كتبنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿كتبنا﴾. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَا﴾. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلنَّفْسَ﴾: اسمها. ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾: جار ومجرور ﴿أَنَّ﴾: تقديره أنَّ النفس القاتلة مقتولة بالنفس المقتولة، وجملة

﴿أَنَّ﴾ في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: كتبنا عليهم قتل النفس بالنفس أو أخذ النفس بالنفس ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ بالنصب معطوف على ﴿ٱلنَّفْسَ﴾ كونه اسم ﴿أَنَّ﴾ ﴿بِٱلْعَيْنِ﴾: جار ومجرور بمحذوف خبر ﴿أَنَّ﴾ تقديره: وأن العين مفقوءة بالعين وكذلك قوله: ﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ المنصوب منها معطوف على اسم ﴿أَنَّ﴾ وخبر أن في كلها المجرور منها. ﴿قِصَاصٌ﴾ خبر لـ﴿وَٱلْجُرُوحَ﴾؛ أي: وأن الجروح قصاص؛ لكنه على حذف مضاف إما من الأول تقديره: وأن حكم الجروح قصاص، وإما من الثاني تقديره: وأن الجروح ذات قصاص، وهذا على قراءة نافع وحمزة وعاصم بنصب المعاطيف كلها، على التشريك في عمل ﴿أَنَّ﴾ النصب، وخبر ﴿أَنَّ﴾ هو المجرور منها، وخبر ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فيكون من عطف المفردات، عطفنا الاسم على الاسم والخبر على الخبر، كقولك: إن زيداً قائم وعمراً منطلق، عطفت عمراً على زيد، ومنطلقاً على قائم.

أما قراءة[1] الكسائي برفع ﴿والعين﴾ وما بعدها.. فوجهها أبو علي الفارسي بوجهين:

أحدهما: أنْ تكون (الواو): عاطفة جملة اسمية على جملة فعلية، فتعطف الجمل كما تعطف المفردات، بمعنى أن قوله: ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾: مبتدأ و﴿بِٱلْعَيْنِ﴾: خبره، وكذا ما بعده، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية من قوله: ﴿وَكَتَبْنَا﴾ وعلى هذا فيكون ذلك ابتداء تشريع وبيان حكم جديد غير مندرج فيما كتب في التوراة، (فالواو) ليست مشركة للجملة مع ما قبلها، لا في اللفظ ولا في المعنى.

الوجه الثاني: من توجيهي الفارسي: أن تكون (الواو) عاطفة جملة إسمية على الجملة من قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ لكن من حيث المعنى لا من حيث اللفظ.

وأما قراءة أبي عمرو وابن كثير وابن عامر بالنصب فيما عدا ﴿الجروح﴾..

---

(١) الفتوحات بتصرف.

فإنَّهم يرفعونه، فالمنصوب فيها كما تقدم في قراءة نافع. وأمَّا ﴿الجروح قصاص﴾ ففيه ثلاثة أوجه:

الوجهان المذكوران في قراءة الكسائي، وقد تقدم إيضاحهما.

والوجه الثالث: أنه مبتدأ، وخبره قصاص، يعني أنَّه ابتداء تشريع وتعريف وحكم جديد.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿فَمَن﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت حكم ما إذا اقتص من أن النفس مأخوذة بالنفس، والعين مأخوذة بالعين، وأردت بيان أجر من عفا عنه.. فأقول لك. (من): اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿تَصَدَّقَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تصدق﴾. ﴿فَهُوَ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية. ﴿هو﴾: مبتدأ. ﴿كَفَّارَةٌ﴾: خبره. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَفَّارَةٌ﴾ أو متعلق به، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب. ﴿لَّمْ يَحْكُم﴾: جازم ومجزوم وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾ والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحْكُم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل والجملة الفعلية صلة لما، أو صفة لها، والعائد محذوف تقديره: بما أنزل الله. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ (الفاء): رابطة ﴿أولئك﴾ مبتدأ. ﴿هم﴾: ضمير منفصل. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿قفينا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿وَأَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾. ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿قفينا﴾. ﴿بِعِيسَى﴾: جار ومجرور متعلق بقفينا أيضاً. ﴿ابْنِ﴾: صفة لـ﴿عيسى﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ﴿عيسى﴾. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَمُصَدِّقًا﴾. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، والظرف صلة ﴿لِّمَا﴾ أو صفة لها. ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: جار ومجرور حال من ما الموصولة، أو من الضمير المستقر في الظرف.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَآتَيْنَاهُ﴾: الواو عاطفة. ﴿آتيناه الإنجيل﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿قفينا﴾. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿هُدًى﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿وَنُورٌ﴾: معطوف عليه، والجملة في محل النصب حال من ﴿الْإِنجِيلَ﴾. وفي «الفتوحات»(١) قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ حال من ﴿الْإِنجِيلَ﴾ و﴿هُدًى﴾ فاعل به، لأنَّه اعتمد بوقوعه حالاً، وأعربه أبو البقاء مبتدأ وخبراً، والجملة حال، والأول أحسن، لأنَّ الحال بالمفرد أولى، وأيضاً يدل على عطف ﴿مُصَدِّقًا﴾ المفرد عليه، وعطف المفرد على المفرد الصريح، أولى من عطفه على المؤول. ا هـ «كرخي». ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: حال ثانية من ﴿الْإِنجِيلَ﴾ فهي حال مؤكدة؛ لأنَّ الكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً، وقيل: حال من ﴿عيسى﴾ أيضاً. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة ﴿لِّمَا﴾. ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: حال من (ما) أو من الضمير المستقر في الظرف ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ حالان من ﴿الْإِنجِيلَ﴾ أيضاً، ويجوز(٢) أن يكون من ﴿عيسى﴾؛ أي: هادياً وواعظاً، أو ذا هدى وذا موعظة، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي: قفينا للهدى، أو آتيناه الإنجيل للهدى. وقد قرىء في الشاذ بالرفع؛ أي: وفي الإنجيل هدى وموعظة، وكرر الهدى توكيداً. ذكره أبو البقاء. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: جار ومجرور

(١) الجمل. (٢) العكبري.

تنازع فيه كل من ﴿هُدًى﴾ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ على كونه متعلقاً بهما، أو صفة لهما.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ﴾: (الواو): استئنافية أو عاطفة. (اللام) لام الأمر مبنى على السكون لوقوعه إثر عاطف. ﴿يَحْكُمْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿أَهْلُ الْإِنجِيلِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، أو مقول لقول محذوف معطوف على ﴿آتينا﴾ تقديره: وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل وقلنا ليحكم أهل الإنجيل. وقرىء بكسر اللام وفتح الميم على أنَّها لام كي، والجملة حينئذٍ معطوفة على محذوف تقديره: وقفينا بعيسى ابن مريم الإنجيل ليؤمنوا، وليحكم أهل الإنجيل، أو مستأنفة والتقدير: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق ﴿يَحْكُمْ﴾. ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أنزل الله. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿وَمَن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو جملة الجواب. ﴿لَّمْ يَحْكُم﴾: جازم ومجزوم، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَحْكُم﴾ ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أنزله الله. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿الْفَاسِقُونَ﴾: خبر، والجملة في محل الجزم جواب من الشرطية، وجملة من الشرطية مستأنفة.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة[1] على قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ وما عطف عليه. ﴿بِالْحَقِّ﴾:

---

(١) أبو السعود.

جار ومجرور حال ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو من فاعل ﴿أَنزَلْنَآ﴾ أو من الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾ وعلى كل فالباء للملابسة أو المصاحبة. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من الكتاب. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة ﴿لما﴾. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: حال من (ما) أو من الضمير المستقر في الظرف. ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾: معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ على كونه حالاً من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الأول. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾.

﴿فَٱحْكُم﴾: (الفاء): فاء الصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت منزلة القرآن من الكتب الإلٰهية، وأنه رقيب ومهمين عليها.. فأقول لك: احكم بينهم بما أنزل الله، ويصح كون الفاء عاطفة تفريعية على قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿احكم﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿بَيْنَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿احكم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لما، أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما أنزله الله تعالى. ﴿وَلَا﴾: (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾: فعل ومفعول ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿فَٱحْكُم﴾ ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بمحذوف من فاعل ﴿تَتَّبِعْ﴾ تقديره: حالة كونك عادلاً لا عما جاءك، وفي «السمين» قوله: ﴿عَمَّا جَآءَكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: به قال أبو البقاء أنّه حال؛ أي: عادلاً عما جاءك، وهذا فيه نظر من حيث إن عن حرف جر ناقص لا يقع خبراً عن جثة، فكذلك لا يقع حالاً عنها، وحرف الجر الناقص، إنما يتعلق بكون مطلق، لا بكون مقيد، لأن المقيد لا يجوز حذفه.

والثاني: أن عن على بابها من المجاوزة لكن بتضمين ﴿تَتَّبِعْ﴾ معنى تزحزح وتنحرف؛ أي: لا تنحرف متبعاً،ا هـ. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ومفعول وفاعله

ضمير يعود على (ما) والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور حال من الضمير في ﴿جَآءَكَ﴾ أو من (ما) الموصولة، ويجوز أن تكون بيانية متعلقة بـ﴿جاء﴾.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

﴿لِكُلٍّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾. ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لكل، ولا يضر فصل ﴿جَعَلْنَا﴾ بين الصفة والموصوف كما في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ﴿شِرْعَةً﴾: مفعول به. ﴿وَمِنْهَاجًا﴾: معطوف عليه، والمعنى: لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم السابقة، والآتية جعلنا شرعة ومنهاجاً، ويجوز أن يكون جعل متعدياً إلى اثنين بجعله بمعنى صيرنا، فيكون لكل مفعولاً ثانياً مقدماً وشرعة مفعولاً أولاً مؤخراً. ﴿وَلَوْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿جعلكم أمة﴾: فعل ومفعولان. ﴿وَٰحِدَةً﴾ صفة لـ﴿أُمَّةً﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة جواب لو لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَلَٰكِن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ اللام لام كي. ﴿يبلوكم﴾: فعل ومفعول منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿الله﴾، والجملة الفعلية صلة أنْ المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره: ولكن فرقكم وجعلكم أمماً مختلفة ليبلوكم، ويختبركم فيما آتاكم ليظهر المطيع من العاصي، والجملة المحذوفة مستأنفة، أو استدراكية لا محل لها من

الإعراب. ﴿فِي مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يبلوكم﴾. ﴿ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾: فعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: فيما آتاكموه، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة صلة لما أو صفة لها ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن مشيئة الله افتراقكم لاختباركم وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم استبقوا الخيرات. ﴿استبقوا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾: مفعول به أو منصوب بنزع الخافض، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: مبتدأ مؤخر ومضاف إليه ﴿جَمِيعٗا﴾ حال من ضمير المخاطبين ولا يقال: هو حال من المضاف إليه، وهو لا يجوز؛ لأنَّه يقال: المضاف مقتض للعمل في المضاف إليه قال ابن مالك:

وَلاَ تُجِزْ حَالاً مِنَ ٱلْمُضَافِ لَهْ ... إلاَّ إِذَا ٱقْتَضَىٰ ٱلْمُضَافُ عَمَلَهْ

والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: (الفاء): حرف عطف وتفريع. ﴿ينبئكم﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية مفرعة معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ينبئكم﴾ ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان من اسمها وخبرها صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها.

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

﴿وَأَنِ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿ٱحۡكُم﴾: فعل أمر في محل النصب بـ﴿أن﴾ المصدرية مبنى على السكون، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بَيۡنَهُم﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿ٱحۡكُم﴾، والجملة الفعلية صلة أن المصدرية، أن مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه معطوفاً على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والتقدير: وأنزلنا إليك الكتاب والحكم بينهم بما أنزل الله. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱحۡكُم﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أنزله الله ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ جازم وفعل، ومفعول، ومضاف إليه، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة في محل

النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾.

﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾

﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾: فعل ومفعول وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم﴾. ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾: ناصب وفعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في تأويل مصدر منصوب على كونه بدلاً من ضمير احذرهم بدل اشتمال، تقديره: واحذرهم فتنتهم إياك، أو على كونه مفعولاً لأجله، ولكنه على تقدير مضاف تقديره: واحذرهم مخافة فتنتهم إياك. ﴿عَنۢ بَعۡضِ مَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَفۡتِنُوكَ﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيۡكَۖ﴾: متعلق به، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: أنزله الله إليك.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِنۡ﴾: (الفاء): فاء الفصيحة لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما أنزلنا إليك، وما أمرناك به، وأردت بيان حالهم وشأنهم فيما إذا تولوا عن حكمك.. فأقول لك: ﴿إن تولوا﴾: ﴿إن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾: الفاء: رابطة لجواب إن الشرطية وجوباً. ﴿اعلم﴾: فعل أمر في محل الجزم بإن على كونه جواب شرط لها، وفاعله ضمير يعود على محمد، وجملة إن الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿أَنَّمَا﴾: أداة حصر أو تقول: ﴿أن﴾: حرف نصب و(ما) كافة. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل النصب سادة مسد مفعولي اعلم. ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾: ناصب وفعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يصيب﴾ وجملة ﴿يصيب﴾: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: إصابته إياهم ببعض ذنوبهم. ﴿وَإِنَّ﴾: (الواو): عاطفة. ﴿إن﴾: حرف نصب. ﴿كَثِيرٗا﴾ اسمها. ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرٗا﴾. ﴿لَفَٰسِقُونَ﴾: اللام

حرف ابتداء. ﴿فاسقون﴾: خبر ﴿إن﴾: وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: (الهمزة): للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف تقديره: أيعرضون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية. (والفاء): عاطفة ما بعدها على ذلك المحذوف. ﴿حكم الجاهلية﴾: مفعول مقدم ومضاف إليه. ﴿يَبْغُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ذلك المحذوف، والجملة المحذوفة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَحْسَنُ﴾: خبره. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَحْسَنُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿حُكْمًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، وأصله وحكم من أحسن من حكم الله. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: (اللام): حرف جر بمعنى عند. ﴿قوم﴾: مجرور باللام الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَحْسَنُ﴾. ﴿يُوقِنُونَ﴾: فعل وفاعل والجملة في محل الجرّ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ...﴾ الآية، التوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى والذين هادوا هم اليهود ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ هو المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الخلق ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ جمع حبر بسكر الحاء؛ وهو العالم ﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شهيد ككرماء جمع كريم. ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ أصله تخشيوا تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان ثم حذفت الألف ثم حركت الواو بالحركة المجانسة لها ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ من قفى يقفي تقفية، وهو من قفا يقفو إذا تبع قفاه؛ أي: أرسلناه عقبهم، والتضعيف فيه ليس للتعدية؛ لأن قفا متعد لواحد قبل التضعيف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وتقول العرب: قفى فلان إثر

فلان إذا تبعه، فلو كان التضعيف للتعدية إلى اثنين.. لكان التركيب: وقفيناهم عيسى ابن مريم، فهم مفعول ثانٍ وعيسى مفعول أول ولكنه ضمن معنى جئنا به على آثارهم وأقفائهم فعدي بالباء ﴿مهيمناً﴾ المهيمن الرقيب وقيل: الغالب المرتفع، وقيل: الحافظ، وقيل: الشاهد، ومن هذا قول حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر النبي ﷺ:

إِنَّ ٱلْكِتَابَ مُهَيْمِنٌ لِنَبِيِّنَا ... وَٱلْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلأَلْبَابِ

يريد أنَّه شاهد ومصدق لنبينا محمد ﷺ، واختلفوا فيه، هل هو أصل بنفسه؟؛ أي: إنَّه ليس مبدلاً من شيء، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن، كبيطر يبيطر فهو مبيطر، وقال المبرد: أصله مؤيمن أبدل من الهمزة هاء كما قيل في أرقت الماء: هرقت، وبه قال الزجاج وأبو علي الفارسي. وقال الجوهري: هو من أمن غيره من الخوف وأصله: أأمن فهو مؤأمن بهمزتين، قلبت الثانية ياء كراهة لاجتماعهما، فصار مؤيمن ثم صيرت الأولى هاء، كما قالوا: هراقه وأراقه، يقال: هيمن على الشيء يهمين، إذا كان له حافظاً، فهو له مهيمن، كذا عن أبي عبيد.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾: في «المصباح»: الشرعة بالكسر الدين، والشرع والشريعة ومثله مأخوذ من الشريعة وهي مورد الناس للاستسقاء سميت بذلك لوضوحها وظهورها وجمعها شرائع، وشرع الله لنا كذا يشرعه إذا أظهره وأوضحه، والمشرعة بفتح الميم والراء شريعة لما قال الأزهري: ولا تسميها العرب مشرعة حتى يكون الماء عدا لا انقطاع له كماء الأنهار، ويكون ظاهراً أيضاً، ولا يستقى منه برشاء، فإن كان من ماء الأمطار.. فهو الكرع بفتحتين، والناس في هذا الأمر شرع بفتحتين، وتسكن الراء للتخفيف؛ أي: سواء انتهى.

وقوله: ﴿منهاجاً﴾: في «المختار»: النهج بوزن الفلس، والمنهج بوزن المذهب، والمنهاج: الطريق الواضح، ونهج الطريق أبانه، ونهجه أيضاً سلكه، وبابهما قطع، والنهج بفتحتين تتابع النفس وبابه طرب. انتهى. وفي «المصباح»: النهج مثل فلس، الطريق الواضح، والمنهج والمنهاج مثله، ونهج الطريق ينهج

بفتحتين نهوجاً إذا وضح واستبان، وأنهج بالألف مثله ونهجته وأنهجته أوضحته يستعملان لازمين ومتعدين. انتهى. ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الأمة الجماعة المتفقة على دين واحد ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم من بلا يبلو بلوى من باب دعا، والابتلاء: الاختبار ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: ابتدروا وسارعوا إليها، وهو من باب افتعل الخماسي، والسين فيه فاء الكلمة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان:

فمنها: التكرار في قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾، وفي قوله: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: التنزل من الأعلى إلى الأدنى في الوصف في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ فإن النبوة أعظم من الإسلام قطعاً فوصفهم بالإسلام ليس للتخصيص ولا للتوضيح بل لتنويه شأن الصفة فإن إبراز وصف في معرض مدح العظماء، منبىء عن عظم قدر الوصف لا محالة كما في وصف الأنبياء بالصلاح، ووصف الملائكة بالإيمان عليهم السلام ولذلك قيل: أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ فإن اللام لبيان اختصاص الحكم بهم، سواء كان لهم أم عليهم.

ومنها: توسيط المحكوم لهم بين المعطوفين في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ إيذاناً بأن الأصل في الحكم بها، وحمل الناس على ما فيها هم النبيون وإنما الربانيون والأحبار خلفاء ونواب عنهم في ذلك.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ وما بعده.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أنَّ من تولى الكافرين من دون الله يعد منهم، وأن الذين يسارعون فيهم مرضى القلوب مرتدون بتوليهم إياهم، فإن أخفوا ذلك فإظهارهم للإيمان نفاق.. بين هنا حقيقة دغمها بخبر من الغيب يظهره الزمن المستقبل، فالحقيقة أن المنافقين ومرضى القلوب لا غناء فيهم، ولا يعتد بهم في نصر الدين وإقامة الحق، فالله إنَّما يقيم دينه بصادقي الإيمان الذين يحبهم فيزيدهم رسوخاً في الحق، وقوةً على إقامته، ويحبونه، فيؤثرون ما يحبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال ومتاع وأهل وولد. وخبر الغيب أنَّه سيرتد بعض الذين آمنوا عن الإسلام جهراً ولا يضره ذلك، لأن الله تعالى يسخر من ينصره ويحفظه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما نهى[2] في الآيات السابقة عن موالاة الكافرين.. أمر هنا في هذه الآية بموالاة من تجب موالاتهم، وهم الله ورسوله والمؤمنون.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنَّ الله سبحانه وتعالى لما نهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دونه، وبين العلة في ذلك، فأرشد إلى أن بعضهم أولياء بعض، ولا يوالي المؤمنين منهم أحد، ولا يواليهم ممن يدعون الإيمان إلا مرضى القلوب والمنافقون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر.. أعاد النهي هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء مع بيان الوصف الذي لأجله كان النهي وهو إيذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[3] ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.
(٣) الشوكاني.

مردويه والبيهقي في «الدلائل»، وابن عساكر عن عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ.. تشبث بأمرهم عبد الله بن أبيّ بن سلول، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، وفيه وفي عبد الله بن أبيّ نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

قال ابن كثير: واختلف المفسرون[1] في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي أنَّها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحد: أمَّا أنا فإنِّي ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوي إليه، وأتهود معه لعله ينفعني إذا وقع أمر وحدث حادث، وقال الآخر: أمَّا أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام، فآوي إليه وأتنصَّر معه فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ...﴾ الآيات. وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه؛ أي: إنه الذبح. رواه ابن جرير، وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾. إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾. وأخرج البيهقي في «الدلائل» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ قال:

---

(١) ابن كثير.
(٢) الشوكاني.

كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون إلى الصلاة.. قالت اليهود والنصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا رأوهم ركعوا وسجدوا، استهزأوا بهم وضحكوا منهم، فنزلت، هذه الآية.

وأخرج ابن[١] إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال: «أومن بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون»، فلمَّا ذكر عيسى.. جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى، ولا نؤمن بمن آمن به، فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الآية. قال: أناس من اليهود كانوا يدخلون على النبي ﷺ فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاءهم به وهم متمسكون بضلالتهم وبالكفر، فكانوا يدخلون بذلك، ويخرجون به من عند رسول الله ﷺ.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ وتجعلوا ﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾ وغيرهم من سائر الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصدقاء وأنصاراً وأعواناً على أهل الإيمان بالله ورسوله؛ أي: لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً

قال ابن جرير[٢]: إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وأخبر أن من اتخذهم نصيراً أو حليفاً وولياً من دون الله ورسوله.. فهو منهم في التحزب على الله

---

(١) الشوكاني.
(٢) الطبري.

ورسوله والمؤمنين، وأنَّ الله ورسوله بريئان منه، إلى أن قال: غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالي يهود أو نصارى جزعاً على نفسه من دوائر الدهر، لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك. ا هـ.

ثم ذكر علة هذا النهي فقال: ﴿بَعْضُهُمْ﴾؛ أي: بعض كل فريق من ذينك الفريقين ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ آخر من فريقه، لا من الفريق الآخر، لما هو معلوم من أنَّ الفريقين بينهما غاية العداوة، وإنما أوثر الإجمال تعويلاً على ظهور المراد، لوضوح انتفاء الموالاة بين الفريقين رأساً، ومن ضرورة موالاة بعضهم لبعض اجتماع الكل على مضارتكم، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة؟ وقيل: المراد أن كل واحدة من الطائفتين توالي الأخرى، وتعاضدها، وتناصرها على عداوة النبي ﷺ، وعداوة ما جاء به، وإن كانوا في ذات بينهم متعادين متضادين، ووجه تعليل النهي بهذه الجملة أنها تقتضي أنَّ هذه الموالاة هي شأن هؤلاء الكفار لا شأنكم، فلا تفعلوا ما هو من فعلهم، فتكونوا مثلهم، ولهذا عقب هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فقال: ومن يتولهم منكم إلخ؛ أي: إنَّ اليهود بعضهم أنصار بعض، والنصارى بعضهم أنصار بعض، ولم يكن للمؤمنين منهم ولي ولا نصير، إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول ﷺ معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان، فصار الجميع حرباً للرسول ومن معه من المؤمنين، ثم توعد من يفعل ذلك فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين؛ أي: ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين ـ وهم أعداء لكم ـ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: فإنَّ ذلك المتولي في الحقيقة ﴿مِنْهُمْ﴾ لا منكم؛ لأنه معهم عليكم، إذ لا يتصور أن يقع ذلك من مؤمن صادق، والمعنى: فإنَّه من جملتهم وفي عدادهم، وهو وعيد شديد، فإنَّ المعصية الموجبة للكفر هي التي قد بلغت إلى غاية ليس ورائها غاية. قال ابن جرير[1]: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين.. فهو من أهل دينهم فإنَّه لا يتولى متول أحداً إلا وهو راضٍ به وبدينه وما هو عليه، وإذا رضيه ورضي دينه.. فقد عادى من خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه انتهى.

---

(١) الطبري.

ومن هذا[1] تعلم أنَّه إذا وقعت الموالاة والمخالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية.. لا تدخل في النهي الذي في الآية، كما إذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها.. فمثل هذا لا يكون محظوراً، ثم ذكر العلة والسبب في الوعيد السابق فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بموالاة الكفار؛ أي: إن من يوالي أعداء المؤمنين وينصرهم، أو يستنصر بهم.. فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها، والله لا يهديه لخير ولا يرشده إلى حق، وهذه الجملة تعليل للجملة التي قبلها؛ أي: إن وقوعهم في الكفر هو بسبب عدم هدايته سبحانه لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر كمن يوالي الكافرين. روي[2] عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب إن لي كاتباً نصرانياً، فقال مالك: قاتلك الله؟ ألا اتخذت حنيفاً، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾. قلت: له دينه ولي كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام.

والمعنى: اجعله في ظنك أنه قد مات فما تعمل بعد موته؛ أي: فاعمله الآن ميتاً واستغن عنه بغيره من المسلمين. ثم أخبر أن فريقاً من ضعاف الإيمان يفعل ذلك فقال: ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك ونفاق؛ أي: فترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم بمرض النفاق كعبد الله بن أبيّ وأضرابه ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ أي: يبادرون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم، لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار، فكانوا يغشونهم ويقرضونهم ويعينونهم على مهماتهم، ويخالطونهم لأجل ذلك. وقرأ إبراهيم بن وثاب في: ﴿فيرى﴾ بالياء من تحت، فقيل: الفاعل ضمير يعود على الله، وقيل: كل من تصح منه الرؤيا، وقيل: هو الموصول، ومفعوله يسارعون على حذف أن المصدرية؛ أي: فيرى القوم الذين في قلوبهم مرض أنْ يسارعوا فيهم فلما حذفت أنْ.. ارتفع الفعل، وقرأ قتادة

---

(١) المراغي. (٢) المراح.

والأعمش: ﴿يسرعون﴾ بغير ألف من أسرع. ﴿يقولون﴾؛ أي: يقول المنافقون معتذرين عنها إلى المؤمنين؛ إنما نخالط اليهود لأنَّا ﴿نَخْشَىٰٓ﴾ ونخاف خوفاً شديداً في المستقبل ﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ وتدور علينا حادثة من حوادث الدهر، ويقع علينا مكروه، وتصيبنا مصيبة من مصائب الدهر، كالهزيمة في الحروب، والقحط والجدب، فنحتاج إلى نصرتهم وإقراضهم لنا، فعلينا أن نتخذ لنا أيادي عندهم في السراء نتشفع بها إذا مستنا الضراء. قال ابن عباس: معناه: نخشى أن لا يتم أمر محمد، فيدور علينا الأمر كما كان قبل محمد نتشفع، وقيل: الدائرة في المكروه كالجدب والقحط، والدولة في المحبوب.

وخلاصة ذلك: أنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين فيحل بهم العقاب لأنهم في شك من نصر الله لنبيّه، وإظهار دينه على الدين كله، إذ لم يوقنوا بنبوته ولا بصدقها، وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يداً عند دولة قوية، يلجأ إليها إذا أصابته دائرة، فتغلغل نفوذ هذه الدول في أحشاء هذه الدولة وضعف استقلالها في بلادها بعملهم ولله الأمر من قبل ومن بعد، ثم رد على هؤلاء المنافقين، وقطع أطماعهم وبشر المؤمنين فقال: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: حقق الله سبحانه وتعالى ﴿أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ والنصر لرسوله ﷺ على أعدائه، وإظهار دينه على الأديان كلها، وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى، وقد فعل الله ذلك بمنه وكرمه، فأظهر دينه ونصر عبده ﴿أَوْ﴾ يأتي بـ﴿أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى في هؤلاء المنافقين، كفضيحتهم أو إيقاع العقاب بهم ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾؛ أي: فيصبح هؤلاء المنافقين ويصيروا ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ﴾ وأضمروه وكتموه ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقلوبهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين، وتوقع الدوائر عليهم فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خاسرين، وعسى في كلامه تعالى للتحقق، لأن الكريم إذا أطمع في خير.. فعله، وهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له. والفتح إمَّا فتح مكة الذي كان به ظهور الإسلام والثقة بقوته وإنجاز الله وعده لرسوله، وإما فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وفدك وغيرهما، والأمر إما الإيقاع باليهود وإجلائهم عن موطنهم وإخراجهم من

حصونهم وصياصيهم، وإما القهر والإيجاف عليهم بالخيل والركاب، كبني قريظة، وإما بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى يعطوا بأيديهم، كبني النضير وإما ضرب الجزية على اليهود والنصارى فينقطع أمل المنافقين، ويندمون على ما كان من إسرارهم بالولاء لهم.

وقرأ ابن الزبير ﴿فنصبح الفساق﴾ جعل الفساق مكان الضمير، قال ابن عطية: وخص الإصباح بالذكر لأن الإنسان في ليله مفكر، فعند الصباح يرى الحالة التي اقتضاها فكره. انتهى.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ أي: يقول بعض المؤمنين لبعض في الوقت الذي أظهر الله تعالى نفاق المنافقين متعجبين من حال المنافقين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المنافقون الذين فضحهم الله تعالى الآن هم ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟﴾ وحلفوا لنا ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ﴾ وأغلظها وأشدها وأوكدها بتعداد أسماء الله تعالى فيها، وجمع صفاته فيها قائلين ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ﴾؛ أي: نحن معكم يا معشر المؤمنين في الدين والمناصرة، ونحن معاضدوكم وناصروكم على أعدائكم اليهود، فلما حل بهم ما حل.. أظهروا ما كانوا يسرونه من موالاتهم وممالأتهم على المؤمنين كما قال في سورة التوبة: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾؛ أي: فهم لفرقهم وخوفهم يظهرون الإسلام تقية، والاستفهام هنا للتعجب.

وذلك أنَّ[1] المؤمنين كانوا يتعجبون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى، ويقولون إنَّ المنافقين حلفوا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعنا ومن أنصارنا، والآن كيف صاروا موالين لأعدائنا من اليهود محببين للاختلاط بهم، فبان كذب المنافقين في أيمانهم الباطلة.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف[2]: ﴿ويقول الذين أمنوا﴾ بالرفع مع إثبات الواو كما في مصاحف أهل العراق على الاستئناف. وقرأ نافع وابن كثير

---

(١) الخازن. (٢) المراح.

وابن عامر بالرفع مع حذف الواو، كما في مصاحف أهل الحجاز والشام على أن الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً في جواب سؤال نشأ من قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ كأن القائل يقول: فماذا يقول المؤمنون حينئذٍ؟ فقيل: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟...﴾ إلخ.

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالنصب مع الواو عطفاً على يصبحوا لا على يأتي: لأنَّ ذلك القول إنَّما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند إتيان الفتح فقط، والمعنى: يقول المؤمنون مخاطبين لليهود مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم عند مشاهدتهم لانعكاس رجائهم تعريضاً بالمخاطبين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: غاية إيمانهم ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أيها اليهود بالمعونة، فإن المنافقين حلفوا لليهود بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أو المعنى: يقول المؤمنون بعضهم لبعض، مشيرين للمنافقين، متعجبين من حالهم، مستعظمين بما من الله عليهم من إخلاص الإيمان عند مشاهدتهم لإظهارهم الميل إلى موالاة اليهود والنصارى: إنهم كانوا يقسمون لنا بالله جهد أيمانهم إنهم معنا في ديننا في السر ومن أنصارنا، فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا، محبين للاختلاط بهم، والاعتضاد بهم، وهذا المعنى كما سبق في حلنا أولاً أنسب لقراءة الرفع مع إثبات الواو على الاستئناف، أما المعنى الأول أعني: قول المؤمنين مخاطبين لليهود، فهو أنسب لقراءة النصب، ولقراءة الرفع مع حذف الواو، ولقراءة الرفع مع الواو بجعل الواو عاطفة جملة على جملة، والله أعلم بمراده.

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي: بطلت أعمال المنافقين، هو من تمام[1] قول المؤمنين، أو جملة مستأنفة والقائل هو الله سبحانه، والأعمال هي التي عملوها في الموالاة، أوكل عمل يعملونه؛ أي: ويقول المؤمنون: ضاعت أعمالهم التي يتكلفونها نفاقاً، كالصلاة والصوم والجهاد معنا ليقنعونا بأنهم منا، لأجل ما أظهروا من النفاق، وموالاة اليهود ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا

---

(١) الشوكاني.

بافتضاحهم، وفي الآخرة بإحباط ثواب أعمالهم، وحصلوا بالعذاب الدائم المقيم، أو المعنى[(١)]: ضاعت أعمالهم التي عملوها رياء وسمعة، لا إيماناً وعقيدة إن قلنا هو من قول الله عزّ وجلّ شهادة لهم بحبوط الأعمال لهم وتعجيباً من سوء حالهم ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة ودوام العقوبة.

فائدة: وروى أرباب السير[(٢)]: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة.. صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه أحداً ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة، وقسم تاركوه، فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره، وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه من الباطن ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

وقد عامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه به، فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة، بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، فحاربته بنو قينقاع بعد بدر وأظهروا البغي والحسد، ثم نقض العهد بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر، ثم نقض بنو قريظة العهد لما خرج إلى غزوة الخندق، وكانوا من أشد اليهود عداوة للنبي ﷺ، وقد حارب كل طائفة وأظهره الله عليها، وكان نصارى العرب والروم حرباً عليه كاليهود.

ولما نهى[(٣)] الله سبحانه وتعالى فيما سلف عن موالاة اليهود والنصارى، وبين أنها مستدعية للارتداد.. شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ ويرجع. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿من يرتدد﴾ بدالين مفكوكاً وهي لغة الحجاز،

---

(١) النسفي.

(٢) المراغي.

(٣) الجمل.

والباقون بواحدة مشددة، وهي لغة تميم. ﴿مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الحق الذي هو عليه وهو دين الإسلام فيبدله ويغيره بدخوله في الكفر بعد الإيمان، فيختار إما اليهودية أو النصرانية، أو غيرهما من أصناف الكفر ﴿فـ﴾ لن يضر الله شيئاً، وإنَّما ضر نفسه برجوعه عن الدين الصحيح الذي هو دين الإسلام لأنه ﴿سوف يأتي الله﴾ سبحانه وتعالى، ويجيء في المستقبل بدل المرتدين عن دينهم ﴿بِقَوْمٍ﴾ موصوفين بصفات ستة:

الأول والثاني منها: ما ذكره بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ أي: يلهمهم الطاعة ويثيبهم عليها. ومعنى محبة الله إياهم: إنعامه عليهم، وتوفيقه إياهم وهدايته إياهم إلى طاعته، والعمل بما يرضى به عنهم ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ أي: يحبون الله تعالى ويطيعونه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومعنى محبتهم لله تعالى: المسارعة إلى طاعته وتقديم خدمته على كل شيء، وابتغاء مرضاته، وأن لا يفعل ما يوجب سخطه وعقوبته، وأن يتحبب إليه بما يوجب له الزلفى لديه، جعلنا ممن يحبهم ويحبونه بمنه وكرمه، ولما كانت محبتهم لله ناشئة عن محبة الله إياهم.. قدم محبة الله على محبتهم، والأقرب أن الآية عامة لأصحاب رسول الله ﷺ ومن كان على قدمهم إلى يوم القيامة بقرينة التسويف.

والثالث منها: ما ذكره بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مشفقين عليهم، عاطفين لهم، أرقاء، رحماء لأهل دينهم وإخوانهم من المؤمنين، متذللين لهم، جمع ذليل لا ذلول كما سيأتي في مبحث الصرف. وقرىء شاذاً ﴿أذلة﴾ وهو اسم، كذا ﴿أعزةً﴾ نصباً على الحال من النكرة أعني: ﴿بِقَوْمٍ﴾؛ لأنها قربت من المعرفة بوصفها.

والرابع منها: ما ذكره بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أشداء أقوياء، غلظاء على أعدائهم الكافرين. وقرأ عبيد الله: ﴿غلظاء على الكافرين﴾ مكان أعزة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أهل رقة على أهل دينهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أهل غلظة على من خالفهم في دينهم. وقال ابن عباس رضي الله عنه: تراهم كالولد لوالده، وكالعبد لسيده، وهم في الغلظة على الكافرين كالسبع على فريسته.

والخامس منها: ما ذكره بقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يقاتلون أعداء الله؛ لإعلاء كلمته، وسبيل الله هو طريق الحق والخير الموصل إلى مرضاته تعالى، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق، وهو من أكبر آيات المؤمنين الصادقين.

والسادس منها: ما ذكره بقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ أي: لا يخافون عذل عاذل في نصرهم الدين بخلاف المنافقين، فإنهم كانوا يراقبون الكفار، ويخالفون لومهم، فبين تعالى في هذه الآية: أن من كان قوياً في الدين، فإنَّه لا يخاف في نصره لدين الله بيده أو بلسانه لومة لائم، وهذه صفة المؤمنين المخلصين. وقال ابن كثير: أي: لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عذل عاذل. وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن كنز من تحت العرش». أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٩) وسنده حسن.

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كان، لا نخاف في الله لومة لائم. والحاصل أنهم يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الشدة والغلظة والترفع على الكافرين، ويجمعون بين المجاهدة في سبيل الله، وعدم خوف الملامة في الدين، بل هم متصلبون، لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان من الإزدراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوي، ومناقبهم مثالب حسداً وبغضاً وكراهة للحق وأهله. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأوصاف الستة التي وصف بها القوم من المحبة والذلة والعزة ومن بعدها؛ لأن ذلك يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع كما

تقدم مع زيادة في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه وكرامته ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يعطيه ويكرم به من يشاء كرامته من عباده ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير العطايا ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقه ومن هو أهل لها.

تتمة فيما يتعلق بالآية: روى ابن جرير عن قتادة قال: أنزل الله هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الآية. وقد علم أنه سيرتد مرتدون من الناس، فلما قبض الله نبيه محمداً ﷺ.. ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد، أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل البحرين من عبد القيس أهل مسجد جواثي قالوا ـ أي المرتدون ـ نصلي ولا نزكي، والله لا تغصب أموالنا، فكلم أبو بكر في ذلك، فقيل له: إنهم لو قد فقهوا لهذا.. أعطوها وزادوها، فقال: لا والله لا أفرق بين شيء جمع الله بينه، ولو منعوا عقالاً مما فرض الله ورسوله.. لقاتلتهم عليه، فبعث الله عصابة مع أبي بكر، فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله ﷺ حتى سبى وقتل وحرق بالنيران أناساً ارتدوا عن الإسلام، ومنعوا الزكاة فقاتلهم حتى أقروا بالماعون ـ الزكاة ـ صغرة: واحدهم صاغر، وهو المهيمن الذليل، أقمياء: واحدهم قميء، وهو الذليل الضعيف، فأتته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مجلية، فاختاروا الخطة المخزية، وكانت أهون عليهم أن يقروا أن قتلاهم في النار، وأن قتلى المؤمنين في الجنة، وأن ما أصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم، وما أصاب المسلمون من مال لهم فهو لهم حلال، انتهى.

وعلى هذا فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم: أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، قاله قتادة والضحاك، ورجح ابن جرير: أن الآية نزلت في قوم أبي موسى الأشعري من أهل اليمن، لما روي أن النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية قال: «هم قوم أبي موسى» وإنْ لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع أبي بكر، لأن الله وعد بأن يأتي بخير من المرتدين بدلاً منهم، ولم يقل أنَّهم يقاتلون المرتدين، ويكفي في صدق الوعد أن يقاتلوا، ولو غير المرتدين. وقد ارتد كثير من القبائل في عهد النبي ﷺ وبعده، فقد ارتدت إحدى عشرة فرقة، منها ثلاث في عهد النبي ﷺ وهم:

١ ـ بنو مدلج، ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي، وكان كاهناً تنبأ باليمن، واستولى على بلاده، وأخرج عمال النبي ﷺ، فكتب النبي ﷺ إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن، فأهلكه على يدي فيروز الديلمي، بيته فقتله، وأخبر رسول الله ﷺ بقتله، فسر به المسلمون وقبض عليه السلام من الغد.

٢ ـ بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، وقد تنبأ مسليمة، وكتب إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك أما بعد: فإني قد أشركت في الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون، فكتب إليه النبي ﷺ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى، أما بعد ﴿فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾» وكان ذلك سنة عشر، وحاربه أبو بكر، وقتله وحشي قاتل حمزة، وكان يقول: قتلت في جاهليتي خير الناس وفي إسلامي شر الناس.

٣ ـ بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد، وقد تنبأ فبعث إليه أبو بكر خالد بن الوليد فانهزم وهرب إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وارتدت سبع في عهد أبي بكر وهم:

١ ـ فزارة، قوم عيينة بن حصن.

٢ ـ غطفان، قوم قرة بن سلمة القشيري.

٣ ـ بنو سليم، قوم الفجاءة بن عبد ياليل.

٤ ـ بنو يربوع، قوم مالك بن نويرة.

٥ ـ بعض بني تميم وزعيمته سجاح بنت المنذر الكاهنة، وقد تنبأت وزوجت نفسها من مسيلمة، ولها قصص طويل في التاريخ، وصح أنّها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها

٦ ـ كندة، قوم الاشعث بن قيس

٧ ـ بنو بكر بن وائل بالبحرين، قوم الحطم بن زيد، وقد كفى الله المؤمنين شرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه، وارتدت واحدة في عهد عمر رضي الله عنه وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم، تنصر جبلة ولحق بالشام ومات مرتداً.

ويروى أن عمر رضي الله عنه: كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتاباً جاء فيه: إن جبلة ورد إلي في سراة قومه فأسلم، فأكرمته، ثم سار إلى مكة فطاف فوطىء إزاره رجل من بني فزارة فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه، فاستعدى الفزاري على جبلة إلي فحكمت إما بالعفو وإما بالقصاص، فقال: أتقتص مني وأنا ملك وهو سوقة؟ فقلت: شملك وإياه الإسلام، فما تفضله إلا بالعافية، فسأل جبلة التأخير إلى الغد، فلمَّا كان من الليل ركب مع بني عمه، ولحق بالشام مرتداً. وروي أنه ندم على ما فعل وأنشد:

تَنَصَّرْتُ بَعْدَ ٱلْحَقِّ عَاراً لِلَطْمَةٍ ... وَلَمْ يَكُ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ ضَرَرْ
فَأَدْرَكَنِيْ مِنْهَا لِجَاجٌ حَمِيَّةٌ ... فَبِعْتُ لَهَا ٱلْعَيْنَ ٱلصَّحِيْحَةَ بِٱلْعَوَرْ
فَيَا لَيْتَ أُمِّيْ لَمْ تَلِدْنِيْ وَلَيْتَنِيْ ... صَبَرْتُ عَلَىٰ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِيْ قَالَهُ عُمَرْ

وهؤلاء المرتدون لم يقاتلهم أحد، فإنَّ أبا بكر هو الذي قاتل جماهير المرتدين بمن معه من المهاجرين والأنصار. قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي[1]: ذلك الذي تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده، وبه يمتازون عن غيرهم، وهذه المشيئة وفق السنن التي أقام بها أمر النظام في خلقه، فجعل من الناس الكسب والعمل نفسياً كان أو بدنياً، ومنه سبحانه وتعالى آلات الكسب والقوى ما بين بدنية وعقلية، حسية ومعنوية، كما أنَّ منه التوفيق والهداية واللطف والمعونة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحقه، فعلينا أن لا نغفل عن فضله ومنته، ولا عما يقتضيه ذلك من الشكر له، والإنابة إليه، والإخبات والعبادة له. ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما نهى عن موالاة الكفرة.. ذكر عقيبه من هو حقيق بها، وإنَّما قال وليكم الله، ولم يقل أوليائكم

---

(١) المراغي.

للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالى على الأصالة، ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع، لو قيل إنَّما أولياءكم الله ورسوله والذين آمنوا.. لم يكن في الكلام أصل وتبع؛ أي: لا ولي يلي أموركم أيها المؤمنون، ولا حافظ لكم ولا ناصر ينصركم على أعدائكم إلا الله سبحانه وتعالى ورسوله محمد ﷺ، والمؤمنون الصادقون الذين اتصفوا بهذه الصفات التالية المذكورة قريباً. وفي هذا تعريض للمنافقين في توليهم الكفار دون الله تعالى، ولما كانت كلمة الذين آمنوا تشمل كل من أسلم ولو ظاهراً.. بين المراد منها بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ بدل من الذين آمنوا، ويجوز رفعه على القطع، أو نصبه على المدح ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدونها لمستحقيها وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله، والمراد بالركوع الخشوع والخضوع؛ أي: يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون. وقيل: هو حال من فاعل الزكاة والمراد بالركوع هو المعنى المذكور؛ أي: يضعون الزكاة فيها مواضعها غير متكبرين على الفقراء ولا مترفعين عليهم.

قال في «الأساس»: العرب تسمي من آمن بالله ولم يعبد الأوثان راكعاً، وقال أبو مسلم: المراد بالركوع الخضوع. والمعنى؛ أي: أنَّ المؤمنين الذين يقومون بحق الولاية والنصرة لكم، هم الذين يقيمون الصلاة ويؤدونها حق الأداء باشتمالها على الأداب الظاهرة والباطنة، ويعطون الزكاة مستحقيها، وهم خاضعون لأوامر الله مع طيب نفس وهدوء قلب، لا خوفاً ولا رياء ولا سمعة، دون المنافقين الذين يقولون: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ويأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها، فإذا هم قاموا إلى الصلاة.. قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً. قال ابن الجوزي: فأما اتخاذهم الدين هزواً ولعباً.. فهو إظهارهم الإسلام وإخفاؤهم الكفر وتلاعبهم بالدين ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ﴾ بالإيمان به والتوكل عليه ﴿وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بنصرهم والاستنصار لهم.. فإنَّهم هم الغالبون على أعدائهم، لأنهم حزب الله، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ وجنده وأنصاره ﴿هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ على أعدائهم بالحجة، فإنَّها مستمرة أبداً، إما بالصولة والدولة، فقد يغلبون كما وقع ذلك في زمن النبي ﷺ غير مرة، والحزب

في اللغة: أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه، وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبه؛ أي: أهمه. والمعنى: أي إذا كان الله وليكم وناصركم، وكان الرسول والذين آمنوا أولياء لكم بالتبع لولايته.. فأنتم بذلك حزب الله والله ناصركم، ومن يتول الله بالإيمان به والتوكل عليه، ويتول الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزرهم والاستنصار لهم دون أعدائهم.. فإنهم الغالبون، ولا يغلب من يتولاهم، لأنهم حزب الله الذي له الغلبة والقهر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله محمد ﷺ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾؛ أي: لا تجعلوا ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ وجعلوا ﴿دِينَكُمْ﴾ دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان وناسخها ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: سخرية ﴿وَلَعِبًا﴾ أي ضحكاً، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بيان للموصول السابق؛ أي: من اليهود والنصارى الذين أعطوا الكتاب ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ بالنصب عطف على الذين اتخذوا، أو بالجر عطف على الذين أوتوا الكتاب، والمراد بهم المشركون عبدة الأوثان، وإنَّما فصل بين أهل الكتاب والكفار ـ وإنْ كان أهل الكتاب من الكفار؛ لأن كفر المشركين من عبدة الأوثان أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب ـ لأن أهل الكتاب لهم أساس، وإن حرفوا وبدلوا ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: أصدقاء وأنصاراً لكم، لأن اللائق باتخاذهم دينكم هزواً ولعباً أن يقابل بالبغضاء والمنابذة والمجانبة، فاتخاذكم مع ذلك أولياء وأنصاراً كالأمر الخارج عن المعقول، والمرءوة إن كنتم تعقلون، وهذا النهي عن موالاة المتخذين للدين هزواً ولعباً يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين، وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام والبيان بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى آخره، لا ينافي دخول غيرهم تحت النهي إذا وجدت فيه العلة المذكورة، التي هي الباعثة على النهي.

والمعنى[1]: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء، وأنزلت عليهم الكتب من قبل بعث رسولنا محمد ﷺ، ومن قبل

---

(١) المراغي.

نزول كتابنا أولياء وأنصاراً وحلفاء، فإنَّهم لا يألونكم خبالاً، وإن أظهروا لكم مودة وصداقة، ذلك لأنَّهم اتخذوا هذا الدين هزواً ولعباً، فكان أحدهم يظهر الإيمان للمؤمنين وهو على كفره مقيم، وبعد اليسير من الزمن يظهر الكفر بلسانه بعد أن كان يبدي الإيمان قولاً، وهو مستبطن للكفر تلاعباً بالدين واستهزاء به، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

وكذلك نهى الله عن موالاة جميع المشركين، لأن موالاة المسلمين لهم بعد أن أظهرهم الله عليهم بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً تكون قوة لهم وإقراراً على شركهم الذي جاء الإسلام لمحوه من جزيرة العرب. وقد نهج الإسلام من أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركي العرب، فأباح أكل طعامهم ونكاح نسائهم، وشرع قبول الجزية منهم، وإقرارهم على دينهم، وخصهم هنا بلقب أهل الكتاب، ولقب المشركين بالكفار، وفي آيات أخرى بالمشركين والذين أشركوا، لأنَّهم لوثنيتهم عريقون في الشرك، والكفر أصلاً فيه. أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضاً وليس من أصل دينهم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: وخافوا عقاب الله أيها المؤمنون في موالاة هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، حتى لا يضيع الغرض منها، وتكون وهنا لكم، ونصراً لهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقي الإيمان، تحفظون كرامته، وتجتنبون مهانته، وتصدقون بالجزاء والوعيد على معصيته ومخالفته تعالى. والمعنى: واتقوا الله في موالاتهم إن كنتم مؤمنين حقاً، فإنَّ تقوى الله هي الحاملة على امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

وقرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب(١): ﴿والكفار﴾ بالجر على تقدير: من أي ومن الكفار، وقرأ الباقون بالنصب على معنى لا تتخذوا الكفار أولياء، وهي رواية الحسينَ الجعفي عن أبي عمرو، وإعراب الجر والنصب واضح، وقرأ أبي

---

(١) البحر المحيط.

﴿ومن الكفار﴾ بزيادة ﴿من﴾ وقراءة عبد الله: ﴿ومن الذين أشركوا﴾.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ وأذنتم للإقبال ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾؛ أي: اتخذوا صلاتكم ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾؛ أي: لاعتقادهم أنه ليس فيها فائدة ومنفعة في الدين والدنيا قالوا: إنها لعب، والهزء السخرية، واللعب الأخذ في غير طريق، ذكره أبو حيان في «البحر»، وقيل: الضمير يعود للمناداة المدلول عليها بناديتم، ومعنى اتخاذهم الصلاة والمناداة هزواً ولعباً: تضاحكهم منها، وتغامزهم، والمعنى: وإذا أذن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة.. سخر من دعوتكم إليها من نهيتم عن ولايتهم من أهل الكتاب والمشركين، واتخذوها هزواً ولعباً، وروى[1] الطبراني: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام، فتطاير شررها في البيت فأحرقته وأهله، وقيل: كان المنافقون من اليهود يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس عنها، وقيل: إنَّ الكفار والمنافقين كانوا إذا سمعوا الأذان دخلوا على النبي ﷺ وقالوا: يا محمد لقد ابتدعت شيئاً لم يسمع بمثله فيما مضى، فإن كنت نبياً.. فقد خالفت الأنبياء قبلك، فمن أين لك صياح كصياح العير، فما أقبح هذا الصوت وهذا الأمر! فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية وأنزل: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية.

قيل[2]: وليس في كتاب الله تعالى ذكر الأذان إلا في هذا الموضع، وأما قوله تعالى في الجمعة: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾.. فهو خاص بنداء الجمعة، وقد اختلف أهل العلم في كون الأذان واجباً أو غير واجب، وفي ألفاظه، وهو مبسوط في مواطنه.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الاستهزاء المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون ما لهم في إجابة الصلاة وما عليهم في استهزائهم بها،

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.

لأنهم لو كان لهم عقل كامل.. لعلموا أن خدمة الخالق المنعم بغاية التعظيم لا تكون مهزوأً بها، فإنَّه أحسن أعمال العباد، وأشرف أفعالهم، ولذلك قال بعض الحكماء: أشرف الحركات الصلاة، وأنفع السكنات الصيام يعني: أن هزؤهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم.

وخلاصة المعنى: أي ذلك الفعل الذي يفعلونه وهو الهزؤ والسخرية: إنما كان لجهلهم بحقيقة الأديان، وما أوجب الله فيها من تعظيمه والثناء عليه بما هو أهله، ولو كان عندهم عقل.. لخشعت قلوبهم كلما سمعوا المؤذن يكبر الله تعالى ويمجده بصوته الندي، ويدعو إلى الصلاة له، والفلاح بمناجاته وذكره، فهو ذكر مؤثر في النفوس لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة في إرسال الشرائع، ويؤمن بالله العلي الكبير. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا دينك هزواً ولعباً والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ إنكاري تهكمي؛ أي: هل تكرهون منا أو تعيبون علينا من شيء ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وحده ﴿و﴾ بـ﴿ما أنزل إلينا﴾ من القرآن الكريم ﴿و﴾ بـ﴿ما أنزل من قبل﴾ على رسله سبحانه وتعالى من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب الإلٰهية، وهذا على سبيل التعجب من فعل أهل الكتاب، والمعنى: هل تجدون علينا عيباً في الدين إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وبما أنزل على جميع الأنبياء من قبل؟ وهذا ليس مما ينكر أو ينقسم منه، وهذا كما قال بعضهم:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

يعني: أنه ليس فيهم عيب إلا ذلك، وهذا ليس بعيب بل هو مدح عظيم لهم، والحاصل: أن هذا ديننا الحق، وطريقنا المستقيم، فلم تنقمونه علينا وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عطف[1] على المجرور؛ أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله، وما أنزل، وبأن أكثركم فاسقون، والمعنى: أعاديتمونا لأنَّا اعتقدنا توحيد الله وصدق أنبيائه وفسقكم لمخالفتكم لنا في ذلك؛ أي: وما تكرهون من

(١) النسفي.

أوصافنا إلا إيماننا بما ذكر واعتقادنا بأن أكثركم خارجون من الإيمان بما ذكر، فإن الكفر بالقرآن مستلزم بالكفر بما يصدقه بلا شك، ويجوز[1] أن تكون الواو بمعنى مع، أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما ذكر معه، مع أن أكثركم فاسقون. وعبارة[2] الخازن: يعني إنَّما كرهتم إيماننا ونقمتوه علينا، مع علمكم بأنا على الحق بسبب فسقكم وإقامتكم على الدين الباطل لحب الرياسة، وأخذ الأموال بالباطل، وإنما قال: أكثركم، لأن الله علم أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبرسوله.

وعبارة المراغي هنا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ...﴾ الآية؛ أي: قل يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى هل من شيء تعيبونه علينا، وتكرهوننا لأجله إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده، وإثبات صفات الكمال له، وإيماننا بما أنزل إلينا، وبما أنزل من قبلي على رسله لقلة إنصافكم، ولأن أكثركم فاسقون خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح، وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية، والتقاليد الباطلة.

والخلاصة: أنَّه ما عندنا سوى ذلك، وهذا مما لا يعاب ولا ينقم منه، بل يمدح صاحبه ويكرم، لكنكم لفسقكم وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عبتم الحسن من غيركم، ورضيتم بالقبيح من أنفسكم وفي قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ إشارة إلى أن الحكم بالفسق عليهم ليس على العموم بل على الأكثر فقط، لأنَّه قد كان في أهل الكتاب ناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل، وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام عندما عرفوا حقيقة أمره، وتجلى لهم صدق الداعي إليه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿تَنقِمُونَ﴾ بكسر القاف، والماضي نَقَم بفتحها، وهي التي ذكرها ثعلب في الفصيح، ونقم بالكسر ينقم بالفتح لغة حكاها الكسائي

---

(١) النسفي.
(٢) الخازن.
(٣) البحر المحيط.

وغيره. وقرأ بها أبو حيوة والنخعي وابن أبي عبلة، وأبو البرهشيم. وقرأ الجمهور: ﴿أُنزِلَ﴾ في الموضعين مبنياً للمفعول، وقرأه فيهما أبو نهيك مبنياً للفاعل، وقرأ نعيم بن ميسرة: ﴿وإن أكثركم فاسقون﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف، وهو واضح، المعنى بمعنى أمره تعالى أن يقول لهم هاتين الجملتين، وتضمنت الأخبار بفسق أكثرهم وتمردهم. وقرأ الجمهور بفتح همزة أن على أنها في موضع رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره: وفسق أكثركم ثابت معلوم عندكم، لأنكم علمتم أنّا على الحق وأنكم على الباطل، إلا أن حب الرياسة والرشا يمنعكم من الاعتراف، أو في موضع نصب عطفاً على أن آمنا، إلا أنَّه حذف مضاف تقديره: واعتقادنا فيكم أن أكثركم فاسقون، أو في موضع جر عطفاً على علة محذوفة، والتقدير: ما تنقمون منا إلا الإيمان لقلة إنصافكم وكثرة فسقكم، ثم رد على الاستفهام التهكمي باستفهام تهكمي مثله فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: قل لهم يا محمد هل أخبركم أيها المستهزئون بديننا وأذاننا ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمن هو شر وأقبح مثوبة وجزاء عند الله تعالى من ذلك القوم الذين اتخذتم دينهم وأذانهم هزواً ولعباً يعني: المؤمنين، واستعمال المثوبة في الجزاء الحسن، أكثر من استعمالها في الجزاء السيء كما هنا، وقيل إن استعمالها في الجزاء السيء من باب التهكم والإزدراء كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا السؤال يستدعي سؤالاً منهم عن ذلك الذي هو شر، فكأنهم سألوه وقالوا من هو؟ فأجابهم بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الذي هو شر من ذلك القوم الذين اتخذتم دينهم هزواً ولعباً من لعنه الله سبحانه، وطرده وأبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: وانتقم منه، لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة، أو سخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾؛ أي: مسخ بعضهم قردة، وهم أصحاب السبت في زمن داود، وهم اليهود. ﴿و﴾ مسخ بعضهم ﴿الخنازير﴾ وهم كفار أهل مائدة عيسى، بعد أكلهم من المائدة، وقيل[1]: كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة،

---

(١) البيضاوي.

ومشايخهم خنازير ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾؛ أي: وأطاع الشيطان في وسوسته وتزينه لهم الكفر والمعاصي التي منها عبادة العجل، وعبارة الواحدي هنا: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بشر من المسلمين الذين طعنتم عليهم ﴿مَثُوبَةً﴾؛ أي: جزاء وثواباً ﴿عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هو من لعنه الله؛ أي: أبعده عن رحمته انتهت. والمعنى: قل[1] هل أنبئكم بشر من أهل ذلك الذين مثوبة؟ فإن قلت هذا يقتضي أن الموصوفين بذلك.. محكوم عليهم بالشر لأنَّه تعالى قال ﴿بشر من ذلك﴾، ومعلوم أنَّ الأمر ليس كذلك فما جوابه؟.

قلت: جوابه أنَّ الكلام خرج على حسب قولهم واعتقادهم، فإنَّ اليهود حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر، فقال لهم: هب أن الأمر كذلك لكن من لعنه الله وغضب عليه ومسخ صورته شر من ذلك.

وفي قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ انتقال[2] بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر إلى ما هو أشد منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم، ذلك هو التذكير بسوء حال أبائهم من أنبيائهم، وما كان من جزاء الله لهم على فسقهم وتمردهم، بأشد ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت.

أمَّا اللعن فقد ذكر في عدة مواضع من القرآن الكريم مع بيان أسبابه، والغضب الإلٰهي يستلزم اللعنة، واللعنة تلزمه، إذ هي منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه. وأمَّا جعله منهم قردة وخنازير فقد تقدم في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ وسيأتي في سورة الأعراف ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ وجمهرة العلماء على أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير على الحقيقة، وانقرضوا لأن الممسوخ لا يكون له نسل، ونقل ابن جرير عن مجاهد، أنَّه قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب المثل بقوله: ﴿كَمَثَلِ

(١) الخازن.
(٢) المراغي.

ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾. وقرأ النخعي وابن وثاب[1]: ﴿أنبئكم﴾ من أنبأ وقرأ الجمهور: ﴿أنبئكم﴾ من نبأ وقرأ ابن بريدة والأعرج ونبيح وابن عمران: ﴿مثوبة﴾ كمعورة بسكون الثاء المثلثة وفتح الواو والجمهور ﴿مثوبة﴾ كمعونة. وقرأ أبي وعبد الله: ﴿من غضب عليهم وجعلهم قردة وخنازير﴾ وجعل هنا بمعنى صير.

فائدة: قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فيه عشرون[2] قراءة كلها شاذة إلا اثنتين، فهما سبعيتان كما سيأتي بيانهما:

١ ـ قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وابن عاصم وابن عامر ونافع والكسائي: ﴿وَعَبَدَ﴾ بفتح العين والباء والدال ونصب تاء ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾. وفيها وجهان أحدهما: أن المعنى: وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت، والثاني: أن المعنى: من لعنه الله وعبد الطاغوت.

٢ ـ وقرأ حمزة: ﴿وعَبُدَ الطاغوت﴾ بفتح العين والدال وضم الباء وخفض تاء الطاغوت. قال ثعلب: ليس لها وجه إلا أن يجمع فعل على فعل، وقال الزجاج وجهها أن الاسم بني على فعل كما تقول: علم زيد ورجل حذر؛ أي: مبالغ في الحذر، فالمعنى: جعل منهم خدمة الطاغوت ومن يلغ في طاعة الطاغوت الغاية. فهاتان الِراءاتان سبعيتان.

٣ ـ وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب: ﴿وعبدوا﴾ بفتح العين والباء ورفع الدال على الجمع ﴿الطاغوت﴾ بالنصب.

٤ ـ وقرأ ابن عباس وابن أبي عبلة ﴿وعبد﴾ بفتح العين والباء والدال إلا أنهما كسر التاء ﴿الطاغوت﴾ قال الفراء: أرادا عبدة فحذفا الهاء.

٥ ـ وقرأ أنس بن مالك: ﴿وعبيد﴾ بفتح العين والدال وبياء بعد الباء وخفض تاء ﴿الطاغوت﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) زاد المسير.

٦ ـ وقرأ أيوب والأعمش ﴿وعبد﴾ بضم العين وفتح الباء والدال مع تشديد الباء وكسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

٧ ـ وقرأ أبو هريرة وأبو رجاء وابن السميقع ﴿وعابد﴾ بألف مع كسر الباء وفتح الدال ومع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

٨ ـ وقرأ أبو العالية ويحيى ابن وثاب ﴿وعبد﴾ بضم العين والياء وفتح الدال من كسر تاء ﴿الطاغوت﴾، قال الزجاج: وهو جمع عبيد وعبد، مثل رغيف ورغف، وسرير وسرر، والمعنى: وجعل منهم عبيد الطاغوت.

٩ ـ وقرأ أبو عمران الجوني ومورق العجلي والنخعي: ﴿وعبد﴾ بضم العين وكسر الباء مخففة وفتح الدال مع ضم تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٠ ـ وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء وعكرمة ﴿وعبد﴾ بفتح العين والدال وتشديد الباء مع نصب التاء ﴿الطاغوت﴾.

١١ ـ وقرأ الحسن وأبو مجلز وأبو نهيك ﴿وعبد﴾ بفتح العين والدال وسكون الباء خفيفة مع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٢ ـ وقرأ قتادة وهذيل بن شرحبيل: ﴿وعبدة﴾ بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ منصوبة بعد الدال ﴿الطواغيت﴾ بألف وواو وياء بعد الغين على الجمع.

١٣ ـ وقرأ الضحاك وعمرو بن دينار: ﴿وعبد﴾ بضم العين وفتح الباء والدال مع تخفيف الباء وكسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٤ ـ وقرأ سعيد بن جبير والشعبي: ﴿وعبدة﴾ مثل حمزة إلا أنهما رفعا تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٥ ـ وقرأ يحيى بن يعمر والجحدري: ﴿وعبد﴾ بفتح العين وضم الباء والدال مع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٦ ـ وقرأ أبو الأشهب العطاردي: ﴿وعبد﴾ بضم العين وسكون الباء وفتح الدال مع كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٧ ـ وقرأ أبو السماك ﴿وعبدة﴾ بفتح العين والباء والدال وتاء في اللفظ بعد الدال مرفوعة من كسر تاء ﴿الطاغوت﴾.

١٨ ـ وقرأ معاذ القارىء: ﴿وعابد﴾ مثل قراءة أبي هريرة، إلا أنه ضم الدال.

١٩ ـ وقرأ أبو حيوة: ﴿وعباد﴾ بتشديد الباء وبألف بعدها مع ضم العين وفتح الدال.

٢٠ ـ وقرأ ابن حذلم وعمرو بن فائد ﴿وعباد﴾ مثل أبي حيوة إلا أن العين مفتوحة والدال مضمومة. وهذه القراءة كلها شاذة إلا الأوليين كما مر. وقد سبق ذكر الطاغوت في سورة البقرة، وفي المراد به ها هنا قولان، أحدهما: الأصنام والثاني: الشيطان، ذكره ابن الجوزي في تفسيره.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الملعونون الممسوخون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: أقبح مكاناً ومستقراً من المؤمنين في الآخرة لأنَّ مكانهم سقر، ولا مكان أشدّ شراً منه، أو المعنى: أولئك الملعونون المغضوب عليهم المجعول منهم القردة والخنازير، العابدون الطاغوت شر مكاناً من غيرهم من الكفرة الذين لم يجمعوا بين هذه الخصال الذميمة ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: أكثرهم ضلالاً عن الطريق المستقيم وقصده ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ومثلاً هؤلاء لا يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين وبصلاتهم وأذانهم إلا الجهل وعمى البصيرة. قال ابن كثير: والمعنى يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله، وإفراده بالعبادة دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟!. قال القرطبي: ولما نزلت هذه الآية عيَّر المسلمون اليهود، وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، فسكتوا ونكسوا رؤوسهم افتضاحاً وفيهم يقول الشاعر:

فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَىٰ ٱلْيَهُوْدِ ... إِنَّ ٱلْيَهُوْدَ إِخْوَةُ ٱلْقُرُوْدِ

ثم بيّن حال المنافقين منهم فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾؛ أي: وإذا جاءكم أيها المؤمنون المنافقون من اليهود ﴿قَالُوٓاْ﴾ للرسول ولكم إننا ﴿ءَامَنَّا﴾ بالرسول وما

أنزل عليه ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قد دخلوا﴾ عليكم متلبسين ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ الضلال مقيمين عليه ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ﴾ متلبسين ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالكفر والنفاق أيضاً، فحالهم عند خروجهم كحالهم عند دخولهم، لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول وما نزل من الحق، ولكنهم قوم دأبهم الخداع والنفاق كما جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية. يعني: إنهم دخلوا كافرين وخرجوا كما دخلوا كافرين لم يتعلق بقلوبهم شيء من الإيمان، فهم كافرون في حالتي الدخول والخروج. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ﴾؛ أي: عالم ﴿بما كانوا يكتمونـ﴾ـه ويخفونه في قلوبهم حين دخولهم من قصد تسقط الأخبار، والتوسل إلى ذلك النفاق والخداع، وحين خروجهم من الكيد والمكر والكذب الذي يلقونه إلى البعداء من قومهم كما علمت مما سلف عند قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

وفي قوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ تأكيد لكونهم حين الخروج كما هم حين الدخول، واحتيج إليه لمجيئه على خلاف المعروف، لأنَّ من كان يجالس الرسول ﷺ وأصحابه يسمع منه العلم والحكمة، ويرى من أحاسن أخلاقه ما يؤثر في القلوب ويلين قاسيها.. يرجع عن سوء عقيدته، وتصفو نفسه من كدوراتها؛ إلا إذا كان متعنتاً مخادعاً، فإن الذكرى لا تنفعه والعظات والزواجر لا تؤثر فيه.

وقد كان الرجل يجيء إلى النبي ﷺ يريد قتله حتى إذا رآه سمع كلامه.. انجابت عن قلبه ظلمات الكفر والفسوق، وآمن به وأحبه، وما شذ هؤلاء إلا لسوء نيتهم وفساد طويتهم، وذلك ما صرف قلوبهم عن التذكر والاعتبار، ووجه هممهم إلى الكيد والخداع، فلم يكن لديهم عقول تعي وتفقه مغزى الحكم والآداب.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: وترى يا محمد كثيراً من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينك هزواً ولعباً ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي ٱلْإِثْمِ﴾ والشرك والمعاصي ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي الظلم والتعدي على الناس وتجاوز الحدود التي ضربها الله للناس

﴿وَ﴾ في ﴿أكلهم﴾ وأخذهم ﴿ٱلسُّحۡتَۚ﴾ والحرام، كالرشا وكل ما يعود على فاعله بالضرر في الدين والدنيا، فهم غارقون في الإثم والعدوان، فكلما قدروا عليهما ابتدروهما ولم يتأخروا عن ارتكابهما، ثم بالغ في قبح هذه الأعمال فقال وعزتي وجلالي: ﴿لَبِئۡسَ﴾ وقبح ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: لبئس شيئاً كانوا يعملونه عملهم هذا؛ أي: وعزتي وجلالي ما أقبح هذا العمل الذي يعمله هؤلاء من مسارعتهم في كل ما يفسد الأخلاق، ويدنس النفوس، ويقوض نظم المجتمع، وويل للأمة التي يعيش فيها أمثال هؤلاء، فهلا نهاهم علماؤهم وزهادهم وعبادهم عن أفعالهم بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر قبل أن يستفحل ويتفاقم الشر ويعم الضرّ وإلى هذا أشار بقوله: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ وكلمة لولا حرف تحضيض وتوبيخ لعلمائهم وعبادهم على تركهم النهي عن المنكر؛ أي: هلا يمنعهم الربانيون؛ أي: السياسيون الذين هم أئمتهم في التربية والسياسة أو العباد ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾؛ أي: العلماء في الدين؛ أي: هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصي عبادهم وعلماؤهم ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾؛ أي: الشرك والكذب ﴿وَ﴾ عن ﴿أكلهم﴾ وأخذهم ﴿ٱلسُّحۡتَۚ﴾ والحرام والله ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقبح شيئاً كان الربانيون والأحبار يصنعونه من الرضى بهذه الأوزار والخطايا، وتركهم فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما.

روي عن ابن عباس أنَّه قال: ما في القرآن أية أشد توبيخاً من هذه الآية. وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، يريد ابن عباس أنها حجة على العلماء، إذا هم قصروا في الهداية والإرشاد، وتركوا النهي عن الشرور والآثان التي تفسد نظم الحياة للفرد والمجتمع، فحق على العلماء والحاكم أن يعتبروا بهذا النعي على اليهود، ساسة وعلماء ومر بين فيزدجروا ويعلموا أن هذه موعظةً وذكرى لهم إن نفعت الذكرى. فقوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ أبلغ من قوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأن[1] العمل لا يبلغ درجة الصنع حتى يتدرب فيه

(١) الشوكاني.

صاحبه، ولهذا تقول العرب: سيف صنيع، إذا جود عامله عمله، فالصنع هو العمل الجيد، لا مطلق العمل فوبخ سبحانه الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعل المعاصي، فجعل جزم العاملين ذنباً غير راسخ، وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنباً راسخاً، ولذلك ذم بهذا خواصهم، ولأن ترك الإنكار على المعصية أقبح من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذ بها، لأنها مرض الروح وهو صعب شديد ولا يكاد يزول، ولا كذلك ترك الإنكار عليها فيدخل في هذا الذم كل من كان قادراً على النهي عن المنكر من العلماء وغيرهم، وتركه وقال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ ٱلدِّيْنَ إلاَّ ٱلْمُلُوْكَ ... وَأَحْبَارُ سُوْءٍ وَرُهْبَانُهَا

وقيل: غاير في العبارة بين المقامين لتفنن الفصاحة، ولترك تكرار اللفظ. فليفتح العلماء لهذه الآية مسامعهم، ويفرجوا لها عن قلوبهم، فإنَّها قد جاءت بما فيه البيان الشافي لهم، بأن كفهم عن المعاصي مع ترك إنكارهم على أهلها، لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هم أشد حالاً وأعظم وبالاً من العصاة، فرحم الله عالماً قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما افترضه الله عليه، وأوجب ما أوجب عليه، النهوض به، اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين، ومن العلماء العاملين الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الذين لا يخافون فيك لومة لائم، وصل وسلم اللهم على من أرسلته رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل الرفع صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾:

فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾: الناهية. ﴿ٱلْيَهُودَ﴾: مفعول أول. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾: معطوف عليه. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿بَعْضُهُمْ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ خبر ومضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَتَوَلَّهُم﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾ الشرطية، وفاعله ضمير يعود على (مَنْ). ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يتول﴾. ﴿فَإِنَّهُۥ﴾: الفاء: رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. (إنَّ): حرف نصب. (الهاء): اسمها. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور خبر (إنَّ) وجملة إنَّ في محل الجزم بـ(من) على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إن)، وجملة (إن) جملة تعليلية سيقت لتعليل كون من يواليهم منهم؛ أي: لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم، فيقعون في الكفر والضلال. كما ذكره أبو السعود.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَتَرَى﴾: (الفاء)(١): إمَّا للسببية المحضة، أي: بسبب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المتصفين بما ذكر ترى الذين.. إلخ. أو للعطف على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾... إلخ من حيث المعنى اهـ. كرخي. ﴿ترى﴾: فعل مضارع وهي بصرية، وفاعله ضمير يعود على محمد أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة أو معطوفة على ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل

(١) الفتوحات.

وفاعل. ﴿فِيهِمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الموصول. وقيل: تر علمية، وجملة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في محل النصب مفعول ثانٍ، والأول أنسب بظهور نفاقهم. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ضمير ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾. ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ مقول محكي لـ﴿يَقُولُونَ﴾ وإنْ شئت قلت: ﴿نَخْشَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على المنافقين المرضى، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول ﴿أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾: ناصب وفعل، ومفعول وفاعل، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿نَخْشَىٰٓ﴾ تقديره: نخشى إصابة الدائرة إيانا. ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ﴾ الفاء: استئنافية. ﴿عسى﴾: فعل ماض من أفعال الرجاء ترفع الاسم وتنصب الخبر، و﴿عسى﴾ وإن كانت في أصلها للترجي إلاَّ أنَّها في كلام الله للتحقيق، لأن كلامه موافق لعلمه، وهو لا يتخلف. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿أَن يَأْتِيَ﴾: ناصب وفعل، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿بِٱلْفَتْحِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بمحذوف صفة لـ﴿أَمْرٍ﴾ تقديره: أو أمر كائن من عنده، وجملة ﴿يَأْتِيَ﴾ صلة ﴿أَن﴾ المصدرية ﴿أَن﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على كونه خبراً لـ﴿عسى﴾ ولكنَّه في تأويل اسم الفاعل، لأنه لا يخبر باسم المعنى عن الذات تقديره: عسى الله آتياً بالفتح أو أمر من عنده أو ذا إتياناً بالفتح، وجملة عسى مستأنفة. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ معطوفة ﴿بِٱلْفَتْحِ﴾ ﴿فَيُصْبِحُواْ﴾: (الفاء): عاطفة. ﴿يصبحوا﴾: فعل ناقص واسمه معطوف على ﴿يَأْتِيَ﴾: فهو داخل معه في حيز خبر عسى، وإنْ لم يكن فيه ضمير يعود على اسمها. فإن: فاء السببية مغنية عن ذلك، لأنَّها تجعل الجملتين كجملة واحدة، ذكره أبو السعود. ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَٰدِمِينَ﴾. ﴿أَسَرُّواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَسَرُّواْ﴾ وجملة ﴿أَسَرُّواْ﴾ صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: أسروه. ﴿نَٰدِمِينَ﴾: خبر أصبح منصوب بها، وجملة أصبح في تأويل مصدر معطوف على مصدر ﴿يَأْتِيَ﴾ على كونه خبراًلعسى، ولكنه في تأويل مشتق تقديره: فعسى الله آتياً بالفتح، فمصبحين نادمين على ما أسروا في أنفسهم.

﴿رَٰكِعُونَ﴾. قال الزمخشري[1]: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الذين آمنوا﴾ بدل كل من كل، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين، وإنما لم يجعل صفة لـ﴿الذين آمنوا﴾ لأنَّ الوصف بالموصول على خلاف الأصل، لأنَّه يؤول بمشتق، وأيضاً لأن ﴿الذين آمنوا﴾ وصف، والوصف لا يوصف إلا إذا جرى مجرى الاسم كالمؤمن مثلاً بخلاف الذين آمنوا، فإنه في معنى الحدوث، ألا ترى أنَّه جعل الذي يوسوس صفة للخناس، لأنَّه ليس في معنى الحدوث ا هـ. كرخي و«سمين».

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على جملة ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب حال من فاعل الفعلين؛ أي: يعملون ما ذكروهم خاشعون، متواضعون، أو حال من فاعل الفعل الأول؛ أي: يصلون الصلاة وهم راكعون.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: (الواو): استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَتَوَلَّ ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿من﴾ وفاعله ضمير يعود على ﴿من﴾. ﴿وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ﴾: معطوفان على الجلالة، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾: (الفاء): رابطة لجواب من الشرطية وجوباً. ﴿إنَّ﴾: حرف نصب. ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾ وجملة (إنَّ) في محل الجزم بمن الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ(أي). ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلته. ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل والجملة جواب النداء

---

(١) الفتوحات.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿تَتَّخِذُواْ﴾. ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان ﴿وَلَعِبًا﴾ معطوف على ﴿هُزُوًا﴾ وجملة ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ صلة الموصول الثاني ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أُوتُواْ﴾ لأنَّ أتى بمعنى أعطى يتعدى لمفعولين، والجملة صلة للموصول المجرور بـ﴿من﴾. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُوتُواْ﴾. ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ بالنصب عطف على ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ وبالجر عطف على ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما مر في بحث التفسير ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مفعول ثانٍ لقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ على كونها جواب النداء. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾. ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: خبر كان، وجواب إنْ معلوم مما قبلها تقديره: إن كنتم مؤمنين.. فاتقوا الله، وجملة إن الشرطية مستأنفة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾.

﴿وَإِذَا﴾: (الواو): عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿نَادَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿نَادَيْتُمْ﴾. ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثان. ﴿وَلَعِبًا﴾: معطوف عليه، والجملة جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ من فعل شرطها وجوابها معطوفة على جملة قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ على كونها صلة الموصول والتقدير: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً، والذين إذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ (الباء): حرف جر، ﴿أنَّ﴾: حرف نصب، والهاء: اسمها. ﴿قَوْمٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾ صفة لقوم، وجملة أن في تأويل مصدر مجرور بالباء والتقدير: بسبب كونهم قوماً لا يعقلون، والجار والمجرور خبر لذلك؛ أي: ذلك كائن بسبب عدم عقلهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ (٥٩)﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإنْ شئت قلت: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أهل الكتاب﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول القول. ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي. ﴿تَنقِمُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَّآ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿أَنْ﴾: حرف مصدر ونصب. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية صلة ﴿أَنْ﴾ المصدرية ﴿أَنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية تقديره: هل تنقمون منا إلا إيماننا بالله. ﴿وَمَآ﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على لفظ الجلالة. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضي مغير الصيغة ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْنَا﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: معطوف أيضاً على الجلالة. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾: (الواو): عاطفة، ﴿أنَّ أكثركم﴾: ناصب واسمه. ﴿فَٰسِقُونَ﴾: خبر أن في تأويل مصدر معطوف على المصدر المؤول من أن أمنا، ولكنه على تقدير مضاف والتقدير: قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا إيماننا بما ذكر، واعتقاد كون أكثركم فاسقين؛ أي: اعتقادنا كون أكثركم فاسقين.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿هَلْ﴾: حرف للاستفهام التهكمي. ﴿أُنَبِّئُكُم﴾: فعل ومفعول أول، وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿بِشَرٍّ﴾: جار ومجرور في محل النصب مفعول ثان لنبأ، وهو هنا يتعدى إلى مفعولين فقط؛ لأنه بمعنى عرف. ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلق ﴿بِشَرٍّ﴾. ﴿مَثُوبَةً﴾: تمييز لشر منصوب به، والظاهر(١) أنَّه من تمييز النسبة للمفرد؛ لأن

(١) الفتوحات.

الشر واقع على الأشخاص، والمثوبة هي الجزاء. فلا يفسر أشر بها، وكان أصل التركيب: هل أنبئكم من قبح مثوبته؛ أي: جزائه، وجملة ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب جزء المقول. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صفة لـ﴿مَثُوبَةً﴾. ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: من اسم موصول في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من، والجملة من المبتدأ المحذوف وخبره في محل النصب مقول القول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة صلة من الموصولة. ﴿وَغَضِبَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على ﴿لَّعَنَهُ﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِنْهُمُ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾. ﴿ٱلْقِرَدَةَ﴾: مفعول ﴿جعل﴾. ﴿وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ معطوف على ﴿ٱلْقِرَدَةَ﴾. ﴿وَعَبَدَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: مفعول ﴿عبد﴾ والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ على كونها صلة الموصول، وراعى في ضمير ﴿لَّعَنَهُ﴾ ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾. ﴿وَعَبَدَ﴾ على قراءته فعلاً ماضياً لفظ ﴿مَن﴾ وفي ضمير ﴿جعل﴾ ﴿مِنْهُمُ﴾ راعى معناها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿شَرٌّ﴾ خبر. ﴿مَّكَانًا﴾: تمييز ﴿شَرٌّ﴾ تمييز[1] نسبة؛ أي: أولئك قبح مكانهم على حد قوله:

وَٱلْفَاعِلَ ٱلْمَعْنَىٰ ٱنْصِبَنْ بِأَفْعَلاَ   مُفَضِّلاً كَأَنْتَ أَعْلَىٰ مَنْزِلاَ

والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾ إن قلنا إنَّه من كلام محمد، أو مستأنفة، إن قلنا إنَّه من كلام الله تعالى، ﴿وَأَضَلُّ﴾ معطوف على ﴿شَرٌّ﴾. ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿وَأَضَلُّ﴾.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءُوكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها،

(١) الفتوحات.

على كونها فعل شرط لها. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة. ﴿ءَامَنَّا﴾: مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإن شئت قلت: ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ أو ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿دَّخَلُواْ﴾؛ أي: وقد دخلوا حالة كونهم متلبسين بالكفر. ﴿وَهُمْ﴾: مبتدأ وجملة ﴿قَدْ خَرَجُواْ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿قد دخلوا﴾: على كونها حالاً من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿خَرَجُواْ﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَعْلَمُ﴾. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَكْتُمُونَ﴾ في محل النصب خبر كان، وجملة كان صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما كانوا يكتمونه.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ﴾: (الواو): استئنافية، ﴿ترى﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على محمد. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول به لـ﴿ترى﴾؛ لأنَّ ترى هنا بصرية تتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْإِثْمِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿كَثِيرًا﴾ أو صفة ثانية له، ومفعول ثان لـ﴿ترى﴾ إن قلنا إنها علمية، والأول أنسب بالمقام كما في «الجمل». ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْإِثْمِ﴾. وكذا قوله: ﴿وَأَكْلِهِمُ﴾ معطوف على ﴿ٱلْإِثْمِ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى فاعله. ﴿ٱلسُّحْتَ﴾: مفعوله. ﴿لَبِئْسَ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: هو، يفسره التمييز المذكور بعده. ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة في محل النصب على التمييز. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة كان صفة لما والرابط محذوف تقديره: يعملونه، والتقدير: لبئس هو؛ أي: عملهم من جهة كونه شيئاً

يعلمونه، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: عملهم هذا، ويجوز أن تكون ما فاعل بئس وهي اسم معرفة، والجملة بعدها صفة لمخصوص محذوف والتقدير: بئس الشيء شيء كانوا يعملونه، كما قال ابن مالك:

وَ(مَا) مُمَيَّزٌ وَقِيلَ فَاعِلُ   فِيْ نَحْوِ: نِعْمَ مَا يَقُوْلُ الْفَاضِلُ

وجملة ﴿بئس﴾ جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب.

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَوْلَا﴾: حرف تخضيض وتوبيخ. ﴿يَنْهَىٰهُمُ﴾: فعل ومفعول ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾: فاعل. ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾: معطوف عليه والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿عَن قَوْلِهِمُ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَنْهَىٰهُمُ﴾، وهو مصدر مضاف إلى فاعله. ﴿ٱلْإِثْمَ﴾: مفعوله. ﴿وَأَكْلِهِمُ﴾: معطوف على ﴿قَوْلِهِمُ﴾ وهو أيضاً مصدر مضاف إلى فاعله. ﴿ٱلسُّحْتَ﴾ مفعوله. ﴿لَبِئْسَ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض. ﴿مَا﴾: اسم معرفة في محل الرفع فاعل، وجملة ﴿كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾: صفة لمخصوص محذوف أيضا، والتقدير: لبئس الشيء شيئاً شيء كانوا يصنعونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. الأولياء جمع ولي، كأصفياء جمع صفي في الولاية، والمراد بالولاية هنا ولاية التناصر والمحالفة على المؤمنين، ومن ضرورة موالاة بعضهم لبعض اجتماع الكل على مضارتكم، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة. ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ والدائرة ما يدور به الزمان من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها. وقال ابن حيان: الدائرة واحدة الدوائر وهي: صروف الدهر ودوله ونوازله، وقال الشاعر:

وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلدَّائِرَاتِ تَدُوْرُ

انتهى.

وفرق الراغب بين الدائرة والدولة بأن الدائرة هي الخط المحيط ثم عبر بها عن الحادثة، وإنَّما تقال في المكروه، والدولة في المحبوب. انتهى. ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وجهد الأيمان أغلظها، وهو في الأصل مصدر ونصبه على الحال؛ أي: مجتهدين في إقسامهم، أو على المفعولية المطلقة؛ أي: أقسموا إقسام اجتهاد اليمين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾؛ أي: بطلت أعمالهم التي كانوا مكلفين بها، وعملوا بها في أعين الناس، كالصلاة، والصيام، والجهاد معكم، فخسروا أجرها وثوابها، يقال: حبط العمل من باب فرح إذا بطل ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جمع ذليل كأدلة جمع دليل، بمعنى متواضعين من التذلل بمعنى التواضع لا جمع ذلول ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ جمع عزيز بمعنى متغلبين عليهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ أي: عذل عاذل، وفي «المختار»: اللوم العذل، تقول: لامه على كذا من باب قال لوماً ولومة إذا عذله، واللائمة الملامة ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ والحزب في اللغة: أصحاب الرجل الذين يكونون معه على رأيه، وهم القوم الذين يجتمعون لأمر حزبه؛ أي: أهمه.

﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يقال: هزىء بفلان ومنه هَزْءاً وهُزْءاً وهُزُءاً إذا سخر به، والهزؤ أيضاً ما يهزء منه، يقال: هو هزءة بين الناس؛ أي: يهزأون ويسخرون منه، واللعب معروف وهو مصدر على غير قياس، وفعله لعب يلعب ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والنداء الدعاء برفع الصوت، وناداه مناداة ونداء إذا صاح به، وتنادوا؛ أي: نادى بعضهم بعضاً وتنادوا؛ أي: جلسوا في النادي.

﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ وفي نقم لغتان: الفصحى وهي التي حكاها ثعلب في فصيحه، نقم بفتح القاف ينقم بكسرها، والأخرى: نقم بكسر القاف ينقم بفتحها، قال الكسائي: نقمت بالكسر لغة ونقمت الأمر أيضاً، يقال: نقمت إذا كرهته، وانتقم منه إذا عاقبه، والاسم منه النقمة والجمع نقمات مثل كلمة وكلمات، وإن شئت سكنت القاف ونقلت حركتها إلى النون، والجمع نقم مثل نعمة ونعم. ﴿مَثُوبَةً﴾ المثوبة بسكون الثاء المثلثة مع فتح الميم والواو، والمثوبة بضم الثاء مع سكون الواو الجزاء على الأعمال خيرها وشرها، وأكثر استعماله في الخير من ثاب إذا رجع ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ القردة جمع قرد بكسر أوله وسكون

ثانيه، ويجمع القرد أيضاً على أقراد وقرود وقردة بفتح القاف وكسر الراء، والأنثى قردة بكسر أوله وسكون ثانيه، وتجمع على قرد كقربة على قرب. والقرد حيوان خبيث يضحك ويطرب وسريع الفهم والتعلم، ويعرف عندالعامة بالسعدان، والعامة تستعمل القرد بمعنى الشيطان، فتقول: فلان كالقرد، وفي استنكار يا قرد. والخنازير جمع خنزير وهو حيوان معروف ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ بفتحات في عبد بصيغة الماضي ونصب الطاغوت على المفعولية في قراءة غير حمزة من السبعة، وقرأ حمزة بضم باء عبد وإضافته إلى الطاغوت عطفاً على القردة؛ أي: وجعل عبد الطاغوت؛ أي: عبادها، وهو اسم جمع لعبد لا جمع له بل جمعه أعبد، كما قال ابن مالك:

لِفَعَلَ ٱسْمَاً صَحَّ عَيْنَاً أَفْعَلُ وَلِلرُّبَاعِيِّ ٱسْمَاً أَيْضَاً يُجْعَلُ

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ شر اسم تفضيل أصله أشرر بوزن أفعل حذفت همزته تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

منها: الإجمال الذي أريد به التفصيل في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾؛ لأنَّ المعنى: بعض اليهود أولياء بعض، وبعض النصارى أولياء بعض، لأن اليهود ليسوا أولياء النصارى، ولا النصارى أولياء اليهود لما بينهم من المعاداة، وإنَّما أوثر الإجمال تعويلاً على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين الفريقين رأساً.

ومنها: التأكيد بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، لأنَّها جملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهي، ولتأكيد إيجاب الاجتناب المستفاد من النهي.

ومنها: المبالغة في الزجر في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لأن المرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به، ويوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدي إلى الموت، استعير هنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة، وعداوة النبي ﷺ، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدية إلى الهلاك الروحاني.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿مَّرَضٌ﴾ للدلالة على كونه نوعاً مبهماً غير ما يتعارفه الناس من الأمراض.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾. لأن المسارعة حقيقة في الأجسام، وهي هنا كناية عن تنقل قلوبهم من بعض مراتب رغبة موالاتهم إلى بعض آخر.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿دَآئِرَةٌ﴾ لأنها حقيقة في الشيء الذي يحيط بغيره، استعيرت لما يقع بهم من مصائب الدهر.

ومنها: التقسيم في قوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٍ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾.

ومنها: الاستفهام التعجبي في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وفي قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ لأن فيه معنى التعجب إن كان من كلام المؤمنين، كأنه قيل: ما أحبط أعمالهم، أو فيه تعجيب للسامعين من حبوط أعمالهم إن كان من كلام الله تعالى.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

ومنها: الطباق بين لفظي: ﴿أَذِلَّةٍ﴾ و﴿أَعِزَّةٍ﴾ في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأنه من المحسنات البديعية.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ﴾ فإن فيه تعريضاً بذم المنافقين فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياءهم اليهود، فلا يكادون يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم، وفي تنكير لومة ولائم مبالغة لا تخفى، لأن اللومة المرة من اللوم.

ومنها: دفع الإيهام في قوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأنه لما قال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أوهم أنهم أذلاء محقرون مهانون، فدفع ذلك الإيهام بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: متغلبين عليهم.

ومنها: الوصف بالجملة الفعلية في جانب المحبة في قوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ لإفادة التجدد والحدوث، لأن الفعل يدل عليهما، وهو مناسب بالمقام، لأن

محبتهم لله تعالى تجدد طاعته وعبادته كل وقت، ومحبة الله إياهم تجدد ثوابه وإنعامه عليهم كل وقت.

ومنها: الوصف بالاسم الدال على المبالغة في جانب التواضع للمؤمنين والغلظة على الكافرين دلالة على ثبوت ذلك واستقراره، فإنه عريق فيهم. ومنها التهييج في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس في قوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ...﴾ إلخ فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة، مع أن الأمر بالعكس.

ومنها: الاستفهام التهكمي في: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ وفي قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ حيث استعملت المثوبة في العقوبة.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنَّه في مشاكلة قولهم: لا نعلم ديناً شراً من دينكم.

ومنها: التخضيض والتوبيخ في قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾؛ لأنَّه تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، وتوبيخ لهم على تركهم النهي، لأن لولا إذا دخلت على الماض أفادت التوبيخ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض كما ذكره «البيضاوي».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ
أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ
أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن
لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا
جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ
فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات السالفة بعض مخازيهم من مسارعتهم في الإثم والعدوان، وأكل السحت إلى نحو أولئك مما اختلت به نظم المجتمع في الأفراد والجماعات، فأصبحوا قوماً أنانيين، همة كل واحد منهم جمع المال واكتسابه على أي صورة كان، وبأي وجه جمع، وقد أثر هذا في أخلاقهم وأعمالهم أشد الأثر كما تشهد بذلك كتب دينهم.. ذكر هنا أفظع مخازيهم، وأقبحها بجرأتهم على ربهم، ووصفهم إياه بما ليس من صفته وإنكارهم جميع أياديه عندهم، وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم جرمهم، توبيخاً لهم وتعريفاً

لنبيه ﷺ قديم جهلهم، واحتجاجاً له بأنه مبعوث ورسول إذ أخبر بخفي علومهم، ومكنون أخبارهم التي لا يعلمها إلا أحبارهم دون غيرهم من اليهود.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. الآية. وأخرج أبو الشيخ من وجه آخر عنه قال: نزلت آية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: في فنحاص رأس يهود بني قينقاع.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس مكذبي فوعدني لأبلغن أو ليعذبني» فأنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قال: كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون علي؟ فنزلت: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾. أخرج الحاكم والترمذي عن عائشة رضي الله عنه قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله». وأخرج الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه فلما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ترك الحرس، وأخرج أيضاً عن عصمة بن مالك الخطمي قال: كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فترك الحرس.

وأخرج ابن حبان في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا إذا أصبحنا ورسول الله ﷺ في سفر. تركنا له أعظم شجرة وأظلها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت الشجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله يمنعني منك، ضع السيف»، فوضعه

---

(١) لباب النقول.
(٢) لباب النقول.

فنزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار.. نزل ذات الرقيع بأعلى نخل، فبينا هو جالس على رأس بئر قد أدلى رجليه فقال الوارث من بني النجار: لأقتلن محمداً، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له أعطني سيفك، فإذا أعطانيه.. قتلته، فأتاه فقال له: يا محمد أعطني سفيك، فأعطاه إياه فرعدت يده، فقال رسول الله ﷺ: «حال الله بينك وبيني ما تريد» فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ...﴾ الآية، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رافع وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا؟ قال: «بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم بما فيها، وكتمتم ما أمرتم أن تبينوه للناس» قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فأعنا على الهدى والحق، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾؛ أي: مقبوضة عن العطاء، بخيلة عن أن تنفق. واليد[1] عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا﴾ وعلى النعمة، ومنه قولهم كم يد لي عند فلان، وعلى القدرة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وعلى التأييد ومنه قوله ﷺ: «يد الله مع القاضي حين يقضي»، وتطلق على معانٍ أخر. وهذه الآية على طريق التمثيل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ والعرب تطلق غل اليد على البخل، وبسطها على الجود مجازاً ولا يريدون الجارحة كما يصفون البخيل بأنه جعد الأنامل ومقبوض الكف ومنه قول الشاعر:

كَانَتْ خُرَاسَانُ أَرْضاً إِذْ يَزِيْدُ بِهَا ... وَكُلُّ بَابٍ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ مَفْتُوْحُ

(١) الشوكاني.

فَٱسْتَبْدَلَتْ بَعْدَهُ جَعْداً أَنَامِلُهُ   كَأَنَّمَا وَجْهُهُ بِٱلْخَلِّ مَنْضُوحُ

فمراد اليهود بقولهم هذا عليهم لعائن الله تعالى: إن الله بخيل، قال ابن عباس وعكرمة والضحاك: إن الله تعالى قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالاً، فلما بعث الله محمداً ﷺ وكذبوا به، ضيق الله عليهم المعيشة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة. وأخرج الطبراني عن ابن عباس أنه قال النباش بن قيس: يد الله مغلولة؛ أي: قال[1] هذا الكلام بعض منهم ونسبه إلى الأمة بناء على التكافل العام بين أفرادها، وكونها كالشخص الواحد، وأن الناس في كل زمان يعزون إلى الأمة ما يسمعون من بعض أفرادها، وقد جرت سنة القرآن أن ينسب إلى المتأخرين ما قال أو فعله سلفهم منذ قرون. ولا عجب في صدور هذا القول من بعض الأشخاص منهم، فإنا نرى من المسلمين في عصرنا هذا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق، وفي إبان المصائب، فأجاب الله سبحانه وتعالى ودعا عليهم بالبخل والطرد من رحمته فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ربطت أيديهم إلى الأعناق بالأغلال بالأسر في الدنيا وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم ﴿وَلُعِنُوا﴾؛ أي: وطردوا من رحمة الله تعالى وعذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار ﴿بـ﴾ سبب ﴿ما قالوا﴾؛ أي: بسبب قولهم يد الله مغلولة. أو المعنى[2]: أمسكت أيديهم عن كل خير وطردوا عن رحمة الله تعالى. قال الزجاج: رد الله عليهم فقال: أنا الجواد الكريم وهم البخلاء، وأيديهم هي المغلولة الممسوكة، وقيل: هذا دعاء على اليهود علمنا الله كيف ندعوا عليهم فقال: غلت أيديهم؛ أي: في نار جهنم، فعلى هذا هو من الغل حقيقة؛ أي: شدت أيديهم إلى أعناقهم، وطرحوا في النار جزاء لهم على هذا القول، ومعنى لعنوا بما قالوا عذبوا بسبب ما قالوا، فمن لعنتهم أنهم مسخوا في الدنيا قردة وخنازير، وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية، وفي الآخرة لهم عذاب النار.

---

(١) المراغي.   (٢) الخازن.

وعبارة المراغي هنا ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ هذا دعاء عليهم بالبخل وانقباض الأيدي عن العطاء، والإمساك عن الإنفاق في سبيل البر والخير، وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً، كما دعا عليهم بالطرد، والبعد من رحمته، وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين.

ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم ما قالوه، وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء، وأن كل ما في العالم من خير هو سجل من ذلك الجود فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾ لا مقبوضتان ﴿يُنفِقُ﴾ ويعطي ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ويريد من بسط وتضييق لمن يشاء؛ أي: بل هو الجواد المتصرف وفق حكمته وسننه في الاجتماع وتقتير الرزق على بعض العباد، لا ينافي سعة الجود وسريانه في كل الوجود، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق بحسب السنن التي أقام بها نظام الخلق، فإن شاء وسع وإن شاء قتر، فهو الباسط القابض، فإن قبض كان ذلك لما تقتضيه حكمته الباهرة، لا لشيء آخر، فإن خزائن ملكه لا تفنى ومواد جوده لا تتناهى، وعبر عن سعة الجود ببسط اليدين، لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته يعطي بكلتا يديه، كما قال الأعشى يمدح جواداً:

يَـدَاكَ يَـدَا جُـوْدٍ فَـكَـفٌّ مُـفِـيْـدَةٌ   وَكَـفٌّ إِذَا مَـا ضُـنَّ بِـالـزَّادِ تُـنْـفِـقُ

وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة، وهذه الجملة الإضرابية معطوفة على جملة مقدرة يقتضيها المقام، والتقدير: ليس الأمر على ما وصفتموه تعالى به من البخل، بل هو تعالى جواد كريم على سبيل الكمال، فإن من أعطى بيديه من الإنسان فقد أعطى على أكمل الوجوه، فتثنية اليد مبالغة في الوصف بالجود.

فصل: في يد الله سبحانه وتعالى

وأما الكلام في اليد: فقد اختلف العلماء في معناها على قولين:

أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وعلماء أهل السنة وبعض المتكلمين وهو الذي نلقى عليه الرب جل جلاله، أن يد الله صفة من صفات ذاته، كالسمع والبصر والوجه، فيجب علينا الإيمان بها، والإذعان والتسليم بها، ونمرها كما جاءت في الكتاب والسنة، بلا كيف ولا تشبيه، ولا تعطيل. قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقال النبي ﷺ: «إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمٰن، وكلتا يديه يمين».

والقول الثاني: قول أهل التأويل، فإنهم قالوا: اليد تذكر في اللغة على وجوه:

١ ـ الجارحة وهي معلومة.

٢ ـ النعمة، يقال: لفلان عندي يد أشكره عليها.

٣ ـ القدرة، قال الله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فسروه بذوي القوى والعقول، ويقال: لا يد لك بهذا الأمر، والمعنى: سلب كمال القدرة.

٤ ـ الملك يقال: هذه الضيعة في يد فلان؛ أي: في ملكه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾؛ أي: يملك ذلك، أما الجارحة.. فمنتفية في صفة الله عز وجل، لأن العقل دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض، تعالى الله عن الجسمية والكيفية والتشبيه علواً كبيراً، فامتنع بذلك أن تكون يد الله بمعنى الجارحة. وأما سائر المعاني التي فسرت بها اليد.. فحاصلة، لأن أكثر العلماء من المتكلمين زعموا أن اليد في حق الله عبارة عن القدرة، وعن الملك، وعن النعمة، وههنا إشكالان:

أحدهما: أن اليد إذا فسرت بمعنى القدرة.. فقدرة الله واحدة، ونص القرآن وكذا الحديث السابق آنفاً ناطق بإثبات اليدين للرحمٰن في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

والإشكال الثاني: أن اليد إذا فسرت بالنعمة فنص القرآن ناطق بتثنية اليد، ونعم الله تعالى غير محصورة ولا معدودة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. وأيضاً أن الله تعالى أخبر أنه خلق آدم بيديه، ولو كان معنى خلقه لآدم بيديه وخلقه بقدرته أو بنعمته أو بملكه لم يكن لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم، لأن جميع خلقه مخلوقون بقدرته، وجميعهم في ملكه ومتقلبون في نعمه، فلما خص الله آدم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ دون خلقه.. علم بذلك اختصاصه وتشريفه على غيره.

ونقل الإمام الفخر الرازي عن أبي الحسن الأشعري قولاً: إن اليد صفة قائمة بذات الله تعالى، وهي صفة سوى القدرة، من شأنها التكوين على سبيل الاصطفاء، قال: والذي يدل عليه أنه تعالى جعل وقوع خلق آدم بيديه على سبيل الكرامة لآدم، واصطفائه له، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة.. امتنع كون آدم مصطفى بذلك، لأن ذلك حاصل في جميع المخلوقات، فلا بدّ من إثبات صفة أخرى وراء القدرة، يقع بها الخلق والتكوين على سبيل الاصطفاء، هذا آخر كلامه، فثبت بهذا البيان قول من قال: إن اليد صفة ثابتة لله تعالى، تليق بجلاله وأنها ليست بجارحة كما تقول المجسمة تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولا بقدرة ولا نعمة ولا ملك كما يقول المؤولون والله سبحانه وتعالى أعلم بكنه ذاته وصفاته ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؛ يعني: أنه تعالى يرزق كما يريد ويختار، فيوسع على من يشاء، ويقتر على من يشاء، لا اعتراض عليه في ملكه، ولا فيما يفعله، وهذا تأكيد للوصف بالسخاء، وأنه لا ينفق إلا على ما تقتضيه مشيئته، ولا موضع لقوله ﴿ينفق﴾ من الإعراب، إذ هي جملة مستأنفة كما سيأتي في مبحث الإعراب.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنفق أنفق عليك» وقال: «يد الله ملأى لا تفيضها نفقة سخاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض، فإنَّه لم ينقص ما بيده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان، يرفع ويخفض»، متفق عليه. وهذا الحديث أيضاً أحد أحاديث الصفات فيجب الإيمان به، وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل.

وقرأ أبو السمال بسكون العين في قوله(١): ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ كما قال في عصر عصرون، وقال الشاعر:

لَــوْ عَـصْـرْنَـا مِـنْـهُ ٱلْـبَـا نَ وَٱلْـمِـسْـكَ ٱنْـعَـصَـرْ

ويحسن هذه القراءة أنها كسرة بين ضمتين، فحسن التخفيف، وقرأ عبد الله: ﴿بسيطتان﴾، يقال: يد بسيطة مطلقة بالمعروف، وفي مصحف عبد الله: ﴿بسطان﴾. يقال: يده بسط بالمعروف، وهو على فعل، كما تقول ناقة صرح، ومشيه سجح.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليزيدن كثيراً من اليهود والنصارى ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن المشتمل على هذه الأحكام الحسنة ﴿طُغْيَٰنًا﴾؛ أي: تمادياً على الطغيان والضلال ﴿وَكُفْرًا﴾؛ أي: ثباتاً على الكفر والشرك، والمراد بالكثير منهم علماؤهم ورؤوساؤهم، وإنما قيد بالكثير لأن منهم من آمن، ومن لا يزداد إلا طغياناً، وهذا الإعلام بالرسول ﷺ بفرط عتوهم؛ أي: ليزيدن طغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء، لأنهم كلما نزلت آية من القرآن كفروا بها، فازدادوا شدة في كفرهم وطغياناً مع طغيانهم.

والمعنى(٢): أنَّ هذا الذي أنزلناه عليك أيها النبي من خفي أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك، ومن أحوال سلفهم وشؤون كتبهم وحقائق تاريخهم، هو من أعظم الأدلة على نبوتك، وكان ينبغي أن يجذبهم إلى الإيمان بك، إذ لولا النبوة والوحي ما علمت من هذا شيئاً، فلا تعرف الماضي لأنك أمي لم تقرأ الكتب، ولا تعرف الحاضر من مكرهم الخفي وكيدهم السري، لكنهم لطغيانهم وتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد للعرب لم يجذبهم ذلك الإيمان، ولم يقربه إلا قليلاً منهم، ووالله ليزيدن ذلك كثيراً منهم طغياناً في بغضك، وعدواتك، وكفراً بما جئت به.

وقال قتادة: حملهم حسد محمد ﷺ والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

بمحمد ودينه. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾؛ أي: ألقينا وأوقعنا بين اليهود والنصارى، أو بين كل فريق من اليهود والنصارى ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾؛ أي: الشحناء. قال أبو حيان: العداوة أخص من البغضاء، لأن كل عدو مبغض، وقد يبغض من ليس بعدو، انتهى.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فهي لا تنقطع أبداً واليهود مع كونهم المديرين لأعظم الأعمال المالية، ولهم النفوذ والتأثير في السياسة وسائر شؤون الاجتماع، مبغوضون لجماهير النصارى، وقيل: ألقى ذلك بين طوائف اليهود، فجعلهم مختلفين في دينهم متعادين متباغضين إلى يوم القيامة، فكل فرقة من اليهود تخالف الأخرى فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم، فإن اليهود فرق، فإن بعضهم جبرية، وبعضهم قدرية، وبعضهم مرجئة، وبعضهم مشبهة، وكذا النصارى فرق، كالملكانية، والنسطورية، واليعقوبية، والماردانية.

فإن قلت: فهذا[1] المعنى أيضاً حاصل بين فرق المسلمين فكيف يكون ذلك عيباً على اليهود والنصارى حتى يذموا به؟.

قلت: هذه البدع التي حصلت في المسلمين إنما حدثت بعد عصر النبي ﷺ وعصر الصحابة والتابعين. أما في الصدر الأول فلم يكن شيء من ذلك حاصلاً بينهم، فحسن جعل ذلك عيباً على اليهود والنصارى في ذلك العصرالذي نزل فيه القرآن على رسول الله ﷺ.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا﴾ وأشعلوا ﴿نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وأخمدها سبحانه وتعالى؛ أي: كلما هموا بالكيد للرسول والمؤمنين الصادقين.. خذلهم الله تعالى، وهم إما يخيبوا في سعيهم، ولا يتم لهم ما أرادوا من الإغراء والتحريض، وإما أن ينصر الله رسوله والمؤمنين.

يعني كلما[2] أفسد اليهود وخالفوا حكم الله.. يبعث الله عليهم من يهلكهم، أفسدوا أولاً فبعث الله عليهم بختنصر البابلي، ثم أفسدوا فبعث الله

---

(١) الخازن. (٢) الخازن.

طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس وهم الفرس، ثم أفسدوا وقالوا: يد الله مغلولة، فبعث الله عليهم المسلمين، فلاتزال اليهود في ذلة أبداً. وقال مجاهد: معنى الآية كلما مكروا مكراً في حرب محمد ﷺ. . أطفأه الله تعالى. وقال السدي: كلما أجمعوا أمرهم على شيء ليفسدوا به أمر محمد ﷺ. . فرقه الله تعالى، وكلما أوقدوا ناراً في حرب محمد ﷺ أطفأ الله وأخمد نارهم، وقذف في قلوبهم الرعب، وقهرهم ونصر نبيه ودينه. وقيل: المراد بالنار هنا الغضب؛ أي: كلما أثاروا في أنفسهم غضباً أطفأه الله بما جعله من الرعب في صدورهم، والذلة والمسكنة المضروبتين عليهم. والمعروف[1] في كتب السير أن اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي ﷺ والمؤمنين، ومنهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم، ومنهم من كان يؤوي أعداءهم ويساعدهم، ككعب بن الأشرف، وما سبب ذلك إلا الحسدُ والعصبية، وخوف الأحبار والرهبان من إزالة الإسلام، لامتيازاتهم العلمية والدينية التي كانوا معروفين بها في بلاد الحجاز، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا روحه، والدليل على ذلك: أن اليهود كان لهم ضلع بعد ذلك مع المسلمين في الشام والأندلس، لما رأوا من عدلهم وإزالة الجور والظلم الذي كان عليه الروم والقُوطُ.

وكذلك عداوة النصارى للمسلمين كانت سياسية، وكانت على أشدها بينهم وبين الروم المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز، كالشام ومصر، وكان نصارى البلاد أقرب ميلاً إلى المسلمين بعد أن وثقوا بعدلهم، وزال عنهم ظلم الروم، مع كونهم من أهل دينهم، وقد جرت العادة أن الناس يتبعون في العداوة أو المودة ما تمليه عليهم منافعهم ومصالحهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾؛ أي: سعي فساد؛ أي: يجتهدون ويفعلون في الأرض فعل فساد؛ أي: يجتهدون في الكيد والمكر للإسلام وأهله، وإثارة الفتنة بينهم وفي تعويق الناس عن محمد ﷺ وليس يقدرون على غير ذلك؛ أي: إن ما يأتونه من عداوة النبي ﷺ والمؤمنين وإيقاد الفتن والحروب، لم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشؤون العمران والاجتماع، بل

---

(١) المراغي.

كانوا يقصدون السعي في الأرض للفساد، ويحاولون الكيد للمؤمنين، ومنع اجتماع كلمة العرب، ويودون أن لا يخرجوا من الأمية إلى العلم والعرفان، ولا من الوثنية إلى التوحيد حسداً لهم، وحباً في دوام امتيازهم عنهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بل يبغضهم ويعاقبهم، ومن ثم لا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته تعالى في صلاح الناس وعمران البلاد.

ومن ثم أبطل سبحانه وتعالى كل ما كاده أولئك القوم للنبي ﷺ والعرب والإسلام، وأصلح بالإسلام ما كانوا خربوه من البلاد، ونصر المسلمين على كل من ناوأهم، وكذلك هم تركوا التوراة والإنجيل، وهما قد أنزلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح، فزال ملكهم وسلط الله عليهم غيرهم. قال قتادة: لا تلقى اليهود ببلدة إلا وجدتهم من أذل الناس فيها، وهم أبغض خلق الله إليه ثم ندمهم على سوء أعمالهم فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اليهود والنصارى ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبرسوله محمد ﷺ وبما جاء به ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم، أو اجتنبوا من اليهودية والنصرانية ﴿لَكَفَّرْنَا﴾ وسترنا ﴿عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ وذنوبهم التي اقترفوها وعملوها قبل الإسلام، ومحوناها عنهم ولم نفضحهم بها، لأن الإسلام يجب ما قبله، ﴿وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: ولأدخلناهم مع سائر المسلمين في الآخرة بساتين يتنعمون بها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالكتابي لا يدخل الجنة ولا يرفع عنه العقاب ما لم يسلم، والإسلام يجبّ ما قبله كما مرّ آنفاً.

وفي ذلك إعلام[1] من الله سبحانه وتعالى بعظم معاصي اليهود والنصارى، وكثرة سيئاتهم، ودلالة على سعة رحمته، وفتحه باب التوبة لكل عاصٍ، وإن عظمت معاصيه، وبلغت مبلغ سيئات اليهود والنصارى، وإخبارها بأن الإيمان لا ينجي إلا إذا شفع وقرن بالتقوى، ومن ثم قال الحسن: هذا العمود فأين الأطناب. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾؛ أي: أن أهل الكتاب ﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ يعني[2]: أقاموا أحكامهما، بإذاعة ما فيهما وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود، والتصديق

---

(١) المراغي. (٢) الخازن.

بمحمد ﷺ، لأن نعته وصفته موجودان فيهما، فإن قلت: كيف يأمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل مع أنهما نسخاً وبدلاً؟

قلت: إنما أمرهم الله تعالى بإقامة ما فيهما من الإيمان بمحمد ﷺ واتباع شريعته، وهذا غير منسوخ.. لأنه موافق لما في القرآن؛ أي: ولو أنهم أقاموا ما في التوراة والإنجيل المنزلين بنور التوحيد المبشرين بالنبي، الذي يأتي من أبناء إسماعيل، والذي قال فيه عيسى عليه السلام: إنه روح الحق الذي يعلمهم كل شيء ﴿و﴾ أقاموا ﴿ما أنزل إليهم من ربهم﴾ على هذا النبي الكريم الذي بشرت به كتبهم، وقيل المراد[1] به: كتب أنبيائهم القديمة، مثل كتاب شعياء وكتاب أرمياء، وزبور داود، وفي هذه الكتب أيضاً ذكر محمد ﷺ، فيكون المراد بإقامة هذه الكتب الإيمان بمحمد ﷺ ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ أي: لوسع الله عليهم رزقهم، ولأعطتهم السماء مطرها وبركتها، والأرض نباتها وخيرها، كما قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذه الجملة كناية عن المبالغة في السعة والخصب لا أن هناك فوقاً وتحتاً. والمعنى: لأكلوا أكلاً متصلاً كثيراً، قيل هذا في أهل الكتاب القائلين يد الله مغلولة، الذين ضيق عليهم عقوبة لهم، فلا يرد كون كثير من المتقين العاملين في غاية الضيق، فالتوسع والتضييق ليسا من الإكرام والإهانة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ إلى قوله: ﴿كلا﴾؛ أي: إن الله يجعل ضيق الرزق كسعته نعمة في بعض عباده، ونقمة على آخرين، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام، ولا من تضييقه الإهانة، اهـ كرخي. وفي هذا تنبيه إلى ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم لا من قصور من فيض الله وعظيم عطائه، وإشارة إلى أنهم لو أقاموهما ما عاندوا النبي ذلك العناد، فالدين عندهم إنَّما كان أماني يتمنونها، وبدعاً وتقاليد يتوارثونها، فهم بين غلوّ وتقصير، وإفراط وتفريط، ثم ذكر أنهم ليسوا سواسية في أفعالهم وأقوالهم فقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾؛ أي: من أهل الكتاب جماعة مستقيمة معتدلة في أمر دينها والعمل به من غير غلو ولا تقصير،

---

(١) الخازن.

لا تفرط ولا تهمل، وأصله من القصد، لأنَّ من عرف مقصوداً طلبه من غير اعوجاج عنه. وهذه الجملة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: هل جميعهم متصفون بالأوصاف السابقة أو البعض منهم دون البعض؟ ذكره الشوكاني. والمراد بالأمة المقتصدة من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه من اليهود، والنجاشي وأصحابه من النصارى وسلمان وأصحابه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل الكتاب الذين أقاموا على كفرهم، مثل كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأبي ياسر وسائر رؤوساء اليهود ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بئس ما يعملونه من إقامتهم على كفرهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم! وهو المعاندة وتحريف الحق، والإعراض عنه والإفراط في العداوة وكتمان صفة محمد ﷺ، واجتراح المعاصي ويزعم النصارى منهم أن المسيح ابن الله ويكذبون بمحمد ﷺ، ويكذب اليهود بعيسى وبمحمد ﷺ، وعلى عيسى وسائر الأنبياء والمرسلين.

والمعتدلون لا تخلو منهم أمة، لكنهم يكثرون من طور صلاح الأمة وارتقائها، ويقلون في طور فسادها وانحلالها، ولا تهلك الأمم إلا بكثرة من يعمل السوء من أشرارها، وقلة من يعمل الصالحات من أخيارها، وهؤلاء المعتدلون هم السابقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء في مختلف العصور، ومن ثم قبل هذا الدين الجديد هؤلاء المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم، فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب والمحبين للعلوم والفنون.

روى ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يرفع العلم» قلت: كيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبنائنا؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن نفير إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى ذلك عنهم حين تركوا أمر الله ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الآية».

وأخرج أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «وذلك عند ذهاب العلم» قلنا: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن

ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبنائهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أوليست هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء».

ومغزى هذا: أن العبرة في الأديان هو العمل بها، والاهتداء بهديها، وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له، كما هو شأن المسلمين اليوم. وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾. وقوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ الآية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ الكريم والنبي الحليم محمد ﷺ ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: أوصل إلى الخلق جميع ما أنزل إليك ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: من مالك أمرك ومبلغك إلى كمالك مجاهراً به، ولا تخش في ذلك أحداً، ولا أن ينالك من ذلك مكروه أبداً، ولا تترك شيئاً مما أنزل إليك من ربك ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾؛ أي: وإن لم تفعل ما أمرت به من تبليغ جميع ما أنزل إليك، بأن أخفيت شيئاً من ذلك في وقت من الأوقات أو كتمته، ولو إلى حين خوفاً من الأذى بالقول أو بالفعل ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾؛ أي: رسالة ربك؛ أي: فحسبك جرماً أنك ما بلغت الرسالة ولا قمت بما بعثت لأجله وهو تبليغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم كما قال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾. قال ابن عباس[1] رضي الله تعالى عنهما: يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك.. لم تبلغ رسالتي، يعني أنه ﷺ لو ترك إبلاغ البعض.. كان كمن لم يبلغ شيئاً مما أنزل الله إليه، وحاشا رسول الله ﷺ أن يكتم شيئاً مما أوحي إليه. روى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أنزل إليه.. فقد كذب ثم قرأت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أخرجاه في

(١) الخازن.

«الصحيحين» بزيادة فيه. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿رسالاته﴾ على الجمع، وقرأ باقي السبعة على التوحيد. والحكمة[1] في التصريح بالأمر بالتبليغ وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمان كله، مع العلم بأن الرسل صلوات الله عليهم معصومون من كتمان شيء مما أمرهم الله بتبليغه، وإلا بطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ، الحكمة في ذلك بالنظر إلى الرسول ﷺ، إعلامه بأن التبليغ حتم لا يجوز كتمانه على أي حال بتأخير شيء عن وقته على سبيل الاجتهاد، ولولا هذا النص.. لكان للرسول أن يجتهد بتأخير بعض الوحي إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله، ولا يحملهم سماعه على رده وإيذاء الرسول لأجله. والحكمة بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص، فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم.

ومن هذا تعلم أن ما نقل من الأقوال والآراء من جواز كتمان بعض الوحي غير القرآن عن كل الناس أو عن جمهورهم، لا يتفق مع الدين في شيء ولا يعول على ما رووه من الأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة في هذا الباب، والحق الذي لا شبهة فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من القرآن وبينه، ولم يخص أحداً بشيء من علم الدين، وأنَّه لا امتياز لأحد عن أحد في علم الدين إلا بفهم القرآن فهماً يتوسل إليه بعلم السنة، وآثار علماء الصحابة والتابعين، وعلماء الأمصار في الصدر الأول، وبمعرفة مفردات اللغة العربية وأساليبها، ومعرفة علوم الكون، وشؤون البشر، وسنن الله في الخلق. روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ أي آية من السماء أنزلت أشد عليك؟ فقال: «كنت بمنى أيام موسم، واجتمع مشركوا العرب وأفناء الناس في الموسم فنزل علي جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ...﴾ الآيـــة. قال: فقمت عند العقبة فقلت: أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة؟ أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله وأنا رسول إليكم تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة، قال ﷺ: فما بقي رجل ولا أمة ولا صبي إلا يرمون علي بالتراب

(١) المراغي.

والحجارة ويقولون: كذاب صابىء، فعرض علي عارض فقلت: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك»، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَعۡصِمُكَ﴾؛ أي يحفظك يا محمد ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من فتك الكفار وقتلهم إياك، فلا يصلون إليك. مأخوذ من عصام القربة وهو ما توكأ به؛ أي: يربط به فمها من سير جلد أو خيط. والمراد بالناس الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم وفساد عقائدهم وأعمالهم، والنعي عليهم وعلى سلفهم، وكان ذلك يغيظهم ويحملهم على إيذائه ﷺ بالقول أو بالفعل، وائتمروا به بعد موت أبي طالب وقرروا قتله في دار الندوة، ولكن الله عصمه منهم وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة.

وإن قلت[1]: أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد ـ وقد أوذي بضروب من الأذى ـ فكيف يجمع بين ذلك وبين قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾؟.

قلت: المراد منه أنَّه يعصمه من القتل فلا يقدر عليه أحد أراده بالقتل، ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر أنَّه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت الشجرة فعلق بها سيفه، ونمنا معه نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس. وفي رواية أخرى قال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين ـ وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة ـ فاخترطه فقال: تخافني؟ فقال: «لا»، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ. أخرجه الشيخان في «الصحيحين»، وزاد البخاري

---

(١) الخازن.

في رواية له إن اسم ذلك الرجل غورث بن الحارث.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة السلاح، فقال: «من هذا»؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك»؟ فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام، متفق عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله». أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب. وقيل[1]: وفي الجواب عن هذا: إن هذه الآية نزلت بعد ما شجّ رأسه في يوم أحد، لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً. وقد وضعت هذه الآية - وهي مكية - في سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدني، لتدل على أن النبي ﷺ كان عرضةً لإيذائهم أيضاً، وأن الله تعالى عصمه من كيدهم، ولتذكر بما كان من إيذاء مشركي قومه من قبلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: إن الله سبحانه وتعالى لا يهدي أولئك القوم الكافرين الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ إلى ما يريدون، بل يكونون خائبين، وتتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الله لا يرشد من كذبك وأعرض عنك. وقال ابن جرير الطبري معناه: أن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئت به. وقال أبو حيان: معناه إنّما عليك البلاغ لا الهداية، فمن قضيت عليه بالكفر والموافاة عليه.. لا يهتدي أبداً، فيكون خاصاً. قال ابن عطية: وإما على العموم، على أن لا هداية في الكفر ولا يهدي الله الكافر في سبيل كفره.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن ربك ﴿يَٰٓأَهْلَ

---

(١) الخازن.

﴿ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ يعتد به من أمر الدين، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين، وفيه تحقير وتقليل لما هم عليه ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ وتتبعوهما فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح، وفيما بشرا به من بعثة النبي الذي يجيء من ولد إسماعيل، الذي سماه المسيح: روح الحق، وتعملوا بما فيهما من أوامر الله ونواهيه ﴿و﴾ حتى تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ على لسان محمد ﷺ، وهو القرآن المجيد، فهو الذي أكمل به دين الأنبياء والمرسلين بحسب سنن الله في الكون، فإن إقامة الكتابين لا تصح بدون إقامته ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾؛ أي: من أهل الكتاب أو جميع الكفار ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن ﴿طُغْيَٰنًا﴾؛ أي: ضلالاً إلى ضلالهم، أو تمادياً في الجحود ﴿وَكُفْرًا﴾ إلى كفرهم، أو ثباتاً على الكفر، وتصدير هذه الجملة بالقسم لتأكيد مضمونها.

والمعنى: وعزتي وجلالي إن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي أكمل الله به الدين المنزل على محمد خاتم النبيين إلا غلوا في تكذيبهم، وكفراً على كفرهم، لأنهم لم ينظروا فيه نظرة إنصاف، بل نظروا إليه بعين العصبية والعدوان، إذ كانوا على تقاليد وثنية، وأعمال وعادات سخيفة، فلم يكن لهم من الدين الذي يدينون به ما يقربهم إلى فهم حقيقة الإسلام، ليعلموا أن دين الله واحد، وأن ما سبق بدء، وهذا إتمام، أما غير الكثير - وهم الذين حافظوا على التوحيد ولم تحجبهم عن نور الحق شتى التقاليد - فهم الذين ينظرون إلى القرآن بعين البصيرة، فيعلمون أنَّه الحق من ربهم، وأنَّ من أنزل عليه هو النبي المبشر في كتبهم، فيسارعون إلى الإيمان به بحسب حظهم من سلامة الوجدان، واطمئنان النفس بما لديها من العلم والعرفان ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ ولا تحزن يا محمد ﴿عَلَى﴾ عدم إيمان ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: دع عنك التأسف على هؤلاء، فإن ضرر ذلك راجع إليهم، ونازل بهم، وفي المتبعين من المؤمنين غنى لك عنهم.

قال الراغب: الأسى الحزن، وأصله إتباع الفائت بالغم، والمعنى؛ أي: فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم، فإنَّ ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين، وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمني قومك، ومن مؤمني أهل

الكتاب، كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم.

والعبرة للمسلم من هذه الآية: أن يعلم أنه لا يكون شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيم القرآن، وما أنزل إليه من ربه فيه، ويهتدي بهديه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فحجة الله على عباده واحدة، فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا ما ورثوه من تلك التقاليد التي صدتهم عما عندهم من وحي الله تعالى.. فإنَّه لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظنا لكتابنا حتى نقيم حدوده، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والناس عن مثل هذا غافلون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون، ويحسبون أنَّهم على شيء ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ. جملة مستأنفة لترغيب من عداهم من المؤمنين المخلصين، والمراد[1] بالمؤمنين هنا: الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون، أو ما يعم المخلصين وغيرهم من المنافقين ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾؛ أي: دخلوا في دين اليهود ﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ مبتدأ، والنصارى معطوف عليه، والخبر محذوف تقديره: كائنان كذلك، وقال الخليل وسيبويه: الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك. وقرأ[2] عثمان وأبي وعائشة وابن جبير الجحدري ﴿والصابئين﴾ بالنصب، وبها قرأ ابن كثير. وقرأ الحسن والزهري: ﴿والصابيون﴾ بكسر الباء وضم الياء، وهو من تخفيف الهمزة كقراءة ﴿يستهزيون﴾ وقرىء: ﴿والصابُون﴾. بإبدال الهمزة ألفاً وحذفها وقرأ القراء السبعة ﴿والصابئون﴾ بالرفع، وعليه مصاحف الأمصار والجمهور ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَـٰلِحًا﴾؛ أي: خالصاً فيما بينه وبين ربه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من ورائهم من لذات الدنيا وعيشها.

والخلاصة: أن الذين صدقوا الله ورسوله، والذين دخلوا اليهودية،

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

والصابئين الذين يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، وهم فرقة من النصارى سموا صابئين لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، بمعنى خرجوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا ما جاءت به الرسل من عند الله، وقيل: هم فرقة أقدم من النصارى، كانوا يعبدون الكواكب السبعة، وقيل: كانوا يعبدون الملائكة - والذين دخلوا النصرانية من أخلص منهم الإيمان بما ذكر، دواماً وثباتاً كما في المؤمنين المخلصين، أو إيجاداً وإنشاءً كما هو حال المنافقين وغيرهم من الطوائف الأخرى، فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا ورائهم من لذات الدنيا وعيشها بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه.

وفي الآية: إيماء إلى أهل الكتاب لم يقيموا دين الله، لا الوسائل منه ولا المقاصد، فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها، ولا هم تركوا ما عندهم منها على ظواهرها، ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذي كان عليه سلفهم الصالح، وهم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون إلا قليلاً منهم عذبوا على توحيد الله ورموا بالزندقة لرفضهم تقاليد الكنائس والبدع التي شرعها الأحبار والرهبان، كما أن فيها ترغيباً لمن عدا من ذكروا في الإيمان والعمل الصالح ليكون لهم من الجزاء مثل ما لأولئك.

فإن قلت[1]: قد قال الله تعالى في أول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ فما فائدة هذا التكرار؟

قلت: فائدته أنَّ المنافقين كانوا يظهرون الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون، ففي هذا التكرار إخراجهم من قبيل المؤمنين فيكون معنى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: بألسنتهم لا بقلوبهم ثم قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ يعني من ثبت على إيمانه، ورجع عن نفاقه منهم. وقيل: فيه فائدة أخرى وهي: أن الأيمان يدخل تحته أقسام كثيرة، وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر، ففائدة التكرار التنبيه على أن أشرف أقسام الإيمان هذان القسمان.

---

(١) الخازن.

عليهما السلام، فسلط الله عليهم من سامهم الخسف وأوقع بهم البوار والدمار، فجاس البابليون بختنصر وأعوانه خلال ديارهم، وأحرقوا المسجد الأقصى، ونهبوا أموالهم، وسبوا أولادهم ونساءهم، وسلبوهم أموالهم وثلوا عروش ملكهم، وقتلوا منهم أربعين ألفاً ممن يقرأ التوراة، وذهبوا بالبقية إلى أرضهم بابل، فبقوا هناك دهراً طويلاً على أقصى الذل، إلى أن أحدثوا توبة صحيحة ﴿ثُمَّ﴾ رحمهم الله تعالى فتابوا و﴿تَابَ ٱللَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على بني إسرائيل حين تابوا وأقلعوا عن الفساد، وأعاد إليهم ملكهم وعزهم على يد ملك من ملوك الفرس، إذ جاء إلى بيت المقدس وعمره، ورد من بقي من بني إسرائيل في أسر بختنصر إلى وطنهم، ورجع من تفرق في الأقطار، فاستقروا وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا أولاً.

﴿ثُمَّ عَمُوا۟﴾ عن إبصار الحق ﴿وَصَمُّوا۟﴾ عن سماعه مرة أخرى، وعادوا إلى ظلمهم وفسادهم في الأرض، وقتلوا الأنبياء بغير حق، فقتلوا زكريا ويحيى، وأرادوا قتل عيسى عليه السلام، فسلط الله عليهم الفرس، ثم الروم، فأزالوا ملكهم واستقلالهم، ففعلوا بهم ما فعلوا. وفي قوله: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن عمى البصيرة والصمم عن المواعظ لم يكن للجميع بل كان للكثير منهم، والله تعالى يعاقب الأمم بذنوبها إذا كثرت وشاعت فيها، إذ العبرة بالغالب لا بالأقل النادر الذي لا يؤثر في صلاح ولا فساد ومن ثُمَّ قال تعالى ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾. وقرأ[1] النخعي وابن وثاب بضم العين والصاد في ﴿عموا وصموا﴾ وتخفيف الميم من عموا، إجراءاً لهما مجرى زكم الرجل ونحوه من الأفعال المبنية للمفعول لفظاً لا معنى، أو على أنَّ المعنى: إنَّ الله عماهم وصمهم؛ أي: رماهم بالعمى والصمم، وهو قليل، واللغة الفاشية أعمى وأصم ذكره «البيضاوي». وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿كثيراً منهم﴾ بالنصب، وقرأ الجمهور بالرفع على أنَّه بدل من فاعل ﴿عموا وصموا﴾.

---

(١) البحر المحيط.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ لنبيه وخاتم أنبيائه من الكيد والمكر وتدبير الإيقاع به، وتأليب القبائل والشعوب المختلفة، لتكون يداً واحدة للفتك به، وما سبب ذلك إلا اتباعهم للهوى، وأنهم عموا وصموا مرة أخرى، فصاروا لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى، ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات، وسيعاقبهم الله تعالى على ذلك بمثل ما عاقبهم به من قبل، وينكل بهم أشد النكال، ويذيقهم أنواع الوبال. وفي هذه[1] الجملة تهديد شديد، وناسب ختم الآية بهذه الجملة المشتملة على بصير إذ تقدم قبله فعموا، والتعبير بصيغة المضارع في ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لحكاية الحال الماضية، ولرعاية الفواصل؛ أي: والله بصير بما عملوا.

الإعراب

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾: (الواو): استئنافية، ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول قال. ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية دعائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَلُعِنُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملت ﴿غُلَّتۡ﴾ أو مستأنفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿لعنوا﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما قالوه، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، والتقدير: ولعنوا بقولهم المذكور. ﴿بَلۡ﴾: حرف عطف وإضراب. ﴿يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة معطوفة على مقدر يقتضيه المقام تقديره: ليس الأمر كما قالوا بل يداه مبسوطتان، وهو في غاية الجود. ﴿يُنفِقُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم شرط غير جازم، لأنَّ شرط الجزم بها عند الكوفيين اتصال ما بها في محل النصب على

---

(١) البحر المحيط.

التشبيه بالمفعول به مبني على الفتح. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾ ومفعول المشيئة محذوف تقديره، كيف يشاء أن ينفق، وجواب الشرط محذوف أيضاً تقديره: كيف يشاء أن ينفق ينفق، وجملة الشرط مستأنفة وعبارة «الفتوحات» هنا قوله: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ في[1] هذه الجملة وجهان:

أحدهما: وهو الظاهر أنَّه لا محل لها من الإعراب؛ لأنَّها مستأنفة.

والثاني: أنَّها في محل رفع؛ لأنَّها خبر ثانٍ ليداه، و﴿كَيۡفَ﴾ في مثل هذا التركيب شرطية، نحو كيف تكون.. أكون، ومفعول المشيئة محذوف، وكذلك جواب الشرط أيضاً محذوف، مدلول عليه بالفعل المتقدم على ﴿كَيۡفَ﴾. والمعنى: ينفق كيف يشاء أن ينفق ينفق، نظير قوله: ويبسطه في السماء كيف يشاء أن يبسطه يبسط، فحذف مفعول يشاء، وهو أن وما بعدها، وقد تقدم أن مفعول يشاء ويريد، لا يذكران إلا لغرابتهما، ولا جائز أن يكون ينفق المتقدم عاملاً في كيف؛ لأنَّ لها صدر الكلام، وماله صدر الكلام لا يعمل فيه إلا حرف الجر أو المضاف. اهـ. «سمين».

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿يزيدن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿كَثِيرٗا﴾: مفعول أول. ﴿مِّنۡهُم﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرٗا﴾. ﴿مَّآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل الرفع فاعل. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَّآ﴾. ﴿إِلَيۡكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ وكذلك متعلق به الجار والمجرور في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لـ﴿مَّآ﴾ أو صفة لها. ﴿طُغۡيَٰنٗا﴾ مفعول ثان ﴿ليزيدن﴾. ﴿وَكُفۡرٗاۚ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿يزيدن﴾ جواب للقسم المحذوف، وجملة القسم مستأنفة.

---

(١) الجمل.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: فعل وفاعل والجملة مستأنفة. ﴿بَيْنَهُمُ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿ألقينا﴾. ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: معطوف عليه. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من ﴿ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾؛ أي: حالة كونهما مستمرين إلى يوم القيامة. ﴿كُلَّمَآ﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية مبني على السكون، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿أَوْقَدُوا۟ نَارًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿لِّلْحَرْبِ﴾: صفة لـ﴿نَارًا﴾ أو متعلق بـ﴿أَوْقَدُوا۟﴾، والجملة الفعلية فعل شرط لكلما لا محل لها من الإعراب. ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة جواب ﴿كلما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كلما﴾: من فعل شرطها وجوابها مستأنفة. ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ فعل وفاعل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق به ﴿فَسَادًا﴾ إما مفعول لأجله؛ أي: لأجل الإفساد، أو مفعول مطلق؛ أي: سعي فساد أو حال؛ أي: يسعون مفسدين والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ وجملة ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ خبره، والجملة الإسمية مستأنفة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اسمها ومضاف إليه. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾: في محل الرفع خبر أن تقديره: ولو أن أهل الكتاب مؤمنون ومتقون، وجملة أنَّ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف تقديره: ولو ثبت إيمان أهل الكتاب واتقاؤهم لله، وجملة الفعل المحذوف مع فاعله فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَكَفَّرْنَا﴾: (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿كفرنا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْهُمْ﴾: متعلق به. ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: مفعول به مضاف إليه، والجملة الفعلية جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾:

الواو عاطفة. ﴿أدخلناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾: مفعول ثانٍ ومضاف إليه، وجملة ﴿أدخلناهم﴾: معطوفة على جملة ﴿كفرنا﴾ على كونها جواباً لـ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: (الواو): استئنافية أو عاطفة. ﴿لو﴾: حرف شرط. ﴿أَنَّهُمْ﴾ ﴿أنَّ﴾: حرف نصب، والهاء: في محل النصب اسمها. ﴿أَقَامُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف عليه. ﴿وَمَآ﴾ الواو: عاطفة. ﴿ما﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب معطوف على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾. ﴿إِلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من الضمير في ﴿أُنزِلَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿أَقَامُوا۟﴾: في محل الرفع خبر أن تقديره: ولو أنَّهم مقيمون التوراة وما عطف عليه، وجملة ﴿أنَّ﴾ في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف تقديره: ولو ثبت إقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم، وجملة الفعل المحذوف فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿لَأَكَلُوا۟﴾ (اللام): رابطة لجواب ﴿لو﴾. ﴿أكلوا﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ من فعل شرطها وجوابها مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الأولى. ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أكلوا﴾ أو صفة لمحذوف مفعول ﴿لَأَكَلُوا۟﴾ تقديره: لأكلوا رزقاً كائناً من فوقهم، أو مأخوذاً من فوقهم. ذكره أبو البقاء. ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على الجار والمجرور قبله. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: صفة لـ﴿أُمَّةٌ﴾، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً. ﴿وَكَثِيرٌ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة له. ﴿سَآءَ﴾: فعل ماض بمعنى بئس من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل. وجملة

﴿يَعْمَلُونَ﴾: صلة لما والعائد محذوف تقديره: ما يعملونه، وجملة ﴿سَآءَ﴾: من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر المبتدأ، ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾: مصدرية والتقدير: ساء عملهم؛ والجملة الإسمية معطوفة على جملة ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾.
قال أبو حيان[1]: واختار الزمخشري في ساء: أن تكون التي لا تتصرف، فإنَّ فيه التعجب، كأنَّه قيل: ما أسوأ عملهم، ولم يذكر غير هذا الوجه، واختار ابن عطية أن تكون المتصرفة، تقول: ساء الأمر يسوء، وأجاز أن تكون غير المتصرفة، فتستعمل استعمال نعم وبئس كقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾: فالمتصرفة تحتاج إلى تقدير مفعول؛ أي: ساء ما يعملون بالمؤمنين وغير المتصرفة تحتاج إلى تمييز؛ أي: ساء عملاً ما يعملون. انتهى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: (ياء): حرف نداء. (أي): منادى نكرة مقصودة، (ها): حرف تبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿بَلِّغْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿مَآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول ﴿بَلِّغْ﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَآ﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من ﴿مَآ﴾ أو من نائب فاعل ﴿أُنزِلَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾: صلة لـ﴿مَآ﴾ أو صفة لها. ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَفْعَلْ﴾: مجزوم بلم وفاعل وفاعله ضمير يعود على محمد، ومفعول تفعل محذوف تقديره: وإن لم تفعل ما أمرت به من تبليغ جميع ما أنزل إليك من ربك.. فما بلغت رسالته، والجملة الفعلية في محل الجزم ﴿بإن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَمَا﴾: (الفاء): رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً.

(١) البحر المحيط.

﴿ما﴾: نافية. ﴿بَلَّغْتَ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه جواباً لها. ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَعْصِمُكَ﴾ خبره. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق به، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا﴾. نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ مفعول به. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾، وإنْ شئت قلت: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَسْتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور خبر ليس، وجملة ليس جواب النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول منصوب بأن مضمرة بعد حتى بمعنى: إلى، والجملة الفعلية في تأويل مصدر مجرور بحتى تقديره: إلى إقامة التوراة، الجار والمجرور متعلق بليس. ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: معطوف على التوراة أيضاً. ﴿إِلَيْكُم﴾ متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ أو حال من ﴿ما﴾ أو من ضمير ﴿أُنزِلَ﴾.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: (الواو): استئنافية. (اللام): موطئة للقسم. ﴿يزيدن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿كَثِيرًا﴾: مفعول أول. ﴿مِّنْهُم﴾: صفة له. ﴿مَّآ﴾: موصولة أو موصوفة في محل الرفع

فاعل ﴿يزيدن﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: صلة لما أو صفة لها. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من ﴿مَّآ﴾ أو من ضمير ﴿أُنزِلَ﴾ ﴿طُغْيَـٰنًا﴾ مفعول ثانٍ ﴿وَكُفْرًاۖ﴾ معطوف عليه، وجملة ﴿يزيدن﴾ جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم المحذوف مسأنفة، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ (الفاء) فاء الفصيحة، لأنَّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنَّه يزيد ما أنزل إليك من ربك كثيراً منهم طغياناً وكفراً، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك. ﴿لا تأس﴾: ﴿لا﴾: ناهية وجازمة. ﴿تَأْسَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله ضمير يعود على محمد ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾ متعلق به ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ صفة له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في محل النصب معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأول. ﴿هَادُواْ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ﴾ مبتدأ. ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾: معطوف عليه، والخبر محذوف تقديره: كائنان كهؤلاء المذكورين قبلهم، والجملة الاسمية معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها، أو بين البدل والمبدل منه. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب بدل من اسم ﴿إِنَّ﴾ وما عطف عليه بدل بعض من كل، والرابط محذوف وتقديره: من آمن منهم. ﴿ءَامَنَ﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَنْ﴾ والجملة صلة الموصول. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿ٱلْـَٔاخِرِ﴾: صفة لـ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾. ﴿وَعَمِلَ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾. ﴿صَـٰلِحًا﴾: مفعول به لـ﴿وَعَمِلَ﴾ أو مفعول مطلق له. ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ (الفاء): رابطة لخبر إنَّ باسمها، لما في اسمها من العموم. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل ليس. ﴿خَوْفٌ﴾: اسمها مرفوع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق

بمحذوف خبر ﴿لا﴾ تقديره: فلا خوف كائناً عليهم. ﴿وَلَا هُمْ﴾ (الواو): عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ملغاة. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَحْزَنُونَ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ على كونها خبراً لـ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها مستأنفة. وفي المقام تسعة أوجه من الإعراب ذكرها «السمين»، فلتراجعه إن شئت منها ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ فيه محذوف معلوم مما بعده تقديره: إنَّ الذين آمنوا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ مبتدأ. ﴿وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾: معطوفان عليه. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾: بدل من المبتدأت الثلاث. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: خبر للمبتدأت الثلاث، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية جواب للقسم المحذوف لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة. ﴿وَأَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿رُسُلًا﴾: مفعول ﴿أرسلنا﴾. ﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية، والظرف متعلق بالجواب. ﴿جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿كُلَّمَا﴾ وجواب ﴿كُلَّمَا﴾ محذوف جوازاً دل عليه ما بعده تقديره: كلما جاءهم رسول منهم بما لا تهوى أنفسهم.. عصوه وعادوه، وجملة ﴿كُلَّمَا﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب صفة لـ﴿رُسُلًا﴾ والرابط ضمير منهم الذي قدرناه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ تقديره: رسول متلبس بما. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَهْوَىٰٓ﴾ فعل مضارع. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ أو صفة لها، والعائد أو الرابط محذوف تقديره: بما لا تهواه أنفسهم. ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول مقدم جوازاً لـ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿كَذَّبُوا﴾: فعل

وفاعل، والجملة من الفعل والفاعل مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: كيف فعلوا برسلهم؟ فأجاب بقوله: فريقاً كذبوا. ﴿وَفَرِيقًا﴾: مفعول مقدم ليقتلون. ﴿يَقْتُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾.

ونص عبارة أبي السعود هنا[1]: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾: جملة شرطية مستأنفة، وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الإخبار بأخذ الميثاق، وإرسال الرسل، وجواب الشرط محذوف كأنَّه قيل: فماذا فعلوا بالرسل؟. فقيل: كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لا تحبه أنفسهم المنهمكة في الغي والفساد ـ من الأحكام الحقة والشرائع.. عصوه وعادوه. وقوله: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾: جواب مستأنف عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية على طريقة الإجمال، كأنَّه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقاً منهم كذبوا من غير أن يتعرضوا لهم بشيء آخر من المضار، وفريقاً آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم، بل قتلوهم أيضاً. ا هـ.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَحَسِبُوا﴾ (الواو): استئنافية، ﴿حسبوا﴾: فعل وفاعل. ﴿أَلَّا﴾ ﴿أن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن تقديره: وحسبوا أنَّه لا تكون فتنة، إنْ كان حسب بمعنى علم، أو مصدرية ناصبة للمضارع، إنْ كان حسب بمعنى ظن، ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع تام بمعنى تقع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم على التقدير الأول، ومنصوب بأن المصدرية على التقدير الثاني. ﴿فِتْنَةٌ﴾: فاعل، وجملة ﴿لا تكون﴾ من الفعل والفاعل في محل الرفع خبر ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إنْ﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي حسب على التقدير الأول؛ أي: وعلموا عدم. وقوع فتنة، وجملة ﴿حسبوا﴾ من الفعل والفاعل مستأنفة، وكذلك على التقدير الثاني تكون جملة ﴿لا تكون فتنة﴾ صلة

---

(١) أبو السعود.

﴿أنْ﴾ المصدرية ﴿أنْ﴾ مع صلتها في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿حسبوا﴾؛ أي: وظنوا عدم وقوع فتنة.

فائدة: وحاصل[1] استعمال (أن): أنها إن وقعت بعد مادة العلم وما في معناه كاليقين.. تعين الرفع بعدها، وتعين أنها مخففة من الثقيلة، وإن وقعت بعد مادة غيره مما لايحتمله كالشك والظن.. تعين النصب بعدها، وتعين أنها المصدرية، وإن وقعت بعد ما يحتمل العلم وغيره كالحسبان كما هنا.. جاز فيما بعدها الوجهان، فالرفع على جعل الحسبان بمعنى العلم، والنصب على جعله بمعنى الظن. وعبارة السمين هنا: والحاصل: أنَّه متى وقعت أن بعد علم.. وجب أن تكون المخففة، وإذا وقعت بعد ما ليس بعلم ولا شك.. وجب أن تكون الناصبة، وإن وقعت بعد فعل يحتمل اليقين والشك.. جاز فيه وجهان باعتبارين، إن جعلناه يقيناً.. جعلناها المخففة ورفعنا ما بعدها، وإنْ جعلناه شكاً.. جعلناها الناصبة ونصبنا ما بعدها. والآية الكريمة من هذا الباب، وأن مع صلتها على كلا التقديرين المخففة الناصبة سادة مسد المفعولين عند جمهور البصريين، وسادة مسد الأول فقط عند أبي الحسن. والثاني محذوف والتقدير: حسبوا عدم الفتنة كائناً أو حاصلاً. وحكى بعض النحويين أنَّه ينبغي لمن رفع أن يفصل أن من لا في الكتابة، لأن هناك الضمير فاصلة في المعنى، ومن نصب لم يفصل لعدم الحائل بينهما. ﴿فَعَمُوا﴾ الفاء: حرف عطف وتعقيب. ﴿عَمُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿حسبوا﴾. ﴿وَصَمُّوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَمُوا﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، وعطف بثم الدالة على التراخي دلالة على أنهم تمادوا في الضلال إلى وقت التوبة. ﴿تَابَ اللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَمُوا﴾ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخي ﴿عَمُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. ﴿وَصَمُّوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عَمُوا﴾. ﴿كَثِيرٌ﴾: بدل من الواو في ﴿عموا وصموا﴾ بدل بعض من كل. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرٌ﴾.

(١) الفتوحات.

وفي «الكرخي»: وهذا الإبدال في غاية البلاغة، فإنه لما قال: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾. . أوهم ذلك أن كلهم صاروا كذلك، فلما قال: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ علم أن هذا الحكم حاصل للكثير منهم لا للكل. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿بَصِيرٌۢ﴾: خبره. ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾: جار ومجرور وصلة الموصول متعلق ببصير والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ اليد مؤنثة أصله يَدْيٌ حذفت لامه اعتباطاً؛ أي: من غير صلة تصريفية طلباً للتخفيف بدليل جمعه على الأيدي. ﴿مَغْلُولَةٌ﴾: اسم مفعول غله يغله، من باب شد إذا وضع في يده أو عنقه الغلّ، والغل بضم الغين طوق من حديد أو جامد يجعل في اليد أو في العنق، يجمع على أغلال وغلول، وكونها مغلولة كناية عن كونها محبوسة مقبوضة ممسوكة عن البذل والرزق والعطاء، فنسبوا إلى الله البخل والقبض تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فمراد اليهود لعنة الله عليهم بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: أن الله تعالى بخيل، فأجابهم بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾: دعاء عليهم بالبخل؛ أي: أمسكت وانقبضت عن العطاء ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يقال: بسط اليد يبسط بسطاً، من باب نصر إذا مدها، وبسط السيف إذا سله، وبسط الثوب نشره، ويده بسط بضم أوله وسكون ثانيه وبسط بضمهما ويد مبسوطة؛ أي: مفتوحة مطلقة، وبسط اليد هنا كناية عن كثرة العطاء والبذل والإحسان.

﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ والطغيان مصدر طغا الكافر يطغى، من باب سعى يسعى، أو طغي يطغى، من باب رضي يرضى إذا غلا في الكفر. والطغيان الغلو والتمرد في الكفر والغي والضلال، والعامة تقول طغاه الشيطان، أي: صرفه عن طريق الخير، وطغا الرجل إذا أسرف في الظلم والمعاصي. ويقال: كفر الرجل بالخلق يكفر من باب نصر، كَفْراً كُفْراً وكُفوراً وكُفراناً إذا نفاه وعطّله، وكفر نعم الله وبنعم الله إذا جحدها وتناساها، وذلك ضد الشكر فعطف الكفر على الطغيان من عطف العام على الخاص، لأن الطغيان الغلو في الكفر.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾؛ أي: أوقعنا بينهم العداوة، والعداوة: الخصومة والمباعدة، والعدو: الخصم، وهو ضد الصديق، وهو من يفرح لحزنك ويحزن لفرحك، ويقال: عدا عليه يعدو من باب دعا، عَدْواً وعُدْواناً وعداوة إذا ظلمه، والبغضاء وكذا البَغاضةُ البُغْضُ الشديد، والبغض ضد الحب. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ والحرب ضد السلم فهي تصدق بالإخلال بالأمن والسلب والنهب، ولو بغير قتل وبتهييج الفتن والإغراء بالقتل، والكثير من الحرب التأنيث. وفي «المختار» الحرب مؤنثة وقد تذكر ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾ يقال: أقام الشيء إقامة وقامة إذا أدامه، وأقام بالمكان دام فيه واتخذه وطناً، وأقام الحق إذا أظهره، وإقامة التوراة العمل بما فيها على أتم الوجوه، سواء في ذلك عمل النفس بالإيمان والإذعان، وعمل الجوارح والقوى البدنية ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ أي: لوسع الله عليهم موارد الرزق.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾: والمقتصدة المعتدلة في أمر الدين، فلا تغلوا بالإفراط، ولا تهملوا بالتقصيير. وفي «الفتوحات» قوله: مقتصدة؛ أي: عادلة لا غالية ولا مقصرة، فالاقتصاد في الشيء هو الاعتدال فيه، وقوله: ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ اسم فاعل من اقتصد الخماسي، يقال: اقتصد في الأمر ضد أفرط، وفي النفقة توسط بين الإفراط والتقتير، واقتصد في أمره استقام ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يقال: أسى يأسى أساً من باب رضي يرضى إذا حزن، فهو آس وأسيان، وهي آسية وأسيانة ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ جمع صابىء يقال: صبؤ يصبؤ من باب فعل المضموم، صبأ وصبؤاً إذا خرج عن دين إلى دين آخر، أو تدين بدين الصابئين فهو صابىء، يجمع على صائبين وصابئة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿مَغْلُولَةٌ﴾ لأنه استعار الغل للبخل، فاشتق من الغل بمعنى البخل مغلولة بمعنى بخيلة على طريقة الاستعارة

التصريحية التبعية، لأنها جرت في المشتقات بعد جريانها في المصادر، وفي قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾. لأنه استعار البسط للجود، فاشتق من البسط بمعنى الجود، مبسوطتان بمعنى منفقتان.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾. و﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، لأن اليد لما كانت آلة لكل الأعمال لا سيما لدفع المال وإنفاقه وإمساكه.. أسندوا البخل والجود إليها مجازاً، إسناداً للشيء إلى سببه.

وقال أبو حيان[1]: والذي يظهر أن قولهم ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ استعارة عن إمساك الإحسان الصادر عن المقهور، على الإمساك، ولذلك جاؤوا بلفظ مغلولة، ولا يغل إلا المقهور فجاء قوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء بغل الأيدي، فهم في كل بلد مع كل أمة مقهورون مغلوبون لا يستطيع أحد منهم أن يستطيل ولا أن يستعلي، فهي استعارة عن ذلهم وقهرهم، وأن أيديهم لا تنبسط إلى دفع ضرر ينزل بهم.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿غُلَّتْ﴾ فإنَّه في مقابلة ما تضمنه قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. وليست هذه المقابلة بدعا منهم فقد قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لعائن الله عليهم وعلى سائر الكفرة.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ لأنَّ الإلقاء حقيقة في الأجسام، وفي قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾، استعير فيه إيقاد النار الحسية لاختلاط الحرب، لأنَّ الحرب لا نار لها، وإنَّما شبهت بالنار؛ لأنَّها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها، وفي قوله: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾. لأنَّه استعارة لإلقاء الرعب في قلوبهم.

وقال الجمهور: هو استعارة، وإيقاد النار عبارة عن إظهار الحقد والكيد والمكر بالمؤمنين، والاغتيال والقتال، وإطفاؤها صرف الله عنهم ذلك، وتفرق

---

(١) البحر المحيط.

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل، وبعث فيهم رسلاً، وبين عتوهم وشدة تمردهم وما كان من سوء معاملتهم مع أنبيائهم، وعدد قبائح اليهود ومخازيهم.. شرع يفصل قبائح النصارى ويبطل أقوالهم الفاسدة، وآرائهم الزائفة، ثم ذكر أن المسيح يكذبهم في ذلك فحكى عنه، ثمَّ رد عليهم ما قالوه بلا روية ولا فكر ولا بصيرة حيث قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. ثمَّ توعدهم على مقالة التثليث حيث قال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، الآية. ثم تعجب من إصرارهم

على التثليث بعد ما ظهرت البينات حيث قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾. ثم ذكر أن المسيح رسول كغيره من الرسل حيث قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وأقام الدليل على ذلك، ثم أبطل مقالة النصارى في عيسى عليه السلام بالحجة والدليل حيث قال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لمَّا بين غلوهم وضلالهم وإضلالهم.. ذكر أسباب ذلك، وأرشد إلى ما أخذهم به، ثم بين سبحانه أسباب استمرارهم على العصيان وتعدي الحدود حيث قال: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾. الآية، مناسبتها لما قبلها: أنَّه سبحانه وتعالى لما ذكر لنبيه أحوال أسلافهم.. ذكر له هنا أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم.

التفسير وأوجه القراءة

ولما حكى الله سبحانه وتعالى عن اليهود ما حكاه من نقضهم الميثاق، وقتلهم للأنبياء، وتكذيبهم الرسل، وغير ذلك.. شرع في الإخبار عن كفر النصارى وما هم عليه من فساد الاعتقاد، فقال تعالى: وعزتي وجلالي ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ واعتقدوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ والمسيح هو الله، وهذا قول اليعقوبية والملكانية من النصارى، لأنَّهم يقولون: إنَّ مريم ولدت إلٰهاً، ولأنهم يقولون: إن الإلٰه جلَّ وعلا حلَّ في ذات عيسى واتحد بذات عيسى، فصار عيسى إلٰهاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً: لقد كفروا وضلوا ضلالاً بعيداً؛ إذا هم في إطرائه ومدحه غلوا أشد من غُلُوّ اليهود في الكفر به وتحقيره وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيماً، وقد صارت هذه المقالة أعني مقالة الاتحاد هي المقالة الشائعة عندهم، ومن عدل عنها عد مارقاً من الدين.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عيسى؛ أي: قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، والحال إنَّه قد قال لهم عيسى ابن مريم عند مبعثه إليهم ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾؛ أي: وحّدوه بالعبادة؛ أي: قال لهم ضد ما يقولون، فقد أمرهم بعابدة الله وحده معترفاً بأنَّه ربه وربهم، ودعا بني إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده، ولا يزال هذا الأمر محفوظاً في الأناجيل التي كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه، فدين المسيح مبني على التوحيد المحض، وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله. وفي هذه المقالة تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى، ذلك لأن عيسى عليه السلام لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية والإقرار للهبالربوبية، وأن دلائل الحدوث ظاهرة عليه.

وبعد أن أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إنَّ الشأن والحال ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ ويمت عليه؛ أي: إنَّ كل من يشرك بالله شيئاً من المخلوق من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نحو ذلك، فيجعله نداً له أو متحداً به أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضرر، أو يزعم أنه يقربه إليه زلفى، فيتخذه شفيعاً ليؤثر في إرادته تعالى وعلمه، ويحمله على شيء غير ما سبق به علمه وخصصته إرادته في الأزل ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ أي: فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجب له النار، وحرم عليه دخول الجنة في سابق علمه، وبمقتضى شرعه الذي أوحاه إلى جميع رسله ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾ ومسكنه في الآخرة ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ الهائلة أعاذنا الله تعالى منها؛ أي: فلا مأوى له إلا النار التي هي دار العذاب والذل والهوان.

والظاهر[1]: أن هذه الجملة من كلام المسيح، فهو داخل تحت القول، وفيه أعظم ردع منه عن عبادته، إذ أخبر أنَّه من عبد غير الله منعه دار من أفرده بالعبادة، وجعل مأواه النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ وقيل: هي من كلام الله تعالى مستأنف أخبر بذلك على سبيل الوعيد والتهديد. وفي الحديث الصحيح من حديث عتبان بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال:

(١) البحر المحيط.

لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله». ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بشركهم بالله ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي ناصر ينصرهم ويمنعهم من دخول عذاب الله، ولا شفيع ينقذهم مما يحل بهم. ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ إما من كلام الله تعالى، أخبر أنهم ظلموا وعدلوا عن الحق في أمر عيسى، وتقولهم عليه فلا ناصر لهم على ذلك، وإمَّا من كلام عيسى. والظاهر[1] أنه من كلام عيسى، أخبرهم أنَّه من تجاوز الحد، ووضع الشيء في غير موضعه: فلا ناصر له ولا مساعد فيما افترى وتقول، وفي ذلك ردع لهم عما انتحلوه في حقه من دعوى أنَّه إله وأنه ظلم، إذ جعلوا ما هو مستحيل في العقل واجباً وقوعه، أو فلا ناصر له ولا منجي له من عذاب الله تعالى في الآخرة، ذكره أبو حيان. وصيغة الجمع في قوله: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ للإشعار بأنَّ نصرة الواحد غير محتاج إلى التعرض لنفيه لشدة ظهوره، وإنما ينفى بالتعرض لنفي نصرة الجمع، والمراد بالظالمين هنا المشركون، بقرينة ما قبله، إذ الظالمون من المسلمين لهم ناصر وهو النبي ﷺ لشفاعته لهم يوم القيامة. انتهى «كرخي».

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾؛ أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى أحد آلهة ثلاثة، وهذا قول المرقوسية والنسطورية من النصارى. وفي تفسير قولهم هذا طريقان:

أحدهما: وهو قول أكثر المفسرين: أنهم أرادوا بهذه المقالة أن الله تعالى ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، وأن الألوهية مشتركة بينهم، وأن كل واحد منهم إله. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى للمسيح: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾. ففي قوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: حذف تقديره: إن الله أحد آلهة ثلاثة، أو واحد من ثلاثة آلهة، قال الواحدي: ولا يكفر من قال: إن الله ثالث ثلاثة، ولم يرد به أنه ثالث آلهة ثلاثة، لأنه ما من اثنين إلا والله ثالثهما بالعلم، ويدل عليه قوله تعالى في سورة

(١) البحر المحيط.

المجادلة: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...﴾ الآية. وقد قال النبي ﷺ لأبي بكر: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

والطريق الثاني: ما حكاه المتكلمون عن النصارى: أنَّهم يقولون: إنَّ الإِلٰه جوهر واحد مركب من ثلاثة أقانيم ـ أجزاء ـ أب وابن وروح قدس. وهذه الثلاثة إلٰه واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء باللبن واختلاط الماء بالخمر، وزعموا أن الأب إلٰه، والابن إلٰه، والروح إلٰه، والكل إلٰه واحد، وهذا الكلام معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا ترى في الدنيا مقالة أشد فساداً ولا أظهر بطلاناً ولا أقبح لفظاً من مقالة النصارى: الله ثالث ثلاثة، عليهم لعائن الله تعالى، ولا يجوز في العربية في ثالث ثلاثة إلا الإضافة، ولا يجوز النصب، لأنَّك لا تقول ثلثت الثلاثة.

واعلم: أن النصارى أخذت عقيدة التثليث من قدماء الوثنيين، ليست في أصل دينهم، ثم رد الله سبحانه وتعالى عليهم ما قالوه بلا روية ولا فكر ولا بصيرة فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾؛ أي: وما إلٰه في الوجود ﴿إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: إلا إلٰه موصوف بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، يعني: إنَّه ليس في الوجود إلٰه واحد موصوف بالوحدانية ـ لا ثاني له، ولا شريك له، ولا والد له، ولا صاحبة له ـ إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الإلٰه الذي لا تركيب في ذاته ولا في صفاته، فليس ثم تعدد ذوات وأعيان، ولا تعدد أجناس وأنواع، ولا تعدد جزئيات وأجزاء، وهذه الجملة حالية، والمعنى: قالوا تلك المقالة والحال أنه لا إلٰه موجود إلا الله.

ثم توعدهم على هذه المقالة فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟﴾؛ أي: لم ينته النصارى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾؛ أي: عن هذه المقالة الخبيثة، يعني مقالة التثليث، ويتركوه ويعتصموا بعروة التوحيد، ويعتقدوه، وعزتي وجلالي ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) البحر المحيط والخازن.

﴿كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: ليصيبن الذين أقاموا وداموا على هذا القول الخبيث، وعلى هذا الدين الذي ليس بمرضي عذاب وجيع في الآخرة، وإنَّما قال تعالى ﴿مِنْهُمْ﴾ لعلمه السابق أن من النصارى من سيؤمن ويخلص ويترك هذا القول ويعلم أنه فاسق، وإنَّما[1] أظهر في موضع الإضمار لأن الأصل ليمسنهم، تكريراً للشهادة على كفرهم في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ﴾ وتنبيهاً على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلع عنه. وفي الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى، ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها. وقال ابن جرير: والمعنى ليمسن الذين يقولون: المسيح هو الله، والذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة، وكل كافر يسلك سبيلهم عذاب أليم. ثمَّ تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البينات، وقامت عليهم الحجج المبطلة له، والنذر بالعذاب المرتب عليه، وندب سائرهم إلى التوبة من هذه المقالة الخبيثة فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ والاستفهام فيه استفهام تعجيب وتوبيخ، والهمزة داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيسمعون هذه الشهادات المكررة، والتشديدات المقررة، ويثبتون على الكفر، فلا يتوبون ويرجعون إلى توحيد الله وطاعاته، ويستغفرونه عما وقع لهم من تلك العقائد الزائغة، والأقاويل الباطلة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه وتعالى غفور لمن تاب وآمن، رحيم لمن مات على التوبة.

والمعنى[2]: أيسمعون ما ذكر من التفنيد لآرائهم والوعيد عليها، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد، واستغفار الله عما فرط منهم، والحال أن ربهم واسع الرحمة، عظيم المغفرة، يقبل التوبة من عباده، ويغفر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات. ثم ذكر أن المسيح رسول كغيره من الرسل وأقام الدليل على ذلك فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

(١) البيضاوي.

(٢) المراغي.

﴿مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ كلام[1] مستأنف مسوق لتحقيق الحق الذي لا محيد عنه، وبيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه بالإشارة أولاً إلى أشرف ما لهما من نعوت الكمال التي بها صارا من جملة أكمل أفراد الجنس، وآخراً إلى الوصف المشترك بينهما، وبين جميع أفراد البشر، بل أفراد الحيوان استنزالاً لهم بطريق التدريج من رتبة الإصرار على ما تقولوا عليهما، وإرشاداً لهم إلى التوبة والاستغفار؛ أي: هو مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وذهبت وفنيت، فليس بإله، كما أن الرسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا آلهة، وقد أتى عيسى بالمعجزات الدالة على صدقه، كما أن الذين من قبله أتوا بالمعجزات الدالة على صدقهم. أي: ما هو[2] إلا رسول من جنس الرسل الذين مضوا من قبله، جاء بالآيات من الله كما أتوا بأمثالها، فليس بإله كالرسل الخالية قبله، فإنهم لم يكونوا آلهة، فإن كان الله قد أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يد عيسى عليه السلام.. فقد فلق البحر، وأحيا العصا، وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام، وهو أعجب منه، وإن كان الله خلقه من غير أب.. فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب منه.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: وما أمه إلا صديقة؛ أي: تلازم الصدق أو تصدق الأنبياء وتبالغ في بعدها عن المعاصي، وفي إقامة مراسم العبودية، فما هي إلا كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق، ويبالغن في الاتصاف به، فما رتبه عيسى إلا رتبة نبي وما رتبة أمه إلا رتبة صحابي، فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الأنبياء وخواص الناس، فإن أعظم صفات عيسى عليه السلام الرسالة، وأكمل صفات أمه الصديقية، وذلك لا يستلزم لهما الألوهية، أما حقيقتهما النوعية والجنسية.. فهي مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما فهما ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ ويشربان الشراب كسائر أفراد البشر، ليقيما بنيتهما، ويمدا حياتهما، لئلا ينحل بدنهما ويهلكا، وكذلك يعرض لهما ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات من البول والغائط، فلا يمكن أن يكون كل منهما

---

(١) أبو السعود.

إلٰهاً خالقاً، ولا رباً معبوداً، وبالجملة: فإنَّ فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج إلى إقامة دليل عليه. ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه، ويحتقر جنسه، ويرفع بعض المخلوقات المساوية له في الماهية، وبعض المشخصات الممتازة بميزات عرضية، فيجعل نفسه عبداً لها ويسمّيها آلهة أو أرباباً. قال أبو حيان: وهذه[1] الجملة استئناف إخبار عن المسيح وأمه منبهة كما ذكرنا على سمات الحدوث، وأنهما مشاركان للناس في ذلك ولا موضع لهذه الجملة من الإعراب.

وبعد أن بين حالهما بياناً لا يحوم حوله شائبة من الريب.. تعجب من حال من يدعى لهما الربوبية، ولا يرعوي عن غيه وضلاله، ولا يتأمل فيما هو عليه من أفن - ضعيف - الرأي والخطأ فقال: ﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد متعجباً أو أيها السامع نظرة عقل أو فكر ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ﴾؛ أي: كيف نبين لهؤلاء النصارى (الآيات)؛ أي: الدلائل والبراهين البالغة أقصى الغايات في الوضوح على بطلان ما يدعون في أمر المسيح وأمه ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: أي: ثمَّ أنظر بعد النظر الأول كيف يصرفون عن تلك الآيات، ويعرضون عنها، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها، ومن مباديها إلى غاياتها، فكأنهم فقدوا عقولهم، وصارت أفئدتهم هواءاً؛ أي: كيف يصرفون عن استماع الآيات وعن التأمل فيها، فالله بين لهم الآيات بياناً عجباً، وإعراضهم عنها أعجب منها. والاستفهام في الموضعين للتعجب، وفي تكرير[2] الأمر بقوله: ﴿ٱنظُرْ﴾، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾. دلالة على الاهتمام بالنظر، وأيضاً فقد اختلف متعلق النظرين، فإن الأول أمر بالنظر في كيفية إيضاح الله تعالى لهم الآيات وبياناها بحيث إنَّه لا شك فيها ولا ريب، والأمر الثاني بالنظر في كونهم صرفوا عن تدبرها والإيمان بها، أو بكونهم قلبوا عما أريد بهم.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى التراخي في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾؟

قلت: معناه ما بين التعجبين، يعني أنَّه من باب التراخي في الترتب؛ لا في الأزمنة ونحوها. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أمر له ﷺ بإلزامهم وتبكيتهم بعد

---

(١) المراح. (٢) البحر المحيط.

تعجبه من أحوالهم؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء النصارى وأمثالهم، ممن عبدوا غير الله تعالى: أتعبدون من دون الله؛ أي: متجاوزين عبادته وحده ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ تخشونه أن يعاقبكم به إذا أنتم تركتم؛ أي: ما لا يقدر أن يضركم إن تركتم عبادته ﴿وَلَا﴾ يملك لكم ﴿نَفْعًا﴾ ترجون أن يجازيكم به إذا عبدتموه؛ أي: وما لا يقدر أنْ ينفعكم إنْ عبدتموه، وهو عيسى عليه السلام، يعني[1]: لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أنْ ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به، من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، فإنَّ الضار والنافع هو الله تعالى، لا من تعبدون من دونه، ومن لا يقدر على النفع والضر لا يكون إلٰهاً، وما[2] يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى، فكأنه لا يملك منه شيئاً. وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية، حيث جعله لا يستطيع ضراً ولا نفعاً، وصفة الرب أن يكون قادراً على كل شيء، لا يخرج مقدور عن قدرته، وفي هذا إيماء[3] إلى دحض مقالتهم بالحجة والدليل، فإن اليهود - وقد كانوا يعادون المسيح ويقصدونه بالسوء - لم يقدر على الإضرار بهم، وأنصاره وصحابته مع شديد محبتهم له لم يستطع إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الضر والنفع كيف يعقل أن يكون إلٰهاً؟. وإنَّما قال: (ما)، ولم يقل: (من) نظراً إلى ما هو عليه في ذاته من النوع الإنساني، توطئة لنفي القدرة عنه رأساً، وتنبيهاً على أنَّه من هذا الجنس، ومن كان له حقيقة يقبل المجانسة والمشاركة فبمعزِل عن الألوهية. وقيل: عبر بـ(ما) تنبيهاً على أول أحواله، إذ مرت عليه أزمان حالة الحمل لا يوصف بالعقل فيها، ومن هذه صفته فكيف يكون إلٰهاً. وإنَّما قدم الضر.. لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم وكفركم ومقالتكم في عيسى ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائركم وعقيدتكم في عيسى فيجازيكم عليها، ولا يخفى ما في هذه الجملة من التهديد، وهي[4] متعلقة بـ﴿أتعبدون﴾؛ أي: أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولونه، ويعلم ما تعتقدونه.

---

(١) الفتوحات.
(٢) الخازن.
(٣) النسفي.
(٤) المراغي.

ولما كان قول النصارى في المسيح من أشد أنواع الغلو في الدين بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب أن يكون لهم من التعظيم، وكان إيذاء اليهود له وسعيهم في قتله من الغلو في الجمود على تقاليد الدين التي ابتدعوها، واتباع أهوائهم بلا علم، وكان هذا الغلو هو الذي دعاهم إلى قتل زكريا ويحيى.. قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب المعاصرين لك ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: يا معشر اليهود والنصارى ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾؛ أي: لا تخرجوا عن الحد في عيسى غلواً ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: خروجاً باطلاً غير الحق بالإفراط والتفريط فيه، ولا تجاوزوا عن الحد اللائق به، وهو كونه عبد الله ورسوله، فالغلو مجاوزة الحد بالإفراط أو التفريط في الحق، وذلك أن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، فمجاوزة الحد والتقصير مذمومان في الدين، فإنَّ الغلو في الدين نوعان: غلو حق: وهو أن يجتهد في تحصيل حججه وتقريرها، كما يفعله الأصوليون والمتكلمون أهل العدل والتوحيد، وغلو باطل: وهو أن يتكلف في تقرير الشبه، ويتجاوز الحق، ويعرض عن الأدلة، وذلك يكون بالإفراط أو التفريط، فغلو النصارى بالإفراط في رفع عيسى وتعظيمه، فقالوا: إنه إلٰه، وغلو اليهود بالتقصير في حقه والمبالغة في حطه، فقالوا: إنه ابن زنا، وإنه كذاب، وكلا الغلوين مذموم.

أي: قل لهم يا محمد: يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا في دينكم واعتقادكم في عيسى عليه السلام الحد الذي حده الله فيه، ولا تخرجوه عن القدر الذي أعطاه الله إياه، وهو كونه عبد الله ورسوله تجاوزاً باطلاً غير الحق بالإفراط والتفريط فيه ﴿و﴾ قل يا محمد أيضاً لليهود والنصارى المعاصرين لك ﴿لا تتبعوا أهواء قوم﴾؛ أي: لا تقتفوا مذاهب قوم من رؤساء أسلافكم ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ عن التوراة والإنجيل ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلكم، أو من قبل مبعث محمد ﷺ، يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا عن شريعتهم قبل مبعث محمد ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من سفلتهم الذين تابعوهم على بدعهم وضلالهم ﴿وَضَلُّوا۟﴾ بعد مبعث محمد ﷺ ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن قصد الطريق قويمه الذي هو الإسلام حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه، فالمراد بالضلال الأول ضلالهم عن التوراة والإنجيل، وبالثاني: ضلالهم عن القرآن. قال القرطبي: وتكرير ضلوا

للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل، وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذي سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى انتهى. والخلاصة[١]: أن الله سبحانه وتعالى نهى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل عن الغلو الذي كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم، وعن التقليد الذي كان سبب ضلالهم، إذ هم قد اتبعوا أهوائهم، وتركوا سنن الرسل والنبيين والصالحين من قبلهم، لأن كل أولئك كانوا موحدين، وكانوا ينكرون الشرك والغلو في الدين، فعقيدة التثليث وتلك الشعائر الكنسية مستحدثة من بعدهم، كشرع عبادات لم يأذن بها الله، وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات، بل حرمها القسيسون والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم مبالغة في التنسك والزهد، أو رياء وسمعة، وجعلوا الأنبياء والصالحين أرباباً ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الأسباب والمسببات الكسبية، ولذا جعلوهم آلهةً يعبدون من دون الله أو مع الله.

كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيراً ممن اتبعهم فيه، وسيكون سبب شقائهم وعذابهم في الآخرة إنْ لم يرجعوا عنه، وينيبوا إلى الله منه. وبعد أن بين الله ضلالهم وإضلالهم ذكر أسباب ذلك وأرشد إلى ما أخذهم به فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: لعن الله تعالى اليهود في الزبور والنصارى في الإنجيل ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بأن دعوا عليهم، فاليهود[٢] لعنوا على لسان داود، والنصارى لعنوا على لسان عيسى، والفريقان من بني إسرائيل، وهم أصحاب السبت وأصحاب المائدة. أمَّا أصحاب السبت فهم قوم داود، وذلك أن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت بأخذ الحيتان.. دعا عليهم داود عليه السلام وقال: اللهم العنهم واجعلهم آية، فمسخهم الله قردة. أما أصحاب المائدة، فإنَّهم لما أكلوا من المائدة وادخروا، ولم يؤمنوا.. قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كفر بعدما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فمسخوا خنازير وكانوا خمسة آلاف ليس فيهم امرأة ولا صبي، وستأتي قصتهم إن شاء الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ اللعن

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

الفظيع ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله تعالى وبسبب اعتدائهم، ومجاوزتهم الحد وتماديهم في العصيان ومبالغتهم فيه. ثم فسر الاعتداء والمعصية فقال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾؛ أي: كان بنوا إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾؛ أي: أرادوا فعله، وقيل: معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، ولا عن الإصرار عليه، والمعنى[1] أي: كانوا لا يمتنعون عن معاودة منكر فعلوه، ولا يتركونه، ولا يصدر من بعضهم نهي لبعض عن منكر أرادوا فعله. روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «من رضي عمل قوم.. فهو منهم، ومن كثر سواد قوم.. فهو منهم». وفي أبي السعود: وليس[2] المراد بالتناهي أن ينهى كل واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر، كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل، بل المراد مجرد صدور النهي من أشخاص متعددة، من غير اعتبار أنْ يكون كل واحد منهم ناهياً ومنهياً، كما في تراؤوا الهلال. انتهى. وعزتي وجلالي ﴿لَبِئْسَ﴾ وقبح ﴿مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ـه من ارتكاب المعاصي والعدوان، والمخصوص بالذم فعلهم هذا، وهو الإصرار على منكر فعلوه وترك النهي عنه.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أن كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾ ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه ـ لتعطفنه وتردنه ـ على الحق أطراً ـ عطفاً ورداً ـ ولتقسرنه على الحق قسرا». زاد في رواية: «أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم». أخرجه أبو داود. والقسر: القهر والإجبار. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية،

---

(١) المراح. (٢) المراح.

وأجل الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكاً لفاعل المعصية، ومستحقاً لغضب الله وانتقامه، كما وقع لأهل السبت، فإن الله سبحانه وتعالى مسخ من لم يشاركهم في الفعل، ولكن ترك الإنكار عليهم، كما مسخ المعتدين، فصاروا جميعاً قردة وخنازير. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾. أخرجه الترمذي عنه فقال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وآكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ـ وجلس رسول الله ﷺ ـ وكان متكئاً فقال: ـ لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً». قال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب. قوله: أكيله وشريبه وقعيده هو المؤاكل والمشارب والمقاعد، فعيل بمعنى فاعل. وقوله: لتأطرنه، الإطراء: العطف، يعني لتعطفنه ولتردنه إلى الحق الذي خالفه، والقسر: القهر على الشيء. كما مرّ آنفاً.

وأخرج الخطيب من طريق أبي سلمة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده ليخرجن ناسٌ من أمتي من قبورهم في صورة القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصي وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون».

والآثار في هذا الباب كثيرة، وفيها وعيد عظيم على ترك التناهي ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وإلى متى نعرض عن أوامر ديننا ولا نرعوي عن غيّنا، ولا نتبع أوامر شرعنا. وبعد أن ذكر الله تعالى لنبيه أحوال أسلافهم، ذكر له أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم فقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: تبصر يا محمد كثيراً من أهل الكتاب، ككعب بن الأشرف وأصحابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: يوالون ويصادقون كفار أهل مكة، أبا سفيان وأصحابه، بغضاً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين؛ أي: فإن كعباً وأضرابه خرجوا إلى مشركي مكة ليتفقوا على محاربة النبي ﷺ.

والمعنى: ترى أيها الرسول الكريم كثيراً من بني إسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركي قومك، ويحالفونهم عليك ويحرضونهم على قتالك، وأنت

تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه، وتشهد لهم بصدق الرسالة، وأولئك المشركون لا يؤمنون بكتاب ولا رسول، ولا يعبدون إلٰهاً واحداً، ولولا اتباع الهوى وتزيين الشيطان لهم أعمالهم.. ما فعلوا ذلك، ولا خطر هذا بخاطرهم، وما استحبوا العمى على الهدى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وقد روي أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على الرسول ﷺ، ولكن لم يتم لهم ما أرادوا إذ لم يلبوا لهم دعوة، ولا استجابوا لهم كلمة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لبئس وقبح العمل الذي قدمته أنفسهم الخبيثة زاداً لآخرتهم من موالاتهم لعبدة الأوثان، والمخصوص بالذم ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ﴾ وغضب ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: موجب سخط الله عليهم، وهو العمل الذي هو موالاة عبدة الأوثان ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: وخلودهم أبد الآبدين في عذاب جهنم، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها، فهي من جملة المخصوص بالذم، فالتقدير: سخط الله عليهم وخلودهم في العذاب. والمعنى؛ أي: بئس شيئاً قدموه لأنفسهم في آخرتهم الأعمال التي أوجبت سخط الله وعظيم غضبه، وسيجزون بها شر الجزاء، إذ سيحيط بهم العذاب ولا يجدون عنه مصرفاً ويخلدون في النار أبداً، فالنجاة منه إنَّما تكون برضا الله عن عبده، وهم لم يعملوا إلا ما يوجب سخطه، وشديد غضبه.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾؛ أي: ولو كان أهل الكتاب الذين يوالون المشركين ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾؛ أي: نبيهم الذي أرسل إليهم وهو موسى عليه السلام ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من التوراة كما يدعون ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾؛ أي: ما اتخذ اليهود المشركين عبدة الأوثان ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وأصدقاء؛ لأن تحريم اتخاذ المشركين أولياء متأكد في التوراة في شرع موسى عليه السلام، فلما فعلوا ذلك.. ظهر أنه ليس مرادهم تقرير دين موسى واتباعه، بل مرادهم الرياسة والجاه، فيسعون في تحصيلها بأي طريق قدروا عليها. قال أبو السعود: وبيان الملازمة أن الإيمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعاً. والمعنى؛ أي ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون

إنَّه من تمام كلام عيسى أو مستأنفة.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾.

﴿لَّقَدْ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَفَرَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب لقسم محذوف لا محل لها من الإعراب. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ مقول محكي لـ﴿قَالُوٓاْ﴾ وإنْ شئت قلت ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿ٱللَّهَ﴾ اسمها. ﴿ثَالِثُ﴾: خبرها. ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾. ﴿وَمَآ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً تقديره: وما إلٰه كائن للخلق. ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء. ﴿إِلَٰهٞ﴾ بدل من ﴿إِلَٰهٍ﴾ تابع لمحله. ﴿وَٰحِدٞ﴾: صفة لـ﴿إِلَٰهٞ﴾. وأجاز الكسائي اتباعه على اللفظ بالجر في غير القرآن، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِن﴾ (الواو): استئنافية. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَنتَهُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَنتَهُواْ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: عما يقولونه ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ (اللام): موطئة لقسم محذوف. ﴿يمسن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد ضمير الفاعل ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور في موضع الحال إمَّا ﴿من الذين﴾ أو من ضمير الفاعل في ﴿كَفَرُواْ﴾ وجرى الزمخشري على أنها بيانية. ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة لـ﴿عذاب﴾ والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، والقدير: والله إن لم ينتهوا ليمسن الذين كفروا يمسهم عذاب أليم، وجاء هذا على القاعدة المقررة عندهم، وهي: إنَّه إذا اجتمع

شرط وقسم. . أجيب سابقهما ما لم يسبقهما ذو خبر، وقد يجاب الشرط مطلقاً كما قال ابن مالك في «الخلاصة»:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ
وِإنْ تَوَالَيَا وَقَبْلُ ذُوْ خَبَرْ فَالشَّرْطَ رَجِّحْ مُطْلَقاً بِلاَ حَذَرْ
وَرُبَّمَا رُجِّحَ بَعْدَ قَسَمِ شَرْطٌ بِلاَ ذِيْ خَبَرٍ مُقَدَّمِ

فإن قلت: السابق هنا الشرط، والقسم مقدر فيمكن تقديره متأخراً.

قلت: إنَّه لو قصد تأخر القسم في التقدير لأجيب الشرط، فلما أجيب القسم. . علم أنَّه مقدر التقديم.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾: (الهمزة): للاستفهام التوبيخي داخلة على محذوف تقديره: ألا ينتهون عن تلك العقائد الباطلة. (والفاء): عاطفة على ذلك المحذوف. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَتُوبُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بالنون، والجملة المحذوفة مع ما عطف عليها جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتُوبُونَ﴾. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿وَٱللَّهُ﴾: (الواو): واو الحال. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول. ﴿رَّحِيمٌ﴾: خبر ثان، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿يستغفرونه﴾.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱبْنُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿رَسُولٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لتحقيق الحق الذي لا محيد عنه، وبيان حقيقة حاله عليه السلام وحال أمه. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿خَلَتْ﴾: فعل ماض. ﴿مِن قَبْلِهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿خَلَتْ﴾. ﴿ٱلرُّسُلُ﴾: فاعل، والجملة في محل الرفع صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾، ولكنها سببية. ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾: مبتدأ وخبر،

والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿كَانَا﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَا﴾ تقديره: كانا آكلين الطعام، وجملة كان من اسمها وخبرها مستأنفة لا محل لها من الإعراب كما قاله أبو البقاء.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ٱنظُرْ﴾ فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد أو على أي مخاطب، والجملة مستأنفة ﴿كَيْفَ﴾ للاستفهام التعجبي في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ﴿نُبَيِّنُ﴾، ولا يجوز أن يكون معمولاً لما قبله؛ لأنَّ له صدر الكلام ﴿نُبَيِّنُ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلق به ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ مفعول به، وهذه الجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول لـ﴿ٱنظُرْ﴾، و﴿كَيْفَ﴾ معلقة له عن العمل في لفظه. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿ٱنظُرْ﴾: فعل وفاعله ضمير يعود على محمد، والجملة معطوفة على جملة ﴿ٱنظُرْ﴾ الأولى، ورتب بينهما بـ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي ما بين العجبين، وكأنه(١) أثبت العجب من توضيح الآيات، وتبيينها ثم ينظر إلى حال من بينت له، فيرى إعراضهم عن الآيات أعجب من توضيحها؛ لأنَّه يلزم من تبيينها تبينها لهم، والرجوع إليها، فكونهم أفكوا عنها أعجب. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام بمعنى كيف في محل النصب على التشبيه بالمفعول به، والعامل فيه ما بعده. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مفعول به لـ﴿ٱنظُرْ﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي، وإن شئت قلت: (الهمزة): للاستفهام

(١) أبو السعود.

التوبيخي. ﴿تعبدون﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تعبدون﴾. ﴿مَا﴾: موصولة أو موصوفة في محل النصب مفعول به. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَمْلِكُ﴾: فعل مضارع وفاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمْلِكُ﴾. ﴿ضَرًّا﴾ مفعول ﴿يَمْلِكُ﴾ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾: معطوف على ﴿ضَرًّا﴾ وجملة ﴿يَمْلِكُ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، والعائد ضمير الفاعل. ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ. ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل أو بدل من المبتدأ. ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: خبر أول. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾ أو في[1] محل النصب على الحال من فاعل ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أتعبدون غير الله، والحال أن الله هو المستحق للعبادة لأنَّه يسمع كل شيء ويعلمه، وإليه يشير كلام الزمخشري؛ فإنَّه قال: والله هو السميع العليم متعلق بـ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذي يسمع ما تقولون وما تعتقدون، أتعبدون العاجز وهو السميع العليم؟ انتهى. والرابط بين الحال وصاحبها الواو، ومجيء هاتين الصفتين بعد هذا الكلام في غاية المناسبة؟ فإنَّ السميع يسمع ما يشتكى إليه من الضر وطلب النفع، ويعلم مواقعهما كيف يكونان.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعله ضمير يعود على محمد والجملة مستأنفة. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى آخر الآية مقول محكي لـ﴿قُلْ﴾ وإن شئت قلت ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أهل الكتاب﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تَغْلُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿فِى دِينِكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَغْلُوا۟﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول على كونها جواب النداء ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر

---

(١) البحر المحيط.

محذوف؛ أي: غلوا غير الحق؛ لأنَّ غلا من الأفعال اللازمة. ويجوز[1] أن يكون حالاً من ضمير الفاعل؛ أي: لا تغلوا مجاوزين الحق، قاله أبو البقاء ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا تَغْلُواْ﴾. ﴿أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ فعل وفاعل والجملة في محل الجر صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾ ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿قَبْلُ﴾: ظرف زمان في محل الجر بـ﴿مِن﴾ لشبهة بالحرف شبهاً افتقارياً، لافتقاره إلى المضاف إليه المحذوف تقديره: قبل مبعث محمد ﷺ، والجار والمجرور متعلق بـ﴿ضَلُّواْ﴾. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ فعل وفاعل ومفعول، والجملة معطوفة على جملة ﴿ضَلُّواْ﴾ على كونها صفة لـ﴿قَوْمٍ﴾ وكذلك جملة قوله: ﴿وَضَلُّواْ﴾ معطوف على جملة ضلوا ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بضلوا الأخير، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: عن السبيل السوي.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ونائب فاعل والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول. ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أو من ضمير الفاعل في ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿لُعِنَ﴾. ﴿وَعِيسَى﴾ معطوف على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: صفة لـ﴿عيسى﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿بِمَا﴾: (الباء): حرف جر وسبب. و﴿ما﴾: مصدرية. ﴿عَصَواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة (ما) المصدرية. ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بالباء تقديره: بعصيانهم، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ تقديره: ذلك اللعن المذكور كائن بسبب عصيانهم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَكَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْتَدُونَ﴾: في محل النصب خبر كان

---

(١) الفتوحات.

تقديره: وكانوا معتدين، وجملة ﴿كان﴾: معطوفة على جملة ﴿عَصَواْ﴾: على كونها صلة ﴿ما﴾: المصدرية، والتقدير: ذلك كائن بسبب عصيانهم وكونهم معتدين، وقيل: جملة كانوا مستأنفة كما يدل عليه ما بعده.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾.

﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر كان، وجملة كان مستأنفة. ﴿عَن مُّنكَرٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَنَاهَوْنَ﴾. ﴿فَعَلُوهُۚ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر صفة لـ﴿مُّنكَرٍ﴾. ﴿لَبِئْسَ﴾ (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: موصولة في محل الرفع فاعل. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ خبر ﴿كَانُواْ﴾ وجملة ﴿كانوا﴾ صلة لما الموصولة، وجملة ﴿بئس﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: فعلهم هذا الذي هو ترك النهي عن المنكر.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على محمد، وهي بصرية تتعدى إلى مفعول واحد. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور صفة ﴿كَثِيرًا﴾ والجملة الفعلية مستأنفة ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ فعل وفاعل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول للجمع المذكر في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ في محل النصب حال من ﴿كَثِيرًا﴾ لتخصصه بالصفة، أو في محل النصب مفعول ثان لـ﴿تَرَىٰ﴾ إن قلنا إنَّها علمية، والأول أنسب ﴿كَفَرُواْۚ﴾ فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿لَبِئْسَ﴾: (اللام): موطئة للقسم. ﴿بئس﴾: فعل ماض من أفعال الذم. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل. ﴿قَدَّمَتْ﴾ فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق به. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: فاعل قدم، وجملة قدم صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما قدمته لهم أنفسهم، وجملة بئس جواب القسم لا محل لها من

الإعراب ﴿أَن﴾ حرف نصب ومصدر ﴿سَخِطَ﴾: فعل ماض في محل النصب بأنْ مبني على الفتح ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿سَخِطَ﴾ وجملة ﴿سَخِطَ﴾ في تأويل مصدر مرفوع خبر لمبتدأ محذوف؛ لأنَّه مخصوص بالذم تقديره: هو سخط الله عليهم ولكنه على حذف مضاف تقديره: لبئس العمل الذي قدمته لهم أنفسهم هو موجب سخط الله عليهم وهو موالاتهم لكفار مكة ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ﴿هُمۡ﴾ مبتدأ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ خبر والجملة من المبتدأ، والخبر معطوفة على جملة ﴿أَن سَخِطَ﴾ على كونها مخصوصاً بالذم والتقدير: والمخصوص بالذم سخط الله عليهم وخلودهم في العذاب.

﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾.

﴿وَلَوۡ﴾: (الواو): استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بالنون. ﴿بِٱللَّهِ﴾: جار ومجرور متعلق به. ﴿وَٱلنَّبِيِّ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿وَمَآ﴾: ما موصولة أو موصوفة في محل الجر، معطوفة على الجلالة أيضاً. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿مَا﴾. ﴿إِلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾ وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ أو صفة لها، وجملة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ من الفعل والفاعل في محل النصب خبر كان، وجملة ﴿كان﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ﴾ ﴿مَا﴾: نافية. ﴿ٱتَّخَذُوهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مفعول ثان وجملة ﴿اتخذ﴾: جواب (لو) لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ مستأنفة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ (الواو): استئنافية. ﴿لكن﴾: حرف نصب. ﴿كَثِيرٗا﴾: اسمها. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿كَثِيرٗا﴾. ﴿فَٰسِقُونَ﴾: خبر ﴿لكن﴾ وجملة ﴿لكن﴾ مستأنفة استدراكية لا محل لها من الإعراب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ المأوى اسم مكان من أوى الرجل البيت، يأوي من باب رمى، إواء ومأوى بالفتح على القياس إذا نزل فيه؛ لأنَّه معتل اللام فقياس

مصدره، وظرفه جميعاً بالفتح.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ والأنصار جمع ناصر، والنسبة إليه أنصاري، والناصر المعين لك على دفع ضد، أو عدوّ ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والمراد بثالث ثلاثة واحد من ثلاثة، ولهذا يضاف إلى ما بعده ولا يجوز فيه التنوين كما قاله الزجاج وغيره، وإنَّما ينون وينصب ما بعده إذا كان ما بعده دونه بمرتبة نحو: ثالث اثنين، ورابع ثلاثة؛ أي: جاعل اثنين ثلاثة، وجاعل ثلاثة أربعةً.

﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقال: مسه الشيطان بنصب أو عذاب يمسه ومسيساً ومسيسي إذا أصابه به، فهو من المضاعف المعدى، فقياسه ضم عين مضارعه، ولكن فتح هنا لأن ما قبل نون التوكيد لا ينون إلا مفتوحاً. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ يقال: خلا الشيء يخلو خلواً وخلاء، إذا مضى، يقال: فعلته لخمس خلون من الشهر؛ أي: مضين. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: وما[1] أمه إلا صادقة فيما تقوله أو مصدقة لما جاء به ولدها من الرسالة، وذلك لا يستلزم الإِلٰهية لها. قال أبو حيان[2]: هذا البناء من أبنية المبالغة، والأظهر أنَّه من الثلاثي المجرد، إذ بناء هذا التركيب منه كسكيت وسكير وشريب وطبيخ، من سكت وسكر وشرب وطبخ، ولا يعمل ما كان مبنياً من الثلاثي المتعدي كما يعمل فعول وفعال ومفعال، فلا يقال: زيد شريب الماء، كما تقول: ضراب زيداً، والمعنى: الإخبار عنها بكثرة الصدق. قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون من التصديق، وبه سمي أبو بكر الصديق، ولم يذكر الزمخشري غير أنه من التصديق، وهذا القول خلاف الظاهر من هذا البناء انتهى.

﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يقال: أفك الرجل يؤفك، إذا ضعف عقله الأفيك والمأفوك عاجز الرأي. قال أبو[3] حيان: الأفك بفتح الهمزة مصدر أفكه يأفكه إذا قلبه وصرفه ومنه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾. ويقال: يؤفك عنه من

---

(١) العكبري.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.
(٤) البحر المحيط.

أفك. قال عروة بن أذينة:

إنْ كُنْتُ عَنْ أَحْسَنِ ٱلْمُرُوْءَةِ مَأْ فُوْكاً فَفِيْ آخَرِيْنَ قَدْ أُفِكُوْا

قال أبو زيد: المأفوك المأفون، وهو الضعيف العقل، وقال أبو عبيدة: رجل مأفوك لا يصيب خيراً، وائتفكت البلدة بأهلها انقلبت، والمؤتفكات مدائن قوم لوط عليه السلام قلبها الله تعالى، والمؤتفكات أيضاً الرياح التي تختلف مهابها. ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ مأخوذ من غلا الرجل في الدين يغلو غلواً، من باب غدا إذا شدد وتصلب فيه حتى جاوز الحد، أصله: لا تغلووا بواوين أولاهما مضمومة وهي لام الكلمة وثانيتهما واو الضمير، استثقلت الضمة على الواو ثم حذفت، فالتقى ساكنان فحذفت واو لام الكلمة فصار لا تغلوا بوزن تفعلوا، فالغلو الإفراط وتجاوز الحد، بالزيادة في الدين أو التفريط فيه بالنقص عنه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ والأهواء[1] جمع هوى، وهو ما تدعو شهوة النفس إليه. قال الشعبي: ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلا وذمه. وقال أبو عبيدة لم نجد الهوى يوضع إلا موضع الشر، لأنه يقال: فلان يهوى الخير، إلا أنه يقال: فلان يحب الخير ويريده. فالأهواء: الآراء التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ السواء في الأصل الوسط، ولكن المراد به هنا الدين الحق، والسواء أيضاً المثل، يقال في المثنى: هما في هذا الأمر سواء، وإن شئت قلت: سواءان، وفي الجمع هم سواء، أو هم أسواء، ويقال أيضاً في الجمع على غير قياس: هم سواس وسواسية وسواسوة؛ أي: متساويان ومستاوون.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ واللعن: الحرمان من لطف الله وعنايته، والمراد باللسان[2] الجارحة لا اللغة كذا قاله الشيخ، يعني: إن الناطق بلعن هؤلاء لسان هذين النبيين وجاء قوله: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ﴾ بالإفراد دون التثنية والجمع، فلم يقل على لساني بالتثنية لقاعدة كلية وهي أن كل جزئين مفردين من صاحبيهما إذا أضيفا إلى كليهما من غير تفريق.. جاز

---

(١) الخازن. (٢) الفتوحات.

فيهما ثلاثة أوجه لفظ الجمع، وهو المختار، ويليه التثنية عند بعضهم، وعند بعضهم الإفراد مقدم على التثنية، فيقال: قطعت رؤوس الكبشين، وإن شئت قلت: قطعتُ رأسي الكبشين، وإن شئت قلت: رأس الكبشين، ومنه فقد صغت قلوبكما، وفي النفس من كون المراد باللسان الجارحة شيء، ويؤيد ذلك ما مال له الزمخشري، فإنَّه قال: نزل الله لعنهم في الزبور على لسان داود، وفي الإنجيل على لسان عيسى، وقوة هذا تأبى كونه للجارحة، ثم إني رأيت للواحديّ ذَكَر عن المفسرين قولين، ورجح ما قلته. ا هـ. «سمين».

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ أصله عصيوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقبلت ألفاً فالتقى ساكنان، ثم حذفت الألف، فصار عصوا لأنَّه من عصى سيده يعصى من باب رمى عصياً، ومعصية إذا خرج من طاعته، وخالف أمره وعانده فهو عاص. ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ظاهره[1] أن التفاعل بمعنى الاشتراك، أي: لا ينهى بعضهم بعضاً، وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر والتجاهر به، وعدم النهي عنه، والمعصية إذا فعلت وقدرت على العبد.. ينبغي أن يستتر بها وفي الحديث «من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر، فإذا فعلت جهاراً وتواطئوا على عدم الإنكار.. كان ذلك تحريضاً على فعلها»، ومسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها. وقيل: التفاعل هنا بمعنى الافتعال، يقال: انتهى عن الأمر وتناهى عنه إذا كف، والمعنى كانوا لا يمتنعون عن منكر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات أنواعاً من البلاغة والفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾. لأنَّ التحريم هنا مستعمل في المنع مجازاً، لانقطاع التكليف في دار الآخرة. وفيه أيضاً إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة.

ومنها: الإظهار أيضاً في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ

(١) البحر المحيط.

﴿أَنصَارٍ﴾ للتسجيل[1] عليهم بوصف الظلم.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ لتكرير الشهادة عليهم بالكفر، وللإعلام بأنهم كانوا بمكان من الكفر.

ومنها: الإظهار أيضاً في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذ الأصل أن يقال: ليمسنهم أظهره لتكرير الشهادة عليهم بالكفر.

ومنها: الاستفهام التوبيخي في قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ استدعاء لهم إلى التنصل من تلك المقالة الشنعاء بعد أن كرر عليهم الشهادة بالكفر.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾. ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. قال أبو السعود: تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ: ثم لإظهار ما بين العجبين من التفاوت؛ أي: إن بياناً للآيات أمر بديع بالغ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق، وإعراضهم عنها أعجب وأبدع.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

ومنها: التفصيل في النهي في قوله: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿قَوْمٍ﴾ تحقيراً لهم.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾.

ومنها: التعجيب في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فإن فيه تعجيباً من سوء فعلهم مؤكداً ذلك بالقسم.

ومنها: الحذف في عدة مواضع.

---

(١) أبو السعود.

ومنها: الزيادة أيضاً في بعض المواضع كزيادة من في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ﴾. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين(١).

* * *

ولقد أجاد من قال هذا البيت:

وَعَيْنُ ٱلرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ ٱلسُّخْطِ تُبْدِيْ ٱلْمَسَاوِيَا

شعر آخر

أَيُّهَا ٱلْمُبْتَلَىٰ بِكَشْفِ ٱلْعَوْرَاتِ ... فَإِنَّ لَكَ عَوْرَةٌ أَسْوَأُ ٱلْعَوْرَاتِ

لاَ تَنْظُرْ كِتَابَتِيْ بِعَيْنِ ٱلتَّنْقِيْصِ ... فَإِنَّهَا غَالِيَةٌ عَنِ ٱلتَّرْخِيْصِ

---

(١) وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى لي من تفسير الجزء السادس من القرآن الكريم، فالحمد لله على توفيقه والشكر له على تيسيره، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، حمداً يعدل حمد الملائكة المقربين، ويمالىء ما في السمٰوات والأرضين، عدد خلقه، ورضا نفسه وزنة عرشه، ومداد كلماته، وصلاة وسلاماً دائمين متلازمين على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ من مسودة هذا المجلد السابع في الليلة الحادية والعشرين منتصف الليل، من شهر الله المبارك الجمادى الأخيرة، من شهور سنة تسع وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية بحارة الرشد من المسفلة من مكة المكرمة زادها الله تعالى شرفاً، وختم عمرنا فيها ﷺ من لا نبي من بعده سيدنا محمد وآله وصحبه وجنده والحمد لله ربّ العالمين. آمين.

* تمّ بعون الله تعالى المجلد السابع من تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ويليه المجلد الثامن وأوله قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ آية رقم: ٨٢ من آيات سورة المائدة.

الفهرس